بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الخرطوم

كلية الدراسات العليا

كلية الآداب – قسم اللغة العربية

صورة المجتمع العباسيّ في طبقات الشُّعراء لابن المعتز

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللُّغة العربية

إعداد الطالب:

عز الدين أحمد التمر

إشراف البروفسير:

عبد ا محمد أحمد

جمادى الأولى 1428هـ - يونيو 20

المحتويات

إهـــــــــداء

إلى زوجي العزيزة ؛ فقد كان لاهتمامها وتـشجيعها نعـم العون على هذا البحث . وإلى أولادي آمال ، ومحمد ، وإلهـام .

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله جل ثناؤه وعظم سلطانه ، أحمده حمداً يليق بجلال وجهه الكريم ، وأشكره على ما تفضل به وأنعم وأجزل .

وأتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل البروفـسير عبد الله محمد أحمد الذي تحمل عناء الإشراف على هذا البحـث ؛ فكان لإرشاده وتوجيهه أكبر الفضل في إنجاز هذه الدراسة ؛ فجزاه الله عني خير ما يجزي به عباده الـصالحين ، ومتعـه بالـصحة والعافية.

المقدمـــة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين الطيبين.

(أ) أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

اجتمعت عدة أسباب دفعتني لاختيار موضوع "صورة المجتمع العباسي فـى طبقات الشعراء لابن المعتز " ، منها أن الكتاب لم يحظ باهتمام الباحثين وعنـايتهم، ولم ينل الشهرة التي نالتها مثيلاته من كتب التراجم والنقد . كما لم تكن هناك دراسة جادة تناولت مثل هذا الموضوع من قبل ، فضلاً عن أن الكتاب حوى تصويراً جلياً للمجتمع العباسي من مختلف النواحي ، وذلك من خلال ترجمة مؤلفه لمائة واثنـين وثلاثين شاعراً عباسياً ، مشفوعة بطائفـة مـن أخبـارهم وأشـعارهم وصـلاتهم ونوادرهم.

ومما قوى عزمنا وزاد من رغبتنا أن الكتاب من مصنفات العصر العباسـي وهي مصنفات ذات قيمة فنية جليلة ؛ فقد شهدت هذه الفترة ازدهاراً عظيماً لـلأدب والارتقاء بفنونه ، لذا فالكتاب من المصادر المهمة فى التراث الأدبي والنقدي ، وهو لا غنى عنه لمحبي الأدب العربي ودارسيه.

(ب) الدّراسات السابقة:

سبقني من تناول ابن المعتز بالبحث والدراسة من بعض الوجوه ، ومن هـذه الدراسات ما كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فى كتابه "ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان" ، وفيه اهتم بجمع آثار ابن المعتز وبخاصة رسـائله ، وهـي نظرات وآراء لابن المعتز في النقد والأدب والسياسة والاجتماع ، جاءت متفرقة فى بطون الكتب مقتبسة من مؤلفات ابن المعتز وكتبه الضائعة . ويلاحظ أن الـدكتور خفاجي فى تناوله لآثار ابن المعتز قد أهمل كتابه طبقات الشعراء إذ عـرض إليـه باقتضاب شديد.

ومن الدراسات السابقة أيضاً كتاب للدكتور أحمد كمال زكي ، وعنوانه "ابن المعتز العباسي" وفيه حاول التعريف بابن المعتز ، متناولاً أحـداث التـاريخ فـى أسلوب تغلب عليه لغة الحوار القصصي كما يفعل الروائيون ، وهي دراسة لا تخلو من طرافة وإن كان يعوزها التعمق فى آثار الرجل وسبر أغواره.

ومنها كتاب بعنوان "عبد ا بن المعتز شاعراً " للدكتور غـصوب خمـيس محمد غصوب ، وقد عني مؤلف هذا الكتاب عناية كبيرة بشعر ابن المعتز رفـدها بمعالجات موضوعية لفنون شعره ، بيد أن الدكتور غصوب لم يول عصر الشاعر كبير اهتمام يجعل القارئ يقف على طبيعة ذلك العصر وصلة الشاعر به وتأثيره فى فنه.

وأخيراً كتاب "ابن المعتز شعره فى ضوء عصره وحياته وآرائـه النقديـة" لنعيم طوني كساب ، وهو كتاب حاول صاحبه التعريف بابن المعتز ، مـستعرضاً فنونه الشعرية بإيجاز.

وقد أفاد الباحث من هذه الدّراسات ؛ فلأصحابها أعترف بالفضل وأثني الثناء الجميل.

(ج) <u>منهج البحث وخطة الدّراسة</u>:

اعتمد الباحث فى هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي ، وقد قسم البحث إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

تناولت الدراسة فى الفصل الأول : العصر العباسي ، حيث وقف البحث فيه على الحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة العقلية للاهتداء بها فى محاولـة سبر أغوار ابن المعتز ومن ترجم لهم من الشعراء.

وجاء الفصل الثاني عن حياة ابن المعتز ، وقد اشتمل على اسـمه ومولـده ونشأته ، وثقافته وتعليمه ، وآثاره ومؤلفاته ، ثم خلافته ووفاته.

وخصصنا الفصل الثالث للدراسة الوصفية لكتاب "طبقات الشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين" ، وقد تضمنت اسم الكتاب ونسبته إلى ابن المعتز وتـاريخ تأليفه ، وطبعات الكتاب ونسخه ، ومادة الكتاب ، ومنهج المؤلف . وقد مهدنا لمنهج المؤلف بتوطئة عرضنا فيها لاتجاهات النقد الأدبي فى عصر الرجل.

وفى الفصل الرابع درسنا صورة الحياة الاجتماعية والفكرية فى طبقات الشعراء . ففي الحياة الاجتماعية تناولنا ظواهر الخمر واللهو ، والزندقة والزهد ، ثم مظاهر الثراء ومظاهر الفقر ، فالفكاهة والنوادر . وفى الحياة الفكرية بحثنا المذاهب الفكرية والعقائد الدينية التي راجت فى زمان العباسيين كالشيعة ، وأصحاب الكلام ، والخوارج.

أما الفصل الخامس والأخير فخصصناه لدراسة أغراض الشعر وخصائصه الفنية ، وفيه ناقش البحث أهم أغراض الشّعر وهي : الغزل ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والفخر ، بجانب خصائص الشعر الفنية كاللغة والأسلوب ، والصور الشعرية ، والأوزان والقوافي . ثم عرضنا آراء القدماء والمحدثين في ابن المعتز ، ثم انهينا البحث بخاتمة أجملنا فيها أهم النتائج التي خلصت إليها الدّراسة.

(د) <u>مصادر البحث والدّراسة</u>:

لا ريب فى أن أهم مصدر اعتمد عليه البحث هو كتاب "طبقات الشعراء" لابن المعتز ، وقد عثرنا على طبعتين للكتاب ، طبعة دار المعارف الصادرة بمصر فى سنة 1956م بتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، وطبعة دار ومكتبة الهلال التي صدرت فى بيروت سنة 2002م بتقديم وشرح وفهرسة الدكتور صلاح الدين الهواري . وبعد النظر فى الطبعتين تأكد لنا جودة طبعة دار ومكتبة الهلال ؛ لكونها أكثر ضبطاً وأصوب مادة من سابقتها ، فضلاً عن اشتمالها على فهارس حديثة تمكن القاريء من الرجوع إلى مادة الكتاب بسهولة ويسر.

أما المصادر الأخرى فقد تنوعت بتنوع مباحث الدراسة وموضوعاتها ؛ فبعضها مصادر فى التاريخ والتراجم ، وبعضها فى الأدب وتاريخه ، وبعضها فى النقد والبلاغة وأخرى فى موسيقى الشعر وأوزانه . نذكر منها على سبيل المثال : تاريخ الرسل والملوك للطبري ، ومروج الذهب للمسعودي ، والأوراق لأبي بكر الصولي ، والكامل لابن الأثير ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والديارات للشابشتي ، وأسرار - ط - بد القاهر الجرجاني . ومن المراجع الحديثة : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد ا الطيب ، وحياة

الشعر فى الكوفة للدكتور يوسف خليف . والبلاغة تطور وتاريخ للـدكتور شـوقي ضيف ، وضحى الإسلام لأحمد أمين ، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه أحمـد إبراهيم وغيرها مما أثبته الباحث فى قائمة المصادر والمراجع.

وبعد فلا ادعي أنني قد بلغت الكمال فى هذه الدراسة ؛ فإن أصـبت فـذلك الفضل والتوفيق من ا عز وجل ، وإن زللت وتعثرت عن إدراك الغاية ؛ فحسبي إنني قد سعيت فى إبراز صورة مجتمع بني العباس كما رسمها سليلهم عبد ا بـن المعتز ، هذا المجتمع الذي أسهم بنصيب كبير فى إرساء دعائم الفن الأدبي، والفكر الإنساني ، وقصدت خدمة الأدب العربي وتراثه النقدي .

وا أسأل أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه ؛ فهو نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأوَّل

العصر العبَّاسيّ (132هـ - 334هـ)

المبحث الأول : الحياة السياسيـة

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث : الحياة العقليـ ـة

الفصل الأول

العصر العباسي (132هـ - 334هـ)

ترجم ابن المعتز في كتابه "طبقات الشعراء" لشعراء عاشوا في العصرين العباسي الأول ، والعباسي الثاني ، وإذا عرفنا أن مؤلف الكتاب نفسه قد عاش في العصر العباسي الثاني – على ما سنرى – يجدر بنا أن نتناول بالبحث والدراسة العصر العباسي بقسميه من النواحي السياسية والاجتماعية والعقلية . ذلك ؛ لأن الإنسان ابن بيئته فهو متأثر بها كل التأثر ، منفعل بها كل الانفعال.

<u>المبحث الأول : الحياة السياسية</u>

(أ) <u>العصر العباسي الأول: (132هـ - 232هـ)</u> :

تهيأت عدة عوامل ساعدت على قيام الدولة العباسية ، منها اضطراب الأحوال في أواخر عهد بني أمية بسبب الظلم وضعف الحكام ؛ ففي عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة في سنة 126هـ ، اضطربت الأحوال وعمت الفتن ، حيث قتل أهل مصر أميرهم حفص بن الوليد الحضرمي وقتل أهل حمص عاملهم عبد ا بن شجرة الكندي ، وأخرج أهل المدينة عاملهم عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وبسبب هذه الأحداث لم تدم خلافة اليزيد أكثر من خمسة أشهر[1].

ومن العوامل التي أسهمت كذلك في أفول نجم بني أمية ، وظهور الخلافة العباسية ، إحساس الموالي من الفرس والترك بأن اعتناقهم الإسلام لم يقدهم إلى مساواتهم بالعرب ، الذين نظروا إليهم نظرة احتقار ؛ فتاقت نفوسهم إلى التخلص من حكم الأمويين ، ومالوا إلى نصرة بني هاشم[2].

---

(1) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، 1960م ، ج2 ، ص 335.

(2) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجيزة ، ط7 ، 1964م، ج2، ص 14.

بدأت الدعوة السّرية لبني العباس من بلدة الحميمة بأرض الشام سنة 100هـ بقيادة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي أخذ يبعث الدعاة والنقباء إلى العراق وخراسان ، ويأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، واستمرت هذه الدعوة سرية إلى سنة 127هـ[3].

وقد انطلقت الدعوة الجهرية للدولة العباسية في سنة 127هـ ، حينما أرسلت الحميمة أبا مسلم الخراساني ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين ؛ فأخذ أبو مسلم يدعو إلى إمام من آل البيت الهاشمي وهو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، بعد أن وجد في شخصه ما يؤهله لهذا الأمر[4].

تولى مروان بن محمد بن مروان الخلافة في سنة 127هـ ؛ فأرسل في طلب إبراهيم بن محمد ؛ فقام على أمر الدعوة أبو سلمة الخلال ، وعندما علم إبراهيم الإمام أن لا نجاة له من مروان ، ولى عهده أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح ، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة والإشراف على سير العمل من هناك[5].

وفي هذه الأثناء لحقت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأُرْغِم على السير إلى واسط ، فجاء أبو سلمة الخلال ، ونزل بمدينة الكوفة في أوائل سنة 132هـ دون أن يلقى مقاومة تذكر ، وفي أواخر سنة 132هـ خفق العلم الأسود شعار العباسيين على حصون دمشق إيذاناً بزوال دولة بني أمية ، وقيام دولة العباسيين[6].

اعتلى أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم (132هـ - 136هـ) عرش الخلافة العباسية ، وكان أول ما فعله التخلص من أصحاب النفوذ والسلطان في دولته ؛ فجهز في سنة 132هـ عمه عبد

---

(3) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط3 ، 1958م ، ج3 ، ص 267 وابن كثير ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط2 ، 1990م ، ج9 ، ص 189.

(4) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج2 ، ص341.

(5) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 267 والمصدر السابق ، ص 338.

(6) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج2 ، ص 19.

ا بن علي لقتال مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية ، فَهَزَم مـروان وقَتَلَ نحو ثلاثمائة من أتباعه . وتولى عامر بن إسماعيل الخراساني قتـل مـروان وأخذ رأسه وأُرْسِل إلى السفاح في الكوفة[7].

ونلحظ أن ابن المعتز يشير في كتابه "طبقات الشعراء" إلى أن الشعراء كـان لهم دورهم في تحريض السفاح ضد خصومه من بني أمية ، إذ قدم عليه ذات مـرةٍ سَدّيف بن ميمون[8] الشاعر مهنئاً بالخلافة ، وعند السفاح جماعة من بني أمية بقيادة زعيمهم سليمان بن هشام ؛ فأنشأ سَدّيف يقولُ:

لا يَغُرنْكَ مـا تَـرى مِـنْ رِجَـالٍ ... إن تَحْـتَ الـضلُوعِ داء دويـاً

فَضَعِ السّيْفَ وارْفَـعِ الـسوْطَ حتـى ... لا تَـرَى فَـوْقَ ظَهْرِهَـا أُمَويـا[9]

فأخذ أبو العباس السفاح "يغتاظ ويحنق ويتلاون"[10] ، وأشـار إلـى رجالـه بالقضاء على وفد بني أمية :"فشدخوا رؤوسهم بالأعمدة حتى أتوا على آخرهم"[11].

استطاع المنصور في أيام أخيه السفاح أن يقنع أبا مسلم الخراساني بقتل أبي سلمة الخلال الذي كان يريد صرف الخلافة عن العباسيين في سنة 132هـ[12].

خاف السفاح على ولاية العهد أخوه أبو جعفر عبد ا بن محمد بـن علـي العباس ، الشهير بأبي جعفر المنصور (136هـ - 158هـ) . قال فيه يزيـد بـن

([7]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 260 ، 271 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الـذهب ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ج1 ، ص 183 – 184.

([8]) سَدّيف بن ميمون: كان شاعراً مفلقاً وأديباً بارعاً ، وخطيباً مصقعاً ، وكان سَدّيف مولى لامرأة من خزاعة ، وهو كذلك مولى بني العباس وشاعرهم . ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 32.

([9]) المبرد ، الكامل ، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1997م ، ج4 ، ص 288 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلميـة ، بيروت ، ط2 ، 1985م ، ص 514 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، قدم له وشرحه ووضع فهارسـه د. صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 2002م ، ص 34 وابن عبـد ربـه، العقـد الفريد ، شرح وضبط أحمد أمين وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 ، 1962م ، ص 486.

([10]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 34.

([11]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

([12]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 53 – 54 .

عمر بن هبيرة :"ما رأيتُ رجلاً قط في حرب ، ولا سمعت به في سلم أنكر ولا أمكر ، ولا أشد تغيظاً من المنصور"[13].

ويعد المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، إذ كان العضد الأقوى والساعد الأشد لأخيه السفاح أثناء حياته ، وهو الذي دعم أساس الدولة ، وقوى بنيانها ، وأصل المملكة ، ورتب القواعد[14].

وبنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد في سنة 146هـ وتأنق في بنائها وعمرانها ، واتخذها عاصمة للخلافة العباسية بعد أن كانت عاصمة الأمويين بدمشق ، كما بنى أيضاً مدينة الرصافة وجعل لها ميداناً وبستاناً ، وأجرى إليها الماء[15].

واهتم المنصور بتحصين المدن ؛ فأحاط بغداد والكوفة والبصرة بالأسوار والخنادق[16].

استعان المنصور بالبرامكة من الفرس ؛ فاستعمل خالد البرمكي عاملاً على الموصل ، وجعل ابنه يحيى بن خالد البرمكي عاملاً على اذربيجان[17].

عمل المنصور على القضاء على الثورات التي هددت دولته ؛ فاستغل أبا مسلم الخراساني داعية العباسيين في القضاء على ثورة عمه عبد الله بن علي الذي خرج بحران والشام عام 137هـ ، مدعياً أن السفاح أوصى له بالخلافة من بعده[18].

بيد أن أشد الثورات بأساً على المنصور ، تلك التي أذكى نارها العلويون الذين هم من نسل فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك يرون

([13]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، 1979م ، ج6 ، ص 31.

([14]) د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الخلافة العباسية) ، مكتبة النهضة المصرية ، ط6 ، 1978م ، ج3 ، ص72.

([15]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 103 ، 109.

([16]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص5 والمصدر السابق ، ص 105.

([17]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 16.

([18]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 302 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 62 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 205.

أنهم أحق بالخلافة من بني العباس أبناء العمومة ، ومنها ثورة النفس الزكية : محمد بن عبد ا بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي قتله المنصور بالمدينة[19].

ويروي ابن المعتز أن بعض شعراء الدعوة العباسية كانوا يرون أن الخلافة ينبغي أن تكون في بني العباس، لذا نعوا على آل علي طلبهم الخلافة ، وفي ذلـك يقول مولى لتمام بن العباس بن عبد المطلب راداً على أحد خصومه من العلويين:

جَحَدْتَ بنـي العَبـاسِ حَـق أبِـيهم فَمَا كُنْتَ في الدعْوَى كريمَ العَواقِـبِ
متَـى كـان أولاد البنَـاتِ كـوارثٍ يَحوز ويدْعَى وَالِداً في المَنَاسِـبِ[20]

وفي ذات المعنى يقول مروان بن أبي حفصة:

أنـى يَكـون وَلـيْسَ ذَاكَ بِكـائِنٍ لِبني البَنَـاتِ وِرَاثَـةُ الأعْمَـامِ؟[21]

حين توفي أبو جعفر المنصور ، تولى الخلافة ابنه المهدي محمد بن عبد ا المنصور (158هـ - 169هـ) . ويخبرنا ابن المعتز أن زَنْد بن الجَون المعروف بأبي دلامة ، كان أول من هنأ المهدي بالخلافة في قصيدة جمع فيهـا بـين رثـاء المنصور ، وتعزية المهدي في والده ، وتهنئته بولاية العرش ، ويذكر في كل بيت المعنيين ، وفي القصيدة نلمح ولع الشعراء العباسيين بالبديع وبخاصة الطباق كمـا سنبين ذلك في موضعه من الدّراسة ، ومنها:

عَيْنَـان : وَاحِـدةٌ تُـرَى مَـسْرورةً بإمَامِهـا جَـذْلى وأُخْـرَى تَـذْرِفُ
تبْكي وتَـضْحَك مَـرةً ، ويَـسوءها مَا أبْـصَرتْ وَيَـسرهَا مـا تَعْـرفُ
فَيَـسوءها مَـوْتُ الخليفَـةِ محْرِمـاً وَيَـسرهَا أنْ قَـامَ هـذا الأرْأفُ[22]

بعث المهدي العباس بن محمد إلى بلاد الروم ؛ فحقق انتصاراتٍ عظيمـة ، وغنم منهم غنائم كثيرة[23]. ومن الأخطار التي واجهت المهدي ثـورات الزنادقـة

([19]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 306 – 307.

([20]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 43-44.

([21]) المصدر السابق ، ص 44.

([22]) أبو دلامة ، الديوان ، شرح وتحقيق د. أميل بديع يعقوب ، دار الجيـل ، بيـروت ، ط1 ، 1994م ، ص 82-83 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 52.

([23]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 129.

الذين تخالف معتقداتهم دين الإسلام ، ومنها ثورة المقنع في سنة 159هـ بخراسان ، وكان رجلاً أعور قصيراً من أهل مرو ادعى الألوهية ، وكان يقول: إن ا خلق آدم : فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح ؛ فأرسل إليه المهدي في سنة 161هـ سعيد الحرشي في جماعة من القواد والعساكر ؛ فأوقعوا بأصحاب المقنع وهزموهم وبعثوا رأسه إلى المهدي بحلب في سنة 163هـ[24].

وفي سنة 160هـ خرج بخراسان أيضاً يوسف بن إبراهيم - المشهور بالبرم – منكراً هو ومن معه على المهدي سيرته التي يسير بها واجتمع معه خلق كثير ؛ فأنفذ إليه يزيد بن مزيد الشيباني ؛ فقضى على ثورته ، وأسره وبعث به إلى المهدي[25].

كان موسى الهادي بن المهدي بن المنصور (169هـ - 170هـ) كما وصفه المسعودي "قاسي القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المراس"[26]، فتك بالعلويين ونكل بالأمويين ، والخوارج ، والزنادقة ، وأخذ أكثرهم على الظنة والريبة[27].

ولعل قسوة موسى الهادي وشراسته جعلت الشعراء يبالغون في مدحه ، ويضفون عليه بعض صفات الألوهية ، يقول سلم الخاسر:

لَقَد جَعَلَ ا ُ في رَاحتَيْكَ حَيَاةَ النفوسِ وآجالَها
وَجَدْنَاكَ في كُتُبِ الأولين محْيي النفوسِ وقَتالها[28]

يعد هارون الرشيد بن المهدي (170هـ -193هـ) أشهر خلفاء بني العباس ، فقد كانت دولته من أحسن الدول ، وأكثرها خيراً ، ووقاراً وهيبة ، وأوسعها رقعة ومملكة[29]. وفي دولة الرشيد حظي البرامكة بمنزلة عالية ؛ فأحبهم وقربهم ،

([24]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 38 ، 51 ، 52 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 248.

([25]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 43.

([26]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 335.

([27]) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج 2 ، ص 404.

([28]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 95.

([29]) د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، ج3 ، ص 145.

واستوزرهم ، يصف ابن الأثير ما حظي به البرامكة من منزلة رفيعـة فـي ظـل الرشيد فيقول :"استوزر الرشيد يحيى بن خالد ، وقال له : قد قلدتك أمر الرعيـة ، فاحكم بما ترى ، واعزل من رأيت ، واستعمل من رأيت ، ودفع له خاتمه"[(30)]. وفي سنة 178هـ "فوض الرشيد أمور دولته كلها إلى يحيى بن خالد البرمكي"[(31)].

ونلحظ أن ابن المعتز يشير إلى نفوذ البرامكة ، وغلبتهم وتأثيرهم في الحياة السياسية في أكثر من موضع في "طبقات الشعراء" . يصف مروان بن أبي حفـصة جعفر بن يحيى وزير الرشيد بأنه لسان حال الخليفة والقائم مقامه ؛ فيقول:

وزيـرٌ إذا نـابَ الخليفـةَ حـادثٌ   أشارَ بما عَنْـه الخَليفـةُ يـصدر[(32)]

نقض الروم العهد الذي أقامه ملكهم سنة 155هـ ، مع أبي جعفر المنصور ، وكان ينص على أن يلتزم الروم بدفع الجزية مقابل الصلح والأمان[(33)]. فرد عليهم الرشيد في سنة 187هـ بخطابه المشهور "بسم ا الرحمن الرحيم . مـن هـارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأتُ خطابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه ، دون أن تسمعه والسلام" وزحف الرشيد بجيشه إلى بلاد الروم ، ففتح وغنم ، وخرب وحرق[(34)].

وقد مدحه عمر بن سلمة بعد أن قدم قافلاً من غزوته بقوله:

قَـــرت عيـــون المـــسْلِمـ   يـــنَ بِمقْـــدَمِ الملـــكِ الرشـــيدِ
قـــرت بـــه عَـــيْن القريـــ   بِ مـــن الرعيـــةِ والبعيـــدِ
بَـــيْنَ المنَـــابر والمَجَـــا   لِـــسِ والمـــدائح والنـــشيدِ[(35)]

([30]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 107.

([31]) المصدر السابق ، ص 145.

([32]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 38.

([33]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص5.

([34]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ط3 ، 1966م ، ج8 ، ص308 وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 185.

([35]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 138.

فابن سلمة يشير إلى أن انتصار الرشيد على الروم ، قـد أفـرح الرعيـة ، وأدخل في النفوس البهجة والسرور ، مما جعل الجميع يهتفون باسم الرشـيد فـي منابرهم ومجالسهم ، ويلهجون بمدحه وإطرائه.

خلف الرشيد ابنه أبو عبد ا محمد الأمين (193هـ - 198م) وفي عهـده ثارت بلاد الشام بقيادة أبو العميطر السفياني وهو علي بن عبد ا بن خالد بن يزيد بن معاوية ، وبايعه أهلها بالخلافة وطرد السفياني عامل الشام الأمير سـليمان بـن المنصور ؛ فبعث الأمين جيشاً لقتاله[36].

قام الخليفة محمد الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وولـى ابنـه موسى الأمين مكانه، بعد أن مزق الكتاب الذي وضعه والـدهما هـارون الرشـيد بالكعبة. ونص فيه على أن يلي الأمين أخوه المأمون[37] وقد أدت هذه الحادثة إلى جفوة بين الأخوين، فنشب بينهما قتال عنيف قضى على أثره أغاب عسكر الأمـين، ونفدت خزائنه وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد، إلى أن انتهى ذلـك بأن قتل المأمون أخاه الأمين في سنة 198هـ وبويع بالخلافة من بعده[38].

أهم ما يميز عصر المأمون بن الرشيد (198هـ-218هـ) عن سابقيه هـو ميله إلى العلويين ، هؤلاء العلويون الذين ما فتئ آباؤه الأوائـل أن سـاموهم كـل صنوف البطش والفتك والتنكيل ، بل كانوا يسعون إلى استئصال شأفتهم ، ومحوهم من الوجود حتى ينقطع نسلهم وينقطع تفكيرهم في الخلافة ، مثلما فعلوا بـالأمويين الذين قضوا على معظمهم ، ولم يسلم من بأسهم إلا القليل كعبد الرحمن الداخل الذي هرب إلى الأندلس ، وأقام الدولة الأندلسية هناك في عام 138هـ.

([36]) اليافعي ، مرآة الجنان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيـروت ، ط1 ، 1997م ، ج1 ، ص 343 – 344.

([37]) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميـد ، مطبعـة الـسعادة ، مـصر ، ط1 ، 1952م ، ص 298 - 299.

([38]) المصدر السابق ، ص 299 ، واليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج 2 ، ص 436 ، 444.

ومما أغرى المأمون بالميل إلى العلويين إفراطه في مذهب التشيع ؛ فاتخـذ الخضرة شعارهم بعد أن كان شعار العباسيين السواد ، وولى عليا الرّضا عهـده ، لكن بموت الرّضا ، عادت الخلافة إلى العباسيين[39].

أثارت تولية المأمون العهد علياً الرّضا – كذلك ومحاولته صرف الخلافة عن بني العباس إلى آل علي – آثارت حفيظة ابن المعتز الذي كان متعصباً لأن تكـون الخلافة في أسرته من العباسيين ، لذا نراه بعد موت الرّضا لا يخفي فرحته بعـودة الخلافة إلى بني العباس ، ويصور عودتها لهم بعودة العاشق إلى وطنه الذي يجـد فيه كل ما يحب ويألف ، يقولُ:

وأعطاكم المـأمون عهـدَ خلافـةٍ ، لنــا حقهــا لكنــه جَــادَ بالــدنيا
فمات الرِّضى من بَعْدِما قد علمـتُم ، ولاذَت بنا من بعـدِهِ مَـرةً أُخْـرى
وعادت إلينا ، مثلمـا عـاد عاشـقٌ إلى وطنٍ ، فيه له كل ما يَهـوَى[40]

ومن المحن والفتن التي ظهرت في عهد المأمون – نتيجـة تقلـده مـذهب الاعتزال – إرغامه الناس على القول بخلق القرآن ، فقد جمع العلماء وناظرهم في ذلك حتى انتهى به الأمر إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي رد بقوله:"القرآن كـلام ا لا أزيد على هذا"[41].

انتقلت الخلافة العباسية إلى أبي إسحاق محمد المعتصم بن هـارون الرشـيد (218هـ - 227هـ) ، فأخذ يستعين بالأتراك ، ويجزل لهم الهبات والعطايا دون سواهم من العرب ، ولما كانت أم المعتصم "ماردة" تركية نشأ المعتصم وفيه ميـل إلى أخواله من الترك ، فطفق يقلدهم ويتطبع بطباعهم ، يقول عنه السيوطي :"هـو

---

(39) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 28 ، والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 307.

(40) ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز ، شرح د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1995م ، ص36.

(41) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 273 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 310.

أول خليفة أدخل الأتراك الديوان"[42]. وكان المعتصم يحب جمع الأتراك وشـراءهم من أيدي مواليهم ؛ فاجتمع له منهم أربعة آلاف [43].

وقد أورد ابن المعتز في ترجمته "لسكن" جارية محمود الوراق قصيدة تشير فيها سكن إلى حيدة المعتصم عن سيرة أجداده العباسيين ، وتنعى عليـه اسـتعانته بالأتراك ، وتقول إن المعتصم تخير من قواد الترك من كان عديم الخلق ، ضخـم الجسم ، قوي البأس ، شاهراً سيفه لقطع رقاب الناس ، مما يبعث على الحزن والألم ، وفي ذلك تقول:

غِراسه كـل عـاتٍ لا خَـلاقَ لـه ... عَبْلِ الذّراعِ شـديد البـأس قِنْعـاسِ
كَبابِـكٍ وأَخِيـهِ إذ سَـمَا لَهمَـا ... ببـاترٍ للـشوَى والجِيـدِ خَـلاسِ
وهكذا لم يَزَلْ فـي الـدهر نعرفـه ... غرس الخلائـفِ مـن أَوْلادِ عبـاسِ
فـي ظـل معتقِـدٍ للـدين معْتَـصم ... بـالحق ، للغلـب غـلابٍ وَفَـراسِ
ودونه عُصَص يَـشْجَى العـدو بهـا ... مثل المبـاركِ أَفْـشِينٍ وأَشْـنَاسِ[44]

وكان من أثر ازدياد عدد الترك في زمن المعتصم أن تـأذى النـاس مـنهم ببغداد ؛ فأثار ذلك حنق العرب وعزموا على الثورة ضد المعتصم وقـواده ، فنقـل عاصمته من بغداد إلى سامرا[45].

ومن المحن التي واجهت المعتصم سنة 219هـ فتنة الهنود المعروفين بالزط ، الذين قطعوا طريق البصرة وعاثوا فيها فساداً ، وأخافوا النـاس وأرعبـوهم[46]

---

(42) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 335.

(43) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 53 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 336.

(44) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 384 - 385 .

العَبلُ: الضخم من كل شيء.

القِنْعاس : الرجلُ الشديد المنيع.

الشوَى : أطراف الجسم.

خَلسَ الشيء خَلْساً : استلبه في نهزةٍ ومخاتلةٍ ، فهو خالسٌ وخلاسٌ ، ورجلٌ خلاس : شجاع حذر . بابك **وأفشين وأشناس** : من قواد الترك .

(45) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 53 - 54 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 335 - 336.

(46) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ، ص 10.

وفرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ثم حالوا دون وصول المؤن والأقوات إلى بغداد فندب المعتصم لقتالهم عجيف بن عنبسة فعسكر بالقرب من واسط وسد الأنهار عليهم ، وأحاط بهم من كل صوب ، وقاتلهم تسعة أشهر ، ثم أرغمهم على طلب الأمان ، وكانت عدتهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وأطفال ، فحملهم عجيف في السفن ، واقتادهم إلى المعتصم بسامرا وذلك في سنة 220هـ[47].

على أن من أهم الأحداث في خلافة المعتصم هي وقعة عمورية في سنة 223هـ ، إذ سير المعتصم لقتال الروم جيشاً لا تنقصه العدة والعتاد ، فحاصر المسلمون عمورية واضطروا قواد الروم للاستسلام ، وتم لهم فتح عمورية ، وعادوا بكثير من الغنائم والأحمال[48].

هذه صورة عامة لنظم الحكم السياسية والإدارية ، في العصر العباسي الأول ، وقد شغل الخلفاء العباسيون في هذه الفترة بتأسيس دولتهم ، ووضع أسسها وأركانها ، وتأمين حدودها ، والتخلص من أعدائهم وخصومهم من بني أمية والعلويين ، كما اتسمت بازدياد نفوذ الفرس ، وغلبتهم على الحياة السياسية وطبعها بطابعهم.

(ب) <u>العصر العباسي الثاني: (232هـ - 334هـ)</u>:

يبدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد (232هـ - 247هـ) . وإذا كان العصر العباسي الأول قد اتسم بقوة الخلافة، وهيبة الدولة، وعظمة الملك، والحزم والعزم، واشتداد نفوذ الفرس، فإن العصر العباسي الثاني قد تميز بضعف الخلفاء ، وزوال هيبة الدولة ، وفساد الحكم ، وسادت شريعة غدر الخلفاء بأبنائهم وإخوانهم ، والأبناء بآبائهم ، كما برز في هذا العصر ازدياد نفوذ الترك الذين سبق أن أشرنا إلى استعمال المعتصم لهم وإكثاره منهم ، وجعلهم مادة جيشه الحربية[49]، ليصبحوا في هذا العصر أصحاب

---

(47) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج2 ، ص 76.

(48) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ، ص 57 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 286 وما بعدها والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 336.

(49) ص 10-11 من هذا البحث .

الغلبة والنفوذ والسلطان ، ويمسكوا بزمام الشؤون الإدارية والعسكرية ، إذ هم الذين حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل ، وتنصيبه خليفة على المسلمين[50] ليصبح فيما بعد عزل الخلفاء وتنصيبهم بأيديهم على نحو ما سنرى.

استهل المتوكل خلافته بنهي الناس عن القول بخلق القرآن هذه المحنة التـي شغلت المأمون والمعتصم والواثق من قبله ، كما أمر بترك النظر والمباحثة والجدال ، وقام بإحياء السنة النبوية الشريفة[51].

عقد المتوكل البيعة من بعده لأبنائه الثلاثة : على أن يكون خليفته الأول ابنه المنتصر ، ومن بعده تفضي الخلافة لابنه المعتز والد عبد ا بن المعتز ، وأخيـراً يتولى الخلافة المستعين[52].

"وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب ، غليظاً على جماعتهم شديد الغيظ والحقد عليهم ، وسوء الظن والتهمة لهم"[53].

فطن المتوكل إلى ازدياد نفوذ الأتراك ، وحاول الحد من سلطانهم بـالتخلص من إيتاخ الذي كان أميراً للجيش والأتراك والمغاربة والموالي والبريـد والحجابـة وكان أيضاً يقوم على دار الخلافة وكأنه نائباً للخليفة[54].

ولما أحس الأتراك بأن المتوكل يسعى لتقليص نفوذهم ، وإضعاف دورهم ، تآمروا على قتله والتخلص منه بالتواطؤ مع ابنه المنتصر ، الذي كان المتوكل قـد خلعه من ولاية العهد ، وولى مكانه ابنه المعتز ، بسبب حب المتوكل الشديد لقبيحة والدة المعتز ، فَقُتِل المتوكل مع وزيره الفتح بن خاقان على أيدي بغلون التركـي ، وباغر وموسى بن بغا وذلك في سنة 247هـ[55]. وبذا يكون المتوكل أول ضـحايا

([50]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1973م ، ص 11-12.

([51]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 86.

([52]) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 175 - 176 والمسعودي، مروج الذهب ، ج4 ، ص 87.

([53]) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتـب العربيـة ، القاهرة ، 1949م ، ص 597.

([54]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 12.

([55]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 227 ، 230 والمسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 129 ، والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 350.

الأتراك من خلفاء بني العباس ، وبمقتله يكون الأتراك "قد استولوا على المملكـة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاؤوا أبقوه ، وإن شاؤوا خلعوه ، وإن شاؤوا قتلوه"[56].

وبعد مقتل المتوكل تولى الخلافة ابنه وقاتله المنتصر (247هـ-248هـ) وقد حض الترك المنتصر على خلع أخويه المعتز والمؤيد خوفاً من أن يثأرا لقتـل والدهما ، ثم ما لبث الأتراك أن تخلصوا من المنتصر ، عندما أحـسوا بانـصرافه عنهم ، وانقلابه عليهم ، فأغروا طبيبه ابـن طيفـور بقتلـه مـسموماً فـي سـنة 248هـ[57].

خاف المنتصر عمه المستعين با بن المعتصم بـن الرشـيد (248هـ-252هـ) ، وعندما شعر الأتراك بأن المستعين تنكر لهم ، خلعوه في سنة 252هـ وبايعوا المعتز بن المتوكل بن المعتصم[58].

وفي عهد المعتز عظم شأن الأتراك ، واشتد تغلغلهم في أمور الدولـة يـدل على ذلك ما رواه الفخري بقوله :"لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم ، انظروا كم يعيش ؟ وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمـره وخلافتـه ! فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك . فلم يبق في المجلس إلا من ضحك"[59]. وأوعز الأتراك إلى المعتز بأن خلافته لن تثبـت إلا إذا قتل عمه المستعين ، ووافقتهم على ذلك قبيحة أم المعتز ، التي خشيت علـى حيـاة ولدها من المستعين ؛ فتولى قتله سعيد بن صالح الخادم[60].

([56]) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص 243.

([57]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 244 ، 252 ، 253.

([58]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج7 ، ص 142.

([59]) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص 243.

([60]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص172 – 173 والطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج9، ص 364.

وكان سبب موت المعتز الذي دامت خلافته زهاء أربع سنوات وستة أشهر ، أن اجتمع عليه الجند من الأتراك يطالبون بأرزاقهم ؛ فطلب من أمه قبيحة أن تعطيه من مالها فرفضت برغم ثرائها وقتذاك[61].

ويصف ابن الأثير طريقة قتل الأتراك المعتز التي تعد شاهداً على ما وصل إليه حال الخلفاء من ضعف واستسلام بقوله :"فدخل إليه جماعـة مـنهم ، فجـروه برجله إلى باب الحجرة ، وضربون بالدبابيس ، وخرقوا قميـصه ، وأقـاموه فـي الشمس في الدار فكان يرفع رجلاً ، ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ... وسلموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الشراب والطعام ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات"[62].

اشتد الخلاف بين فرق الأتراك في عهد المعتمـد علـى ا بـن المتوكـل (256هـ - 279هـ) وطلبوا ألا يرأسهم أحد منهم ، وأن يكـون القائـد الأعلـى للجيش أحد إخوة الخليفة ؛ فولى المعتمد أخاه الموفق إمرة الجيش والولايات ، ثم ما لبث أن أصبح السلطان الفعلي على البلاد للموفق وليس للمعتمد[63].

ومن أهم الأحداث في عهد المعتمد – بل في العصر العباسي الثاني برمته – اشتداد ثورة الزنج التي هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة من (255هـ ـ - 270هـ) وسببها أن رجلاً يدّعى علي بن محمد زعم أنه من نسل الحـسين بـن علي بن أبي طالب[64] وادعى بأنه يوحى إليه وأنه مطلع على الغيـب ، فانتـشرت دعوته بين الزنج الذين كانوا يعملون في المزارع ، وكثر أتباعه من العوام ؛ فدخل

([61]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 388 وابـن كثيـر ، البدايـة والنهايـة ، ج11 ، ص 16 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 360.

([62]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج7 ، ص 195 – 196 والطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 389 – 390 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 360.

([63]) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 367 ود. محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ط1 ، 2004م ، ص 16.

([64]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج7 ، ص 205.

البصرة وبغداد فنازله الموفق في عدة وقعات تمكن خلالها من إخماد ثورته والقضاء عليه[65].

استغل ابن المعتز عداءه المستحكم للعلويين خصوم أسرته ؛ فوصف صاحب الزنج وقائدهم بالفسق والفجور واستباحة الحرائر ، وبيعهن في الأسواق وفي ذلـك يقول:

والعلـــوي قائـــد الفُـــساق وبائِع الأَحْـرَار فـي الأسـواق[66]

يعد عهد المعتضد با بن الموفق بن المتوكل (279هـ - 289هـ) ابن عم عبد ا بن المعتز من أفضل العهود في هذه الفترة ، ففيه سكنت الفتن ، وارتفعـت الحروب ، وسالمه كل مخالف ، وانفتح له الشرق والغرب[67].

وقد سار المعتضد سيرة أبيه فعمل على رفع شأن الخلافة ، واستعادة هيبـة الخلفاء ، والحد من نفوذ الأتراك[68]. مما جعل ابن المعتز يمدحه ويشيد بفضله في استعادة مجد الخلافة العباسية وعزتها بعد أن شابها الذل والهوان ، ويطلب من الذين ينشدون الملك أن يكونوا كالمعتضد قوة ورهبة وحسن تدبير ، يقولُ:

أَمَــا تَــرى ملــكَ بنــي هَاشــم عَـــادَ عَزيـــزاً بَعْـــدَما ذُلّـــلا
يَـــا طَالبـــاً لِلْملْـــكِ كُـــن مِثْلَـــه تَـــسْتَوْجِب الملْـــكَ ، وَإلا فَـــلا[69]

ومنع المعتضد في أول عهده الوراقين من بيـع كتـب الفلاسـفة ، ونهـى القصاص والمنجمين من الجلوس في الطرقات ، وأمر بأن يورث ذوو الأرحـام ، كما أزال سنن المجوس ، وأبطل عاداتهم التي تخالف تعاليم الإسلام[70].

وفي سنة 286هـ ظهرت حركة القرامطة ، وهم قوم زعموا بأنهم يـدعون إلى إمام من أهل بيت الرسول ، وقد جاؤوا بما يخالف تعاليم الإسلام ؛ فكثر أتباعهم

([65]) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 363 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 18 ، 19 ، 43 ، 44.
([66]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 27.
([67]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 232 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 296.
([68]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 47.
([69]) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 369.
([70]) المصدر السابق ، ص 370.

وقويت شوكتهم وفشى أمرهم في الكوفة والبصرة والبحرين[71]. وبرز من قـوادهم ابن عوشب في اليمن حيث نشر الدعوة للمهدي ، وأبو عبد ا الشيعي الذي نـشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب[72].

تولى الخلافة في سنة 289هـ المكتفي با بن المعتضد بن المتوكل ابن عم عبد ا بن المعتز ، وقد وصفه المسعودي بقوله :"كان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه فرد المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية"[73].

وقد اشتد أمر القرامطة في زمن المكتفي ، وقويت شـوكتهم ، ففـي عـام 294هـ قاموا بزعامة زكرويه بن مهرويه بمهاجمة قوافل الحجاج أثناء قدومها من مكة ؛ فنهبوا أموالهم وسلبوا ممتلكاتهم ، وقتلوا منهم زهاء عشرين ألف رجل[74] ، وقد آلم ابن المعتز ما حل بالحجيج فرثاهم بقصيدة أشار فيها إلى ما أُشِيع حوله من تهمة سب الإمام علي وآل البيت ، فنفى عن نفسه هذه التهمة وأكد انتمـاءه للإمـام علي وأهل بيته ، يقول:

رثيـتُ الحجـيجَ فقـال العـداةُ : سـب علياً وآل النبـي

أآكـلُ لَحْمِـي وأَحْـسو دَمِـي ! فيَـا قَـوم للعَجـبِ الأعجـبِ[75]

شهدت هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي التنكيل الشديد بالعلويين ، ذلك الذي لازمهم منذ فجر الدعوة العباسية كما تقدم ، وقد بلغ البطش بهم مبلغاً جعـل أبابكر الصولي الأديب المعروف يستتر بالبصرة ؛ لأنه روى خبراً عن علي كـرم ا وجهه ؛ فطلبته الخاصة والعامة لتقتله[76].

---

(71) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 23 وما بعدها والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 371.

(72) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج3 ، ص17-18.

(73) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 275.

(74) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج10 ، ص 130 ، 132.

(75) ابن المعتز ، الديوان ، ص 76.

(76) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان ، دار قطري بن الفجاءة ، ط1 ، 1985م ، ص 287.

وقد ظل ابن المعتز يتصدى للعلويين ، ويناهض دعواهم ، مبيناً أن الخلافـة حق أراده الله لذوي قرابته من العباسيين إذ هم الذين أنقذوا العلويين وأخذوا بثأرهم من بني أُمية ، بعد أن عجز العلويون عن أخذ ثأرهم بأنفسهم ، وفي ذلك يقول:

أبـى اللهُ إلا مـا تـرونَ فمـالكُم عتاب على الأقـدار يـا آلَ طَالـبِ
تركنـاكُم حِينـاً فَهـلا أخَذْتم تُـراثَ النبـي بالقَنـا والقَواضِـبِ
فلمـا أراقـوا بالـسيوف دِمـاءَكم أَبَيْنَا ، ولم نَمْلِـك حَنِـينَ الأقَـاربِ
وحزْنا التي أعيـتكُم ، قـد علـتم ، فَما ذنْبنا ؟ هَل قاتـلٌ مثـلُ سَـالبِ
عَطيـةُ مَلْـكٍ قَـد حَبَانـا بِفَـضْلِهِ وَقـدره ربُ جَزيـلُ المَوَاهِـبِ[77]

بويع المقتدر بن المعتضد بالخلافة في سنة 295هـ ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ثم خُلع وولي مكانه ابن المعتز[78]، فلم تدم خلافته طويلاً ، وقد كانت سـبباً في موته ، فآلت مرة أخرى للمقتدر ، وسنفصل ذلك عند الحديث عن حيـاة ابـن المعتز في الفصل القادم إن شاء الله .

ومجمل القول فإن العصر العباسي الثاني ، قد اتسم بزوال هيبـة الخلفـاء ، وضعف الدولة مما مهد لسقوطها على أيدي التتار في عام 656هـ ، كمـا تميـز بازدياد نفوذ الترك ، وغلبتهم ، مما كان له أثره على حياة الناس.

([77]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 60.

([78]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 292 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 378.

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية

تميز العصر العباسي بتعدد الأمم والأجناس ، واختلاف الأعراق والقوميات والثقافات ، فقد رأينا في مبحثنا السابق أن الفرس قد قوي نفوذهم ، وازداد تغلغلهم في المجتمع في العصر العباسي الأول ، حتى أن الحياة قد صبغت بصبغة فارسية أو تكاد ، ثم غلب عنصر الأتراك وازداد نفوذهم في العصر العباسي الثاني ، فضلاً عن وجود أمم أخرى منهم الزنج الذين كانوا يجلبون من شرق إفريقيا ، ويستخدمون في الأعمال المتعلقة بالزراعة والحصاد . أضف إلى ذلك أن العباسيين قد تجمعت لديهم ثروة ضخمة من الإرث الحضاري ؛ فقد ورث العرب الحضارة الساسانية والكلدانية والآرانية من فتحهم العراق وإيران ، وورثوا الحضارة البيزنطية والساسانية والمصرية من غزوهم الشام ومصر[79]. كل أولئك جعل المجتمع يعج بكثير من الأجناس . حكى المقريزي أن المأمون :"كان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس"[80]. وقد قاد هذا التنوع العرقي ، والثراء الحضاري المتعدد المشارب ، المختلف الطبائع والأهواء إلى تغيير الحياة الاجتماعية ، وتنوع صورها ، وتباين ملامحها وأشكالها ، وكان من أثر ذلك أن تميز المجتمع العباسي بنزوعه إلى التطور والتجديد في مختلف أوجه الحياة من مسكن وملبس ومأكل وغيرها[81].

([79]) د. محمد زكي العشماوي ، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981م ، ص55.

([80]) المقريزي ، الخطط المقريزية ، وضع حواشيه خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998م ، ج1 ، ص154.

([81]) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1948م ، ج3 ، ص 114-115 وأحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2005م، ج1 ، ص 129.

وفي هذا العصر عم الثراء والترف ، وسادت حياة الرفه والنعيم الذي كـان يتمتع به الخلفاء والوزراء وحواشيهم ومن اتصل بهـم مـن العلمـاء والـشعراء والمغنين[82].

وقد تفنن العباسيون في بناء القصور والدور والحدائق والبـرك والقبـاب . ونلحظ أن كتاب "طبقات الشعراء" قد حفل بتصوير لمظاهر هذا الثراء والتـرف ، ومن ذلك وصف ابن المعتز لقصر الخليفة محمد الأمين بقوله :"بني للمخاوع مجاسُ لم تر العرب والعجم مثله ، قد صوّر فيه كل التصاوير ، وذهّب سـقفه وحيطانـه وأبوابه ، وعلّقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة ، وفُـرش بمثـل ذلـك مـن الفرش"[83].

وكان المتوكل مفتناً ببناء القصور إذ بلغت في عهده تسعة عشر قصراً ، وقد أنفق في بنائها مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم ، ومئات الآلاف من الدنانير ، وهو أول من أحدث في بناء القصور من فنون العمران ما لم يكن معروفاً من قبل[84] وبنى المعتضد قصر الثريا وحفه بالبرك والحدائق والأزاهير والرياحين . وفي الثريا يقول ابن المعتز من قصيدة يهنيء فيها المعتضد:

حلَلْـتَ الثريـا خيـر دارٍ ومنـزلٍ   فلا زالَ معموراً وبورك من قَـصْر
فليس له فيمـا بَنَـى النـاس مـشْبه   ولا ما بناه الجن في سالفِ الدهْر[85]

وبرغم هذا الثراء الذي كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسـي؛ فقد حرم العباسيون الشعب حقوقه وطوقوه بنوع من الاستعباد والاستبداد والعنـف الشديد ، وجعلوه يتجرع غصص البؤس والشقاء ، وقد مضى الخلفاء ، وبطانـاتهم

([82]) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط2 ، 1996م ، ص 163 ود. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 45.

([83]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 189 – 190.

([84]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 87 والشابشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، دار الرائـد العربي ، بيروت ، ط2 ، 1986م ، ص 159 – 160.

([85]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 299.

يحتكرون أموال الشعب وموارده الضخمة فانقسم المجتمع طبقتـان : طبقـة تـنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقة أخرى قُتر عليها في الرزق[86].

ومثلما زخر كتاب "طبقات الشعراء" بتصوير لمظاهر الثراء والترف الـذي كان يعيشه الخلفاء العباسيون ومن اتصل بهم ، حفل الكتاب أيضاً بـصور البـؤس والفقر والشقاء والحرمان الذي كان يتجرعه السواد الأعظم من الشعب ، ممـا أدى إلى شيوع ظاهرة الكُدْية وانتشارها ، وخير من يمثل هذا الاتجاه أبو فرعون الساسي الذي نراه يشكو ما وصل إليه حاله من العوز والفاقة ، فها هم أطفاله وقد داهمهـم الشِّتاء وتغير لونهم من شدة الجوع ، وليس لديهم ما يتزررون به فكـانوا يلتحفـون صدر أبيهم عله يخفف عنهم وطأة الصقيع ويقيهم آلام البرد ، يقول:

وَصِبْـيَةٍ مِثْـلِ فِـرَاخِ الـذر سُـودِ الوجـوهِ كَـسَوادِ القِـدْرِ
جَـاءَ الـشتاء وَهـمْ بِـشَرّ بِغَيْـرِ قُمْـصٍ وَبِغَيْـرِ أُزْرِ
وَبَعْـضُهُمْ مُلْتَـصِقٌ بِـصَدْري وَبَعْـضُهُمْ مُنْحَجِـرٌ بِحِجْـري[87]

وسنتناول مظاهر البؤس بالبحث والدراسة ضمن مبحثنا الخـاص بـالثراء والفقر في فصولنا اللاحقة إن شاء ا .

انتشر الرقيق في هذا العصر وكثرت الجواري والقيان وامتلأت بهن الـدور والقصور والأسواق ، يدل على ذلك أن أغلب الخلفاء من نسلهن ؛ فالمنصور أمـه حبشية تسمى سلامة ، والهادي والرشيد أمهما روميه تسمى الخيزران ، والمـأمون من مراجل الفارسية ، وأم المعتصم ماردة التركية ، وأم الواثق رومية يقـال لهـا قراطيس ، وأم المتوكل خوارزمية تسمى شـجاع ، وأم المعتـز روميـة تُـدْعى قبيحة[88]. وقد تسابق خلفاء بني العباس في اقتناء الجواري ، والهيام بهن والوقـوع في عشقهن ، والمغالاة في أثمانهن ، كما حرصوا على إظهارهن في أبهى الأزياء ،

([86]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، ط15 ، 1966م ، ص 19.

([87]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 342 – 343 .

([88]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 85 ، وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 130 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 346 واليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج2 ، ص 364 ، 407 ، 444 ، 471 ، 479.

وأجمل أنواع الزينة ، يروي أبو الفرج الأصفهاني أن الرشيد كان يملك :"زهاء ألفي جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر"[89].

ويحكي المسعودي أن المتوكل كان يملك :"أربعة آلاف سرية"[90]. والمتأمل في "طبقات الشعراء" يلحظ أن ابن المعتز قد أفاض في ذكـر الجـواري وروايـة أخبارهن ، مما يشير إلى كثرتهن ؛ بوصفهن صورة من صور المجتمـع العباسـي وقتذاك ، وخير شاهد على ذلك ما رواه ابن المعتز من أن ابن يسير الرياشي فاخر رجلاً فقال له الرجل :"أتفاخرني وقد ركب جدي للصيد في أربعة آلاف جارية"[91]. وبجانب بث ابن المعتز لأخبار الجواري في ثنايا كتابه نراه قد خص سـت مـنهن بترجمات منفصلة ، ومنهن "سكّن" جارية محمود الوراق التي ارتفع ثمنها إلى مائتي ألف درهم ؛ فامتنع عن بيعها[92].

ونرى بعض من ترجم لهن ابن المعتز قد شُهِرْنَ بالحسن والجمال ورجاحـة العقل ، والنبل وفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فضلاً عن أنهن كـن شـاعرات مطبوعات ، ومن ذلك "خنساء" جارية هشام المكفوف ، و"عريب" جارية المـأمون وعشيقته[93]. ومن الذين شهروا بالنخاسة والاتجار في الجواري والرقيق أحمد بـن الحارث البغدادي الذي اجتمع عنده من الرقيق ما قيمته مائة ألف دينار[94].

أما عن كثرة الغلمان في هذا العصر فيروي ابن المعتـز أن دور المعتـصم وقصوره كانت تعج بهم[95]. وسبق أن أشرنا إلى أن المعتصم كان مفتونـاً باقتنـاء

([89]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1992م ، ج10 ، ص 172.

([90]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 122.

([91]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 256.

([92]) المصدر السابق ، ص 384.

([93]) المصدر السابق ، ص 386 – 387.

([94]) المصدر السابق ، ص 388.

([95]) المصدر السابق ، ص 258.

الرقيق من الجواري والغلمان ولا سيما الرقيق التركي[96]. وقد أدى انتشار الغلمان إلى شيوع نوع من الأدب عرف فيما بعد بالغزل بالمذكر.

وفي هذا الجو المفعم بالجواري والغلمان انتشر فن الغناء انتشاراً عظيمـاً ، وقد امتلأت قصور الخلفاء ودورهم بالمغنين والمغنيات ، وعجت الشوارع والحدائق والبساتين بكل مغنٍ أو مغنية ، بل يروي ابن المعتز أن بعض الخلفاء كان مفتونـاً بسماع الأغاني كموسى الهادي[97] ومن قبله والده المهدي[98]. ومن حذاق المغنـين إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وإبراهيم بن المهدي[99]. يروي ابن المعتـز فـي ترجمته لإسحاق الموصلي أن إسحاق كان فقيراً فخدم خمسة من الخلفاء ببراعته في فن الغناء ؛ فكثر ماله واشترى بالبصرة شيئاً كثيراً من بساتين النخيـل[100] ومـن مشاهير المغنيات خنساء جارية هشام المكفوف[101] ، وكانت الجواري يؤدين الغناء بألحان شجية ، وأنغام عذبة كما في وصف أبي الهندي[102] لجارية مغنية:

وجاريـةٍ فـي كفهـا عـود بَـرْبَطٍ ... يجاوبهـا عنـد الترنم زيرهـا
إذا حركته الكـف قُلْـتَ : حمامـةٌ ... تُجيب على أغْصَان أيـكٍ تَـصورها
إذا غردت عنـد الـضحاء حَـسبتها ... نوائح ثكْلى أو جعتهـا قُبورهـا[103]

([96]) ص 10-11 من هذا البحث.

([97]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 121.

([98]) الجاحظ ، رسائل الجاحظ (الرسائل الكلامية) ، قدم لها وشرحها الدكتور علي أبـو ملحـم ، دار ومكتبـة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1987م ، ص11.

([99]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 96 ، 277.

([100]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 328.

([101]) المصدر السابق ، ص 386.

([102]) أبو الهندي: هو عبد ا بن ربْعي بن شبث بن ربعي الرياحي ، وهو أحد الدهاة ، فصيح جيّـد البديهـة حاضر الجواب وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، وكان منهوماً بالشراب مستهتراً به .
ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 124.

([103]) المصدر السابق ، ص 129.
البَرْبَط : العود والمِزْهَر.
الزِّير: الدقيق من الأوتار.
صاره: أماله.

ولم يتحرج الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بهـا ، فكـان للواثق والمنتصر أصوات يغنى بها وكانا يجيدان ذلك[104].

وقد أبدع ابن المعتز أيضاً في اختراع الأصوات الموسيقية ، وفيه يقول أبـو الفرج:"وكان عبد ا حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللهـا"[105] وقد بلغ من اهتمامه وبراعته في الغناء والموسيقى أن ألف فيهما كتاباً أسماه "الجامع في الغناء"[106] وهو كتاب مفقود.

ومن صور الحياة الاجتماعية في العصر العباسي انتـشار مجـالس الخمـر واللهو ، والنزوع إلى الخلاعة والمجون ، إذ يروي المسعودي : أن المتوكـل قـد تبذل في هذه الناحية واتبعه في ذلك خواصه وأكثر رعيته ، ولم يكن بين وزرائـه وكتابه وقواده من ترفع عن المجون أو الطرب[107].

وقد ترجم ابن المعتز في "طبقات الشعراء" لكثير من الشعراء الذين أبـدعوا في وصف الخمر ودنانها وكاساتها وسقاتها ومجالسها وندمانها مثل : أبي نـواس ، وأبي الهندي ، ومسلم بن الوليد ، وأبي الشِّيص[108] وغيرهم ، وقد جـاهر هـؤلاء بخلاعتهم ومجونهم وتهتكهم وابتزالهم ، يقول أبو الهندي:

منـــزلٌ يـــذْري بمـــن حـــل بـــه	تـــستحل الخمـــر فيـــه والزوانـــي
إنمـــا العـــيشُ فتـــاةٌ غـــادةٌ	وقعودي عاكفـاً فـي بيـت حـان
أشرب الخمر وأَعْـصِي مـن نَهَـى	عن طلاب الراح والبـيضِ الحـسان
فـــي حيـــاتِي لـــذةٌ ألهـــو بهـــا	فـإذا مِـت فقـد أودى زمـانِي[109]

([104]) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 68.

([105]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 276.

([106]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 229 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص11 ود. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1991م ، ص 122.

([107]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص122.

([108]) أبو الشِّيص: هو محمد بن عبد ا بن رزين الخزاعي ، ابن عم دعبل بن علي ، وأبو الشِّيص من ندماء أبى نواس وكانت بينهما مساجلات شعرية وهو أيضاً أحد شعراء الرشيد.

ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 571 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64.

([109]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 126.

يجاهر أبو الهندي بخلاعته ومجونه ؛ فمجلسهم يستباح فيه الخمر والزّنـا ، وهو لا يرى العيش إلا في الاستمتاع بالكأس والدّنان ، ومجالسة البـيض الحـسان وليعب من صنوف اللهو في حياته ولا يأبه لما بعد الموت.

وفي هذا العصر كذلك انتشرت الزندقة التي تقوم على الاسـتهتار بالـدين ، وسبق أن أشرنا إلى أن المهدي كان حازماً في الدفاع عن الدين ، وقد أورث ابنـه الهادي كراهيته للزنادقة ، فظل الهادي يلاحقهم ويتعقـبهم حتـى فتـك بـالكثيرين منهم[110]. وقد حفل كتاب "طبقات الشعراء" بقسط وافر من أخبار الزنادقة وهو مـا سنناقشه في موضعه من الدراسة إن شاء ا . وأشهر الزنادقة الذين ذكـرهم ابـن المعتز : بشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس الذين قتلا بـسبب زنـدقتهما[111]. ومن مشاهير الزنادقة كذلك الحمادون الثلاثة وهم : حماد عجـرد ، وحمـاد بـن الزبرقان ، وحماد الراوية[112]. وقد قادت الزندقة إلى ظهور نزعة أخـرى أكثـر تطرفاً وهى الدعوة إلى الشعوبية ؛ فقد وجد الفرس في المكانة الرفيعة التي حظـوا بها في الدولة العباسية فرصةً للقصاص من العرب الذين أساءوا للموالي في العصر الأموي ؛ فأخذوا يحطون من شأن العرب ويفضلون غيرهم عليهم[113].

ويرى الجاحظ أن الشعوبيين يحركهم شعور العداء والحـسد علـى العـرب والمسلمين، يقول :"أعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الـشعوبية ولا أعـدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً من أهل هـذه النّحلة. وقد شَفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنَان في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المـضطرمة"[114].

([110]) ص 7 من هذا البحث.

([111]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18 ، 80 والمعري ، رسالة الغفران، تحقيق الدكتورة عائـشة بنـت الشاطيء ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963م ، ص 436 – 437.

([112]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60.

([113]) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 45.

([114]) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج3 ، ص 29-30.

ويبدو خطر الشعوبية في تجنيهم على الحديث النبوي "فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل الفرس ، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين"[115].

وقد ظهر خطر الشعوبية كذلك في مؤلفاتهم ، فلما ألف ابن المقفع كتابه "الأدب الكبير" جعل له "مقدمة يدعو فيها إلى أخذ العلم عن الأولين ، وفي رأيه أن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا العرب ؛ لأنه كان يأخذ بتحقيرهم حينما يجتمع بأصحابه الماجنين"[116]. ونلاحظ أن ابن المعتز لم يشر إلى لفظة شعوبية صراحة في كتابه بيد أنا عثرنا على ثلاثة أبيات فقط للشاعر أبي الشمقمق[117] ، نستشف منها أن أبا الشمقمق كان ممن تلقفوا هذه الدعوة العصبية ؛ ففي هذه الأبيات نراه يرثى ذهاب أهله من الموالي ، ويبدي فجيعته لإقامة دولة العرب ، ويشير إلى أن من تبقى من الموالي على قلتهم يفضلون العرب في الفصاحة ورجاحة العقل ، يقول:

ذَهَبَ الموَال فَلا مَوا ل وقد فُجِعْنَا بالعَرَبْ

إِلا بَقَايَا أَصْبَحوا بالمِصْرِ مِن قِشْرِ القَصَبْ

بالقَوْل بَذوا حَاتِما والعقلُ ريحُ في القِرَبْ[118]

وأغلب الظن أن ابن المعتز لم يول موضوع الشعوبية اهتمامه وعنايته بسبب طبيعة المنهج الذي رسمه لنفسه في تأليف كتابه "طبقات الشعراء" والذي ذكر فيه بأنه سيورد من القصائد ما كان نادر الوجود عند الناس وفي ذلك يقول :"وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه ، وإنما نقتصر من كل قصيدة على هذه الأبيات اليسيرة ، بل ربما اقتصرنا على ذكر القصيدة أو بيت واحد منها فقط"[119].

---

(115) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 59.

(116) د. أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة ، دار الفكر العربي ، دمشق ،ط1 ، 1961م ، ص 503.

(117) أبو الشَمَقْمَقْ : واسمه مروان بن محمد ، شاعر عباسي ، من أهل خراسان ، كثير الهزل والجد ، توفي سنة 180هـ.

المبرد ، الكامل ، ج3 ، ص 7-8 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 115-118.

(118) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 118.

حاتم : يريد به حاتم الطائي.

(119) المصدر السابق ، ص 254.

مما يبعث على الاعتقاد بأن القصائد التي تناولت نزعة الشعوبية هي في رأي ابـن المعتز مشهورة عند الناس ، لذلك لم ير ضرورة لإثباتها في كتابه ، وسنفصل القول في منهجه ضمن فصولنا القادمة إن شاء ا .

ومن جملة المواسم التي يحتفل بها الناس في ذلك العصر "عيد النيروز" فقـد كانوا يتخذون منه مناسبة ومهرجاناً للهو والعبث ويفرغون فيه إلى نوع من الرقص والطرب وشرب الخمر ، ويعد النيروز من العادات التـي ورثهـا العـرب عـن الفرس[120].

والمتأمّل في كتاب "طبقات الشعراء" يلحظ أن ابن المعتز لم يشر إلـى عيـد النيروز سوى مرتين فقط ، ذكر خلالهما أن النيروز كان فرصـةً لتبـادل الهـدايا الثمينة ، وموسماً لإزجاء التهاني الشعرية ، ومن ذلك أن عبيد ا بن يحيـى بـن خاقان أهدى إلى أبي هفان[121] في يوم النيروز جملةً من الهدايا فكتب أبو هفان:

دخلـــتُ الـــسوقَ ابتـــاع ... واســـتطْرفُ مـــا أَهْـــدِي
فمـــا اســـتطرفْتُ للإهـــدا ... ءِ إلا طَـــــرَفَ الحمـــــدِ
إذا نحـــــن مَـــــدَحْنَاكَ ... رعَيْنـــا حرْمَـــةَ المجْـــدِ[122]

ويروي ابن المعتز أن عبد ا سر بأبيات أبي هَفان "وحمل إليه مما أهـدي إليه شيئاً له خطر جسيم"[123].

وقد عني الخلفاء في مثل هذه الأعياد بمظاهر الأبهة والخروج في مواكـب عظيمة استرعت أعين الناس ؛ روى ابن المعتز أن الرشيد:"ركب في يوم عيد ركبة لم ير الناس مثلها أحسن هيئة ، وأتم زينة ، وأكمل أداة ، وأكثر قواداً وجندا"[124].

([120]) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص81 وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص129 ود.زكي العشماوي ، موقف الشعر من الفن والحياة ، ص 68-69.

([121]) أبو هفان : واسمه عبد ا بن حرب المهزمي العبدي ، كان شاعراً وأديباً وراوية ، ومن مؤلفاته كتـاب "الأربعة في أخبار الشعراء" وكتاب "صناعة الشعر" وهو أحد غلمان أبي نواس ورواته .
ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 372 – 373 وابن النديم ، الفهرست ، ص 276.

([122]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 373.

([123]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

([124]) المصدر السابق ، ص 231.

وتجدر الإشارة إلى أن ما قدمنا من حديث عن اللهـو والمجـون والزندقـة والشعوبية ، لا يعني أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفـسه للإلحـاد والملذات والشهوات ؛ فلم تكن موجة المجون عامة في المجتمع ، بل كانت تشيع في الطبقة المترفة ومن حولهم من الشعراء والمغنين وأصحاب النوادر والطرائف.

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة قد اكتظت في بغداد وسـامرا بـالجواري والمغنين ؛ فإن المساجد كانت عامرة بالعباد والنساك وأهل التقوى والورع ، وكانت تقام في كل مسجد حلقة لواعظ يذكر الناس با واليوم الآخر[125].

ومن مشاهير العباد وأكابر الزهاد إبراهيم بن أدهم[126]. ومنهم عبد ا بـن المبارك الذي قال عنه ابن كثيـر :"كـان موصـوفاً بـالحفظ والفقـه والعربيـة والزهد"[127].

ومنهم عبد ا بن عون بن رطبان المتوفى سنة 151هـ وفيه يقولُ ابن سعد :"كان ابن عون يصوم يوماً ويفطر يوماً حتى مات"[128]. ومن الزهاد عتبة بن أبان بن صمعة المتوفى سنة 167هـ وهو أحد العباد المشهورين والبكائين المذكورين ، وكان يأكل من عمل يده ، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملـح[129]. ومـنهم الخليل بن أبي رافع المزني الموصلي المتوفى سنة 217هـ ، وأحمد بـن محـرز قاضي القيروان المتوفى سنة 221هـ [130].

([125]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 105.

([126]) الإمام القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق الشيخ عبد الحلـيم محمـود ، دار الخيـر للطباعة والنشر ، دمشق ، بيروت ،ط1 ، 2003م ، ص31 وابن كثير البداية والنهاية ، ج10 ، ص135 ، وابن النديم ، الفهرست ، ص 389.

([127]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج 10 ، ص 177.

([128]) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، 1985م ، ج7 ، ص 263.

([129]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، ص 536.

([130]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، ص 422 ، 460.

ومن أقطاب العباد في العصر العباسي كذلك الحافظ أبو عبد ا محمد بن يحيى المتوفى سنة 243هـ قال عنه الذهبي :"حج سبعاً وسبعين حجة ، وصار شيخ الحرم في زمانه وكان صالحاً عابداً لا يفتر عن الطواف"[131].

وهذا هو فرج بن فضالة الحمصي المتوفى سنة 176هـ وكان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد "ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب ، فقام الناس إلا الفرج بن فضالة ، فقال له وقد غضب عليه : لِمَ لَمْ تقم؟ فقال: خفت أن يسألني ا عن ذلك . ويسألك لم رضيت وقد كرهه رسول ا صلى ا عليه وسلم ؟ فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه"[132].

ومن النّساء العابدات رابعة العدوية ، وشعوانة العابدة ، وعفيرة التي وصفها ابن كثير بأنها :"كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء"[133].

ويروي ابن المعتز في ترجمته للمَعَلِي الطائي أن المعلي كان "يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، وكان من أقنع الناس ، وقال يوماً : يكفيني في كل سنة خمسون درهماً فضة ، فتعجب من ذلك بنوه ، وكان لا يغتاب أحداً ولا يتكلم فيه ، وكان أعف الناس فرجاً وأصدقهم لساناً"[134].

وعلى الجملة فإن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي قد تميزت بمظاهر الثراء والترف الذي كان يعيشه الخلفاء ووزراؤهم ، كما اتسمت بانتشار الجواري والقيان والغلمان وشيوع مجالس الخمر واللهو والمجون ، فضلاً عن ظهور نزعتي الزندقة والشعوبية ، ثم ظهور العباد والنساك والزهاد وسواهم ممن دعا إلى تقوى ا والاستعداد لليوم الآخر.

([131]) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1956م ، ج3 ، ص 501.

([132]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، ص 589.

([133]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 177.

([134]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 304.

المبحث الثالث : الحياة العقلية

لا ريب في أن العصر العباسي هو عصر نهضة الفكر والأدب ، وازدهـار العلوم ، والترجمة والتأليف . وقد برزت في هذا العصر طائفة من مشاهير العلماء الذين أخذوا من كل فن بطرف ؛ فكان في ذلك حافزاً لمن أتوا بعدهم في أن يتعقبوا آثارهم ويقبلون عليها بحثاً ودرساً ونقلاً.

وقد تهيأت لعصر العباسيين من أسباب الرقي ما جعلته رائداً للحركة العلمية والأدبية والفكرية. وسبق أن ذكرنا بأن هذا العصر والذي كان يضم رقعة واسـعة من العالم الإسلامي، قد امتزجت فيه كثير من الأمـم والأجنـاس، ونتيجـة لهـذا الاختلاط تلاقحت ثقافات هذه الشعوب مما كان له أثره على الحياة العقلية .

ولعل أكثر هذه الثقافات تأثيراً على الحياة العقلية في عصر الدولة العباسـية هي"الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، والثقافة العربية"[135].

جعلت هذه الثقافات نفوس العباسيين تتوق إلى ما عند الفرس واليونان والهند من علوم ومعارف؛ فكان أبو جعفر المنصور أول من عني بترجمة[136] شيء مـن

([135]) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 116-117 ود. زكي العشماوي ، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، ص 75.

([136]) ظهرت أول بداية للترجمة في عصر الأمويين ، حيث أمر خالد بن يزيد بن معاوية بإحضار جماعة مـن فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليونـاني والقبطي إلى العربي . وكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة . ثم نقل الديوان إلى العربية في أيام الحجاج وكان قبل ذلك بالفارسية.

ابن النديم ، الفهرست ، ص 503.

هذه الكتب ؛ فقد ترجم له طبيبه جورجس بن جبرائيل كتب كثيرة من اليونانية إلى العربية ، ومن جملة ما ترجم للمنصور كتب أبقراط وجالينوس في الطب[137].

كما ترجم له ابن المقفع أيضاً كتاب "كليلة ودمنة" عن اللغة الفهلوية وبعض الكتب الفارسية في التاريخ والسياسة والأدب[138].

وترجم في عهد المنصور كذلك كتاب إقليدس في الهندسة المسمى "الأصول الأركان"[139]. وكانت حركة الترجمة في عهد الرشيد أقوى منها في عهد المنصور ، فقد أنشأ الرشيد دار الحكمة ، وألحق بها قسماً وإدارة للترجمة جعل يوحنا بن ماسويه أميناً عليها ، ورتب له كتاباً حاذقين يكتبون بين يديه[140].

وقد كان للبرامكة اليد الطولى في الترجمة وعون المترجمين عليها إذ يحكى أن يحيى بن خالد البرمكي استجاب أطباء الهند ، فنقلت بعض كتبهم في الطب[141].

ونشطت حركة الترجمة في عهد المأمون الذي نشأ على حب العلم ، ومجالسة العلماء ؛ فقد أوفد المترجمين إلى بلاد الروم فجاؤوه بطرائف الكتب ، وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والطب والموسيقى[142].

وقد عهد المأمون إلى حنين بن إسحاق تولي مهمة النقل والترجمة ويحكى "أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مثلاً بمثل"[143].

([137]) محمد الخضري بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1970م ، ج1-2 ، ص219.

([138]) ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج10 ، ص 96 ود. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط12 ، 1960م ، ص130.

([139]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 470.

([140]) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 130 والخضري بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، ج1-2 ، ص 219.

([141]) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 92.

([142]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 504 – 505.

([143]) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1965م ، ص 259.

ومما ترجمه حنين بن إسحاق : اختصار الستة عـشر كتابـاً لجـالينوس ، واختصار كتب جالينوس في الأدوية المفردة ، وثمار تفسير جالينوس لكتاب أبقراط ، وشرح كتاب الهواء والماء والمساكن لأبقراط ، وشرح كتاب الغـذاء لأبقـراط ، فضلاً عن ترجمة حنين لمجموعة أخرى من كتب جالينوس وأبقـراط فـي الطـب والحكمة مثل : كتاب "النبض" وكتاب "الحميات" وكتاب في طبائع الأغذية وتـدبير الأبدان ، وكتاب في تركيب العين ، ومقالة في ضيق النفس[144].

تفشى اللحن في هذا العصر وفسدت ألسنة الناس بـسبب اخـتلاط العـرب بالموالي المستعربين ؛ فانبرى علماء البصرة والكوفة للمحافظة على سلامة اللغـة العربية وصونها من التدهور والفناء ، وقد آلوا على أنفـسهم أن لا يأخـذوا مـن المتحضرين ، بل راحوا يطلبونها من قلب الجزيرة العربية ، حيث ينابيعها الصافية ، في نجد وبوادي الحجاز[145].

وقد كان لهؤلاء الأعراب الفصحاء الذين قدموا إلى البصرة والكوفة أثر كبير في تمكين أهل المدن من اللغة فقد تتلمذ على يديهم جمع من علماء اللغة والأدب.

ويعد أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة 154هـ في مقدمة العلماء الذين كان لهم إسهام كبير في جمع اللغة والشعر، وعنه يقول الجاحظ :"كان أبو عمرو أعلـم الناس بالغريب، والعربية، وبالقرآن والشعر ، وأيام العرب ، وأيام الناس"[146].

والناظر في كتاب "طبقات الشعراء" يلاحظ أن ابن المعتز ضمن كتابه طائفة من أكابر علماء اللغة والأدب في الجيل الأول ، ومن هؤلاء حماد الراوية المتـوفى سنة 156هـ وهو أحد علماء الكوفة المشهود لهم بكثرة الرواية والحفظ[147].

([144]) المصدر السابق ، ص 272 – 273.

([145]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 118 وعمر فروخ ، تاريخ الأدب العربـي ، دار العلـم للملايين ، بيروت ، ط6 ، 1997م ، ج2 ، ص47.

([146]) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 321 . وأبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبـو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، 1955م ، ص 13 والمسعودي ، مروج الـذهب ، ج3 ، ص 315 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 112.

([147]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60 وابن النديم ، الفهرست ، ص 182 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 124.

وممن ترجم لهم ابن المعتز من أعلام اللغة الخليل بن أحمد المتوفى سنة 170هـ ويقول فيه أبو الطيب الحلبي :"الخليل أذكى العرب وهو مفتاح العلوم ومصرفها"[148].

ومنهم خلف الأحمر المتوفى سنة 180هـ ، الذي أخذ اللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، ولم يعرف أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه[149].

ومن أئمة اللغة عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه صاحب الكتاب المشهور في النحو والمتوفى سنة 161هـ[150]، ومن مشاهير العلماء المفضل الضبي المتوفى سنة 168هـ ، ومؤلف المجموعة الشعرية المسماة "المفضليات"[151]، والأصمعي المتوفى سنة 216هـ وصاحب "الأصمعيات"[152] ومحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 231هـ ومؤلف كتاب "طبقات فحول الشعراء" وابن الأعرابي المتوفى سنة 231هـ[153].

وفي العصر العباسي الثاني نبغ في اللغة والأدب والنقد طائفة من العلماء منهم محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة 285هـ ، ومؤلف كتاب "الكامل" وهو أحد من تتلمذ ابن المعتز على يديهم ، يصف ياقوت الحموي سعة علم المبرد فيقول :"كان إمام العربية ببغداد وإليه انتهى علمها"[154]، وقد أحصى له ابن النديم في فهرسه أكثر من أربعين مؤلفاً.

([148]) أبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، ص 27 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 86 وابن النديم ، الفهرست ، ص 91.

([149]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 134 وأبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، ص 47 وابن النديم ، الفهرست ، ص 101 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 295 .

([150]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 176 وأبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، ص 65 وابن النديم ، الفهرست ، ص 103 .

([151]) أبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، ص 71 وابن النديم ، الفهرست ، ص 136.

([152]) أبو الطيب الحلبي ، مراتب النحويين ، ص 46 وابن النديم ، الفهرست ، ص 112.

([153]) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1979م ، ج4 ، ص 306 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 70 وابن النديم ، الفهرست ، ص 136.

([154]) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق د. عمر فاروق الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط1 ، 1999م ، ج7 ، ص 81 والخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ج3،

ومن أعلام اللغة والنحو أبو العباس ثعلب المتوفى سنة 291هـ ، وهو أيضاً أستاذ ابن المعتز وفيه يقول ابن العماد الحنبلي:" شيخ اللغة العربية ، حدث عن غير واحد، وعنه غير واحد منهم الأخفش الصغير، وسمع عن القـواريري مائـة ألـف حديث"[155] ومن تصانيفه كتاب القراءات، وإعراب القرآن، وكتاب الفصيح.

ومن أكابر العلماء الجاحظ المتوفى سنة 255هـ ـ ، ومؤلـف "الحيـوان" ، و"البيان والتبيين" ومنهم ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ ومـن تـصانيفه "الـشعر والشعراء" و"عيون الأخبار" ، ومنهم أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356هـ ـ صاحب "الأغاني".

وقد ساهم الخلفاء العباسيون ووزراؤهم بنصيب كبير في هذه النهضة العلمية والأدبية ؛ فما فتأوا يشجعون العلماء والشعراء وأهل الأدب ويغدقون عليهم العطايا فها هو مروان بن أبي حفصة "كان رسمه على الخلفاء مائة ألف درهم"[156].

وأصبحت بغداد في زمن العباسيين مهوى الأفئدة ومنتجع العلماء والأدبـاء . أما عن البصرة فيروي ابن المعتز أنها كانت مـن "أكثـر بـلاد ا علمـاً وأدبـاً وفقهاً"[157].

وقد بلغوا من احتفائهم بالعلم وتشجيعهم على التأليف ، ما حكاه ابن المعتـز من أن يحيى بن خالد البرمكي منح أبان بن عبد الحميد اللاحقي مائة ألـف درهـم على نقله كتاب "كليلة ودمنة" شعراً[158].

ويروي ابن المعتز كذلك أن الخليل بن أحمد لما صنف كتاب "العين" ، وأهداه إلي الليث بن نصر بن سيار وصله الليث بمائة ألف درهم[159].

ص 380 . وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4 ، ص 314 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الـذهب ، ج2، ص 190 وابن النديم ، الفهرست ، ص 120 – 121 .

([155]) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 207 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج5 ، ص 205 وابـن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج1 ، ص 102 وابن النديم ، الفهرست ، ص 146.

([156]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 43.

([157]) المصدر السابق ، ص 183.

([158]) المصدر السابق ، ص 220.

([159]) المصدر السابق ، ص 87.

وكثر شغف الناس في هذا العصر بالقراءة والاطـلاع والتحـصيل ، دخـل محمد بن قدامة على أبي تمام حبيب بن أوس الشاعر فوجد "حواليه من الدفاتر مـا غرق فيه فما يكاد يرَى"[160].

وقد أدى هذا الاهتمام إلى انتشار مجالس العلم ، وحلقات الدرس ؛ فكثـرت المناظرات التي كان يؤمها العلماء والأدباء فيتبارون في مختلف الفنون[161].

وكان المأمون واسع الثقافة ، يجيد كثير من العلوم ، وكان يخلـو بالعلمـاء ويأنس بمناظرتهم ، ويتلذذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع أهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب[162].

صحب ازدهار علوم اللغة والأدب ؛ أن نشطت في هذا العصر العلوم الدينية كتفسير القرآن الكريم ، وجمع الحديث وتدوينه ، والفقه والقراءات[163].

وبرزت في تفسير القرآن الكريم اتجاهات أربعة وهي: اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأي أو التفسير الاعتزالي ، والتفسير الشيعي ، والتفسير الـصوفي . فمن شيوخ التفسير بالمأثور الإمام محمد بن جرير الطبري الذي استطاع أن يجمـع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر عن التابعين والصحابة في تفسير القرآن الكريم . وأما التفسير الاعتزالي فمن أبرز شيوخه الزمخشري وله التفـسير المسمى "الكشاف". أما الشيعة فقد كانوا يخرجون عـن ظـاهر الآيـات ملتمـسين تأويلاتهم على ظاهر اللفظ[164].

وقد عني العلماء كذلك بتدوين الحديث وكتابته ، مع حرصهم علـى إثبـات الروايات كما سمعت من أصحابها.

وقد شهد عصر العباسيين ظهور طائفة من أقطاب العلماء الذين تعد آثـارهم من أجل المصادر في التشريع الإسلامي ؛ فهو عصر الإمام أبي حنيفة المتوفى سنة

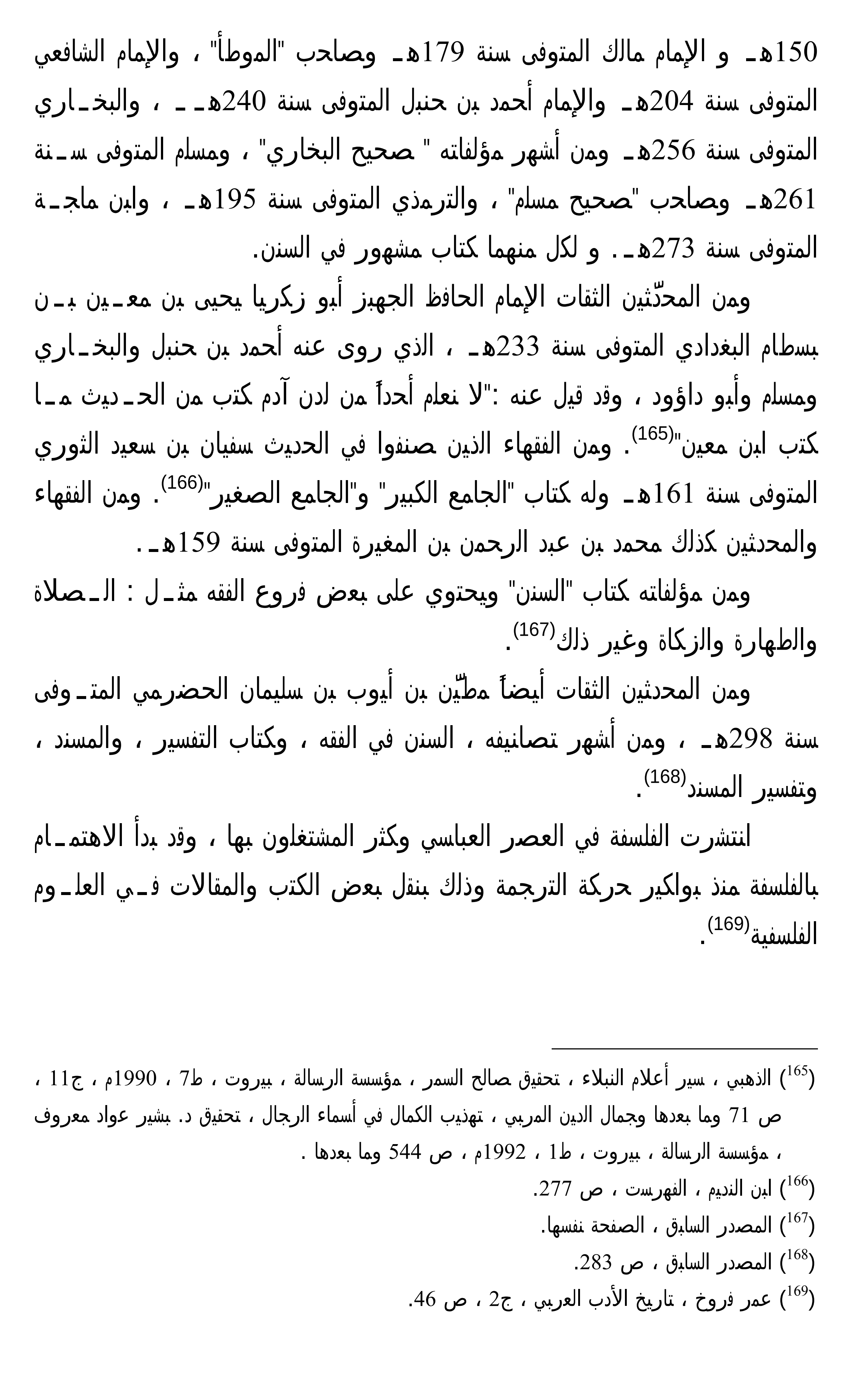
([160]) المصدر السابق ، ص 259.

([161]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 196.

([162]) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج2 ، ص 315 – 316.

([163]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 418 – 419 وأحمد أمين ، ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1945م ، ص 161.

([164]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 161 وما بعدها.



150هـ و الإمام مالك المتوفى سنة 179هـ وصاحب "الموطأ" ، والإمام الشافعي المتوفى سنة 204هـ والإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة 240هـ ، والبخاري المتوفى سنة 256هـ ومن أشهر مؤلفاته " صحيح البخاري" ، ومسلم المتوفى سنة 261هـ وصاحب "صحيح مسلم" ، والترمذي المتوفى سنة 195هـ ، وابن ماجة المتوفى سنة 273هـ. و لكل منهما كتاب مشهور في السنن.

ومن المحدّثين الثقات الإمام الحافظ الجهبز أبو زكريا يحيى بن معين بن بسطام البغدادي المتوفى سنة 233هـ ، الذي روى عنه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داؤود ، وقد قيل عنه :"لا نعلم أحداً من لدن آدم كتب من الحديث ما كتب ابن معين"[165]. ومن الفقهاء الذين صنفوا في الحديث سفيان بن سعيد الثوري المتوفى سنة 161هـ وله كتاب "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير"[166]. ومن الفقهاء والمحدثين كذلك محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة المتوفى سنة 159هـ.

ومن مؤلفاته كتاب "السنن" ويحتوي على بعض فروع الفقه مثل : الصلاة والطهارة والزكاة وغير ذلك[167].

ومن المحدثين الثقات أيضاً مطّين بن أيوب بن سليمان الحضرمي المتوفى سنة 298هـ ، ومن أشهر تصانيفه ، السنن في الفقه ، وكتاب التفسير ، والمسند ، وتفسير المسند[168].

انتشرت الفلسفة في العصر العباسي وكثر المشتغلون بها ، وقد بدأ الاهتمام بالفلسفة منذ بواكير حركة الترجمة وذلك بنقل بعض الكتب والمقالات في العلوم الفلسفية[169].

([165]) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق صالح السمر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط7 ، 1990م ، ج11 ، ص 71 وما بعدها وجمال الدين المزي ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق د. بشير عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1992م ، ص 544 وما بعدها .

([166]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 277.

([167]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

([168]) المصدر السابق ، ص 283.

([169]) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 46.

غير أن الحاجة الفعلية لاستخدام الفلسفة نشأت حينما أحس المسلمون أن اليهود والنصارى يستعملون المنطق والفلسفة اليونانية في جدالهم ، لذلك لجأت الفرق الإسلامية وبخاصة المعتزلة لمحاربة هؤلاء بأسلحتهم ، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها في أغراضهم ، وفيما هم كذلك شعروا بفائدة عظيمة في دراسة الفلسفة ، فبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية تطلب لذاتها[170].

وكان المأمون أكثر الخلفاء العباسيين ميلاً إلى الفلسفة ؛ ففي عهده نشرت كتب الفلاسفة ؛ فأقبل عليها شيوخ المعتزلة فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم علم الكلام[171].

ومن أشهر الفلاسفة أبو إسحاق الكندي المتوفى سنة 252هـ وله مصنفات مختلفة في الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والنجوم[172]. والفارابي أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان المتوفى سنة 339هـ . ومن كبار العلماء والمفكرين ابن سيناء المتوفى سنة 428هـ ، وأبو حامد الغزالي المتوفى سنة 505هـ ومن أشهر مؤلفاته "إحياء علوم الدين".

شهد عصر الدولة العباسية كذلك ميلاد طائفة من كبار المؤرخين الذين عنوا بكتابة التاريخ وتسجيل أحداثه ، منهم الواقدي المتوفى سنة 207هـ ، وهو أحد من عنوا بالكتابة عن السيرة النبوية ، وتاريخ الفتوح ، والخلفاء وأيام الناس[173]. ومنهم محمد بن إسحاق المتوفى سنة 150هـ[174] ، ومن أعلام المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310هـ مؤلف تاريخ الرسل والملوك ، والمسعودي المتوفى سنة 345هـ وصاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر.

([170]) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج3 ، ص 522 – 523.

([171]) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 ، 1975م ، ج1 ، ص 30.

([172]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 522.

([173]) المصدر السابق ، ص 194 - 195 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 18.

([174]) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4 ، ص 276 وابن النديم ، الفهرست ، ص 294.

وفي هذا العصر كثرت البدع الدينية الباطلة كالمانوية والمزدكية والثنوية وهي من العقائد التي برزت نتيجة التأثر بالثقافة الفارسية ، وهذه المذاهب الثلاثة تزعم بأن العالم يتألف من أصلين أحدهما النور والآخر الظلمة[175]. ويروي ابن المعتز أن أبا العتاهية كان ممن جرفه هذا التيار فعنه يقول :"كان خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية"[176].

وقد رأينا فيما تقدم ضيق الخلفاء العباسيين وتبرمهم بهذه العقائد ، ورأينا ما فعله المهدي ومن بعده ابنه الهادي بالزنادقة.

انتشرت المذاهب الفكرية في عصر بني العباس ، وقد نشط علم الكلام ، وكثر شيوخه وأتباعه ، وأشهر فرق المتكلمين وقتذاك المعتزلة . ومن الخلفاء من اعتنق مذهب الاعتزال وقرب إليه أشياخه كالمأمون[177]، والمعتصم والواثق . وتقدم الحديث عن قول هؤلاء الخلفاء الثلاثة بخلق القرآن.

وكان لعلم الكلام أثر كبير على الحياة العقلية ، إذ خاض أتباعه في جملة من المسائل ، وأكثروا من مجالس المناظرات والجدل ، ونشأت المعارك بين المعتزلة وخصومهم من أصحاب المذاهب الدينية الأخرى[178]. واختار المعتزلة لهذه المناظرات من يتقنون لغة الجدال والقدرة على إفساد عقائد المسلمين[179].

وراج مذهب الشيعة وكثرت طوائفهم ، وتعددت فرقهم ، وقد ترجم ابن المعتز – رحمه ا – لطائفة من شعراء الشيعة ومناصريهم كابن هَرْمَة ، والسيّد الحِمْيَرى ، ومنصور النمري وغيرهم.

ومن الفرق الدينية التي برزت في العصر العباسي الخوارج ، وكانوا يرون أن خلفاء بني العباس لا يصلحون للخلافة ؛ لأنهم لا تنطبق عليهم شروط الإمامة ،

---

(175) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 244 ، 249.

(176) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 331.

(177) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 275.

(178) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، 1964م ، ج1 ، ص 405 والمسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 314 ، وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4 ، ص 265.

(179) د. محمد جابر عبد العال الحسيني ، حركات الشيعة المتطرفين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1967م ، ص 207.

ولم يتم اختيارهم من قبل الرعية لذلك يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم[180]. وسنفصل القول في هذه المذاهب في مبحثنا الخاص بصورة الحياة الفكرية إن شـاء ا .

وخلاصة القول فإن الحياة العقلية في العصر العباسي بلغت غاية ما يـصبو إليه العقل البشري آنذاك ؛ فقد نشطت حركة الترجمة والنقل ، وزاد الاهتمام بتدوين العلوم وتأليفها ، كما ازدهرت علوم اللغة والأدب والفقه والحديث ، فضلاً عن رواج المذاهب الفكرية والعقائد الدينية ، مثل المعتزلة والشيعة والخوارج مما ألقى بظلاله على حياة ابن المعتز.

الفصل الثَّاني

حياة ابن المعتز (247هـ - 296هـ)

المبحث الأول : اسمه ومولده ونشأته

المبحث الثاني : ثقافتـه وتعليمـه

المبحث الثالث : آثـاره ومؤلفاتـه

([180]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 20.

المبحث الرابع : خلافتـــه ووفاتـــه

الفصل الثاني

حياة ابن المعتز (247هـ - 296هـ)

المبحث الأول : اسمه ومولده ونشأته

(أ) اسمه:

عبد ا بن المعتز با محمد بن المتوكل على ا جعفر بن المعتصم بـا محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد ا أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد ا بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي[181].

([181]) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1992م ، ج13 ، ص 84 . وابن خلكان ، وفيات الأعيـان ، ج3 ،

وقد فخر ابن المعتز في شعره ، وأظهـر اعتـزازه بانتـسابه إلـى أسـرة الهاشميين وإلى الرسول صلى ا عليه وسلم وفي ذلك يقول:

نحن آلُ الرسول ، والعِتْـرةُ الحـ ـ ق وأهــلُ القُربــى فمــاذا تريــد
وملكْنــا رق الإمامــةِ ميــرا ثـاً ، فَمَـنْ ذا عَنـا بفخـر يحيـد
وأبونَــا حَــامِي النبــي ، وقـد أدْ بر من تعلمـونَ ، وهـو يَـذود[182]

يفتخر ابن المعتز بصلة القربى التي تربطه بالنبي صلى ا عليـه وسـلم ، وبوراثة أهله من بني هاشم للخلافة والملك ، كما يشير إلى دفاع جده العبـاس بـن عبد المطلب عن الرسول صلى ا عليه وسلم.

وهناك رواية تقول : إن والد ابن المعتز يسمى الزبير ولقبه المعتز[183].

ص 76 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 108 وابن النديم ، الفهرست ، ص 229 وابن العمـاد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 222 .

([182]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 217 .

العِتْرة : ولد الرجل وذريته .

([183]) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج 9 ، ص 175 – 176 والمرزباني ، معجم الشعراء ، تحقيق عبـد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، 1960م ، ص 400 .

ويضيف ابن تغري بردي إلى سلسلة نسبه "البغدادي"[184].

يكنى عبد الله ابن المعتز " أبا العباس "[185]. ونلحظ أنّه قد أشار إلى كنيته هذه ثلاث مرات في كتابه "طبقات الشعراء" إذ يقول في ترجمته لِعلي بن جَبَلَة : " قال أبو العباس عبد الله بن المعتز : حَدثني ابن رزين قال : ولِدَ علي بن جَبَلَة أَعْمَى "[186].

(ب) مولده:

تختلف المصادر في تاريخ ولادة ابن المعتز ، غير أن أغلب هذه المصادر تجمع على أن ابن المعتز وِلدَ في شعبان سنة 247هـ[187] . وتشير بعض المصادر إلى أن ابن المعتز ولد في شعبان سنة 249هـ[188].

والذي نطمئن إليه أن ابن المعتز ولد في شعبان سنة 247هـ ، إذ ورد في تاريخ بغداد أن ابن المعتز روى تاريخ مولده لمعاصره العباس بن العباس بن المغيرة وفي ذلك يقول : "أخبرني عبد الله بن المعتز أنّه ولد لسبع بقين من شعبان سنة سبع وأربعين – يعني ومائتين"[189].

([184]) ابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، د . ت ، ج3 ، ص166 .

([185]) أبو بكر الصولي، الأوراق (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم) ، ج. هيورث د ن ، مطبعة الصاوي، 1936م ، ص 107 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 222 وابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 166 .

([186]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 162 .

([187]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 223 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وابن الجوزي ، المنتظم ،ج13 ،ص 84 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 223 ود. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 324 ود. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، المؤسسة المصرية العامة ، 1964م ، ص 3 من المقدمة وإبراهيم زكي خورشيد وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، الشعب ، القاهرة ، ط2 ، 1969م ، ص 390 . ود. عبد الرحمن رأفت الباشا ، شعر الطرد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1974م ، ص 334.

([188]) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1974م ، ج2 ، ص 240 وابن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة ، ج3، ص 249 . ومقدمة ديوان ابن المعتز ، ص 5 وحنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1986م ، ص 721.

([189]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 .

(ج) نشأته :

ضنت كتب التراجم عن الحديث عن نشأة ابن المعتز وهو ما أثار استغراب الدكتور طه حسين الذي قال : " ومن الغريب أننا لا نكاد نعرف عـن نـشأة ابـن المعتز شيئاً كثيراً ... وكُنا ننتظر أن نجد شيئاً مفصلاً عن حياته أو عن محنته فـي تاريخ الطبري ، ولكن الطبري كتب هذا القسم في عهد المقتدر ، فكان متحفظاً أشد التحفظ"[190].

فالدكتور طه حسين – كما نحن – كان يأمل أن يجد شيئاً مفصلاً عن حيـاة ابن المعتز في تاريخ الطبري ؛ بوصفه أحد معاصري ابن المعتز ، فضلاً عـن أن الطبري مؤرخ عرف بالاستقصاء في تناوله الأخبار ، ولكن الطبري كتب هذا القسم المختصر من حياة ابن المعتز في عهد الخليفة المقتدر بن المعتـضد (295هـ - 320هـ) أحد خصوم ابن المعتز فكان شديد التحفظ إزاء سيرة ابن المعتز.

ولِدَ ابن المعتز في سامرا وهو عربي من جهة الأب والجد، رومِي من جهة جدته لأبيه، وأمه تُدْعى"خاين" أو"حايز"وهي إحدى جواري جدته لأبيه[191]. إذ روى جحظة عن الأمير عبيد الله بن عبد الله عن الزبير بن بكار، قال:"كنتُ أُؤَدّب المعتز فهوى جارية لأمّه قبيحة فنحل جسمه وحم،فسألته عن خبره فأنشدني:

جَزِعتُ للحبِّ والحمى صَبّرتُ لهـا   إني لأعجب من صَبْري ومن جَزَعي

وخبرني فيما بيني وبينه بعشقه للجارية ، قال : فأخبرتُ قبيحـة بالقـصة ، فَوَهَبَتْها له فعوفي . قال جحظة : فحدثني عبد الله بن المعتز أنها أمه"[192].

([190]) د. طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، دار العلم للملايين ، بيـروت ، ط2 ، 1976م ، ج2 ، ص 394.

([191]) أبو علي القالي ، ذيل الأمالي والنوادر ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط3 ، 1953م ، ص 99 وابن تغـري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 166 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، 1956م ، ص8 .

([192]) أبو علي القالي ، ذيل الأمالي ، ص 99 .

قبيحة : هي جدة ابن المعتز لأبيه ، وهي جارية رومية سماها المتوكل "قبيحة" مـن أسـماء الأضـداد ، لحسنها وجمالها . الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج9، ص 394 والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص359 .

وكان لابن المعتز إخوة وهم : إبراهيم وقد مات وهو صغير في خلافة والده ، وحمزة الذي بقي له عقب بمصر وهو أحمد بن حمزة بن المعتز ، كما كانت لـه خمس أخوات لم ينكح منهن إلا واحدة تزوجها ابن عمها موسى بن إسـماعيل بـن المتوكل[193].

عاش ابن المعتز في قصور الخلافة إذ لا يكاد يشرف على الخامـسة حتـى تولى والده المعتز الخلافة (252هـ-255هـ) فعاش عيشة أبناء الخلفـاء، ونعـم بترف العيش ووافر النعمة، وأُعْجب الخليفة المعتز بابنه عبد ا وضَـرَبَ باسـمه الدنانير، ولعله كان ينوي أن يعهد إليه بولاية العهد، يصور ذلك البحتـري شـاعر المعتز بقوله:

سـرِرْنا بـأن أمرتَـه ونـصبته لنا علماً يـأوي إلـى ظلـه الهـدَى
وأبهجنـا ضَـرْب الـدنانير باسـمه وتقليـده مـن أمرنـا مـا تقلـدا
حقيقٌ بأن يرمى به الجانـب الـذي يَهم وأن يقْـضَى إليـه ويعْهـدا[194]

لكن الدهر لم يصف لابن المعتز فتحول النعـيم الـذي كـان يعـيش فيـه إلى بؤس وشقاء وحرمان ، إذ لم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتـى قتـل الأتـراك أباه المعتز با في مشهد حزين ، كما سبق وأن أشـرنا إلـى ذلـك فـي فـصلنا الأول[195].

نشأ ابن المعتز في هذه البيئة المليئة بالهموم والأحـزان ، فقبـل أن يولـد بأربعين يوماً قتل الأتراك جده المتوكل[196] وها هو يشهد قتل والده المعتز ، فأثرت هذه الحوادث مجتمعة في نفسه وصبغت شعره بلون حزين يكثر فيه من شكوى الهم والحرمان كما في قوله:

([193]) ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مـصر ، 1962م ، ص 28.

([194]) البحتري ، ديوان البحتري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1987م ، ج1 ، ص 130 .

([195]) ص 14 – 15 من هذا البحث .

([196]) د. طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 392 ود. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 324 .

يعـز علـى المعْتـز بـا   أن أُرى   أسـيراً لـدهرٍ لا أريـشُ ولا أُبْـري
وأرجو بـإذن ا   أن يَجْبـرَ الـذي   بيَ اليومَ من كسر فقد شَـفني كَـسْري
ولستُ بحمـد ا   أشـكُو خَـصَاصَةً   ولكن هموماً قد أحـاطَ بهـا صـدري
وإنّـي وإنْ حَـل الزمـان بريْبـه   لأصْـبر مـن ريْـب الزمـان عَلَـى الـصبْر[197]

يشكو ابن المعتز قسوة الحياة التي أوصلته إلى حالٍ لا تسر ، ويرجو من ا أن يزيل ما ألم به من هموم وأحزان ، وهو برغم هذه الهموم لا يزال جلداً صـابراً على نوائب الدهر.

وبعد مقتل والده المعتز صادر صالح بن وصيف التركي أموال جدته لأبيـه "قبيحة" ونفاها إلى مكة ونفى معها عبد ا بن المعتز، وإسماعيل بن المتوكّل، وعبد الوهاب بن المنتصر، ووحْش مولى المهدي[198]، وسمعت في مكة وهي تدعو على صالح بن وصيف بهذا الدعاء:"اللهم أخز صالح بن وصيف كما هتك ستري، وقتـل ولدي، وبدد شملي، وأخذ مالي، وغربني عن بلادي"[199]. ولعل الـدكتور خفـاجي جانبه الصواب حينما قال: إن ابن المعتز بعد مقتل والده لم ينف إلى مكة، بل ظـل في قصر والده بسامرا[200]، وهو ما لم تشر إليه المصادر التي بين أيدينا.

وهكذا فقد عاش ابن المعتز في حياته محنتين قاسيتين : محنته في فقده أبيـه الذي كان يغمره ببره وعطفه وحنانه ، ومحنته بالمنفى وعذابه ونكاله وعنائه ، مما ظل له أثر بعيد في نفسه[201]، لذلك نراه دائم التحسر على أيام الصبا حيث غضارة

([197]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 346 .
أريشُ : أضع الريش على السهم. **أبري** : من برى السهم ومعنى لا أريش ولا أُبري: لا نفع بي.
شفني: براني وأضعفني. **الخَصَاصة** : الفقر وسوء الحال.

([198]) الطبري، تاريخ الرسل والملـوك ، ج9 ، ص 394 والمـسعودي ، مـروج الـذهب ، ج4 ، ص 199 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 360 .

([199]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 394 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 360 .

([200]) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 74 .

([201]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 326 .

الطفولة ونضارة العيش ، إذ لا رهق ولا تشاؤم ولا يأس ، يصور ذلك في هذه الزفرة الحزينة:

لَهْفي على دَهْرِ الصِّبا القَصِير وغُصْنِهِ ذي الوَرَق المَنْثُور
وسكره وذَنْبِه المَغْفُور ومَرَح القُلُوبِ في الصدور
وَطولِ جَبْلِ الأمَلِ المجرور في ظلّ عَيْشٍ غافِلٍ غَرِير[202]

بقي عبد ا بن المعتز في المنفى إلى أن أفضت الخلافة إلى عمه المعتمد بن المتوكل بن المعتصم (256هـ - 279هـ) فبعث في حمله ومن معه إلى سامرا[203].

ولم نعرف على وجه التحديد المدة التي قضاها ابن المعتز وجدته بالمنفى ، ولكن إذا عرفنا أن المهتدي بن الواثق بن المعتصم (255هـ - 256هـ) الذي تولى الخلافة بعد والد ابن المعتز، لم تدم مدة خلافته إلا حوالي أحد عشر شهراً وأياماً [204]، أدركنا أن مقام ابن المعتز بالمنفى لم يدم طويلاً . وقد عاش ابن المعتز " في ظل المعتمد ناعماً بشيء من الطمأنينة"[205]. ثم ما لبث أن آلت الأمور الفعلية في الدولة في عهد المعتمد لأخيه الموفق طلحة بن المتوكل[206] فتحول ابن المعتز ليعيش في كنفه . وقد زعم باحثان محدثان هما الدكتور أحمد كمال زكي ، والدكتور غصوب خميس غصوب بأن ابن المعتز اضطر إلى الخضوع والاستكانة في عهد عمه الموفق[207]. ويعتقد الباحث بأن ابن المعتز حظي عند عمه الموفق

([202]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 392 .

([203]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 199 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 360 .

([204]) الخضري بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، ج1-2، ص 289 .

([205]) د. غصوب خميس محمد غصوب ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، دار الثقافة ، الدوحة ، ط1، 1986م ، ص100.

([206]) ص 15 من هذا البحث.

([207]) د. أحمد كمال زكي، ابن المعتز العباسي، ص252ود. غصوب خميس ،عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 100 .

بالمزيد من العناية والرّعاية إذ تطالعنا في ديوانه كثير من القصائد التي يمدح بهـا الموفق ويشيد فيها بشجاعته وبطولاته ومن ذلك قوله:

يـا ناصِـرَ الإسـلامِ ، إذ خُـذلت دعواتُـــه فابتـــل وانْتَعـــشَا

لمـــا اسْـــتَغاثَ وقـــل ناصِــره لبيْتَـــه ، وســـعيتَ منكمـــشا

كـــا لليـــثِ لا تُبقـــي مخالبُـــه يـــداً ، لِجَارحـــةٍ إذا بَطَـــشا[208]

يصف ابن المعتز ممدوحه الموفق بأنه هب لنصرة الإسلام حينمـا تقـاعس الآخرون عن نجدته ، فهو ليث قوي البطش ، رهن الإشارة للـدفاع عـن الـدين الإسلامي والزود عن حياضه . وقال أيضاً يمدح الموفق ويشير إلـى بلائـه فـي القضاء على ثورة الزنج وقتله قائدها:

ولما طَغَـى فِعْـلُ الـدعي رمَيْتَـه بجيشٍ يفـل الخطـبَ وهـو جَليـلُ

وجردتَ من أغمـادِهِ كـل مرْهـفٍ إذا ما انتضَتْه الكف كادَ يـسيلُ[209]

عندما تولى الخلافة ابن عمه المعتضد با بن الموفق (279هـ - 289هـ) مال إلى ابن المعتز وقربه واتخذه شاعره ونديمه وصفيه . وقد زعم بعض الدارسين بأن ابن المعتز ازداد خضوعاً واستكانة في عهد المعتضد وأصبح " ألعوبة في يـد هذا الخليفة العظيم[210]". ويبدو لي أن ابن المعتز لم يعش خاضعاً وذليلاً في عهـد ابن عمه المعتضد ، بل كانت لابن المعتز مكانة رفيعة عنده[211].

ومن مدائح ابن المعتز في المعتضد قوله:

لمـا رأيـتَ الملْـكَ شَـظى عـودَه وهوت كواكـب سَـعْدِها لغروبهَـا

حركـــتَ تـــدبيراً عليـــه سكـــينةً وخَلَطْتَ ضـحكةَ حـازمٍ بقطُوبهَـا

([208]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 426 والصولي ، الأوراق ، ص 119 .

منكمشاً: مسرعاً.

([209]) الصولي ، الأوراق ، ص 127 .

([210]) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 252 – 253 ود. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتـز شاعراً ، ص 100 .

([211]) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسية ، ط3 ، 1960م ، ص 550 ودائرة المعـارف الإسلامية ، ص 390 .

وذَخَـرْتَ للأعـداءِ أُسْـدَ وقـائع صـبراً علـى غماتهـا وكُروبِهَـا
كـم فتنـةٍ لاقَيْـت فيهـا فُرصـةً فختمتها ووثَبْـتَ قبـل وثوبهَـا[212]

استطاع المعتضد بحزمه وعزمه أن يعيد للخلافة العباسية هيبتها وجلالها بعد أن كاد يشيبها الذل والهوان وقد تمكن كذلك بحكمته وقوته من القضاء على كثير من الفتن ، وابن المعتز في هذه الأبيات يلمح إلى ما سـبق وأن أشـرنا إليـه مـن أن المعتضد هو الذي أعاد للخلافة مجدها وعزتها وذلك بحده من نفوذ الأتراك[213].

وقال يمدح المعتضد بالسخاء والشجاعة وسداد الرأي:

جمــع الحــق لنــا فــي إمــامٍ قتــل البخــلَ وأحْيَــا الــسماحَا
أَلِــفَ الهَيْجــاء طِفْــلاً وكهــلاً تحــسب الــسيف عليــه وشَــاحا
ولــه مــن رأيـــهِ عَزَمــاتٌ وَصَــلَ اُ ضِــمْنهن نجاحــا[214]

خاف المعتضد ابنه المكتفي با (289هـ - 295هـ) فأودع ابـن المعتـز السِّجن خوفاً من طمعه في الخلافة ، ثم عاد وأطلق سراحه ووصله بألف دينار[215].

(د) <u>أسرته</u>:

أغفلت المصادر الحديث عن أسرة ابن المعتز وزوجته وأولاده ، وقد وقفنـا على ديوانه بحثاً ودرساً فما أعثرنا البحث على عاطفة لابن المعتز يذكر فيها أبناءه أو أحداً من أطفاله . بيد أن في ديوانه تطالعنا بعض الأبيات التي يشير فيهـا إلـى زواجه ومن ذلك قوله:

ونقبتُ عِرسـي بـالطلاق مـصمِّماً وكانت حصاةً بين رجلي وأَخْمَـصي
فأبهْتُ عذالي وفَـاتَ الـذي مَـضَى وهنيتُ عيشاً بعد عيشٍ مـنقصِ[216]

([212]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 72 والصولي ، الأوراق ، ص 119 .
شظى عوده: كسره وحطمه ، كناية عن الانهيار.
([213]) ص 16 من هذا البحث.
([214]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 191 – 192 والصولي ، الأوراق ، ص 124 .
([215]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 98 .
([216]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 532 .

ففي هذين البيتين يذكر ابن المعتز بأنه كانت له زوجة وكانت حياتـه معهـا منقصة كئيبة ؛ فطلقها إلى غير رجعة ، وعاش بعدها سعيداً وهانيء البال.

وفي بيتين آخرين يشير ابن المعتز إلى أنه تزوج بابنة بـسْطَام غيـر أنـه وصفها بأنها امرأة حمقاء وحقود ، وأغلب الظن أن زواجه من ابنة بسطام لم يـدم طويلاً إذ لم يطِب له معها المقام ، يقولُ:

دَســت بنيــةُ بــسْطامٍ عقاربَهــا نحوي ونَامَت على الأضْغان والحنـق
حتـى كـأني قـد فَزِعْـتٌ والـدَها في المَهْدِ فانْقَلَبت عَيْنَاه منَ فَـرَق(217)

وفي كتاب الأغاني تطالعنا رواية لأبي الفرج الأصفهاني لم يشر فيهـا إلـى زواج ابن المعتز لكنه ذكر بأن ابن المعتز " لم يبق له خاف يقرظه ولا عقب يرفع منه"(218).

ونفى ابن حزم أن يكون ابن المعتز قد تزوج معللاً ذلك بأن ابن المعتز كان "حَصوراً" ولذا " لم يقرب امرأة قط ، ولم يكن له قط ولد"(219).

وقد دفع الثعالبي عن ابن المعتز تهمة "الحصر والعنة" ذاكراً بأن ابن المعتز إنما وسِمَ بذلك لأنه كان يَسْتكثر في أوصافه من التشبيه بالعِنّين " حتى اُتّهم بأنّه كان عنيناً ولم يكنه لمكان ابنه عبد الواحد"(220).

وقد عزز الثعالبي حجته بأن أورد بعض تشبيهات ابن المعتز بالعنين التـي جلبت له هذه التهمة، ومن ذلك قوله في وصف الشمس التي تكاد تخرج من الغيم:

تظــل الــشمس ترقبنــا بطــرفٍ مريضٍ مـدْنفٍ مـن خَلْـفِ سِـتْر
تُحـاولُ فتـقَ غَـيْمٍ وهـو يَـأبي كعِنّــين يَــروم نِكَــاحَ بِكْــر(221)

وكقوله في الوحشة:

---

(217) ابن المعتز ، الديوان ، ص 505 .

الفَرَق : الخوف الشديد.

(218) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 275 .

(219) ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، ص 28 .

الحصور: هو الذي لا يشتهي النساء ولا يقربهن لأنه حبس عن النكاح ومنع.

(220) الثعالبي ، خاص الخاص ، قدم له حسن الأمين ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1966م ، ص 132 .

(221) المصدر السابق ، ص 132 وابن المعتز ، الديوان ، ص 361 .

أطـالَ الـدهر فـي بغـدادَ هَمـي وقـد يَـشْقَى المـسافِر أو يعـود
ظللـتُ بهـا علـى رَغمِـي مقيمـاً كعِنـينٍ تُـضَاجعه عجـوز[222]

فنرى الثعالبي يشير إلى أن لابن المعتز ولد يسمى "عبد الواحد" . وقد جهـد باحث معاصر هو الدكتور غصوب خميس في نفي أن يكون لابن المعتز ولد يسمى "عبد الواحد" معللاً ذلك بقوله :" ليس هناك من اسمه عبد الواحد فـي أسـرة بنـي العباس إلا عبد الواحد طلحة بن الموفق بن المتوكل"[223] مما أوقعه في خلط ، إذ أن هناك آخرون ممن اسمهم "عبد الواحد" في أسرة العباسيين ومنهم : عبد الواحد بـن المتقي بن المقتدر بن المفوض بن المعتمد بن المتوكـل[224]. وعبـد الواحـد بـن المهتدي بن الواثق بن المعتصم[225]. وبما أن كتب التراجم قد أهملت جوانب كثيرة من سيرة ابن المعتز ، وبما أن حياته يكتنفها شيء من الغموض ، وما دام أن ابـن المعتز قد أبان في شعره بأنه قد تزوج مرتين وإن لم يكن زواجاً هانئاً وسعيداً فليس ببعيد أن يكون ابن المعتز قد أعقب ولداً.

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أن لابن المعتز ولد يسَمى "العبـاس" وبه يكنى[226] ، وهو ما لا نرجحه ، فقد جبل العرب قديماً على إطلاق الكُنى ، ولا يلزم ذلك أن يكون المكنى والداً ؛ فالمعتز والد كاتبنا – مثلاً – منذ أن كان صـبياً كان والده المتوكل يكنيه "أبا عبد ا ".

(هـ) عمله و كسبه:

أدى إهمال المصادر التي تُعنَى بالسِّير والأخبار لجوانب كثيرة من حياة ابن المعتز ؛ لأن تكون حالته المادية محل خلاف واجتهاد بـين الكتـاب المحـدثين ؛ فالدكتور محمد عبد المنعم خفاجي يقول إن ابن المعتز "لم يكن يعيش في بسطة من

([222]) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 132 .
([223]) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 29 .
([224]) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص 30.
([225]) المصدر السابق ، ص 25 .
([226]) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 82 .

المال"[227] بينما يرى الدكتور طه حسين أن ابن المعتز نشأ "نشأة لا تخلو من نعمة ، نشأ في قصور الخلفاء ، ولكن حياته لم تخل من حرمان . كان منعماً بالقياس إلى الذين كانوا يعيشون في ظلم وذل من أبناء الأمراء والخلفاء . عاش هذه العيشة التي كانت فيها نعمة ولكنها لا تخلو من ذل"[228]. فالدكتور طه حسين يـرى أن ابـن المعتز كان يعيش حياة فيها شيء من اليسر لكنها لا تخلو من الفاقة والحرمان . أما الدكتور شوقي ضيف فيقرر بأنه يخالف من زعموا أن ابن المعتز كان يعيش فـي إقلال بل يرى " أن أباه قد وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولابد أن يكـون قـد وهبـه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى في العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعمـوا أن ابن المعتز كان يعيش في إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه من جدته قبيحة وإن كـان القائد التركي صالح بن وصيف صادر أموالها فقد كانت لها بقية عاشت منها حتـى توفيت سنة 264هـ "[229].

وأغلب الظن أن ابن المعتز كان يعيش حياة كريمة ومكفياً مؤونة العـيش ، فهو بجانب كونه كان يعيش على مال جدته قبيحة التي توفيت في سنة 264هـ ـ ، فقد سبق وأن أشرنا إلى أنه كان يجد كل الرّعاية والعناية في عَهْدَيْ عمه المعتمـد وابن عمه المعتضد اللذين امتد حكمهما حتى سنة 289هـ[230].

على أن ابن المعتز لم يعش غنياً وميسور الحال طوال سني حياته ، فقد ذاق حيناً مرارة الفقر والحرمان يؤكد ذلك أبو بكر الصولي بقوله :" دخلتُ يومـاً علـى عبد ا بن المعتز وقد هدِم أكثر داره وهو ينظر إلى الصناع وكيف يبنون قُبةً له ، فكأنّي أشفقتُ من الغَرْم مع قلة الدخل ، فأومأتُ بالقول إلى ذلك ، فأنشدني مـساعداً لي":

ألا مَـ ــنْ لـ ــنفسٍ وأَشْـ ــجَانِها ... ودَارٍ تَـ ـ ـ ـدَاعَتْ بحيطانِهـ ـ ـ ـا

أظـ ـل نِهـ ـاري فـ ـي شَمْـ ـسِها ... شَـ ـ ــقيا لَقيـ ـ ــاً بتبيانهـ ـ ــا

([227]) المرجع السابق ، ص 80.

([228]) د. طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 395.

([229]) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 330 .

([230]) ص 46 – 47 من هذا البحث .

تُـــسوّد وجهـــي بِتَبييــضِهَا   وتَخْــرب مَــالي بعمرانِهــا[231]

فابن المعتز لسوء حاله يَضْطر للوقوف في حر الشمس وهو يرقب الـصناع الذين يقومون بإصلاح داره التي سقطت بفعل السيل ، وهو يجأر بالشكوى مما يكلفه إصلاح هذه الدار من أموال . وفي ديوان ابن المعتز كذلك نطالع بعـض الأبيـات التي يشكو فيها من العوز والحاجة ومن ذلك قوله:

يـــا قـــوم إنـــي مَـــرزا   وكـــــل حـــــرٍّ مَـــــرزا
خَـــــرْجُ كثيـــــرُ وَدَخْـــــل   نـــــزرُ قِلِـــــم لا أُعـــــزى
فَـــــــالخرج لا يَتَـــــــاهَى   والـــــدخْلُ لا يتجـــــزا[232]

(و) <u>أصدقاؤه</u>:

قضى ابن المعتز شطراً من حياته في اللهو والمجون ومعاقرة الخمر ، تلـك التي لهج بذكرها كثيراً في ديوانه ، ومن ذلك قوله:

خليليَ قم حتى نمـوتَ مـن الـسكْر   بحانــة خمــارٍ مماتــاً بــلا قَبــر
ونــشرب مـــن كَرْخيـــةٍ ذَهَبيـــةٍ   ونصْفَح عن ذَنْب الحوادثِ والـدهْر
ألا رب أيــامٍ مــضَيْنَ حَمِيــدة   بَدْير العَذَارى والصوامع والقَـصْر
وكم من ليالٍ مسْعداتٍ لـذي الهـوى   جَسَرتُ على اللذاتِ فـيهن بالجـسْر
خليلــي لا تطلــبْ فلاحــي وخلّنــي   فما لي عما لُمتِني فيهِ مِنْ صَـبْر[233]

([231]) الصولي ، الأوراق ، ص 116 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 283 .

([232]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 402 .

المرزأ : المصاب في ماله.

([233]) المصدر السابق ، ص 351 .

كرخية: خمرة منسوبة إلى الكرْخ ، وهو حي من أحياء بغداد.

دير العذارى والصوامع والقصر : أسماء مواضع.

الجسر: اسم مكان.

فلاحي : صلاحي.

يدعو ابن المعتز نديمه وجليسه إلى مشاركته الاستمتاع بشرب الراح ، وهو يجوب الحانات والأديرة ملتمساً لذتها ، ويلح كذلك على من يلومه على شـربها أن يكف عن نصحه وإرشاده فلا سبيل عنده لترك الخمر ودنانها.

وابن المعتز أيضاً يجاهر بشربه الخمر وأنه عب من صنوفها ما عب ، وهو سادر في لهوه ، غير عابيء بأحداث الزمان ، يقول:

شَـرِبْنَا بالـصغيرِ وبـالكبير ولَـم نحفَـلْ بأحـداثِ الـدهور
وقـد رَكَـضتْ بناخَيْـلُ الملاهـي وقد طِرْنـا بأجْنحـةِ الـسرور[234]

ويرى ابن المعتز أن الشراب يبعث على الجود والكـرم وينـسي الإنـسان مشاكله وهمومه وفي ذلك يقول :" وإن يطرب إلـى شـربه ذو أدبٍ ، أو ارتـاح لمصافحته ذو حسب ، طال باعه ، ورحب ذراعه ، وزين لنفسه الجود ، وبذل منها فوق المجهود ، وتطوع الإحسان وتناسى جرائم الزمان ، ولم يفكّـر فـي عواقـب الحدثان"[235].

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أن ابن المعتز عكف على حياة اللهو والترف يخفف بهما آلامه ويؤكد من خلالهما لرجال السياسة إنه بعيد عن الـسياسة منْصرف عنها وعن مؤامراتها ومطامعها البعيدة[236]. وقد شاطره الرأي الـدكتور غصوب خميس الذي ذهب كذلك إلى القول بأن الكوارث والشدائد التي ألمت بـابن المعتز – كمقتل جده وأبيه ونكبة جدته قبيحة ونفيه وشعوره بالظلم السياسي الـذي أبعده عن دفة الحكم والسلطان – هي التي دفعت به إلى الخوض في حيـاة اللهـو يخفف بها آلامه ويغرق فيها أحزانه[237].

ويبدو لي أن البيئة التي عاش فيها ابن المعتز وما كانت تزخر به من مجالس اللهو والمجون ، وانتشار الحانات والأديرة والجواري والقيان في بغداد وسـامرا ، هي التي دفعت بابن المعتز لأن يسلك سبيل الحياة اللاهية ، فضلاً عما كان يعـتلج

([234]) المصدر السابق، ص 320.
([235]) ابن المعتز ، فصول التماثيل في تباشير السرور ، المطبعة العربية ، مصر ، ط1 ، 1925م ، ص 10.
([236]) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 83 .
([237]) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 42 .

في نفسه من آلام وأحزان بسبب ما ألم به من نكبات ونوازل ، كل ذلك جعله يجـد في الخمر متنفساً لنسي آلامه وهمومه وأحزانه أليس هو القائل:

ونـشرب مـن كرخيـةٍ ذهبيـةٍ ... ونـصفح عـن ذنـب الحـوادث والـدهْر[238]

وكان لابن المعتز جمع من الأصدقاء ، وكان بعضهم يشاطره مجالس اللهـو والشراب ، ومن هؤلاء القاسم بن محمد بن عبد ا النميري الذي كان ينادم عبد ا بن المعتز ولا يكاد يفارقه ، وكانت بينهما مساجلات بالأشعار.

كتب النميري إلى عبد ا بن المعتز مبدياً فرحته وسروره بتناول الـشراب معه فقال:

أتيتك مسروراً فطابَ لـي الـشُرب ... ولاقتْ مناها عِنْدكَ العـين والقلـب
فجَارت علي الكأس حتـى هجرتُهـا ... ثلاثة أيامٍ كمـا أوجـب الـذنْب[239]

فأجابه ابن المعتز:

أدامَ ا ُ لـكَ الـسرورَ ودامَ لِـي ... بكَ العيشُ والنعما واتـصل القـرب
علامَ هجرتَ الكأس إذ جار حكْمهـا ... ولا لهوَ فِيها أن يكون لها الذنب[240]

ومن أصحابه الذين كانت بينه وبينهم مساجلات بالأشعار أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ؛ فقد كان ابن المعتز يكن له كثيراً من الحب والود ، ويأنس بلقائـه ولا يتحمل الصبر على غيابه .

كتب ابن المعتز إلى أبي العباس يعرفه شوقه إليه ، ويصف مقداره ومنزلتـه في العلم ، مبيناً أن ذكرى أبي العباس لا تفارقه فقال:

ما وَجَد صـادٍ فـي الجِبـال موْثَـق ... بمـاءِ مـزنٍ بـاردٍ مـصَفق
صريح غيـثٍ خـالصٍ لـم يمْـذَق ... إلا كوجـدي بـك لكـن أتقـي
يـا فاتحـاً لكـل عِلْـم مغْلـق ... وصَـيْرَفِياً ناقـداً للمنطـق

([238]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 350 .

كرخية: خمرة منسوبة إلى الكرْخ وهو حي في بغداد.

([239]) المرزباني ، معجم الشعراء ، ص 220 .

([240]) المصدر السابق ، ص 220 .

إنْ قـال هـذَا بَهْـرج لـم يَنْفُـق   إنـا علـى البعـاد والتفـرق

لنلتقي بالذكر إن لم نلتق[241]

فكتب إليه أبو العباس يشكره على قوله ، ويقول له أول أبياتك تـشبه قـول جميل بثينة:

فما صـاديات حمْـن يومـاً وليلـةً   على الماءِ يَغْشَيْنَ العـصي حَـواني

لُوائب لـم يَـصْدرن عنـه لوجهـةٍ   ولاهن مِن بـردِ الحيـاض دَوَانـي

يرينَ حَباب المـاءِ والمـوت دونَـه   فَهـن لأصـواتِ الـسقاةِ رَوَانـي

بأوجدَ منـي عِيـلَ صـبرٍ ولوعـةٍ   عليـكَ ولكـن العـدو عَـداني[242]

ومن أصحاب ابن المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، فقد كتب إليه عبد الله بن المعتز مبدياً فرحته على استخلاف ابنه محمد بن عبيد الله بن طـاهر علـى الشرطة ببغداد فقال:

فرحتُ بمـا أضـعافه دونَ قـدركم   وقُلْتُ عَسَى قد هب من نومه الـدهْر

فترجـع فينـا دولـةً طاهريـةً   كما بدأتْ ، والأمر من بعـده الأمْـر

عـسى الله ، إن الله لـيس بغافـلٍ   ولابـد مـن يـسرٍ إذا مـا انتهـى العـسْر[243]

فكتب إليه عبيد الله قصيدةً منها:

ونحـن إذا مـا نالنـا مـس جفـوةٍ   فمنا على لأوائهـا الـصبْر والْعـذر

وإنْ رجعتْ مـن نعمـة الله دولـةٌ   إلينا فمنا عندها الحمد والـشكْر[244]

([241]) الصولي ، الأوراق ، ص 114 .

مصفق : المصفق هو القدح الملآن.

بَهرج: هو الباطل والرديء من كل شيء.

([242]) الصولي ، الأوراق ، ص 114 .

لوائب : أي يسيل لعابهما .

حباب : الفقاقيع التي تعلو الماء أو الشراب.

([243]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 285 – 286 .

ومن أصحاب شبابه علي بن مهدي الأصفهاني الكسروي وهو أديـب ومـن رواة الأخبار ، وله مع عبد ا بن المعتز مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[245].

كتب ابن المعتز إلى علي بن مهدي يمازحه:

وأنـت أخٌ فـي يـومِ لهـوٍ ولـذةٍ ولستَ أخاً عند الأمور العَظـائمِ[246]

فأجابه علي:

بَلَوْتَ أخـاً فـي كـل أمـرٍ تحبـه ولـم تَبْلـه عنـد الأمـور العَظَـائِم

وإنـــك لونَبَهْتَــه لِملمــةٍ لأنْـساكَ صَـوْلاتِ الأسـودِ الـضراغمِ[247]

ومن أصحابه نطاحة أحمد بن إسماعيل بن الخطيب الأنباري الذي وصفه ابن النديم بأنه "كان بليغاً مترسلاً شاعراً أديباً ، متقدماً في صناعة البلاغة"[248]. ومـن أصدقاء ابن المعتز : جعفر بن قدامة ، وقد روى عنه أبو الفرج الأصفهاني كثيـراً من أخبار ابن المعتز ممثل قول أبي الفرج الأصفهانى: " حدثني جعفر بـن قدامـة قال: كنتُ عند عبد ا بن المعتز ومعنا النميري..."[249]. ومن أصحاب ابن المعتز وأخدان شبابه علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة 275هـ وهو من الأدباء الشعراء وأحد رواة الأخبار[250].

تنقل قلب عبد ا بن المعتز كذلك بين محبوباته وعـشيقاته مـن الجـواري اللائي تعددت أسماؤهن ، فقد روي أنه وقع في شراكهن منذ حداثة سـنه ، وكـان يحلو له منادمتهن مثلما ينادم الأصحاب كما حدث ذلك مع "خُزَامي" التي أشار إلـى أنه كان ينادمها منذ صغره ، يقول:"كانت خزامي جارية الضبْط المغَني تنادمني وأنا

([244]) المصدر السابق ، ص 286 .

([245]) المرزباني ، معجم الشعراء ، ص 149 .

([246]) المصدر السابق ، ص 150 .

([247]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

([248]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 244 .

([249]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج 10 ، ص 280 وما بعدها .

([250]) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج5 ، ص 430 والمرزباني ، معجم الشعراء ، ص 141 .

حدث"[251]. ومن محبوباته "نَشْر" وله فيها أشعار عبر فيها عن مكنون حبه لهـا ، يروي ذلك صديقه جعفر بن قدامة فيقول :" كُنا عند ابن المعتز يوماً وعنـده نَـشر وكان يحبها ويهيم بها"[252] ومن شعره فيها:

فَديتُ مَنْ مَر يمشي فـي معَـصْفَرةٍ   عَـشِيةً فـسقَاني ثُـم حَيـاني
وقـال تَلْعَـب جَنَـابي فَقُلْـتُ لـه: مـن جَـاءَ بالوَصْـل لـم يَلْعـبْ بِهجْـــــــــــــــــــــــران[253]

ومن محبوباته "بنت الكراعة" وهي إحدى الجواري المغنيات ، يـروي أبـو الفرج الأصفهاني أن ابن المعتز "كان يحب غناءها ويستظرفها ويحبهـا ويواصـل إحضارها"[254].

انقطعت بنت الكراعة مرة عن ابن المعتز فقال:

ليتَ شعري بِمَـن تَـشَاغَلْتَ بَعْـدي   وهــو لا شَــك جاهــلٌ مَغْــرور
هكــذا كنــتُ مثلــه فــي ســرورٍ   وغداً في الهموم مِثْلـي يـصير[255]

وابن المعتز فوق حبه للخمر والمرأة شهر كذلك بحبِّ الصيْد والقنص.

(ز) صفاته وأخلاقه:

أجمع من وصفوا ابن المعتز على أنه كان :"شديد السمرة ، مسنون الوجـه، يخضب بالسواد"[256].

وقد وصفه معاصره أبو بكر الصولي بأنه من فضلاء بني هاشم ، وأنه كان لا ينال أحداً بمذمة أو عيب ، فقال : "كان يقدم بني هاشم ويفضلهم ، وما سمعته في حال من الأحوال ينقص أحداً ولا عرض بذلك ولا أومأ إليه"[257].

([251]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج 10 ، ص 284 .

([252]) المصدر السابق ، ص 280 .

([253]) المصدر السابق ، ص 281 .

([254]) المصدر السابق ، ص 284 .

([255]) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 284 .

([256]) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 224 وابن خلكان ، وفيـات الأعيـان ، ج3 ، ص 79 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240.

([257]) الصولي ، الأوراق ، ص 108 .

ومن أخلاق ابن المعتز الكرم ، فهو رجل جـواد يـستقبل ضـيفه بالبـشر والترحاب ، ويحتفي به أشد الحفاوة ، يقولُ:

وضَــيْفٍ رَمَتْنــي ليلــةٌ بــسوادِهِ فحياه بِـشْرى قَبْـلَ زَادي وَحَيْيْـتُ
وباتَ بمَمْـسَى ليلـةٍ غـابَ شَـرها وقمتُ فأطْعِمْتُ الثّناءَ وأُسْـقِيتُ[258]

وابن المعتز كذلك يفتخر في ديوانه بأنه يؤثر أصـحابه وأصـدقاءه بـزاده وطعامه ، يقول:

وأوثِــر صَـــاحِبي بفــضل زادي وأُحْــي الــنفس بالبلْــل القَلِيــل[259]

وهو فوق ذلك يرى أن المال ما هو إلا وسيلة لجاب الثناء والشكر ، ونيـل الأجر والثواب من ا تعالى ، لذا فهو لا يرد محتاجاً أو طالب معروف مخافة الفقر والعدم ، يقول:

ومــا المــالُ إلا للثنــاءِ وللــشكْر وللطالب المَطْلوب فيه نَـدَى الأَجْـر
ألا قُقــدتْ نَفْــسي إذا أَبِــتُ دافعــاً بَمنْعِي أخَا فَقرٍ أخاف أذى الفَقْـر[260]

ومن أخلاق ابن المعتز القناعة بالقليل، والابتعاد عن الطمع والتحذير منـه، يقول : " من تجاوز الكفاف لم يغنـه الإكثـار[261]" و "ربمـا أورد الطمـع ولـم يَصْدر[262]" كما يرى أن الحرص يقلل من شأن المرء وينقص من قدره وفي ذلـك يقول :"الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في حظه[263]" وكأني بهذه الحكمة تشبه قول أبي العتاهية الشاعر:

تعـالى ا ُ يـا سـلمَ بـن عمـرو أذل الحـرص أعْنَـاقَ الرّجـال[264]

([258]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 133 .
([259]) المصدر السابق ، ص 554 .
([260]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 346 .
دافعاً : مانعاً. **أخا فقر**: إنساناً فقيراً.
([261]) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 13 ، ص 85.
([262]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
([263]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
([264]) أبو العتاهية ، ديوان أبي العتاهية ، دار صادر ، بيروت ، 1980م ، ص 337 .
سلم بن عمرو: هو الشاعر سلم الخاسر أحد معاصري أبي العتاهية.

وابن المعتز في ديوانه يحذّر من الحرص ، ويدعو إلى القناعة إذ ليس للإنسان إلا ما قسمه ا ، وقدره له في الأزل ، يقول:

يـا بنـي البَغْـي والتكـا ثُـر والحِـرْصِ والبَطَـر

اجْهَـدوا كـل جهْـدِكمْ ما لكُم غير ما قُـدِرْ[265]

ومن أخلاقه مداراة الحقود ، وكسب عطفه واستمالته ، يقول:

ألا رب دساسٍ إلى الكيد حاملٍ ضَبابَ حقُودٍ قد عَرَفْتُ وداريْتُ

فعادَ صَدِيقاً بعد ما كان شَانِئاً بعيد الرضى عَني فَصَافى وصَافيتُ[266]

ومن أخلاق ابن المعتز السعي إلى المجد والعلا ، والترفع عن الدنايا ، يقول:

وخِطةِ رِبْحٍ في العلا قد أَجَبْتُها وخِطةِ خَسْفٍ ذَاتِ بَخْسٍ تَأَبيْتُ[267]

ومن أخلاقه الصبر على نوائب الدهر ، يقول:

مَر صَبْري على الحَوَا دِثِ حتى حَلاَ الصبْر[268]

فابن المعتز يقول: إنه صبر على حوادث الأيام حتى صار لا يشعر بمرارتها.

ومن أخلاق عبد ا بن المعتز ، أنه يكتم الأسرار ولا يذيعها ، بل نراه يحذر من إفشاء السر ، يقول: " الأسرار إذا كثُر خزانها ازدادت ضياعاً"[269].

نخلص إلى أن ابن المعتز نشأ نشأة وإن نعم فيها بترف العيش وموفور النعمة في أول عمره ، فهي كذلك لا تخلو من مآسي وحرمان ، فقد شهد الدماء المسفوكة مثل: دم جده ووالده ، وشُرّد ونفي إلى مكة ، وبرغم هذه الحياة العسيرة

([265]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 387 .

([266]) المصدر السابق ، ص 131 .

الضباب: جمع ضب وهو الحقد الخفي ، **الشانيء** : المبغض .

([267]) المصدر السابق ، ص 131 .

الخطة : الطريقة . **الخسف** : الظلم . **بخس** : نقص . **تأبيتُ** : رفضتها وابتعدت عنها.

([268]) ابن المعتز ، الديوان ، ص 387 .

([269]) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 13 ، ص 85.

في بعض جوانبها ؛ فقد كان ابن المعتز صبوراً على نوائب الدهر، شديد الاعتـزاز بنفسه ، كريماً جواداً ، يؤثر أصحابه الذين تعددت أسماؤهم ومشاربهم ، وقد عكف ابن المعتز كذلك في بعض سني حياته على حياة اللهو والعبث يخفف بها وطأة مـا اعتلج في نفسه من هموم وآلام ، إلا أن ذلك لم يمنعه من الإقبـال علـى الـدرس والتحصيل وتثقيف نفسه بتتلمذه على الأعلام من علماء عصره.

المبحث الثاني : ثقافته وتعليمه

تلقى ابن المعتز تعليمه على جمع من علماء عصره ، وكان أول من تتلمـذ على يديه في عهد والده هو : أبو جعفر محمد بن عمران الكوفي النحوي ، وقد كان أبو جعفر نحوياً عارفاً بالقراءة والعربية بعيد النظر ، عالماً بالحديث والأثـر[270]. وروى محمد بن عمران :"أنه حين كان يؤدّب ابن المعتـز أقـرأه يومـاً سـورة

(270) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج6 ، ص 686 .

"والنازعات" وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين في أي سورة أنتَ؟ فقل له: أنا في السورة التي تلي صورة "عَبَسَ" ، فلما سأله أبوه المعتز عن ذلك قال له: أنا في السورة التي تلي "عَبَسَ" فقال له: من عَلَمَكَ هذا؟ فقال : مؤدبي أبو جعفر فأمر له بعشرة آلاف دِرْهَم"[271].

وعقب ابن عمران تأدب ابن المعتز على يد أحمد بن سعيد بن عبد ا الدمشقي الذي كان لا يكاد يفارقه[272] . روى أحمد بن سعيد قائلاً :"كنتُ أُؤدّب أولاد المعتز ، فتحمل أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري على قبيحة أم المعتز بقوم سألوها أن تأذن له فى أن يدخل إلى ابن المعتز وقتاً من النهار ، فأجابت أو كادت تجيب ، فلما اتصل الخبر بي جلستُ في منزلي غضبان مفكراً لما بلغني عنها ، فكتب إلي أبو العباس عبد ا بن المعتز ، وله إذ ذاك ثلاث عشرة سنةً:

أصْبحتَ يا ابنَ سعيدٍ حزْتَ مَكْرمةً عَنْها يقصّر من يَحْفَى وينْتَعِلُ
سَرْبَلْتني حكمةً قد هَذبت شيمي وأجِجَتْ غَرْبَ ذِهْني فهو مشْتَعِلُ
أكون إنْ شِئْتُ قُساً في خَطابتهِ أو حارثاً وهو يوم الفخْر مرْتَجِلُ
أو الخليلَ عَروضياً أخا فِطَنٍ أو الكِسَائي نَحْوياً له عِلَلُ
تَغْلي بداهةُ ذهني في مرَكبها كمثل ما عرقَتْ آبائي الأولُ
وفى فَمي صارمُ ماسَله أحدُ من غِمدهِ فَدَرى ما العيشُ والجَذَلُ
عقْباكَ شكْرٌ طويلٌ لا نَفَادَ له تَبقَى معالمه ما أطت الإبلُ"[273]

هذه الأبيات تظهر حب ابن المعتز لأستاذه أحمد بن سعيد الدمشقي، واعترافه بفضله عليه ؛ لأن ابن سعيد تعهد ابن المعتز منذ حداثة سنه، وهو الذي روى أدب

([271]) المصدر السابق، الصفحة نفسها وأبو البركات الأنباري، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد،1959م، ص141وابن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج3، ص166.

([272]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 وأبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء ، ص 161 .

([273]) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج1 ، ص 510 ، 511 ، 512 .

أطت الإبلُ: أنت من شدة الحنين أو التعب.

ابن المعتز بعد قتله فقد عاش ابن سعيد حتى سنة 306هـ[274] كما تدلنا على أن شاعرية ابن المعتز تفتقت منذ الصّغر. وتظهر هذه الأبيات كذلك حجم ثقافة ابن المعتز فى هذه المرحلة المبكرة من عمره، فهو يقولُ:إنّه قادرُ على أن يكون خطيباً مفوهاً كقُس بن ساعدة الإيادي، وشاعراً مجيداً كالحارث بن حلزة، وعروضياً كالخليل بن أحمد الفراهيدي، ونحوياً ضليعاً كالكسائي، وهو يفتخر فوق ذلك بأنه فصيح اللسان، بليغ القول، ثم يختم قصيدته بإجزاء الشكر والثناء لأستاذه ابن سعيد وفاء وعرفاناً له.

ومن مؤدبي ابن المعتز أحمد بن جابر بن يحيى البلاذري ، أحد مشاهير المؤرخين ، وأحد العلماء الفضلاء والشعراء الرواة المعروفين بالحذق والإتقان[275].

توفي البلاذري في سنة 279هـ وله من التصانيف "فتوح البلدان" و"أنساب الأشراف" في عشرين مجلداً [276].

ومن أساتذة ابن المعتز محمد بن يزيد المبرّد[277]، مؤلف كتاب "الكامل" وشيخ النحو وأحد من حفظوا علم العربية وصفه الخطيب البغدادي فقال:" كان عالماً فاضلاً موثوقاً به فى الرواية ، حسن المحاضرة ، مليح الأخبار ، كثير النوادر"[278] وقال عنه ياقوت الحموي:"كان إمام العربية ببغداد وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني ، وكان حسن المحاضرة ، فصيحاً بليغاً ، مليح الأخبار ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر ، فيه لباقة وظرافة"[279].

([274]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وأبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء ، ص 161 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص9.

([275]) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج2 ، ص 239 .

([276]) المصدر السابق ، ص 237 ، 239 وابن النديم ، الفهرست ، ص 222 .

([277]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 179 والصولي ، الأوراق ، ص 107 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وابن الجوزي ، المنتظم ، ج 13 ، ص 84 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76 وأبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء ، ص 161 والمرزباني ، معجم الشعراء ، ص 405 وابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3، ص 166 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 222 وابن شاكر ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240.

([278]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج3 ، ص 380 .

([279]) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج7 ، ص 81 .

ويذكر ابن المعتز أن المبرد كان كثير المجيء إليه ، متى أتى دار إسماعيل القاضي لقربها من دار ابن المعتز ، يقول:"كان أبو العباس محمد بن يزيد النحـوي المبرد يجيئني كثيراً إذا خرج من عند إسماعيل القاضي لقرب داره من داري"[(280)].

يؤكد ذلك أبو بكر الصولي فيروي: أن أبا العباس المبرد كان كثير المجـيء لدار ابن المعتز والإقامة عنده ، وكان ذلك محبباً للمبرد لكثرة مجيئه إلى إسـماعيل بن إسحاق القاضي ، وقرب القاضي من منزل ابن المعتز[(281)].

ونلحظ أن ابن المعتز قد روى عن أستاذه المبرد فى كتابه "طبقات الشعراء" حوالي إحدى عشرة مرةً ، كما أشار كذلك إلى تتلمذه على المبرد إذ أورد في كتابه قصيدة للشاعر أبي نواس مطلعها:

لـست لـدارٍ عَفَـتْ وغيرهـا ضَـرْبان مـن قطْرهـا وحاصـبها

ثم شرع يشرح القصيدة ، ويفسّر أبياتها إلى أن قال:"أنـشدني المبـرد هـذه القصيدة وفسر لي هذا التفسير"[(282)].

ومن مؤدبي ابن المعتز عالم النحو واللغة أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار المشهور بثعلب[(283)]، وصفه ياقوت الحموي فقال:"إمام الكوفيين فى النحو ، واللغة ، والفقه والديانة"[(284)] وقال عنه ابن النديم : لزم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة فحذق العربية ، وحفظ كتب الفراء وأتقن النحو والشعر والمعاني والغريب[(285)]. ويـصف أبو بكر الصولي قوة الصلة التي تربط ابن المعتز بأستاذه ثعلب فيقول:"وكان قد لقي أبا العباس أحمد بن يحيى مرات ، وكان يبعث إليـه فيـسأله عـن الـشيء بعـد

([280]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 .

([281]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

([282]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 179 .

([283]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وابن الجـوزي ، المنـتظم ، ج13 ، ص 84 – 85 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76 وأبو البركـات الأنبـاري ، نزهـة الألباء ، ص 161 وياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج2 ، ص 245 وابن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 166 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 222 وابن شـاكر الكتبـي ، فـوات الوفيات ، ج2 ، ص 240.

([284]) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج2 ، ص 245 .

([285]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 146 .

الشيء"[286]. وقد أشار ابن المعتز كذلك إلى شدة تعلق أستاذه به فقال:"وكان يتشوقني ويعتذر من تأخره عنّي"[287]. وسبق أن أشرنا إلى أن أبَا العباس أحمد بن يحيى ثعلب بجانب كونه أستاذ ابن المعتز ومؤدبه يعد كذلك أحد أصدقائه ، وقد جرت بينهما مساجلات بالأشعار[288].

ومن أساتذة ابن المعتز الذين نهل من معينهم أبو عبد الله أحمد بن أبي فنن[289] ، وقد أفرد له ابن المعتز ترجمة منفصلة في كتابه "طبقات الشعراء" أثنى عليه فيها ووصفه بأنه كان:"شاعراً مقْلِقاً مطبوعاً"[290]. ويلاحظ أن ابن المعتز قد روى عن أستاذه ابن أبي فنن ثلاث مرات في كتاب "طبقات الشعراء".

ومنهم الحسن بن علي العنزي[291] . وممن خُص بهم ابن المعتز من المؤدبين أبو سعيد محمد بن هُبَيْرة الأسدي المشهور بصعودا ، أحد العلماء بالنحو واللغة على مذاهب الكوفيين ، وكان منقطعاً إلى عبد الله بن المعتز[292]. وقد ذكر ابن النديم أن صعودا أنشأ رسالة إلى تلميذه ابن المعتز ، فيما أنكرته العرب على أبي عبيد القاسم بن سلام ووافقته فيه ، كما أشار ابن النديم كذلك إلى أن لصعودا كتاب بعنوان "مختصر ما يستعمله الكاتب" بخط ابن الحصاني وإصلاح ابن المعتز[293]. ويروي الصولي أن ابن المعتز أخذ عن صعودا اللغة والغريب[294]. وبجانب هؤلاء المؤدبين الذين تقدم ذكرهم أخذ ابن المعتز عن جمع من الأعراب الفصحاء الذين كانوا يقدمون سر من رأى[295].

([286]) الصولي، الأوراق ، ص 107 .

([287]) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95.

([288]) ص 54 من هذا البحث .

([289]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

([290]) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 361 .

([291]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95.

([292]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 وابن النديم ، الفهرست ، ص 145 .

([293]) ابن النديم ، الفهرست ، ص 145 .

([294]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

([295]) المصدر السابق ، الصفحة نفسها وابن النديم ، الفهرست ، ص 229 .

وقد كان ابن المعتز وافر الثقافة ، غزير الاطلاع "وكانت داره مغاثاً لأهـل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة"[296].

وتظهر سعة علم ابن المعتز وغزارته في أنـه روى فـي كتابـه "طبقـات الشعراء" عن نحو مائتين وثمانية عشر راوياً، كما استـشهد بحـوالي ثلاثـة آلاف وثلاثمائة وخمسين بيتاً من الشعر ، وقلما يتوافر ذلك في أي مصدر أدبي آخر، وهو ما سنناقشه فى الدراسة الوصفية للكتاب ضمن فصلنا القادم إن شاء ا .

ولعل ابن المعتز قد استمد هذه الثقافة من نشأته في بيت مـن بيـوت العلـم والأدب، فتذكر المصادر أن أباه المعتز كان عالماً وأديباً جهبذاً.

روى الطبري عن محمد بن أبي العباس الطوسي إنه قال:"ما رأيـتُ رجـلاً على منبر أحسن قواماً ، ولا أحسن بديهاً ، ولا أجهر صوتاً ، ولا أعذب لساناً ، ولا أخطب من المعتز با "[297]. وقد أثنى الإمام أحمد بن حنبل على والده المعتز "فـي جودة ذهنه ، وحسن فهمه وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل"[298]. لذا فقد تبارى الشعراء فى الثناء على ثقافة ابن المعتز ووصف عبقريته وموفـور علمـه وأدبه ومن ذلك قولهم:

لِلـــه دَرك مِـــن مَلْـــكٍ بِمَـــضْيَعةٍ نَاهيكَ في العِلْـمِ والآدابِ والحَـسَبِ
مـا فيـهِ لَـوٌ ولا لَـوْلاَ فتنقـصه وإنمـا أدركَتْـه حِرفَـةُ الأدبِ[299]

كما شهد له من رووا أخباره بالعبقرية والنبوغ قال عنه الصولي :"ما رأيـتُ عباسياً قط أجمع منه ، ولا أقرب لساناً كان من قاب ، وكـان يقـدم أهـل العلـم ويؤثرهم"[300].

([296]) الصولي ، الأوراق ، ص 107.

([297]) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج9 ، ص 223 .

([298]) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 16 .

([299]) البغدادي، تاريخ بغداد،ج10، ص 101وابن خلكان، وفيـات الأعيـان، ج3، ص177وابـن الجـوزي، المنتظم،ج13، ص89 وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب،ج1، ص223 مع اختلاف فى رواية البيتين.

([300]) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

وقال عنه أيضاً:"من نشأ فى الرواية والسماعة ، يكْثر فى مجلسه من حـدثنا وأخبرنا"[301]. وقد أثنى أبو الفرج الأصفهاني كذلك على ثقافة ابن المعتـز وسـعة علمه فقال :"مشهور فى فضائله وآدابه شهرة تشرك فى أكثـر فـضائله الخـاص والعام"[302]. ووصف الخطيب البغدادي تمكن ابن المعتز من الأدب والعلم فقـال:" كان متقدماً في الأدب ، غزير العلم ، بارع الفضل"[303].

ومحصول القول فإن ابن المعتز قد أقبل على الدرس والتحصيل بتتلمذه على الأعلام من علماء عصره ؛ فنهل من فنون العلم والأدب ما مكنه من أن يترك مـن الآثار والمؤلفات ما يدل على ثقافة واسعة ، وإحاطة كبيرة بكثير من ألوان الفنـون والآداب.

المبحث الثالث : آثاره ومؤلفاته

استطاع ابن المعتز بفضل ثقافته العميقة وسعة اطلاعه ، وعلو كعبـه فـي ميدان العلم والمعرفة، أن يترك آثاراً أدبية ضخمة تكشف عن عبقرية فذة ، وذكـاء حاذق ؛ فقد أحصى له المؤرخون طائفة من المصنفات النفيسة فـي الأدب والنقـد والبلاغة منها: كتاب " الزهر والرياض" وكتاب "البديع" وكتاب "مكاتبات الإخـوان بالشعر" وكتاب "الجوارح والصيد" وكتاب "السرقات" وكتاب "أشعار الملوك" وكتاب

---

(301) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(302) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 274 .

(303) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95.

"الآداب" وكتاب "حِلي الأخبار" وكتاب "طبقات الشعراء" وكتاب "الجامع في الغنـاء" كما له "إرجوزة في ذم الصبوح"[304].

ومن مؤلفات ابن المعتز كذلك كتاب "فصول التماثيل في تباشير السرور"[305] وكتابي "الفصول القصار" و"المؤْتَلِف"[306].

وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من كتب ابن المعتز ومؤلفاته قد ضاع مع مـا ضاع من تراث ، فمن كتبه الضائعة والمفقودة : كتاب "الزهر والرِّيـاض" وكتـاب "مكاتبات الإخوان بالشّعر" وكتاب "الجوارح والصيد" وكتاب "السرقات" وكتاب "حِلي الأخبار" وكتاب "الفصول القصار" وكتاب "المؤْتَلِف" .

وسنعرض فيما يلي بالدرس والمناقشة لأهم كتبه المطبوعة:

(أ) ديوانه:

خلف ابن المعتز ديواناً ضخماً يزيد في عدد أبياته عن خمسة آلاف بيـت ، ويرجع الفضل في العثور على ديوان ابن المعتز وشعره إلى أبي بكر محمـد بـن يحيى بن عبد ا الصولي فهو الذي اهتم بجمع شعر ابن المعتز وروايته[307]. وفيما يأتي إشارة لطبعات الديوان:

---

(304) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 وابن النديم ، الفهرست ، ص 229 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 110 وابـن العمـاد الحنبلـي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 223 .

(305) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 11 ودائرة المعارف الإسلامية ، ص 390.

(306) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 120.

(307) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95 وأبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء ، ص 161 .

الطبعة الأولى:

طبع ديوان ابن المعتز لأول مرة في مصر في مجلدين وذلك في سنة 1891م[308].

الطبعة الثانية:

طبع ديوان ابن المعتز للمرة الثانية في مطبعة الإقبال ببيروت وذلك في سنة 1332هـ بإشراف محيي الدين الخياط ، وقد اشتملت هذه الطبعة على تفسير لبعض الألفاظ الغريبة[309].

الطبعة الثالثة:

طبع الديوان طبعة ثالثة وكانت كذلك في بيروت في سنة 1961م ، تحت عنوان "ديوان ابن المعتز" وبتقديم كرم البستاني ، وهي في جزء واحد وتقع في خمسمائة وخمس صفحات ، وقد اشتملت هذه الطبعة على بعض الشروح اللغوية[310]. ثم طبع الديوان أخيراً في مطبعة دار الجيل ببيروت وذلك في سنة 1995م ، في مجلد واحد وتحت عنوان "ديوان ابن المعتز" بشرح الدكتور يوسف شكري فرحات ، واشتملت هذه الطبعة على مقدمة موجزة عن حياة الشاعر ، ورتّبت القصائد على حروف الهجاء ، ووضع لكل قصيدة عنواناً منفصلاً ، كما اشتملت هذه الطبعة على بعض الشروح المقتضبة وَوضِعَ الوزن الخاص بكل قصيدة ، هذا فضلاً عن احتوائها على فهرسٍ بالأوزان والقوافي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطبعة هي الطبعة التي اعتمدناها في استخلاص وانتقاء شواهدنا الشعرية بوصفها أحدث وأجود الطبعات التي عثر عليها الباحث لما تضمنته من المزايا التي أشرنا إليها سابقاً ، فضلاً عن جودة طباعتها مما يجعل تناول الديوان سهلاً وميسراً.

---

(308) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ص 381 وحنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 551 ودائرة المعارف الإسلامية ، ص 390.

(309) د. عبد الرحمن رأفت الباشا ، شعر الطرد ، ص 337 .

(310) د. غصوب خميس ، عبد الله بن المعتز شاعراً ، ص 157 وحنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، ص 722 .

نظم ابن المعتز في كل أغراض الشعر وموضوعاته المعروفة منذ القـديم ، نظم في الغزل والمديح والفخر والهجاء والرّثاء والطرد والزهد والوصف والعتاب. وقد أثنى النقاد والمؤرخون على جودة شعر ابن المعتز وروعة معانيـه وسـهولة ألفاظه . فقال عنه الصولي الذي جمع ديوانه :"شاعر مفلق محسن حـسن الطبـع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ والعلم ، يحسن في النظم والنثر ، من شعراء بني هاشـم المتقدمين".[311] وقال ابن خلكان عن فحولة ابـن المعتـز واقتـداره علـى قـول الشعر:"كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر ، قريب المأخـذ ، سـهل اللفظ ، جيّد القريحة ، حسن الإبداع للمعاني"[312] وقال ابن كثير يصف شاعرية ابن المعتز:"كان شاعراً منطيقاً فصيحاً بليغاً مطبقاً"[313].

وقد جاء شعر ابن المعتز صدى لتلك البيئة المترفة التي عاش فيها وتأثر بها، ومن ثم طفق يعبّر عنها بشعره لذا نراه يكثر من فن الوصف الـذي أبـدع فيـه، وبخاصة وصف القصور والحدائق والبساتين، ومجالس الأنـس واللهـو ووصـف الصيد والطير، والهلال، والكواكب، والوحوش. ومن ذلك قوله في الهلال:

انظـرْ إليـهِ كـزَوْرقٍ مـن فـضةٍ قـدْ أَثْقَلَتْـه حمولـةٌ مـن عَنْبـرِ

شهر ابن المعتز بروعة التشبيه وجودة الاستعارة فكانـت تـشبيهاته مثـار إعجاب كثير من النقاد ، يصف الباقلاني تفرد ابن المعتز بجمال التـشبيه فيقـول:" وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر ، وقد تتبع فـي هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء"[314] وعن تـشبيهات ابن المعتز يقول أبو بكر الصولي :"وهو حسن التشبيه"[315] ويـصف ابـن تغـري الأتابكي براعة ابن المعتز في فن التشبيه فيقول:"الشاعر الأديب صـاحب الـشعر البديع والتشبيهات الرائعة"[316].

---

(311) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

(312) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76.

(313) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 109 .

(314) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، 1954م ، ص 276.

(315) الصولي ، الأوراق ، ص 113 .

(316) ابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 166 .

ومن روائع تشبيهاته قوله في وصف المحبوبة:

وَيَخْجَـلُ حِيـنَ يَلْقَـانِي كَـأني ... أُنَقِّـطُ وَجْنَتَيْـهِ بجُلَّنَـار[317]

فمحبوبته تحمر خداها حياء وخجلاً حين تلتقيه وتشبه في شدة حمرتها زهر الرمان الأحمر اللون.

ومن بديع شعره وأوصافه قوله:

هَاجَت بكاءَكَ بعد الصبر منزلةٌ ... عفت معالمَها الأمطار والمَوْر

بعد المناكير تبدو لي مَعَارفها ... كأنها مُصْحَفٌ قد صح مَنْشُور

وَأَقْفَرتْ غَيْرَ أَحْجَارٍ معطلةٍ ... كأن صاليَها بالكحْل مَذْرور

سَادتْ بِلادك بلداناً وإنْ عمرَتْ ... لا مثلَ غفرك مأهولٌ ومعمور

تُضَاحِك الشمس أنوار الرِّياضِ بها ... كأنما نُثِرتْ فيها الدَنانِير

وتأخذُ الريح من دخانها عَبَقاً ... كأن تُرْبتها مِسكٌ وكافور

وقد أَرِقْتُ لبرق جَادَ عَارضه ... كأنه بسيوفِ الهندِ مَنْحور[318]

عندما رأى الشاعر ديار الحبيبة استبد به الشوق والحنين فانسابت دموعه بغزارة ، هذه الديار التي تبدلت وتغيرت بفعل الأمطار والرياح وأصبحت جرداء كأنها صحف جمعت في كتاب ، وهيهات بين هذه الدار المتناثرة الأحجار وبين تلك البلدان التي تتفتح فيها الأزهار وتبدو ألوانها تحت أشعة الشمس كأنها الدنانير اللامعة ، ونرى الريح القادمة من تجاهها محملة بالشذى والعطر الذي يذكي الأنوف

---

(317) ابن المعتز ، الديوان ، ص 351 .

(318) المصدر السابق ، ص 376 .

هاجت: أثارت.

عفت: محت.

المور: التراب حين تثيره الريح.

المناكر: الأشياء التي ينكرها الإنسان.

المصحفُ: ما جمع من الصحف بين دفتي كتاب.

صاليها: من صلى النار : قاسى حرها.

العارض: السحاب المعترض في الأفق.

رائحة ومشماً ، ثم يصيب الشاعر الأرق والسهاد لرؤية ذلك البرق الذي يلوح مـن قبل ديار المحبوبة هذا البرق الذي تنهمر غيومه بغزارة كأنه ذُبح بالسيوف.

ولعل البيت الثاني يشبه قول لبيد بن ربيعة العامري في وصف ديار المحبوبة ضمن معلقته المشهورة:

فَمَـدَافِع الريـان عـرِّيَ رَسْـمها   خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِي سِـلامها[319]

وتشبيهات ابن المعتز التي شهد بجمالها وروعتها النقاد القدامى مـن أهـل الأدب والشعر ، لم ترق في مجملها لبعض النقاد المحدثين ، فالدكتور طـه حـسين يشهد لابن المعتز بتفوقه في فن الوصف ، غير أنه يرى أن ابن المعتز جاء متكلفـاً في تشبيهاته وهو عنده يكتفي بالقريب من التشبيه ولم يكن بعيد الغور كـأبي تمـام وابن الرومي . فعنه يقول:"وهو شغوف بفن خاص من فنون الشعر ، يظهر أنه قـد تفوق فيه على الشعراء ، وهو فن الوصف المادي بنوع خاص ، ووصف الأشـياء المادية الجميلة التي تلائم هواه ، وهو من أكثر الشعراء تشبيهاً ، ومن أبرعهم فـي هذا التشبيه ، وإن كان في شعره شيء من التكلف والبحث والغوص ، فهو إنما ينفق هذا التكلف في إجادة التشبيه وإجادة الاستعارة لكنه ليس كأبي تمام وابـن الرومـي متعمقاً باحثاً عن المعاني العويصة ، التي يكد الإنسان في فهمها ويجد مشقة في ذلك ، إنما هو يبحث عن طرائف الأشياء ، ووجوه تشبيه قريبة ، يفهمها كل إنسان فـي سهولةٍ ويسر وفي غير مشقة ولا عناء"[320].

وقد شاطر الدكتور طه حسين الرأي كذلك الدكتور يوسف شكري فرحـات الذي وقف هو الآخر عند تشبيهات ابن المعتز ، مادحاً حيناً ، وقادحاً حينـاً آخـر، ومن ذلك قوله:" وإنه أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات ، وهو في الواقع مـن أكثر الشعراء وصفاً جميلاً وتشبيهاً دقيقاً ، على ما يكتنف تشبيهاته أحياناً من تـأنق يجنح به ناحية التكلف"[321]. على أن ابن المعتز قد أنصفه أبو الفرج قديماً ورد على خصوم مذهبه ، ورأى أبو الفرج أن لا غرابة في أن يصور ابـن المعتـز بيئتـه

---

(319) لبيد بن ربيعة ، ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص 163.

(320) د. طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 398.

(321) ابن المعتز ، مقدمة الديوان ، ص 8 .

بالألفاظ والأساليب التي تروقه ، وهو يرى كذلك أن ابن المعتز لا يقل في شاعريته عن فحولة المتقدمين من الشعراء . يقول فيه :" وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ماهم بسبيله ، وليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية . فليس يمكن واصفاً لصبوح ، في مجاس شكل ظريف ، بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ، ومنضود من أمثال ذلك ... أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جعد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يغْمَط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط في البعض وقصر في اليسير ، وينسب إلى التقصير في الجميع ، لنشر المقابح وطي المحاسن فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجد مساغاً ... وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشيء أحسنه ، ويلْغِى ما لم يستحسنه ، فليس مأخوذاً به"(322).

(ب) <u>كتاب البديع</u>:

يعد كتاب البديع من أهم آثار ابن المعتز في البلاغة والبيان العربي ، وقد ألفه في سنة 274هـ(323). وهدف ابن المعتز من تأليف هذا الكتاب لإثبات أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنون البديع ، وأن البديع كان مستخدماً في أساليب الكلام قبل المحدثين ، يقرر ذلك في مقدمة الكتاب فيقول:" قد قدْمَنَا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم

---

(322) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 274 – 275.

(323) ابن المعتز ، البديع ، تقديم وشرح وتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1990م ، ص 57 .

فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف بـه حتـى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعـض ، وتلـك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[324].

فابن المعتز قد رد على من زعموا بأن البديع هو من ابتكار المحدثين – وهم شعراء عصره – ودحض هذه الفرية بأن أثبت للعلماء والشعراء والنقاد أن البديع لم يكن من ابتكار المحدثين ، وإنما هو فن ، سبق إليه السابقون مـن الـشعراء منـذ العصر الجاهلي ، ومنذ أن قُرض الشعر، كما يلْحظ البديع فـي القـرآن الكـريم، والأحاديث النبوية وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم.

ونلحظ أن ابن المعتز يشير في كتابه طبقات الشعراء ، إلى أن بشار بن برد هو أول من جاء بالبديع ، وأن مسلم بن الوليد أول من توسع فيه ، ثم أعقـبهم أبـو تمام فأفرط فيه ، يقول في ترجمة مسلم بن الوليد:"هو أول من وسـع البـديع ؛ لأن بشار أول من جاء به ، ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيـه وتجاوز المقدار"[325].

وقد زعم باحث محدث هو الدكتور داود سلوم أن ابن المعتـز ألـف كتـاب البديع لهوى في نفسه مبعثه الكراهية لأبي تمام وحسده له على شهرته التي ذاعـت بفضل إكثاره من استعمال البديع وتعقيده الصور الشعرية ، فأراد ابـن المعتـز أن ينتقص من شاعرية أبي تمام بإثبات أن ما جاء به أبو تمام ليس ابتكـاراً بـل هـو موجود في شعر الجاهليين والإسلاميين والأمويين والعباسيين[326]. ويبدو لي أن هذا حكم فيه كثير من الغلو في حق ابن المعتز ، فنرى أن ابن المعتـز فـي "طبقـات الشعراء" يثني على شعر أبي تمام ويستحسنه ويشيد بفضله ، بل يقدمه على البحتري ، إذ يقول ابن المعتز في أخبار أبي تمام وذلك بعد أن أورد طائفة من أوائل قصائده :" ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة مـن كتابنا هذا بذلك وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً ؛ لأن الرجل كثيـر الـشعر جـداً ،

---

(324) ابن المعتز ، البديع ، ص 73 – 74 .

(325) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 214 .

(326) د. داود سلوم ، النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف ، بغداد ، 1970م ، ص 270 .

ويقَال: إن له ستمائة قصيدة ، وثمانمائة مقطوعة ، وأكثر ماله جيّد، والرديء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا . وقد أنصف البحتري لما سئِل عنه وعن نفسه فقال: جيده خيرُ من جيدي ، ورديي خير من رديه . وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشق غبار الطائي في الحـذق بالمعـاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره . على أن للبحتري المعاني الغزيرة ، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ، ومسروق من شعره"[327]. ويقول ابن المعتز مستحسناً شعر أبي تمام في موضع آخر :"وشعره كله حسن"[328].

وكتاب البديع "يعد أول محاولة علمية جادة في تدوين علم البديع ، بـل فـي علوم البلاغة ، التي كان يطلق عليها في عصر ابن المعتز كلمة البديع أحيانـاً ، أو كلمة البيان أحياناً أخرى ، كما في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، فالبديع الذي يضم ألوان البلاغة المختلفة لم يفرد له كتاب قائم بذاته قبل كتاب ابن المعتز وإنما كانـت أبواب البديع موزعة منشورة في كتب السابقين مثل ابن قتيبة والجاحظ والمبـرد ، ولم يجمعها كتاب واحد"[329].

تناول ابن المعتز في كتابه البديع ثمانية عشر فناً من فنون البـديع ، أطلـق على الخمسة الأولى منها اسم البديع وهي: الاستعارة والتجنيس ، والمطابقـة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي . أما الثلاثة عشر فناً الأخرى فقد نعتها باسم محاسن الكلام وهي: الالتفات ، والاعتـراض ، والرجـوع ، وحـسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحـسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصنعة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء .

---

(327) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 261 .

(328) المصدر السابق ، ص 259 .

(329) د. عبد القادر حسين،المختصر في تاريخ البلاغـة، دار الـشروق، بيـروت، القـاهرة، ط1، 1982م، ص98.

وقد اشتمل الكتاب على ثلاثمائة واثني عشر شاهداً من عيون الشّعر العربي، بلغ عدد أبياتها أربعمائة وخمسة وعشرون بيتاً . وقد كان ابن المعتز معتـدلاً فـي نظرته وحكمه "فهو يسوي بين المحدثين والقدماء في الإحسان مع شيء من الاحتياط إزاءهم جميعاً ، وهو احتياط جعله يعقّب على شواهدهم الرائعة في فنون البديع بما يعاب من كلامهم وأشعارهم جميعاً ، فهو يستحسن حين ينبغي الاستحسان ويستهجن حين ينبغي الاستهجان بغض النظر عن القدم والحداثة ، إذ المعول علـى الحـسن الذاتي لا على الزمان ولا على المكان"[330].

وقد اعتمد كثير من علماء البلاغة المتأخرين على كتاب ابن المعتز كقدامـة في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة بين الطائِيّين، وأبـي هـلال العـسكري فـي الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، وابن أبي الأصبع في تحرير التحبير، والحلبـي صاحب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"ويا قوت الحموي في خزانة الأدب.

(ج) فصول التماثيل في تباشير السرور:

وهو كتاب هدف ابن المعتز من تأليفه إلى جمع التشبيهات المتعلقة بـالخمر من شعر ونثر ؛ فالكتاب يتناول الخمر ويعدد أسماءها وصفاتها وأدواتها وكأسـاتها ودنانها وأعرف الأمم بها وجيّدها ورديئها وأحوال الشراب وآداب المنادمة وفوائـد الخمر والأقوال المتصلة بتحريمها ، كما يتناول كذلك آراء العلماء والأطباء فيهـا، وقد استشهد في كتابه بأشعار طائفة من الشعراء الذين وصفوا الخمر مثل: الأعشى، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، وعلي بن الجهم ، فضلاً عن استـشهاد ابن المعتز بغير قليل من أشعاره التي قالها في الخمر.

ويشير ابن المعتز في مقدمة كتابه إلى مزايا وخواص الشراب ومنزلته عنـد الخلفاء والوزراء والحكماء والأطباء والعلماء ؛ فقد قال بعـد أن حمـد ا وأثنـى عليه:" فإن للشراب مرتبة خفيفة المدخل. ومنزلة لطيفة المحمل عند جماهير الخلفاء ، ومشاهير الوزراء وحكماء الأطباء . ورؤساء العلماء ، وفهماء العرب . وظرفاء أهل الأدب"[331].

---

(330) د. شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1965م ، ص 74-75 .

(331) ابن المعتز ، فصول التماثيل في تباشير السرور ، ص 2 .

وابن المعتز الذي قضى شطراً من حياته في العكوف على اللهو ومجالس الشراب ، كما سلف وأن أشرنا إلى ذلك[332] ، يعيّن الدافع إلى تأليف الكتاب بأنه قد مل أخلاق الجلساء والندامى وعافت نفسه لهوهم وعبسهم وما يخوضون فيه من سوقي الحديث وعامي الألفاظ ، ومن ثم هجر مجالسهم ونأى بنفسه عنهم . وانصرف إلى تأليف هذا الكتاب ليكون له عوضاً وبديلاً عنهم ، ويكون كذلك مسلاة لمحبي الخمر واللهو من الجواري والقيان ومن على شاكلتهم ، يقول ": فإني حين تأملتُ سقوط الحال في أخلاق الجلساء ، وشمول الأخلاء في مذاهب الندامى حتى قَبحَت بهم النعمة ، وحَسنَت منهم الحشمة ، وانصرف السمع والبصر عن قبيح لهوهم الرث ، وذميم هزئهم الغث ، ونبت النفوس عن مباشرة حديثهم السوقي ، ولفظهم العامي ، عمدتُ على مجانبة منادمتهم تكرماً ، واعتزال معاشرتهم تلوماً ، وعدلتُ إلى ما يحَب لنفسي على نفسي من تحصيل فصول التماثيل المتصلة باللفظ المنثور والقريض المشهور ، في ريحانة الأنفس ، وعروس المجالس ، وشقيقة الدّرياق ، وماسكة الرماق ، وتحفة العشاق ، ونافية الهموم ، ودافعة الغموم ، ومفتاح تباشير السرور الكامل ، والطرب العامل ، فنظمتها في كتابي هذا وجعلته عوضاً ممن حياته تُورث الحزن ، وموته يضحك السّن ، وخلفاً من مشاهدة من لا يوثق به ، ومنافثة من لا يؤنس بأدبه وسجيته . مما يليق حمله بالسلطان ، وترتاح إليه الإخوان وتُعْجَب به جواري القيان"[333].

ومما ورد في هذا الكتاب عن أسماء الخمر قول ابن المعتز :" قالوا سمّيت الخمر خمراً لأنها خمرت في إنائها وكل ما غطيته فقد خمرته ومنه سمي الخمار لأنه يغطي الرأس ، والخمر أيضاً كل ما اسْتَتَرْتَ به من شجر أو غيره ، ويقال بل سمّيت خمراً لمخامرتها العقل ، ويقال خامره سقم أي خالطه ، وسميت الشمول؛ لأنها تشمل على العقل ، ويقال سمِيت بذلك لأنها شملتهم بريحها أي عمتهم كما يقال شملهم الأمر وشملهم الخير أي عمهم . ومن أسمائها القرقف سميت بذلك لأن صاحبها يقرقف إذا شربها ، فيقال أخذته قرقفة أي رعدة وأنشد:

---

(332) ص 52 – 53 من هذا البحث.

(333) ابن المعتز ، فصول التماثيل في تباشير السرور ، ص 2-3 .

نِعْمَ ضجيج الفَتـى إذا بـردَ اللَيْـلُ سَـحيراً وقَرْقَـف الـصرد
زَينهـا اُ فـي عـين والـدٍ ولـد زيـن فـي العيـون كمـا"[334]

ومما جاء في هذا الكتاب عن خاصية الشراب قوله:"أول خصائص الـشراب جودة الهضم ودفع مضرة الماء وإزالة مكروه الأدواء...من التماثيل الشاذة في هذا المعنى قول العرب أتانا فلان بشراب كأنه مصباح الظلام. وشفاء الأسـقام. و در الأعشى حيث يقول فيما قارب هذا المعنى ولقد أبدع فيه وبرع فيه القائلين:

وكـأسٍ شـربتُ علـى لـذةٍ وأخـرى تـداويتُ منهـا بهـا
لـيعلم مَـنْ لام أنـي امـرؤٌ أتيـتُ اللـذاذةَ مـن بابِهـا"[335]

ومما قيل في الكاسات:

تَدور عَلَيْنـا الـراح فـي عَـسْجَدِيةٍ حَبَتْهـا بـأَنْواع التـصاوير فَـارس
قَرَارتهـا كِـسْرَى وفـي جَنباتِهـا مَهـاً تَـدريها بالقـسيِّ الفَـوَارس
فَلِلْخَمْـر مَـا زَرت عَليـهِ جيوبهـا ولِلْمَاءِ ما دَارتْ عليْهِ القلانِـس[336]

نراه يستشهد بهذه اللوحة الشعرية الجميلة لأبي نواس ؛ فالخمر تقدم للشاربين بكاسات أبدع الفرس في تزيينها بالنقوش والرسوم مما أكسبها جمالاً وروعة ، فهذه الكاسات التي تدار بها الخمر رسم في أسفلها صورة كسرى ملك الفرس ، وعلـى جنباتها رسمت بقرة وحشية يحاول الصيادون قنصها واصطيادها.

وجدير بالذكر أن بعض الدارسين المعاصرين أورد اسم الكتاب خطأ، إذ وَهَم الدكتور عمر فروخ أن فصول التماثيل كتاب منفصل عن تباشير السرور حيث عد كل منهما كتاباً منفرداً، يقول معدداً بعض مؤلفات ابن المعتز:"ومن كتب ابن المعتز: كتاب الآداب (في الأخلاق)، كتاب البديع، تباشير السرور، فصول التماثيل"[337].

(334) ابن المعتز ، فصول التماثيل في تباشير السرور ، ص 48 .
(335) المصدر السابق ، ص 12 – 13 .
(336) المصدر السابق ، ص 52 .
(337) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 378 .

كما أخطأ كذلك الدكتور غصوب خميس في اسم الكتـاب،إذ ذكـره ضـمن مؤلفات ابن المعتز تحت عنوان "فصول التماثيل وتباشير السرور"[338]، ممـا يفقـد الكتاب معناه ومضمونه إذ الذي يقصده ابن المعتز بالتماثيـل التـشبيهات، ويـشير بتباشير السرور إلى الخمر ليكون فحوى الكتاب التشبيهات المتصلة بالخمر.

(د) <u>رسائله</u>:

لابن المعتز قسط وافر من النثر الفني حفل به كتابه "طبقات الشعراء" ، كما حفلت به كذلك المصادر الأدبية والتاريخية التي اهتمت بأخبار الرجل ووقفت عنـد إبداعه الفني ، وقد جاء بعض نثره الأدبي في صورة رسائل وقطع نثرية قـصيرة تناولت موضوعات متنوعة مثل: التهاني، والشوق، والاعتذار، والتعازي، والفراق ،والحكم والأمثال والمواعظ، والنصح والإرشاد، وقد أثنى المؤرخون والأدباء على رسائل ابن المعتز وحكمه وضمنوا كتبهم طائفة منها. يقول ابن الجوزي مثنياً على ما ورد على لسان ابن المعتز في الحكمة:"وله كلام في الحكمة عجيب"[339] وممـا جاء على لسان ابن المعتز في الحكمة :"أنفاس الحي خطاه إلى أجله"[340]، "وربمـا شرق شارب الماء قبل ريّهِ"[341]وقوله:"أهل الدنيا ركب يسَار بهم وهـم نيـام"[342] وقوله:"أشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء إلـى النـار أقربهـا حريقاً"[343]،"ومن شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة"[344]، "يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك"[345]،"الفرصة سريعة الفوت بعيدة العـود"[346]، وقوله أيضاً "الجود حارس الأعراض"[347].

---

(338) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 128 .

(339) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 85.

(340) المصدر السابق ، ص 85 .

(341) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(342) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 108 .

(343) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(344) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 13 ، ص 85.

(345) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 108 .

(346) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(347) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 85.

ومما سار لابن المعتز واستحسنه الرواة ما ورد في طبقات الشعراء مثل قوله في ترجمة محمد بن حازم الباهلي :" وهو أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك ، منهم أبو نواس ، كان يكثر ذكر اللّواط ويتحلى به وهو أزنى من قرد . وأبو حكيمة كان يصف نفسه بالعنة والعجز عن النّكاح وكان يقال : إنه يقصّر عنه التيس . وجَحْشوَيْه كان يصف نفسه بالأبنة وكان ينزو على الحمير فضلاً عن غيرها . وابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة وكان أحرص من الكلب ، كان يركب النّيل في درهم واحد فضلاً عن غيره"[348].

ومن رسائل ابن المعتز قوله:" أهل الدنيا كصور في صحيفة . متى طوي بعضها نشر بعضها"[349] وقوله:"أغن مَنْ ولّيتَه عن السرقة، فليس يكفيك من لم تكفه"[350]. أي إذا اسندت إلى إنسان نوع من العمل أو وليته أمر من الأمور، فأعطه من الراتب والمعاش ما يكفيه ويجعله يعف عن السرقة ، وقوله :"من نَصَحَ الخدمة نصحته المجازاة"[351] أي من أخاص في عمله استحق المكافأة والأجر والإحسان.

ولابن المعتز رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساويه أوردها المرزباني في كتابه الموشح ، وعليها اعتمد الآمدي في نقد شعر أبي تمام في كتابه الوساطة بين البحتري وأبي تمام . وجاء في مقدمة الرسالة قول ابن المعتز :" ربما رأيتُ في تقديم بعض أهل الأدب الطائي على غيره من الشعراء إفراطاً بيناً ، فاعلم أنه أوكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلته في الشعر لما يدعوه إلى اللجاج ، فأما قولنا فيه فإنه بلغ غايات الإساءة والإحسان ، فكأن شعره قوله:

إنْ كانَ وجهكَ لي تَتْرَى مَحَاسِنُه ... فإن فِعْاَكَ بِي تَتْرى مَسَاوِيهِ

فقالوا : أراد أن يمدحه فهجاه"[352].

ومما أنكره ابن المعتز على أبي تمام قوله في قصيدة:

---

(348) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 282 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 224 .

(349) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 106 .

(350) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ط1 ، 1937م ، ص 463.

(351) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(352) المرزباني ، الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1965 ، ص 377.

تكـــاد عَطَايَـــاه يجَـــن جنونهـــا إذا لم يعوّذْهَـــا بنَغْمَـــةِ طَالِـــبِ[353]

فقال ابن المعتز :" ولم يجن جنون عطايـاه انتظـاراً للطَالِـب؟ يبتـديء بـالجود ويستريح"[354].

ومما جاء في هذه الرسالة قول ابن المعتز :"أخبرني الصولي قال: عاب قوم على أبي تمام قوله:

كـأن بنــي نبهــانَ يــوم وفاتِــهِ نجوم سماءٍ خر مـن بينهـا البـدر

فقالوا: أراد أن يمدحه فهجاه ؛ لأن أهله كانوا خاملين فلما مات أضـاءوا بموتـه . وقالوا : كان يجب أن يقول كما قال الخُرَيْمي[355]:

إذا قمــرٌ مــنهم تغــور أو خبــا بَدا قمرٌ في جَانِبِ الأُفْقِ يَلْمَـع"[356]

وعابوا عليه قوله:

لاَ تَسْقِنِي مــاءَ المــلام فــإنني صَبٌ قد اسْتَعْذَبْتُ مَـاءَ بكَـائي[357]

وعلى الرغم من أن عنوان الرِّسالة هو: محاسن شعر أبي تمـام ومـساويه، يلاحظ أن الجزء الذي أورده المرزباني كله يتعلق بمساوئ شعر أبي تمام ولم يشر إلى محاسنه مما دفع بعض الدارسين إلى الشك في أن الجزء الخاص بمحاسن شعر أبي تمام ربما فقد ، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:" وموضوع الرسالة كما يؤخذ من عنوانها ذكر محاسن شعر أبي تمام ومساويه ، ولكن بحوث ابن المعتـز فيها تدل على أنه لم يرد منها إلا ذكر مساويه ، وربما كان ذلك دليلاً على أن مـا بين أيدينا إنما هو جزء من الرسالة وأن باقيها مفقود ولعله أشار في هـذا الجـزء المفقود إلى بعض خصائص أبي تمام التي استحسنها النقاد"[358].

---

(353) المرزباني ، الموشح ، ص 377 .

(354) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(355) **الخريمي** : هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان المشهور بالخزيمي من شعراء الدولة العباسية .

(356) المصدر السابق ، ص 397 .

(357) المصدر السابق ، ص 398.

(358) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 529 .

وأكبر الظن أن الجزء الخاص من الرسالة بمحاسن شعر أبي تمام قد عصفت به يد الضياع ، فقد تقدم أن ابن المعتز مدح أبا تمام كثيراً ضـمن الترجمـة التـي أفردها له في كتابه طبقات الشعراء ، وأثنى فيها على شعره ، وشـهد لـه بحـذق المعاني ، وكثرة الابتداع ، والغوص في لجج الكلام ، بل قدمه على الفضلاء مـن شعراء عصره كالبحتري ، فلا نرجح من رجل بهذا الاعتدال والإنصاف أن يـذكر فقط مساوئ شعر أبي تمام ، ويدع الجانب الخاص بمحاسنه.

وخلاصة القول فإن ابن المعتز بما وهب من غزير العلم وسعة المعرفة وبعد الغور ، استطاع أن يرفد المكتبة العربية بطائفةٍ من المؤلفات النادرة والنفيسة فـي الشعر والأدب والنقد والبلاغة . ومن العجيب أن ابن المعتز ترك هذا الكم الكبيـر من الآثار الأدبية على الرغم من أنه لم يعش طويلاً حيث تُوفي قبل بلوغه الخمسين أو ما يقرب منها.

المبحث الرابع : خلافته ووفاته

حين توفي المكتفي با محمد بن المعتضد بن المتوكل في سنة 295هـ . أشار الوزير محمد بن داود بن الجراح بتولية ابن المعتز لما يتمتع به من صـفات العقل والأدب والرأي ، إلا أن أصحاب السلطة والكلمة فـي الدولـة مـن التـرك

والوزراء والكتاب ، خافوا أن يولوا ابن المعتز فيكف أيديهم عن الفساد والخيانـة ، ومن هؤلاء أبو الحسن ابن الفرات أحد كتاب الدواوين فقد قال معارضاً تولية ابـن المعتز : كيف تولون "من قد لقي الناس ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس ، وعرف وجوه دخلهم وَخَرْجهم"[359]؛ فانصرف أمرهم إلى تولية أبي الفضل جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر ، أحد إخوة المكتفي ، وكان المقتـدر إذ ذاك صبياً في الثالثة عشر من عمره[360] ؛ فعجز عـن تـدبير الخلافـة وإدارة شؤون الدولة لصغر سنه وقصوره ، فاضطربت عساكره ، وأصبحت إدارة الحكـم بيد أمه[361] ؛ فاتفق جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب على خلـع المقتـدر وتولية عبد ا بن المعتز وكان على رأس هؤلاء : محمد بن داود بـن الجـراح ، وأبي المثنى أحمد بن يعقوب القاضي ، والحسين بن حمدان ، ووافقهم ابن المعتـز على البيعة بشرط أن لا يكون في ذلك سفك دم ، وكان ذلك في العشرين من ربيـع الأول لسنة 296هـ[362].

اسْتُخْلِفَ ابن المعتز ولُقّب المرتضي با ، وقيل المنصف با ، أو الغالـب با ، أو الراضي با [363] ، ويقول الطبري : إن ابن المعتز اختار لنفـسه لقـب "المنتصف با "[364] ويروى أن محمد بن جرير الطبري لما سَمِعَ ببيعة ابن المعتز قال : من رشّح للوزارة ؟ قالوا : محمد بن داود . قال : ومن ذُكِر للقضاء ؟ قالوا: أبو المثنى أحمد بن يعقوب ، فأطرق قليلاً ثم قال : هذا أمر لا يتم ولا ينتظم قيل :

---

(359) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، ص9.

(360) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص292 وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، ص11 والذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 2003م ، ج6 ، ص 869.

(361) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 98 وابن تغرى الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 164 .

(362) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 221 – 222 والـذهبي ، تـاريخ الإسـلام ، ج6 ، ص 869.

(363) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76 والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 378 وابـن الأثيـر ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، ص 15 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيـات ، ج2 ، ص 240 وابـن تغـري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص164.

(364) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج11 ، ص 31 .

ولم ؟ قال : لأن كل واحد من هؤلاء الذين ذكرتم مقدم في نفسه ، عـالي الهمـة ، رفيع الرتْبة في أبناء جنسه ، والزمان مدْبِر والدنيا مولية ، وما أرى هـذا إلا إلـى اضمحلال وانتقاص ، ولا يكون لمدته طول(365).

بعث ابن المعتز إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طـاهر ، لكي ينتقل ابن المعتز إلى دار الخلافة ، فأجاب ، إلا أن غلمان المقتـدر اجتمعـوا بقيادة سَوْسَن الحاجب ، ومؤنس الخادم وصعدوا نهر دجلة ورشقوا الدار التي كـان فيها ابن المعتز ووزيره محمد بن الجراح بالنشاب ، فتفرق أعـوان ابـن المعتـز وهرب من كان معه في الدار من الجند والقواد والكتاب ، واختفى ابن المعتز فـي دار أبي عبد ا بن الحسين المعروف بابن الجصاص الجوهري(366).

بعد أن تفرق أعوان ابن المعتز من حوله دخل المقتدر دار ابن الجـصاص وأخذ ابن المعتز ودفع به إلى مؤنس الخادم فقتله خنقاً ، وسلمه إلى أهله ملفوفاً فـي كساء ، ودفن في خرابة بإزاء داره ، فلم تدم خلافته سوى يوم وليلة(367).

وتختلف المصادر في تاريخ وفاة ابن المعتز ، فبينما تـرى بعـض كتـب التراجم أن ابن المعتز قتل يوم الخميس ثاني ربيع الآخر سنة 296هـ(368) ، يـرى الخطيب البغدادي أن ابن المعتز قتل في الثـاني عـشر مـن ربيـع الأول سـنة 296هـ(369) ويروي ابن العماد الحنبلي أنه قتل في يوم الخميس في الثاني عـشر من ربيع الآخر سنة 296هـ(370) ، ويرى ابن الجوزي أنه قُتِل في الثاني من ربيع الأول سنة 296هـ(371).

---

(365) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 99 وابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 164 .

(366) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 80 ، 81 ، 89 وابن خلكان ، وفيات الأعيـان ، ج3 ، ص 76 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 109 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 .

(367) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 وابن كثير ، البداية والنهايـة ، ج11 ، ص 107 وابـن تغرى الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج3 ، ص 166 .

(368) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 107 .

(369) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 99 .

(370) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 222 .

(371) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 81 .

والذي نطمئن إليه أن ابن المعتز قتل في يوم الخميس ثاني ربيع الآخر سـنة 296هـ ، لأنه سبق وأن ذكرنا بأن المقتدر خلع في العشرين من ربيع الأول سـنة 296هـ ، ولم تطل الفترة بين انتقال ابن المعتز إلى دار الخلافة ووفاته.

ولابن الأثير رواية فريدة حول طريقة قتل ابن المعتز ، إذ يـروي أن ابـن المعتز عصِرت خصيتاه حتى مات وفي ذلك يقول:" إن خادمـاً لابـن الجـصاص يعرف بسوسن أخبر صافياً الحرمي بأن ابن المعتز عند مولاه ، ومعـه جماعـة ، فكبست دار ابن الجصاص ، وأخذ ابن المعتز منها ، وحبس إلى الليل ، وعـصِرت خصيتاه حتى مات ، ولُف في كساء وسُلّم إلى أهله"[372].

ويروى أن ابن المعتز قال في الليلة التي قُتِل في صبيحتها:

يا نفس صبراً لعـل الخيـرَ عقْبـاكِ	خانتكِ من بعد طول الأمـن دنيـاكِ
مرت بنا سـحراً طيْـر فقالـتُ لهـا	طوباكِ يـا ليتنـي إيـاكِ طوبـاكِ
إن كان قصدك شرقاً فالـسلام علـى	شاطي الصراة أبلغي إن كان مسراكِ
مِن موثـقٍ بالمنايـا لا فكـاك لـه	يَبكي الدِّماءَ على إلـفٍ لـه بَـاكي
فـرب آمنـةٍ جـاءت منيتُهـا	ورب مفْلتـةٍ مـن بـين أشـراك
أظنـه آخـر الأيـام مـن عمـري	وأوشَك اليومَ أن يَبكي لي البَاكي[373]

ولما أقاموا ابن المعتز إلى الجهة التي قُتِل فيها أنشأ يقولُ:

فقـلْ للـشامتينَ بنـا رويـداً	أمـامكُم المـصائب والخُطـوب
هـو الـدهر الـذي لابـد مـن أن	يكـون إلـيكُم منـه ذنُـوب[374]

وابن المعتز كأنما كان يتنبأ بقصر أيامه ودنو أجله فقد قال بعض من كـان يخدمه :" إنه خرج يوماً يتنزه ومعه ندماؤه ، وقصد باب الحديد وبستان النـاعورة، وكان ذلك آخر أيامه ، فأخذ خرقة وكتب بالجص:

---

(372) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، ص 18 .

(373) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 100 وابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 90 وابـن كثيـر ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 109 .

(374) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 100 ، وابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 90 وابن كثيـر ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 109 – 110 .

سـ ـ ـقْيا لظـ ـ ـل زَمَـ ـ ـاني وعَيْـ ـ ـ ـ ـشي المَحْمـ ـ ـ ـ ـود

ولـ ـ ـى كليلـ ـ ـةِ وَصْـ ـ ـلِ قـ ـ ـدامَ يـ ـ ـوم سـ ـ ـعود"[375]

وقد رثى بعض الشعراء ابن المعتز ومن أشهرهم علي بن محمد بـن بـسام الذي قال فيه:

ِ درك مـ ـن مَيْـ ـتٍ بمـ ـضيعةٍ ناهيك في العلـمِ والآدابِ والحَـسَبِ

مـا فيـه لـو ولا لـولا فتنقـصه وإنّمـا أدركتْـه حرفَـةُ الأَدَبِ[376]

وقال فيه بعض الأدباء:

لا يَبْعـدا عبـدا مـن مَلِـكٍ سَامٍ إلى المجدِ والعَلْيـاءِ مـذْ خُلقَـا

قد كان زيْـن بَنِـي العبـاسِ كُلِهـم بل كان زين بَني الدنيا حجـاً وتُقَـى

َأشْـعاره زَينـت بالـشعر أجمعـه فكل شِعْرٍ سواها بهـرج وَلقَـى[377]

وهكذا فإن ابن المعتز زج بنفسه في المعترك السياسي في زمن كثرت فيـه المكايد والدسائس والمؤامرات ، فدفع نفسه ثمناً لحكم لم يدم غير يوم وليلة ، بيد أن ابن المعتز ترك ثروة أدبية قيمة جعلته خالداً في أذهان العلماء والأدباء والدارسـين ممن أدركوا عظمة الرجل وقيمة آثاره ، ومن بين هـذه الثـروة كتابـه "طبقـات الشعراء" الذي سنتناوله بالبحث والدراسة في فصلنا القادم إن شاء ا .

(375) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 241 .

(376) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 والبغدادي ، تـاريخ بغـداد ، ج10 ، ص 101 وابـن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 89 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 223 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 .

(377) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 .

الفصل الثَّالث

كتاب "طبقات الشُّعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين"

المبحث الأول : اسم الكتاب ونسبته إلى ابن المعتز وتاريخ تأليفه

المبحث الثاني : طبعات الكتاب ونسخه

المبحث الثالث : مادة الكتاب

المبحث الرابع : منهج المؤلف

الفصل الثالث

كتاب "طبقات الشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدّمين"

المبحث الأول : اسم الكتاب ونسبته إلى ابن المعتز وتاريخ تأليفه

(أ) اسم الكتاب ونسبته إلى ابن المعتز:

تتفق المصادر التي بين أيدينا في نسبة الكتاب إلى ابن المعتز ، غيـر أنهـا تختلف في اسم الكتاب اختلافاً يسيراً مرده الاختصار والإيجاز ، فقد ورد الكتاب في

أغلب المصادر القديمة التي ترجمت لابن المعتز أو عرضت لآثاره باسم "طبقـات الشعراء"[378].

أما أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المشهور بالثعالبي فينعـت الكتاب "طبقات الشعراء المحدثين" فقد قال مادحاً الكتاب ومثنياً عليه:" من أعجب ما قيل عن بشار ما ذكره ابن المعتز في طبقات الشعراء المحدثين"[379].

أما عن اسم الكتاب في الطبعتين المحققتين اللتين بين أيدينا فقد أورده محققـا الكتاب في كلا النسختين مختصراً بعنوان:"طبقات الشعراء" وذلك فـي طبعـة دار المعارف التي صدرت بمصر في عام 1956م ، وطبعة دار ومكتبة الهلال الصادرة في بيروت في سنة 2002م.

وتجدر الإشارة إلى أن محَقِّقَيْ الكتاب كلاهما نص علـى الاسـم الـصحيح والكامل للكتاب في مقدمة الكتاب بيد أنهما لم يثبتاه عنواناً للكتاب.

واسم الكتاب كاملاً كما سماه ابن المعتز بنفسه ونص عليه في مقدمته هـو: "طبقات الشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين" إذ يقول فـي مقدمـة الكتـاب: "فخطر علي الخاطر في بعض الأفكار ، أن أذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار ، في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس ... وسميتُه "طبقـات الشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين"[380].

ولا أرى عذراً لمحققي الكتاب في عدم إثبات اسم الكتاب كاملاً كمـا نـص عليه مؤلفه وسماه بنفسه ، وبخاصة إنهما توافرا على الاسم الكامل للكتاب في مقدمة المؤلف وأثبتاه في تحقيقهما.

ونَرى الباحِثِين المعاصرين من الأدباء والنقاد ومؤرخي الأدب الذين عرضوا للكتاب أو أشاروا إليه ، لم يوسموا الكتاب باسمه الكامل الذي ارتضاه له مؤلفه ابن

---

(378) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 77 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 240 وابن النديم ، الفهرست ، ص 229 وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 110 وابـن العمـاد الحنبلـي ، شذرات الذهب ، ج1 ، ص 223 .

(379) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 108 .

(380) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ص 18 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ص 15.

المعتز كما تقدم ، بل منهم مـن أسـماه "طبقـات الـشعراء فـي مـدح الخلفـاء والوزراء"[381] ومنهم من وسمه "طبقات الشعراء المحدثين"[382].

وجدير بالذكر أن هذه الزيادات والتبديل والتغيير الذي تواطأ عليه الدارسون في اسم الكتاب ، لم يخرج الكتاب عن موضوعه ومحتواه ، كما سنبيّن ذلـك فـي دراستنا المفصلة للكتاب في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

على أن الاسم الذي سار عليه جمهرة الدارسين ، وعرف به الكتـاب حتـى الآن هو "طبقات الشعراء".

(ب) تاريخ تأليفه:

تباينت آراء الدارسين المعاصرين حول تاريخ تأليف ابـن المعتـز لكتابـه "طبقات الشُعراء" ؛ فالأستاذ عمر فـروخ يـرى أن الكتـاب أُلّـف "نحـو سـنة 280هـ"[383] ويوافقه في ذلك أو يكاد الدكتور أحمد كمال زكي الذي يرى أن ابـن المعتز شرع في تأليف الطبقات في سنة 280هـ عندما كان في الثالثة والثلاثين من عمره[384]. وحجته في ذلك كما أشار في هامش كتابه أن آخر شاعر ترجم له ابـن المعتز من الرّجال هو محمد بن عروس الشّيرازي المتوفى سنة 280هـ الذي جاء خبره قبل أخبار الجواري الشواعر[385]. ويذهب أحد الباحثين إلى أن ابـن المعتـز

---

(381) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 521 ود. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268 .

(382)عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 378 ود. غصوب خميس ، عبد الله بن المعتز شاعراً ، ص 129 ونعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره وحياته وآرائـه النقديـة ، دار العلـم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1995م ، ص 52 ود. محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات في النقد العربي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1975م ، ص 96.

(383) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 378 .

(384) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 79 ، 83 .

(385) المرجع السابق ، ص 83 .

الشّيرازي: هو محمد بن محمد بن عروس أحد الشعراء الكتاب ، كان مقيماً بسامرا ، وكان بينه وبين علي بن الجهم مكاتبات بالأشعار توفي سنة 280هـ . ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 381 والصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2،1962م،ج1،ص128-129.

ألف كتاب الطبقات بعد كتاب فصول التماثيل ، وكتاب البديع الذي ألفه في سنة 274هـ[386].

أما الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فيرى أن الكتاب "ألف بعد عام 293هـ"[387] وله في ذلك حجتان ، أولاهما: أن عام 293هـ هو العام الذي توفي فيه الناشئ أحد من ترجم لهم ابن المعتز في الكتاب[388]. وثانيهما : أن ابن المعتز "حين يذكر شاعراً من معاصريه يشير إلى أنه موجود كما قال عن الشيرازي وهو اليوم شاعر زمانه، فخلو ترجمة الناشيء من ذلك دليل على أنه ألف بعد وفاته"[389].

ونرى أن ما ساقه الدكتور خفاجي لا ينهض دليلاً مقنعاً على تاريخ تأليف الكتاب؛ فالدكتور خفاجي يعوّل على أن ابن المعتز حين ترجم لمحمد بن عروس الشيرازي المتوفى في سنة 280هـ وآخر من ترجم لهم ابن المعتز من الرجال ذكر أن الشيرازي لا يزال حياً لم يمت، في إشارة إلى قول ابن المعتز عن الشيرازي:"وهو اليوم شاعر زمانه"[390]، بينما يرى كذلك أن خلو ترجمة أبي العباس الناشئ المتوفى في سنة 293هـ - والتي سبقت ترجمة الشّيرازي – من هذه العبارة هو دليل على أن الكتاب ألف بعد سنة 293هـ التي توفي فيها الناشئ.

ولعل استناد الدكتور خفاجي على ترتيب الترجمات كما وردت في كتاب الطبقات هو الذي أوقعه في هذا الوهم . ونعتقد أن ترتيب الترجمات لا يقوم دليلاً وبرهاناً يقود بالضرورة إلى تحديد تاريخ تأليف الكتاب، إذ أن ترتيب الترجمات وتقديم بعضها على بعض أمر متروك للمؤلف والكاتب حسب المنهج الذي يختاره لتصنيف كتابه أو مؤلفه . ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى أن ابن المعتز لم

---

(386) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 129 .

(387) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 523 .

(388) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

الناشئ: هو أبو العباس عبد ا بن محمد المعروف بابن شرشير وهو الناشيء الأكبر ، وكان متكلماً شاعراً مترسلاً حسن الأدب متبحراً في علم المنطق أقام ببغداد مدة طويلة ثم رحل إلى مصر وبها توفي في سنة 293هـ . ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 280 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 92-93 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 214 وابن النديم ، الفهرست ، ص 361 .

(389) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 523 .

(390) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 381 .

يلتزم بترتيب ترجماته حسب تاريخ وفاة الشاعر كما سنفصل ذلك عند عرضنا لمنهج المؤلف ، الأمر الذي أوقع الدكتور خفاجي في هذا الخلط . فعلى سبيل المثال نلحظ أن ترجمة مطيع بن إياس المتوفى في سنة 199هـ[391] سبقت ترجمة أبي نُواس المتوفى في سنة 195هـ[392] ؛ فالكتاب ما هو إلا روايات بأسانيدها لا يتناولها التغيير مهما رتبها ابن المعتز ، وحتى الناشئ الذي استند الدكتور خفاجي على خبره في تأييد حجته ، فتشير المصادر إلى أن الناشئ في سنة 280هـ كان قد فارق العراق وانتقل إلى مصر ، إذ ورد في تاريخ بغداد "أنشدنا الناشئ لنفسه بمصر سنة ثمانين:

ليس شيء أحر في مهجةِ العا ... شق من هذه العيون المراضِ
ورنو الجفُون والغمز بالحا ... جب عند الصدود والإعراض"[393]

ولعل فيما سقنا من أدلة ما يجعلنا نرجح أن كتاب طبقات الشعراء ، لم يكن قد أُلّف بعد سنة 293هـ كما زعم الدكتور خفاجي.

أما الأستاذ عبد الستار أحمد فراج محقق طبعة دار المعارف فيقرر أن ابن المعتز ألف كتابه طبقات الشعراء "قبل 280هـ حينما كان عمره حوالي اثنين وثلاثين عاماً"[394]. ويستند الأستاذ عبد الستار فراج في تدعيم حجته على دليلين:

أولهما: وهو نفس الدليل الذي ساقه الدكتور أحمد كمال زكي، وأشار إليه الدكتور خفاجي كما تقدم، وهو الاستناد إلى ترجمة الشاعر محمد بن عروس المتوفى في سنة 280هـ في التوصل إلى معرفة تاريخ تأليف الكتاب، باعتبار أن محمد بن عروس آخر من ترجم لهم ابن المعتز من الرِّجال فيما توافر لدى الأستاذ فراج من نسخ اعتمد عليها في تحقيق الكتاب، وفي ذلك يقول:"وإذا لا حظنا أن محمد بن عروس هو آخر الرجال المترجم لهم في نسختنا، وكذلك

---

(391) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 86 .

(392) المصدر السابق ، ص 175 .

(393) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 93 .

(394) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 13.

في النسخة الأخرى التي اختصر منها المبارك بن أحمد، علمنا أن ختام الكتاب كان على أقصى تقدير هو 280هـ"[395].

ثانيهما: نلحظ أن ابن المعتز أورد في طبقاته قصيدة للشاعر أبي نواس يفتخر فيها بأهله من اليمن ومنها قوله:

فَافْخَر بِقَحْطانَ غَيْرَ مُكْتَئِبٍ　　فَحَاتِم الجُودِ مِن مَنَاقِبِها[396]

ثم طفق ابن المعتز يشرح هذه القصيدة، ويبيّن ما استغلق من لفظ ، وقد قال في ثنايا شرحه:"أنشدني المبرد هذه القصيدة وفسر لي هذا التفسير"[397]. وسبق أن أشرنا إلى ذلك في مبحثنا الخاص بثقافته وتعليمه ضمن فصلنا الثاني[398].

ولما كان ابن المعتز قد ذكر بأن أستاذه المبرد المتوفى في سنة 285هـ قد أنشده هذه القصيدة وفسرها له ؛ فالأستاذ فراج يرى في ذلك دليلاً على أن الكتاب أُلّف قبل عام 285هـ على أوسع الفروض ، أي أن ابن المعتز ألفه عندما كان عمره ثلاثين عاماً أو ما يقرب منها.

وبذا يَسْتَبْعِد الأستاذ فراج أن يكون ابن المعتز ألف كتاب الطبقات في آخر حياته لأن "ابن المعتز حينما يبلغ ستة وأربعين عاماً يكون رأساً في الأدب ، ولا يكون من القصور والنقص في المعلومات بحيث يحتاج إلى أن تُشْرَح له قصيدة ، وإنما يحتاج إلى ذلك وهو في سن الثلاثين وما يقرب منها وهي سن الأخذ والتلقي والتدوين"[399].

ولعلنا نؤيد ما ذهب إليه فراج في أن ابن المعتز حينما بلغ ستة وأربعين عاماً كان من الإحاطة والعلم والمعرفة بحيث لا يفتقر لأن يتلقى شرحاً من شيخ أو مؤدب لما يشكل عليه في فنٍ من الفنون ، وكيف لا وهو قد ألف كتاب البديع في سنة

---

(395) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 13.

(396) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 177 .

حاتم الجود: حاتم الطائي.

(397) المصدر السابق ، ص 179.

(398) ص 62 من هذا البحث.

(399) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 14 .

274هـ وكان عمره إذ ذاك سبعة وعشرين عاماً ، وهذا ما يجعلنا لا نـرجح مـا ذهب إليه الدكتور إحسان عباس في أن كتاب ابن المعتز "يمثل مرحلة متأخّرة فـي حياته"[400].

وإذا كان محمد بن عروس الشيرازي المتوفى في سنة 280هـ هو آخر من ترجم لهم ابن المعتز من الرّجال ، وإذا كان ابن المعتز قد أعقب ترجمة ابن عروس بست ترجمات للجواري الشواعر[401]؛ فأغلب الظن أن ابن المعتز شرع في تأليف كتاب "طبقات الشعراء" قبل عام 280هـ وأكمله في هذا العام أو بعده بقليل.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن هناك شعراء ترجم لهم ابن المعتز وعاشوا بعـد سنة 280هـ ، ولكن عندما أقبل عام 280هـ كان أكثرهم قد تجـاوز الـستين أو السبعين من عمره ، فالبحتري المتوفى فـي سـنة 284هـ كـان قـد تجـاوز السبعين[402]، وابن العلاف النهرواني[403]، كان عمره وقتذاك اثنين وستين عامـاً، وعاش بعد ذلك إلى سنة 318هـ ، والناشيء الأكبر الذي انتقل من العـراق إلـى مصر في سنة 280هـ عاش إلى سنة 293هـ [404].

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أنه رغم أهمية كتاب طبقات الشعراء وثرائـه ، فإن أغلب الأقدمين لم يعرضوا إلى تبيان فضل الكتاب وقيمته الأدبية ، بل اكتفـى أكثرهم فقط بذكر اسم الكتاب ، كما لم ينقل عنه إلا القليل منهم ويرجع الدكتور طه حسين السبب في ذلك إلى "أن كثيراً من أخبار ابن المعتز كانت مدونة فـي القـرن الرابع ، وأن الناس كانوا يختلفون فيه اختلافاً شديداً ، فمنهم من أحبه ومنهم من كان يكرهه ويسرفُ في الطعن عليه"[405].

ويرى الأستاذ عبد الستار أحمد فراج أن هناك عاملان سياسيان قلـلا مـن شهرة كتاب طبقات الشعراء وذيوعه "أولهما المقتدر الذي انتزع منه ابـن المعتـز

---

(400) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط5 ، 1986م ، ص 118.

(401) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 383 – 388.

(402) المصدر السابق ، ص 358 .

(403) المصدر السابق ، ص 327 .

(404) سبقت ترجمة الناشيء ص 88 من هذا البحث.

(405) د. طه حسين ، من حديث الشّعر والنثر ، دار المعارف ، مصر ، ط11 ، 1936م ، ص 155.

الخلافة يوماً أو بعض يوم. فقد عاد المقتدر للخلافة وظل خليفة بعد قتل ابن المعتز أكثر من عشرين عاماً ، ولا شك أن أكثر الرواة لا يعنون بمن وَلى عنه الـسلطان ونكبته حوادث الزمان . وثانيهما أن ابن المعتز اُتهم عند العَامة بأنه لا يميـل إلـى الطالبيين ولا يحبهم، والطالبيون كانت شوكتهم قد قويت ، وصار لهم بأس مرهوب ، على الرغم من مظهر الخلافة الأسمى للعباسيين"(406).

فالأستاذ عبد الستار أحمد فراج يرى أن قلة نقل الرواة من "طبقات الشعراء" يعود السبب فيه إلى الخليفة أبي الفضل جعفر بـن المعتـضد المـشهور بالمقتـدر (295هـ-320هـ) ، والذي انتزع منه ابن المعتز الخلافة لمدة يوم وليلة ، ثم عاد المقتدر للخلافة بعد مقتل ابن المعتز وامتد حكمه لما يقرب من خمسة وعشرين عاماً ، كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك(407). وهذا الأمر جعل الرواة وأصحاب السّير وأهل الأدب ، ينصرفون عن دراسة كتاب طبقات الشعراء أو الحـديث عنـه . والأمـر الآخر الذي يراه الدكتور فراج سبباً في عدم ذيوع كتاب طبقات الشعراء ، هو مـا نبه إليه الدكتور طه حسين سابقاً من اختلاف الناس حول ابـن المعتـز وكراهيـة البعض له ، لأن ابن المعتز اشتهر عند العامة بمناصبته العداء لبني عمه من آل أبي طالب ، وسبق أن عرضنا إلى ذلك بالتفصيل في فـصلنا الأول(408). والطـالبيون كانت قد قويت شوكتهم وكثر أتباعهم ومناصروهم ، مما جعل الكثير منهم يعرضون عن تناول كتاب طبقات الشعراء ، برغم أن ابن المعتز جهد في أن ينفي عن نفـسه تهمة كراهية الطالبيين وسبق أن بينا ذلك في الفصل الأول من هذه الدراسة(409).

ومن الدارسين من يرجع السبب في قلة النقل من طبقات ابن المعتز إلى "قلة النسخ ، واتجاه الرواة والأدباء إلى ما هو أوسع منه كالأغاني ، بخـلاف طبقـات الشعراء الذي قامت شهرة صاحبه على شعره الرقيق"(410).

---

(406) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص12 .

(407) ص 18 ، 81 ، 82 من هذا البحث.

(408) ص 10 ، 17 ، 18 من هذا البحث.

(409) ص 17 من هذا البحث.

(410) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص12 .

وأكبر الظن فإن إهمال القدامى لطبقات الشعراء يعود كذلك إلى كثرة الكتـب التي ألفت في الشّعر والشعراء وطبقاتهم ، والتي ظهرت بعد أن ألف ابـن المعتـز كتابه طبقات الشعراء .

وفيما يلي سنعرض لبعض الرواة والأدباء المتقدمين الـذين عرفـوا فـضل الكتاب ، وانتفعوا به ونقلوا عنه ، ومنهم أبو الفرج الأصفهاني الذي نقل عنـه فـي كتابه الأغاني ، وذلك في أخبار حماد عجرد[411]، وأخبار الفضل بن عبد الـصمد الرقاشي[412] ، وأخبار عبد ا بن أبي الشّيص[413]. وينقل عنه أبو منصور الثعالبي عند ذكره بشار بن برد ، وقد اقترن ذكر الثعالبي للكتاب بالثناء والتقريظ ومن ذلك قوله :"من أعجب ما قيل عن بشار ما ذكره ابن المعتـز فـي طبقـات الـشعراء المحدثين"[414]. وقد نقل عنه الثعالبي كذلك في كتابه الإعجاز والإيجاز عند ذكـره للشاعر أبي العتاهية[415].

ويورد ابن خلكان "طبقات الشعراء" مصدراً له في ترجمتي مروان بن أبـي حفصة ، وعلي بن جَبَلة بن عبد الرحمن المعروف بالعكوك ، فبعـد أن أورد ابـن خلكان من قصيدة لعلي بن جَبَلة هذين البيتين:

إنمـــا الـــدنيا حمَيـــدُ وأياديـــــهِ الجِـــــسام

فـــإذا ولـــى حمَيـــدُ فَعَلَـــى الـــدنيا الـــسلام[416]

علق على القصيدة قائلاً: وقال ابن المعتز في "طبقات الشعراء " ولمـا بلـغ المأمون خبر هذه القصيدة غضب غضباً شديداً[417].

---

(411) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق د. عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، 1959م ، ج14 ، ص 20.

(412) المصدر السابق ، ج16 ، ص 181-182.

(413) المصدر السابق ، ص 319 .

(414) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 108 .

(415) أبو منصور الثعالبي ، الإعجاز والإيجاز ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة جديدة منقحـة ومذيلـة بالحواشي ، 1992م ، ص 176.

(416) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 353.

(417) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

ومن الذين نقلوا عن طبقات الشعراء ، ابن شاكر الكتبي في ترجمته للفضل بن عبد الصمد الرقاشي[418]، وفَضْل الشاعرة[419]. ونقل عنه كـذلك ابـن العمـاد الحنبلي عند حديثه عن أبي العتاهية وأبي نواس وأبي حكيمـة ومحمـد بـن أبـي حازم[420].

أما من عرضوا لكتاب طبقات الشعراء من الأدباء والدارسين المحدثين ، فقد أدركوا فضل الكتاب ، وأبانوا قيمته الأدبية ، واقترن تناولهم له بالثناء والإعجاب . يقول الدكتور مصطفي الشكعة إن:"كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز يمثـل لونـاً فريداً من التاريخ للشعراء ودراسة شعرهم ، وهو بعد ذلك يعتبر بداية للتخـصص في ميدان كتب طبقات الشعراء"[421].

ويقول الدكتور أحمد كمال زكي :"وعلى الرغم من أن الكتاب في الطبقـات، فإنه لم يفتقد روح المؤلف النقدية ، بل ربما وجدنا فيه من آرائه الصائبة ما لا نجد نظيره في كلّ ما أثر عنه من نقد"[422]. وقد أثنى كذلك نعيم طوني علـى الكتـاب فقال:" لقد كان ابن المعتز في طبقاته عالماً واسع المعرفة كثير الاطـلاع وشـاعراً ذواقة حسن الاختيار وأديباً مميز الأسلوب"[423].

وخلاصة القول فإن الاسم الكامل للكتاب كما سماه ابن المعتز بنفسه ونـص عليه في مقدمته هو "طبقات الشعراء المتكلمين ، من الأدبـاء المتقـدمين " ، وقـد اسْتَأنَفَ تأليفه قبل عام 280هـ وأكمله في ذات العام أو بعده بقليل ، ولعـل نـدرة نسخ الكتاب كانت من بين جملة من الأسباب التي حالت دون دراسـة كثيـر مـن القدامى للكتاب وانتفاعهم به ، وهو ما سنتناوله بالبحث والدّراسة في مبحثنا القادم.

---

(418) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج3 ، ص 183-184.

(419) المصدر السابق ، ص 185.

(420) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 224 .

(421) د. مصطفي الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2، 1974م ، ص 440.

(422) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268 .

(423) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 69.

المبحث الثاني : طبعات الكتاب ونسخه

بين أيدينا طبعتان للكتاب : طبعة ثانية وهي طبعة دار المعارف وقد صدرت بمصر في سنة 1956م بتحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فـراج ، وطبعـة ثالثـة صدرت في بيروت سنة 2002م عن دار ومكتبة الهلال بتقديم وشـرح وفهرسـة الدكتور صلاح الدين الهواري.

أما الطبعة الأولى فقد صدرت في باريس سنة 1938م على نفقة لجنة جـب التذكارية بتحقيق الأستاذ عباس إقبال ، ولـم تكـن هـذه الطبعـة بـين أيـدينا ، وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ عبد الستار أحمـد فـراج محقـق الطبعـة الثانيـة قد اعتمد على طبعة باريس في تحقيقه ، كما سنبين ذلك عند حديثنا عـن الطبعـة الثانية ، وقد أورد الأستاذ عبد الستار أحمد فراج مقدمة الطبعة الأولى كاملة تقديراً لجهود المحقق يجدها القاريء تبدأ من صفحة 583 إلى صفحة 597 ، وفـي هـذه المقدمة التي ألحقها عبد الستار فراج بآخر الكتاب نرى عباس إقبال يصف النسخة التي اعتمد عليها فضلاً عن شرحه لمنهجه في التحقيق ، ونحن هنا نرى ضـرورة تناول هذه الطبعة لأهميتها ولاعتماد الأستاذ عبد الستار فراج عليها ؛ بوصفها نسخة فريدة وحتى يتسنى لنا معرفة الفروق بين النسختين ، معتمدين في ذلك على مقدمة الأستاذ عباس إقبال التي أثبتها الأستاذ عبد الستار فراج في نسخته .

الطبعة الأولى:

يعود الفضل في العثـور علـى كتـاب "طبقـات الـشعراء" ونـشره أول مرة للأستاذ عباس إقبال الذي نشره في باريس سـنة 1938م علـى نفقـة لجنـة جب التذكارية . ويصف الأستاذ عباس إقبال المخطوط الذي اعتمده فـي دراسـته بأنه:" نسخة خطية حديثة يرجع تاريخها إلـى شـوال 1285هـ ـ واسـم الناسـخ مهدي بن علي نقي التبريزي قد نسخه في السنة نفسها"[(424)]. وهـو نـسخة فريـدة للطبقات.

قام منهج الأستاذ عباس إقبال في التحقيق على اعتماد هذه النسخة ، وعلـى نسخة أخرى لمختصر الطبقات توجد بمكتبة الإسكوريال وهي الأثر الوحيد للطبقات كما أشار إقبال في مقدمته.

واسم المختصر كاملاً هو "مختصر طبقات الشعراء لأبي العباس عبد ا بن المعتز" وصاحبه هو أبو البركات المبارك بن أحمد الأربلي المتوفى سنة 637هـ ـ ومن شيوخه أبو الحرم مكي الماكسيني الضرير المتوفى سنة603هـ[(425)].

ويتألف المختصر من تسع وأربعين ورقة "بدأه المؤلِّف عـام 590 هجريـة وأكمله في سنة 630هـ ولهذا فالكتاب يبدو كأنه بخطين مختلفين ولكن بعد التدقيق يرينا أن الخطين لكاتب واحد"[(426)].

ويشير الأستاذ عباس إقبال إلى ما أورده صاحب المختصر مـن أن مؤَلفَـه كتبه من نسختين مختلفتين[(427)].

ونبه مؤلف مختصر طبقات الشعراء إلى أنه ربمـا أورد لـبعض شـعراء المختصر من الأشعار ما لم يكن موجوداً في النسخة الأصلية للطبقات ، بل ربمـا خالف اختياره الذي بدأه عام 590هـ ذلك الاختيار الذي أكمله عام 630هـ ، وفي ذلك يقول صاحب المختصر في خاتمته التي أوردها الأستاذ عبـاس إقبـال : "... وربما كتبتُ ما ليس بمختار من شعر شاعر لئلا أُخْلي هذا الكتاب من ذكره وربمـا

---

(424) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 595.

(425) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 593-594 .

(426) المصدر السابق ، ص 593 .

(427) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

خالف هذا الاختيار الذي هذا آخره الذي فرغت من تحريره في شعبان من سنة ثلاثين وستمائة ، الاختيار الأول الذي بَعد تاريخه من هذا التاريخ إما بزيادة في ذكر أخبار شاعر أو تركها ، على أني كتبتُ ذلك وهذا وأنا مشدوه الخاطر مشغول القلب"[428].

ذكر الأستاذ عباس إقبال بأن عمله في التحقيق انحصر فقط في تصويره للمخطوطة التي بحوذته كما هي ، دون أن يقوم بتصحيح أو إصلاح النص ، بل اكتفى بإضافة مقدمة وتعليقات علي المخطوط ، كما ذكر بأنه لم يدرس قيمة النسخة من الناحيتين اللغوية والإملائية.

وأشار الأستاذ عباس إقبال كذلك إلى أنه أفاد من مختصر الطبقات في دراسته ، إذ عثر فيه على خمسة شعراء وشواعر لم يرد عنهم خبر في النسخة الأصلية وهم: عائشة العثْمانية ، وسَكَنَ ، وعَنَان ، وخالد القناص ، وابن هرمة ، وبذا يكون عدد الشعراء الذين اشتملت عليهم نسخته مائة واثنين وثلاثين شاعراً.

وجدير بالذكر أن الأستاذ عباس إقبال شك في نسبة مقدمة كتاب طبقات الشعراء للمؤلف وسنناقش ذلك في موضعه من هذه الدّراسة.

الطبعة الثانية:

وهي طبعة دار المعارف التي صدرت بمصر في سنة 1956م بتحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، وفي صدر هذه الطبعة مقدمة للمحقق أبان فيها عن فضل كتاب طبقات الشعراء وقيمته في ميدان الأدب العربي ووصفه بأنه "من أعظم المصادر التي لا يستغني عنها مؤرخ أو أديب ، ولا نجد في غيره ما اشتمل عليه"[429]. كما أثنى المحقق كذلك على جهود الأستاذ عباس إقبال الذي سبقه في تحقيق هذا الكتاب ونشره للقراء ، وقد ذكر المحقق كذلك أن الأستاذ عباس إقبال كتب دراسات قيمة باللغة الفرنسية حول الطبقات ومختصره ، وتقديراً لهذه الدراسة قام بترجمتها وإثباتها في آخر الكتاب.

---

(428) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(429) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 5 من المقدمة.

قام منهج المحقق في التحقيق على اعتماد الطبعة الأولى التي حققها الأستاذ عباس إقبال ، وعلى نسخة مختصر طبقات الشعراء الموجودة في مكتبة الإسكوريال والتي تقدم الحديث عنها.

وأهم ما عني به المحقق أنه بحث عن مراجع لتراجم الشعراء الذين ترجم لهم ابن المعتز ، كما بحث عن مراجع تؤيد نصوصه لتكون توثيقاً لها ، فضلاً عن أن المحقق قام مشكوراً بشرح وتذليل كثير من معاني الألفاظ التي ربما أشكلت على القارئ.

وقد أشار المحقق في مستهل نسخته إلى مختصر الطبقات وذكر بأنه لم يثْبِت في صلب كتابه ما وجده من زيادات في المختصر وذلك لاحتمال أنها من زيادات المؤلف كما ألمح المحقق كذلك إلى أن النسخة الأولى للطبقات التي كانت بين يدي صاحب المختصر ، والتي اختصر منها إلى أخر أخبار أبي نواس ، تتفق في ترتيب الشعراء مع نسخته بزيادة إبراهيم بن هَرْمة في أولها. وقد أوضح المحقق كذلك في أنه يوافق الأستاذ عباس إقبال في أن مقدمة كتاب الطبقات ليست من إنشاء المؤلف وسنشير إلى ذلك في موضعه من هذا البحث.

وقد رفد المحقق تحقيقه بترجمة جيّدة للمؤلف ، أشار فيها إلى أساتذته ، ومن نقلوا عن طبقاته ، واسم الكتاب وتاريخ تأليفه.

وبعد أن فرغ المحقق من تحقيق هذا السّفر القيّم حصر الأخطاء التي وقع فيها الأستاذ عباس إقبال وأفرد لها عنواناً منفصلاً منّبهاً إلى أنه قام بإصلاحها . وتجدر الإشارة كذلك إلى أن محقق هذه الطبعة نفسه قد ذكر بأنه وبعد أن خلص من تحقيق الكتاب تبين له أنه قد وقع في بعض الأخطاء ، ونبه إلى ضرورة تصويبها بعد أن حصرها وحدد مواضعها في الكتاب.

وقد أثبت المحقق صفحة مصورة عن النسخة الكاملة للطبقات ، وصفحتين مصورتين عن مختصر الطبقات، ولا حظنا أن هناك فرقاً في الخط بين الصفحتين المصورتين عن المختصر، ففي الصفحة التي كتبت في سنة 590هـ نرى أن الحروف صغيرة الحجم، والمساحات بين الأسطر ضيّقة، أما التي كتبت في سنة

630هـ فنلاحظ أن الحروف غدت أكبر حجماً، والمساحات بين السطور أوسع من سابقتها.

وأول ترجمة وردت في هذه الطبعة هي للشاعر ابـن هَرْمَـة[430]، وآخـر ترجمة وردت هي لفَضْل الشاعرة إحدى الجواري الـشاعرات ، وقـد بلـغ عـدد الشعراء المترجم لهم في هذه النسخة مائة واثنان وثلاثون شاعراً وهو مطابق تماماً لعدد الشعراء الذين وردت تراجمهم في الطبعة الأولى.

وبعد آخر ترجمة وردت في هذه النسخة ، عقد محقق الكتاب فصلاً أثبت فيه الزّيادات التي وجدها في مختصر الطبقات ولم تكن موجودة في النـسخة الكاملـة الأصلية ، ونلحظ أن هذه الزيادات شغلت ما عدته أربع وثلاثين صفحة فـي هـذه النسخة ، مما يجعلنا نرجح أن كثيراً مما ورد في مختصر الطبقات لـم يكـن مـن الأصل في شيء.

وقد ختم المحقق الكتاب بأن ألحق به فصلاً دراسياً آخراً بعنـوان "دراسـات عباس إقبال" أثبت فيه مقدمة الأستاذ عباس إقبال كاملة نقلاً عن الطبعـة الأولـى ، وفي هذه الدّراسة نرى وصفاً للنسخة الأصلية التي اعتمد عليها الأستاذ عباس إقبال في تحقيقه ، تلاها وصفاً لمختصر طبقات الشعراء ، وفيها كذلك يكـشف الأسـتاذ عباس إقبال عن جهوده في التحقيق وهذا ما اعتمدنا عليه عند تناولنا للطبعة الأولى.

الطبعة الثالثة:

صدرت هذه الطبعة عن دار ومكتبة الهلال ببيـروت سـنة 2002م بتقـديم وشرح وفهرسة الدكتور صلاح الدين الهواري ، وفي صدر هذه الطبعة ترجمة جيّدة للمؤلّف خاص فيها المحقق إلى أن ابن المعتز لم يكن في كتابه طبقـات الـشعراء "راوياً للأخبار والأشعار وحسب ، بل كان نقاداً حسن الذوق ، لا يخفي إعجاباً ، ولا

---

(430) ابن هَرْمَة: هو إبراهيم بن علي بن سَلَمَة بن هَرْمة القرشي ، حجازي سكن المدينة ، ولد سنة 90هـ ، مدح ملوك بني مروان وبقي إلى آخر أيام المنصور ، توفي سنة 150هـ. ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16 وابن النديم ، الفهرست ، ص 303.

يتردد في إصدار حكم بالجودة أو الرداءة ، مهما علت مكانة شـاعر أو انخفـضت مكانة آخر"[431].

قامت دراسة الدكتور الهواري على الإفادة من جهـود محققـي الطبعتـين السابقتين ، مع اعتماده على الطبعة الثانية للكتاب وهي طبعة دار المعارف محاولاً في ذلك تجاوز الهنات والثغرات التي شابت هذه النسخة.

ويلاحظ أن طبعة دار ومكتبة الهلال قد اتفقت مع طبعة دار المعـارف فـي أسماء الشعراء المترجم لهم ، وترتيب التراجم ، وعددها ، إذ أن أول ترجمة وردت في طبعة دار ومكتبة الهلال هي للشاعر ابن هَرْمَة ، وآخر ترجمـة وردت هـي لِفَضْل الشاعرة ، ومجموع الشعراء المترجم لهم في هذه الطبعة هو مائـة واثنـان وثلاثون شاعراً وهو مطابق تماماً لعدد التراجم التي وردت في الطبعتين السابقتين.

والحق أن هذه الطبعة اتفقت كذلك مع الطبعة الثانية في بعض الأمور الفنيـة منها: أن الطبعتين كلاهما تضمنتا شرحاً وتفسيراً لما غمض مـن ألفـاظ الكتـاب وعباراته ، بجانب ضبط أسماء الأعلام والأماكن والبلدان ، وكذلك تزويد التـراجم الواردة في الطبعتين بمجموعة من المصادر والمراجع التي ترجمت لأصـحابها أو عرفت بهم ، فضلاً عن أن الطبعتين رفِدَتا ببعض الفهارس الفنية التي تساعد القارئ ، وتمكنه من الرجوع إلى مادة الكتاب بسهولة ويسر.

وجدير بالذكر أن محقق هذه الطبعة رأى أن لا يلحق بنسخته الزّيادات التـي وجدت فيما يسمى "مختصر طبقات الشعراء" كما فعل محقق الطبعة الثانية ، ريثمـا يثبت علمياً أنها من النص الأصلي لطبقات الشعراء ، وعندئذ يتم إدراجها في سياق الكتاب وليس في ملحقاته ، ولعلنا نوافقه في ذلك ، فقد تقـدم أن ناسـخ مختـصر الطبقات قد صرح بنفسه إلى أنه ربما أورد أشعاراً أو أخباراً لـشعراء ولـم تكـن موجودة في النسخة الأصلية لكتاب طبقات الشعراء.

---

(431) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص6 .

بعد النظر في الطبعتين اللتين بين أيدينا وهما طبعة دار المعارف ، وطبعة دار ومكتبة الهلال ، تبين لنا أفضلية وجودة طبعة دار ومكتبة الهلال ، ومن ثم اعتمدناها مصدراً للدراسة وذلك لتميزها عن طبعة دار المعارف بما يأتي:

أولاً: أشار محقق طبعة دار المعارف إلى أنه وقع في بعض الأخطاء ونبه إلى ضرورة تصويبها بعد أن حصرها وحدد مواضعها في الكتاب ، وعند دراستنا لطبعة دار ومكتبة الهلال لا حظنا أن المحقق قام بتصويب هذه الأخطاء والاستدراكات مما جعل نسخته أكثر ضبطاً وأصوب مادةً من سابقتها.

ثانياً: تميزت هذه الطبعة بأن جهد محققها في ضبط الأبيات الشعرية وبيان أوزانها وبحورها ، وتوثيقها من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما أمكن ، وهو ما لم يتوافر في طبعة دار المعارف.

ثالثاً: تأكد محقق طبعة دار ومكتبة الهلال من سلامة الشواهد الشعرية من الناحيتين العروضية والإملائية.

رابعاً: اشتملت هذه الطبعة على فهارس حديثة تمكن القارئ من الرجوع إلى مادة الكتاب بسهولةٍ ويسر.

خامساً:تعد نسخة دار ومكتبة الهلال نسخة حديثة ولذا اتسمت بجودة الطباعة ، ووضوح العرض ، مما يجعل تناولها ميسراً للقارئ.

ومجمل القول فإن الدارسين من محبي الأدب العربي لم يدخروا جهداً في تحقيق هذا السِّفر النفيس وتقديمه لقراء العربية برغم ندرة نسخه، ولعل فيما اشتملت عليه طبعات الكتاب ونسخه من تراجم لعدد كبير من الشعراء ما يلمح إلى ما حواه من مادة علمية ، وهذا ما سندرسه في المبحث القادم.

المبحث الثالث : مادة الكتاب

كثرت المؤلفات في العصر العباسي والكتب التي تُعْنى بالـشّعر والـشعراء، وتتبع أخبارهم، ودراسة أشعارهم، بيد أن ما يميز طبقات ابن المعتز هو ثالث كتاب مشهور مطبوع بين أيدينا لهذا اللون من الدراسة بعد ابن سلام، وابن قتيبة، وهـو السابع بين الكتب المعروفة، ولكن يد الضياع عصفت ببعضٍ منها، وترتيبها علـى النحو التالي:"طبقات الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي المتوفى سـنة231هـ ـ أو 232هـ، ثم "من اسمه عمرو من الشعراء "للجاحظ المتوفى سنة 255هـ، ثم كتاب "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ، ثم "البارع" لهارون بن علي بن المنجم المتوفى سنة 276هـ، ثم كِتَابي "من سمي عَمْراً من الشعراء في الجاهليـة والإسلام" و "الوَرَقَة" لمحمد بن داود بن الجـراح المتـوفى سـنة 296هـ، ثـم كتاب"طبقات الشعراء "لابن المعتز المتوفى سنة 296هـ[432].

ترجم ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء لمائة واثنـين وثلاثـين شـاعراً مشفوعة بطائفة من أخبارهم وأشعارهم ونوادرهم ، والذي يميز هذا الكتـاب عـن غيره من كتب الطبقات ككتاب "طبقات الشعراء" لابن سلام الجمحـي ، و"الـشعر والشعراء" لابن قتيبة، أن ابن المعتز خص كتابه بشعراء عاشوا في عـصر أدبـي واحد هو عصر العباسيين ، بينما نجد أن كتاب ابن سلام تـضمن سـيراً وأخبـاراً لشعراء عاشوا في الفترة من العصر الجاهلي وانتهاء بنهاية عصر بني أمية ، وكذا ابن قتيبة تناول في كتابه شعراء عاشوا في عصور مختلفة بدءاً بالجاهلية وعـصر صدر الإسلام والعصر الأموي إلى أيام العباسيين.

---

(432) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 437.

وقد درس ابن المعتز في طبقاته شعراء من مخضرمي الـدولتين الأمويـة والعباسية من أمثال: ابن هَرْمة[433]، وسدّيف بن ميمون[434]، وابن ميادة[435]، وأبي الهندي[436]وغيرهم فضلاً عن بقية الشعراء الذين عاشوا إلى زمن تأليفه الكتاب.لذا فالكتاب يرى فيه الدكتور أحمد كمال زكي بأنه "سجل للحياة الأدبية بعد أن خلفـت وراءها عصر العربية الخالصة بموت فحول بنـي أميـة أوائـل القـرن الثـاني الهجري"[437].

وابن المعتز فضلاً عن عنايته بالمشهورين مـن الـشعراء ، عنـي كـذلك بالمغمورين منهم ؛ فهو لا يكاد يترك شاعراً من شعراء العصر العباسـي إلا وقـد ضمنه كتابه وهو "استقصاء لا نجد له مثيلاً في أي مصدر أدبي آخر"[438].

أورد ابن المعتز لمن ترجم لهم طائفة جليلة من مختار شعرهم ونـوادرهم. وقد وهم بعض الدارسين عندما قرروا بأن ابن المعتز أثبت في كتابه أشعاراً تزيـد "على ألف وخمسمائة بيت"[439]. فعند إحصائنا لمجموع الـشواهد الـشّعرية التـي وردت في كتاب طبقات الشعراء وجدناها بلغت نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين بيتاً ، ولعل هذا ما لا يتوافر في أي مصدرٍ من مصادر الأدب وتاريخه.

---

(433) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16-17 وقد سبقت ترجمة ابن هرمه ص 99 من هذا البحث.

(434) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 32 – 36 .

(435) ابن ميادة: واسمه الرماح بن أبرد، وميادة أمه، وكانت أم ولد، وهو من بني مرة بن عوف بن سعد بـن ذُبيان وابن ميادة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.
ابن المعتز ، طبقات الشعراء، ص 96-97.

(436) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 124 – 130.

(437) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268 .

(438) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 522 .

(439) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 5 من المقدمة ود. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 131 .

ولأن ابن المعتز عالم وأديب وشاعر خبير بدلالات الألفاظ والمعاني ، فقـد امتازت مختارته الشعرية بالجودة والروعة "وقد قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه"[440].

"والكتاب يصور اتجاهات الشعراء ومذاهبهم وبيئاتهم أدق تـصوير ، وفيـه تفصيل للخصائص الفنية في شعر المحدثين وكثير من الموازنات الأدبية ، والشرح الأدبي لكثير من النصوص ، وكثير من المختارات للشعراء الذين ذهـب شـعرهم وضاعت دواوينهم"[441].

وقد رسم ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء صـورة واضـحة للمجتمـع العباسي ، وأنماط الحياة التي كان يعيشها الناس وقتذاك ؛ ففي الحيـاة الاجتماعيـة يحدثنا عن الخمر واللهو والمجون والزندقة ، والنوادر والطرائف ، ومظاهر الغنى ومظاهر الفقر ، كما اشتمل الكتاب كذلك على تصوير بيّنٍ لما حفلـت بـه الحيـاة الفكرية من مظاهر كالتشيع والاعتزال والخوارج ، هذا فضلاً عن تنـاول الكتـاب لطائفة من العلماء الذين أجادوا الصّناعتين الشعر والكتابة من أمثال الخليل بن أحمد ، وأحمد بن أبي فنن ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي .

والكتاب يزخر بكثير من الأحداث التاريخية التي تغفل عنها كتب الطبقـات فيصورها ابن المعتز بأسلوب أدبي طريف ، وهي أحداث كثيراً ما تتصل بأبيات من الشعر أو قصيدة من القصائد أو موقف لشاعر إزاء خليفة من خلفاء بني العبـاس ، كما حدث في قصة سدّيف مع وفد بني أمية في زمن أبي العباس السفاح وقد تقـدم الحديث عنها في فصلنا الأول[442] وكذلك بشار بن برد والمهدي[443]، وعلـي بـن جَبَلة والمأمون[444].

---

(440) أبو هلال العسكري ، الصّناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحيـاء الكتب العربية ، القاهرة، ط1 ، 1952م ، ص3 .

(441) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 522 .

(442) ص 4 من هذا البحث.

(443) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 17-18 .

(444) المصدر السابق ، ص 157-158.

والكتاب رصعه ابن المعتز بوصف نثري بديع نجد ملامحه فـي مواضـع متعددة من الكتاب ويتجلى كذلك في وصفه لحياة البرامكة ، ووصفه لقصر الخليفـة محمد الأمين وسيجيء الحديث عنهما.

ولم يكن ابن المعتز بالناقد الذي غابت مواقفه النقديـة فـي كتابـه طبقـات الشعراء[445]، كما زعم بعض الباحثين ؛ فالمتأمل في الكتاب يجد أن ابن المعتز لـم يكن راوياً للأخبار والأشعار فحسب بل كان ناقداً يفصح عن آراء نقدية تدل علـى ذوق أدبي رفيع وفطرة سليمة "وطبيعة الأديب الناقد الكامنة في شخصية ابن المعتز جعلته يقدّم كتابه بأسلوب رخي رضي شائق"[446]. وفي طبقات ابن المعتـز كـذلك نرى كثيراً "من الآراء القيمة في النقد ، ويشيع فيه الـذوق الأدبـي فـي العـرض والبحث والنقد والاختيار والترتيب"[447].

والكتاب من المصنفات النفيسة التي تسعد الأرواح ، وتسمو بالأذواق والأفهام ، من خلال روح الطرفة والدعابة التي بثها ابن المعتز في ثنايا كتابه.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن ابن المعتز لم يترجم في كتابه لجميـع شـعراء العصر العباسي فقد أهمل بعضهم من أمثال : ابن الرومي ، وديـك الجـن[448] ، ويحيى بن زياد الحارثي[449].

---

(445) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 191 .

(446) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 438 .

(447) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 522 .

(448) ديك الجن: واسمه عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام ، وديك الجن لقب غاب عليه ، مـن شـعراء الشام، ولد بحمص سنة 161هـ وسكن بها ، وتوفي سنة 235هـ أو 236هـ ، وكان شـديد الـشعوبية والعصبية على العرب . أبـو الفـرج الأصـفهاني ، الأغـاني ، طبعـة دار الثقافـة ، ج14 ، ص 49 والجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط1 ، 1938م ، ص 102 وخير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيـروت ، ط15 ، 2002م ، ج3 ، ص6.

(449) الحارثي: يحيى بن زياد بن عبيد ا بن عبد ا بن عبد المدان الحارثي الكوفي ، الشاعر المـشهور ، وهو ابن خال السفاح أول خلفاء بني العباس ، وكان يرمى بالزندقة وتوفي سنة 169هـ. ابـن خلكـان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 469.

وفيما يخص ابن الرومي فقد أجمع الدارسون على أن ابن المعتز لم يـضمن طبقاته الشاعر ابن الرومي ؛ لأن ابن الرومي كان يعيش في كنف القاسم بن عبيـد ا ، أحد من ألحقوا بابن المعتز كثيراً من الأذى ، وهو كذلك من الـذين أشـاروا بالقبض على ابن المعتز وسجنه بعد وفاة الخليفة المعتضد با بن المتوكل (279هـ - 289هـ)[450] ، فضلاً عن أن ابن الرومي هجـا المعتـز حينمـا خُلِـع عـن الخلافة[451].

ويبدو أن عاطفة الأبوة كانت أكبر من أَنْ تُنْسي عبد ا هجا ابـن الرومـي لوالده المعتز في قصيدة مطلعها:

أمْسَى الـشباب رداء عنـك مـسْتَلَبا وَلَـنْ يـدومَ علـى العَـصْرينَ مـا اعْتَقَبَـا[452]

وفيها يقول:

دع الخلافةَ يـا معتـز مـن كثـبٍ فلَيْس يكْسوكَ مِنْها ا ُ مـا سَلَبَا
أترتَجي لُبْسَها مـن بعـد خَلْعكهـا هيهاتَ هيهاتَ ، فات الضرْعَ ما حلِبَـا
تا ، ما كان يرضاكَ المليـك لهـا قبل احتقابـك مـا أصـبحتَ محْتَقِبَـا
حتـى أزالـك عنهـا ثـم أبـدلهَا كُفْـؤاً رضـياً لـذات ا منْتَجَبـا
فكَيْفَ يَرْضَاكَ بَعْد الموْبِقَـاتِ لهـا لا ، كَيْـفَ؟ لا، كَيْـفَ إلا المـينَ والكَـذبا[453]

يغالظ ابن الرومي في هجاء المعتز با بعد أن خُلِع عن الخلافة فـي سـنة 255هـ ، وولي مكانه المهتدي بن الواثق بن المعتـصم (255هـ-256هـ) ،

---

(450) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 10 ود. مصطفى الشكعة ، مناهج التـأليف عند العلماء العرب ، ص 439 . ود. إحسان عباس ، تـاريخ النقـد الأدبـي عنـد العـرب ، ص 117 ود. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 131 .

(451) ص 14-15 من هذا البحث.

(452) ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 1994م ، ج1 ، ص 336 .

(453) المصدر السابق ، ص 338 .

ويطلب إليه أن لا يحلم بأن تعود إليه الخلافة مرة أخرى ؛ فا تعالى لم يرد للمعتز أن يكون خليفة على المسلمين ، فالمعتز لا يملك من المؤهلات والكفاءة ما يجعلـه أهل لهذه الخلافة ، لذا نُحّي عنها ، وأبدل بمن هو أكفأ وأحقّ بها منه.

ولعلنا بعد هذا الهجاء المقذع للمعتز با ، ربما وجدنا للمؤلف العذْر في أن يخْلي كتابه من ابن الرومي ، وبخاصة أن ابن المعتز لم يكد ينسى جرح والده الذي خلع مكرهاً عن الخلافة وحبس وقتل أسوأ قتلة[454]. على أن ذكر ابن الرومي كان أنفع للكتاب وأفيد من إهماله ، وبذكره يكون المؤلف أكثر موضوعية وحياداً.

أما بخصوص إهمال ابن المعتز لعبد السلام بن رَغْبان المعروف بديك الجن ، فيرى بعض الدارسين أن السبب في ذلك هو أن ابن المعتز أمير عربي هاشمي ، وديك الجن كان "من أكثر الناس كراهيةً للعرب ، وأشدهم عصبية عليهم وشـعوبية ضدهم ، ومن ثم فقد يكون هذا هو السبب في إهمال شأنه"[455].

ولا نرجّح أن شعوبية ديك الجن وكراهيته للعرب كانتا سبباً في عدم ذكـره في طبقات الشعراء ، فابن المعتز وإن لم يصرح بلفظة شعوبية في طبقاتـه ، فقـد ترجم لبعض الشعراء الذين تلقفوا هذه الدعوة ، وبرزت ملامحها في بعض أشعارهم ، ومن هؤلاء الشاعر مروان بن محمد المشهور بأبي الـشمَقْمَق، فـنلحظ أن ابـن المعتز قد ترجم لأبي الشمَقْمَق على الرغم مما يكتنف أشعاره من نزعـة شـعوبية واضحة ، بل أثبت ابن المعتز في كتابه بعض أبيات لأبي الشمَقْمق يجاهر فيها هذا الشاعر صراحةً بكراهيته للعرب ومن ذلك قوله:

ذَهَـــبَ المَـــوال فَلامـــوا ل وقَـــد فُجِعْنـــا بـــالعَرَبْ
إلا بقايـــــــا أصـــــــبحوا بالهِــصْرِ مِــن قِــشْرِ القَــصَبْ
بـــالقَوْل بَـــذّوا حَاتِمـــاً والعَقْــلُ ريــح فــي القِــرَبْ[456]

(454) ص 14-15 من هذا البحث.

(455) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 440 ود. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 132 .

(456) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 118 .

يرثى أبو الشمَقْمَقْ في هذه الأبيات لذهاب الموالي ، ويبدي فجيعتـه لإقامـة دولة العرب ، وهو كذلك يفضل الموالي على العرب ، ويرى أن مـن تَبَقـى مـن الموالي على قلتهم يفوقون العرب في الفصاحة والبيان ورجاحة العقل.

وهناك دليل آخر على أن شُعوبية ديك الجن لم تكن سبباً في إغفال ذكره في طبقات الشعراء ، وهو أن ابن المعتز خص الحسن بن هانئ المعروف بأبي نُـواس بترجمة ضافية في كتابه ، وأبو نُواس يَلْمح القارئ في أشـعاره غيـر قليـل مـن العصبية على العرب وتحقيرهم وازدرائهم والحط من شأنهم "وأن أحداً لـم يخـدم الشعوبية كما خدمها هذا الشاعر"[457]. ومع ذلك فقد أطال ابن المعتز في سرد أخبار أبي نواس ، وأفاض في مدحه والثناء عليه ، ففيه يقول:" كان أبو نواس آدب الناس وأعرفهم بكل شعر ، وكان مطبوعاً ، لا يستقصي ولا يحلّل شعره ولا يقوم عليـه ... وهو في جميع ذلك حلو ظريف ، وكان يسحر الناس لظرفه وحلاوتـه وكثـرة ملحه ، وكان أسْخى الناس ، لا يحفظ ماله ولا يمْسكه"[458].

ولا نذهب بعيداً فقد روى ابن المعتز كذلك أخبار بشار بن برد ، بل جعـل ترجمته في صدر طبقاته ، ولا يَخْفى ما في بشار من تعصبٍ على العـرب ، فقـد "هدر بالشعوبية في صراحة"[459] ، وعلى الرغم من شعوبية بشار نـرى أن ابـن المعتز يقدمه على شعراء عصره ، وفيه يقول:"كان بشار أستاذ أهل عـصره مـن الشعراء غير مدافع ، ويجتمعون إليه وينشدونه ويرضون بحكمه"[460] . ويقول ابن المعتز يمدح بشاراً ويشيد بفضله في موضع آخر:" كان بشار يعـد فـي الخطبـاء والبلغاء . ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهـم دفـع فـضله ولا رغـب عـن شعره"[461].

---

(457) د. أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة ، ص 538.

(458) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 176 .

(459) د. أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة ، ص 515 .

(460) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 22 .

(461) المصدر السابق ، ص 24 .

مما تقدم يبدو لي أن شُعوبية ديك الجن وكراهيته للعرب لم تكن سـبباً فـي إغفال ابن المعتز لذكره في طبقاته ، فأغلب الظن أن السبب في إهمال ديك الجن هو ندرة أخباره ، فجل من ترجم لهم ابن المعتز سكنوا العراق أو وفدوا إليه ، ومدحوا خلفاء بني العباس فراجت أخبارهم ، أما ديك الجن فقد استوطن بـلاد الـشام ولـم يبرحها ، وهو كذلك لم ينتجع بشعره عواصم الخلافة وقصور الخلفاء ، يروي ذلك أبو الفرج الأصفهاني فيقول :" كان من ساكني حِمص ، ولم يبرح نواحي الـشام ، ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعره ، ولا متصدياً لأحد"[462]. ولعل من أسباب ندرة أخبار ديك الجن "أنه شاعر عاش لنفسه كثيراً وعاش للملوك والأمـراء قليلاً وقليلاً جداً"[463].

أما عن إهمال ذكر الشاعر يحيى بن زياد الحارثي ؛ فيرى الدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور غصوب خميس غصوب أن ابن المعتز إنما أهمل ذكر يحيى بن زياد بسبب زندقته ؛ إذ أن يحيى هذا كان من كبار الزنادقة "وكانت صفة الزنـديق على عهده لا تَنْصرف إلى أحد إلا إلى يحيى الحارثي"[464] لذلك كره ابن المعتز أن يذكر في كتابه إنساناً كان يتفاخر بزندقته ويظهرها على الناس من غير تحـرج أو احتشام[465].

ولا أتفق مع الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور غصوب خميس في أن ابـن المعتز لم يضمن كتابه يحيى بن زياد الحارثي ، بسبب ما شهر عـن يحيـى مـن مظاهر الزندقة . فالدارس لكتاب الطبقات يلحظ أن ابن المعتز ترجم فـي طبقاتـه لطائفة من كبار الزنادقة مثل: بشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، والحمادين وغيرهم ، فعلى سبيل المثال يصف ابن المعتز الحمادين الثلاثـة ، وهـم : حمـاد

---

(462) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج14 ، ص 49 .

(463) ديك الجن الحمصي ، الديوان ، جمع وشرح عبد المعين الملوحي ومحيي الـدّين الـدرويش ، د.ت ، ص 3 من المقدمة.

(464) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 440 ود.غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 132 .

(465) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 440 ود. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 132 .

عجرد ، وحماد بن الزّبرقان ، وحماد الراوية بأنهم كـانوا فـي زمـرة الزنادقـة فيقول:"وكانوا جيمعاً يرمَون بالزندقة"[466] وسنبحث ذلك في موضـعه مـن هـذه الدراسة.

وأكبر الظن أن ابن المعتز لم يهمل ذكر يحيى الحارثي في طبقات الشعراء؛ لأن يحيى كان زنديقاً ، بل أهمله لذات السبب الذي أغفل به ذكر الشاعر ديك الجن كما تقدم ، وهو ندرة أخبار الحارثي.

أما عن مصادر الكتاب ، فاللافت للنظر أن ابن المعتز لم يشر في كتابه إلى المصادر التي استقى منها مادته العلمية ؛ فالمتأمّل في طبقات الشعراء يلحظ أن ابن المعتز يعتمد اعتماداً أصيلاً في مادته على الرواية والسند.

وقد دفعت عدم العناية بكتاب الطبقات بعض الباحثين إلـى مجانبـة الدّقـة والاحتراز في إحصاء رواة ابن المعتز ، فقد وهم هؤلاء بأن من تلقى عـنهم ابـن المعتز "أخباراً وأثبتها في الطبقات يفوقون الستين عداً"[467].

فهؤلاء يزعمون أن من روى عنهم ابن المعتز يتجاوزون فقط الستين راوياً، بيد أنه وبعد دراستنا لكتاب الطبقات تبين لنا أن من روى عنهم ابن المعتـز بلغـوا نحو مائتين وثمانية عشر راوياً.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض رواة ابن المعتز هم ممن ألفوا كتباً في الـشّعر والشعراء ، لكننا نلاحظ أن ابن المعتز لم يشر إلى كتب هؤلاء الرواة في تراجمـه، ومن هؤلاء الرواة أصحاب الكتب أستاذه محمد بن يزيد المبرد الذي روى عنه ابن المعتز في طبقاته إحدى عشرة مرةً ، وللمبرد كتـاب متخـصص فـي الـشعراء العباسيين وهو كتاب "الروضة في أشعار المحدثين".

ومنهم أبو هفان المِهْزَمي الذي كان إخبارياً وراوياً مصنفاً ، ومن مؤلفاته في الشعر كتاب "الأربعة في أخبار الشعراء" وكتاب "صناعة الشّعر"[468]. وأبو هفـان من غلمان أبي نواس ورواته ، وهو أحد من ترجم لهم ابن المعتز في كتابه.

---

(466) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60.

(467) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 10 ود. غصوب خميس ، عبد الله بن المعتز شاعراً ، ص 112 .

وممن روى عنهم ابن المعتز – أخباراً ولم يشر في طبقاته إلى مؤلفـاتهم – أحمد بن أبي طاهر المتوفى سنة 280هـ ومن مصنفاته في الشّعر كتـاب "أسـماء الشعراء الأوائل" وكتاب "ألقاب الشعراء ، ومن عني بالكُنى ومن عـرف باسـمه" وكتاب "مقاتل الشعراء"[469]. وهو أحد من ترجم لهم ابـن المعتـز فـي طبقـات الشعراء. ومنهم محمد بن حبيب المتوفى سنة 345هـ ومن مؤلفاته الأدبية كتـاب "ألقاب الشعراء" وكتاب "كُنى الشعراء" وكتاب "أخبار الشعراء وطبقاتهم"[470].

ولمعرفة إن كان ابن المعتز قد استعان في تأليفه بمصادر كتابية غير الرواية ، قمنا بدراسة بعض الكتب الشبيهة بطبقات ابن المعتـز ، وهـي كتـاب "الـشعر والشعراء" لابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ ، وكتاب "الوَرَقة" لمحمد بـن داود بـن الجراح وزير ابن المعتز يوم خلافته والمتوفى سنة 296هـ ، وإن اختلف الكتابان عن طبقات ابن المعتز في الهدف والمنهج والغاية.

ترجم ابن المعتز في كتابه "طبقات الشعراء" لخمسة وعشرين شـاعراً مـن جملة الشعراء الذين ترجم لهم ابن قتيبة في كتابه "الشّعر والشعراء " ، وعند النظر في أخبار هؤلاء الشعراء كما وردت في كتابي ابن قتيبة وابن المعتز فإننا لم نلحظ تطابقاً تاماً في الروايات كما جاءت في الكتابين ، لكننا نلمح حيناً اتفاقاً في أطـراف من أخبار بعض الشعراء ، واتفاقاً آخر في بعض المختارات والنصوص الشّعرية.

وجدير بالذكر أن هذه النّصوص المتفقة في الكتابين يوردها ابن المعتز فـي الغالب نقلاً عن رواته ففي خبر الشاعر أبي حَية النميري[471] – مثلاً- نلاحـظ أن ابن قتيبة أورد في كتابه "الشعر والشعراء" نصاً طريفاً يتـصل بـشهرة النميـري بالكذب ، وعند النظر في كتاب طبقات الشعراء نرى ذات النص ، غير أن ما يميز نص ابن قتيبة عن ابن المعتز ، أن ابن المعتز أثبت نصه عن طريق الرواية، ومن

---

(468) ابن النديم ، الفهرست ، ص 276 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 372 – 373 .

(469) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 378 وابن النّديم ، الفهرست ، 378 – 379 .

(470) ابن النديم ، الفهرست ، ص 210 – 211 .

(471) أبوحية النمْيري : واسمه الهيثم بن الربيع ، من أهل البصرة ، جيّد الشعر ، يروي عـن الفـرزدق ، وكان أبو حية من أكذب الناس ، وتوفي سنة 210هـ.

ابن قتيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 522 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 131 – 133 .

ذلك قول ابن المعتز يصف مبالغة أبي حية النميري في الكذب:" قال ابن أبي حبرة : وسمعته يوماً يقول: عن لي ظبي فرميتُه بسهم ، فراغ الظبي عن سهمي ، فعارضه السهم ، ثم راغ ، فراوغه وا السهم حتى قتله"[472].

ويروي ابن قتيبة أيضاً خبراً آخراً يرتبط بنبوء سيف أبي حيـة النميـري ، ونجد أن ابن المعتز قد ذكر الخبر نفسه ولكنه أورده نقلاً عن رواته ، يقـول ابـن المعتز:" حدثني صالح بن إبراهيم قال : حدثني أبو المهزم الأعرابي قال: كان لأبي حية النميري سيف يسميه لُعاب المنية . وكانت المِغْرَفة أقطع منه ، فدخل بيته كلب ليلة من الليالي من حيث لا يدري به ، فلما حسه في البيت توهمه لصاً ، فقام فـي البيت وقال: أيها المغتر بنا ، المجترئ علينا ، جِئْتَ وا إلى خير قليـل ، وسـيف صقيل ، ونفس تأبى الضيم وتأنف العار ، جارها آمن ، وعدوها خائف ، أما سَمِعْتَ بلعاب المنية ..." [473].

ونرى كذلك تطابقاً في بعض النصوص لدى ابن قُتيبة وابن المعتز في تراجم أبي دلامة[474] ، وإسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية[475]، وابن مَيادة[476]، وأبي الشّيص[477] وغيرهم.

أما عند وقوفنا على كتاب "الوَرَقَة" لمحمد بن داود بن الجـراح – بوصـفه وزير ابن المعتز ومعاصره ، فضلاً عن أن كتاب الورقة قد اختص بمـا أصْـطُلِحَ عليهم بالشعراء المحدثين وهم شعراء العصر العباسي – وجدنا أن جملة من تـرجم لهم ابن الجراح هم ثمانية وخمسون شاعراً ، منهم ثمانيـة شـعراء ممـن وردت تراجمهم في طبقات ابن المعتز . وبعد النظر في أخبار هؤلاء الشعراء الثمانية فـي كتاب "الورقة" والطبقات ، لاحظنا أن هناك تقريباً توافقاً في بعض النصوص عنـد

---

(472) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 522 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 131 .

(473) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 522 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 131 .

(474) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 523 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 46 – 54 .

(475) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 535 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 208 .

(476) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 520 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 96 وسبقت ترجمة ابـن ميادة ، ص 103.

(477) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 571 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64.

ابن المعتز وابن الجراح كما وردت في تراجم ثلاثة شعراء وهم: علي بـن جَبَلـة العَكَوك[478]، ومحمد بن حازم الباهلي[479]، والقَصَافي[480].

ويرى الأستاذ عباس إقبال أن في اتفاق هذه النّصوص دليل على أنه كان عند ابن المعتز مخطوطات عندما هم بتأليف طبقات الـشعراء ، يقـول:" لا يمكننـا أن ننسب اتّفاق النّصوص في هذا الكتاب ، وكتاب الشّعر والشعراء وغيره ، إلا مـن مصدر واحد مكتوب نقل منه هو وغيره"[481].

ويبدو لي أن العدد الكبير من رواة الأخبار الذين اعتمد عليهم ابن المعتز في مادته ، وهم نحو مائتين وثمانية عشر راوياً كما تقدم ، لم يكد يحوج ابن المعتز إلى النظر في كتب أو مخطوطات يستعين بها في تأليف كتابه ، وابن المعتز قد شَهد له معاصروه بتفرّده في الرواية ، واشتهاره بها ، يقول عنه أبو بكر الصولي:" نشأ في الرّواية والسماعة ، يكثر في مجلسه من حدثنا وأخبرنا"[482]. ولأن ابن المعتز أمير وابن خليفة فضلاً عن كونه شاعراً وأديباً وعالماً ، كان العلماء والأدباء يقـصدون

---

(478) علي بن جَبَلة : ويعْرف بالعَكَوك ، من أهل خراسان وكان مكفوف البـصر ، وهـو أحـد الـشعراء المطبوعين المجيدين ، قتله الخليفة المأمون بن الرشيد.

ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 156 – 158 ومحمد بن داود بن الجراح ، الورقة ، تحقيق د. عبـد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، 1953م ، ص 106 – 108 .

(479) محمد بن حازم الباهلي: بصري ينزل مدينة السلام ، ويكنى أبا جعفر، مـن أجـود الـشعراء لفظـاً، وألطفهم معنى ، وكان أبو حازم يصف نفسه بالقناعة ويكثر القول فيها وهو أسأل الخلق ، وأحرص مـن الكلاب.

ابن المعتز ، طبقات الشعراء، ص 281-283 وابن الجراح، الورقة، ص 109 – 112.

(480) القَصافي: واسمه عمرو بن نصر التميمي وكنيته أبو الفَيْض من أهل البصرة ، وهـو مـن الـشعراء المغمورين قال عنه ابن الجراح وابن المعتز :"كان عمرو القصافي يقول الشعر ستين سنة ولم يَقُـلْ شـيئاً جيّداً غير بيت واحد ، وهو قوله في الإبل :

خُوص نَواجٍ إذا حث الحداةُ بها رأيتَ أرْجلها قُدام أيديها"

الخُوص: جمع خوصاء وهي من الشّياه ما اسودت إحدى عينيها وأبيضت الأخرى . **النواجي**: جمع ناجية ، وهي الناقة السريعة.

ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 279 وابن الجراح ، الورقة ، ص7 .

(481) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 590 .

(482) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

داره ويسعون إلى مجالسته يصف ذلك أبو بكر الصولي فيقول:" وكانت داره مغاثـاً لأهل الأدب ، وكان يجالسه منهم جماعة"[483].

لذا وإن وجدنا اتفاقاً في بعض النصوص في "طبقات الشعراء" وغيـره مـن الكتب والمؤلفات التي ترجمت لمن ترجم لهم ابن المعتز ، فابن المعتز قد عـرض هذه النصوص عن طريق السند والرّواية كما تقدم ، أما ما نلحظه من تطـابق فـي بعض الأخبار اليسيرة ، والمختارات الشعرية التي يبثها المؤلف في ثنايـا تراجمـه دون الإشارة إلى راوٍ من رواته ؛ فإذا سلمنا بأن ابن المعتز نقل شـيئاً مـن هـذه النصوص المشتركة من بعض المخطوطات ، فأغلب الظن أن ابـن المعتـز كـان يستعين كذلك في إيراد هذه النصوص بسعة علمه وموفور أدبه وإحاطتـه بأخبـار هؤلاء الشعراء الذين هم أبناء عصره ، وكيف لا وأبو الفرج الأصفهاني يقدّم ابـن المعتز في العلم والمعرفة على جميع معاصريه ، فعنه يقول:"وتقـدم جميـع أهـل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً في سائر الآداب"[484].

وعن تفرد ابن المعتز وإحاطته يقول أبو بكر الصولي:" ما رأيتُ عباسياً قط أجمع منه ، ولا أقرب لساناً كان من قلب ، وكان يقدّم أهل العلم ويؤثرهم"[485].

ومحصول القول فإن كتاب "طبقات الشعراء" حوى تـراجم لمائـة واثنـين وثلاثين شاعراً مرفقة بطائفة جليلة من أخبارهم وأشعارهم ونوادرهم . ومـا يميـز الكتاب أنه تخصص في عصر أدبي واحد هو عصر العباسيين ؛ فكـل مـن ذكـر المؤلف أخبارهم عاشوا في هذا العصر . والكتاب زخر بقسط وافر من المختارات الشعرية التي بلغت عدتها زهاء ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين بيتاً ، وهو ما ينـدر وجوده في أي مصدر أدبي آخر ، وفيه نرى كثيراً من الموازنات الأدبية والـشرح الدقيق لكثير من النصوص ، وفي الكتاب كذلك تشيع أحكام ابن المعتز وآراؤه القيمة في النقد ، والكتاب بعد يعطينا صورة واضحة للحياة الاجتماعية والفكرية والأدبيـة في زمن بني العباس ، وكما عني المؤلف بالمشهورين من الـشعراء عنـي كـذلك

---

(483) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(484) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 274 .

(485) الصولي ، الأوراق ، ص 107 .

عناية بيّنة بالمغمورين منهم ، ولم يحدثنا ابن المعتز عن مصادره فكل ما ورد فـي الكتاب هو عن طريق السند والرّواية ، وقد بلغ من روى عنهم نحو مائتين وثمانية عشر راوياً . وقد رسم ابن المعتز لطبقاته منهجاً اقتفى أثره ، وسار علـى هـداه ، وهذا ما ستتضح معالمه في المبحث القادم.

المبحث الرابع : منهج المؤّلف

(أ) تمهيد : اتّجاهات النقد الأدبي في عصر ابن المعتز:

لعل العرب منذ القديم لم يحتفوا بفن من الفنون الأدبية مثلما احتفوا بفن الشعر ؛ فهو ديوانهم وسجل حوادثهم ومفاخرهم ومودع آمالهم وآلامهم لذا اهتموا بنقده وتقويمه وتمييز جيده من رديئه ، وعلى الرغم من أننا لا نعرف نشأة الشعر كما لا نعرف كذلك نشأة النقد ، إلا أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا وصل شعراً ناضجاً محكم البناء على نحو ما نرى ذلك في شعر المعلقات وفي أشعار كثير من الجاهليين وهذا يدلنا على "أن هذا الشعر مر بضروب كثيرة من التهذيب حتى بلغ ذلك الإتقان الذي نجده عليه أواخر العصر الجاهلي ؛ فبين الحداء الذي يظن أنه نواة الشعر العربي وبين القصيدة المحكمة عصر طويل للنقد الأدبي ألح على الشعر بالإصلاح والتهذيب حتى انتهى به إلى الصحة وإلى الجودة والإحكام"[486].

والذي انتهى إلينا من أمر النقد أن البيئات الأولى له كانت في سوق عكاظ في الجاهلية حيث "كانت تقام للنابغة فيها قُبة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم؛ فمن أشاد به طار اسمه"[487].

والنقد الأدبي في الجاهلية ومن بعدها صدر الإسلام ظل نقداً فطرياً قائماً على الانفعال والتأثر دون أن يكون فيه شمول أو إعمال للفكر أو البحث والتحليل؛ فالناقد يعْجَب بأبيات من الشعر فيقدم صاحبها ، فإذا خلا القلب من سحر هذه الأبيات ، واختلفت المواطن والأحوال ، وتأثر بشعر آخر قدم صاحبه وبهذه التأثرية يكون النقد في بواكيره نقداً ملائماً لروح عصره ، ملائماً للشعر العربي نفسه فكلاهما قائم على الانفعال والتأثر[488].

---

(486) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003م ، ص 17.

(487) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، 1960م ، ص 77.

(488) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 28 ، 29 ، 35 .

والمتتبع لحركة النقد الأدبي يدرك أن دخول العرب في الحياة الجديدة منـذ بداية العصر العباسي قد طور نظرتهم إلى الشّعر ، وإدراكهم لما فيه مـن روعـة وجمال أو تصنع وتطبع . وأصبح النقد منذ القرن الثالث الهجري يقوم على أسـس بلاغية وثقافية متأثرة بكل ما جاء به الإلمام بالثقافات الوافدة من أمم عريقـة فـي الفكر وأساليبه . فضلاً عن تعمقها في الثقافة العربية والإسلامية الأصيلة . وفي ظل هذا التطور الثقافي والحضاري انفسح مجال النقد وتشعبت مباحثه . ويرجع الإطار النقدي في هذا العصر إلى جهود اللغويين والنحويين من جهة ، وجهود الأدباء مـن جهة أخرى[489].

شهد العصر العباسي حركة نشطة في مجال تأليف العلوم وتدوينها ، وكـان من نتاج ذلك أن ألف الأصمعي المتوفى سنة 216هـ كتابه "فحولة الشعراء" فنظر فيه إلى الشاعر أيا كان ؛ فوجده أحد اثنين إما فحل أو غير فحل[490].

والأصمعي وإن ابتعد في كتابه عن النقد المدروس والقـائم علـى التعليـل والتفسير "فهو من أوائل ما دوّن من آراء نقدية مركزة فـي كتـاب إن لـم يكـن أولها"[491] ، كما أن كتابه هذا يمثل "بداية النقد المنظم"[492]. وقد أفاد النقاد اللاحقون من جهوده وأحكامه النقدية التي بثها في كتابه.

وقد أورد ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء بعض الآراء النقدية للأصمعي . ويبدو الأصمعي من خلال هذه الأحكام النقدية وهو يقف موقفاً متجاذباً بين اللغوي المحافظ الذي يرى أن القديم هو أصل كل شيء ، وبين من يرى أن من أجاد مـن المحدثين هو أحق بالثناء والتقريظ.

فهو حيناً يقول :" خُتِم الشّعر بابن هَرْمَة ، فإنه مدح ملوك بني أمية وبقي إلى آخر أيام المنصور"[493]. وبهذا الرأي يكون الأصمعي قد وضع حداً فاصلاً للـشعر

---

(489) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 519 .

(490) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 15 .

(491) د. محمد الربداوي، المتخير من كتب النقد العربي، مؤسسة الرّسالة، بيروت ، ط1، 1981م ، ص13 .

(492) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 15 .

(493) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16 .

الجيد وهو نهاية عهد الأمويين وانتهاء بصدر الدولة العباسية . إلا أن الأصمعي يفاجئنا حيناً آخر فنراه يروي أشعار أبي نواس ويمتدحه ويشيد بفضله ، وأبو نواس عاش أكثر من أربعين عاماً بعد وفاة ابن هَرْمَة وبقي إلى زمن الخليفة محمد الأمين.

والأصمعي لا يمتدح أبا نواس بجودة شعره فحسب بل بتفوقه على معاصريه في كثير من فنون الأدب والمعرفة ، يقول عنه :" ولقد جالسته في مجالس كثيرة ، قد ضمت ذوي فنون من الأدباء والعلماء ؛ فما تجاروا في فنٍ من فنونهم إلا جاراهم فيه ، ثم برز عليهم ، وهو من الشّعر بالمحل الذي قد عَلِمْتَه"[494].

أما اللغويون والنحويون من البصريين والكوفيين الذين لا يزالون من حملة الشّعر ونقدته فهؤلاء من أنصار القديم وأشدهم تعصباً له ، ويمثل هذا الاتجاه : المبرد ، وثعلب ، وأبو سعيد السكري ، وأبو العميثل الأعرابي[495].

ولو ضربنا صفحاً عن اللغويين والنحويين فإن جهود الأدباء يأتي على رأسها محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 232هـ. لقد ألف ابن سلام كتابه "طبقات فحول الشعراء"فكان أول من دعا إلى استقلال الناقد والنقد الأدبي فهو يرى أن "للشّعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصّناعات ... فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به"[496].

قسم ابن سلام شعراءه إلى طبقتين : جاهلية وإسلامية ثم أضاف إليها ثلاث طبقات أخرى هي: طبقة أصحاب المراثي ، وطبقة شعراء القرى العربية ، وطبقة شعراء اليهود . مستنداً في تصنيفه على تشابه أصحاب كل طبقة في أشعارهم ، يقولُ :" فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه"[497]. كما احتكم كذلك إلى كثرة شعر الشاعر ، وتعدد فنونه وأغراضه الشعرية ، وجودة شعره.

---

(494) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 196.

(495) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 108 .

(496) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1952م ، ص 6 ، 8 .

(497) المصدر السابق ، ص 22 .

وأهم مسألة شغلت ابن سلام فتصدى لها في طبقاته هي مسألة الشعر الموضوع أو المنتحل ، فهو يلقي بوزر الانتحال على حماد الراوية وحجته في ذلك أن حماداً هذا "كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ... وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار"[498].

وفي الكتاب كذلك تتناثر أخبار السرقات الشعرية وادّعاء بعض القبائل ما ليس لها من أشعار.

ومن الملاحظ أن ابن سلام قصر طبقاته على المشهورين من الشعراء وأهمل المغمورين منهم كما نص على ذلك في مقدمة كتابه فقال :" ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها"[499]. لذا فالكتاب خلا من ذكر الشعراء الصعاليك من أمثال : عروة بن الورد ، وثابت بن أوس الأزدي المعروف بالشنْفَرِي ، وتأبط شَراً ، والسليك بن السلكة ، وأشعارهم من الجودة بمكان ودوننا لامية العرب للشنفري والتي مطلعها:

أقيموا بَنِي أُمّي صدور مَطِيّكم فَإنّي إلى قومٍ سِوَاكُم لأَمْيَلُ

جاء الجاحظ المتوفى سنة 255هـ وكان مدركاً للتطور الذي طرأ على الحياة الجديدة وامتد تأثيره إلى الأذواق والأفهام ، وهو على وعي شديد بأن الشعر أصبح من نتاج غير العرب كما كان من نتاج العرب، وأنه كذلك أصبح قسطاً مشتركاً بين الحاضرة والبادية ، لذلك فهو لا يستطيع أن يغض الطرف عن ذلك الصّراع بين القديم والمحدث ، وعن التفاوت في الشعر بين العرق العربي وغير العربي وبين البادية والحاضرة ، ولهذا كان موقف الجاحظ النقدي شيئاً جديداً بالنسبة لمن تقدمه[500].

---

(498) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 40-41 .

(499) المصدر السابق ، ص 5 .

(500) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 16 .

والجاحظ في موقفه النقدي يرى من الحق إنصاف المولدين بالنظر إلى الشّعر حسب جودته ، وعدم الحكم عليه تحت تأثير المعاصرة ، أو النظر إليه من ناحيـة قائله ؛ فعنده أن الجودة هي المقياس الوحيد للشعر[501].

ومقياس الجودة الذي اتخذه الجاحظ منهجاً لحسم الصّراع بين القديم والمحدث اقتضى منه النظر في مسألتي اللفظ والمعنى فمتى شاكل "اللفظ معناه وأعرب عـن فحواه ... كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبـه مـن تناول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين ، وألا تـزال القلـوب بـه معمورة ، والصدور مأهولة"[502].

وقاده بحثه عن الجيّد من الشّعر كذلك إلى الوقـوف عنـد قـضيتي الطبـع والصّنعة ، فعنده أن زهيراً بن أبي سلْمى والحطيئة وأشباههما عبيدُ للشّعر ولولا أن الشّعر قد "استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في بـاب التكلـف وأصـحاب الصّنعة ومن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبـوعين ، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً"[503].

جاء ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ فسار على نسق سـلفه الجـاحظ فـي الاحتكام إلى جودة الشّعر دون اعتبار إلى تقدم الشاعر أو تأخره[504]. كما كان مثله تماماً في الاهتمام بموضوعي التكلّف والطبع.

فابن قتيبة في مذهبه النقدي يمقت المتكلف من الشعر ، ويثني علـى شـعر الطبع والغريزة ؛ فهو يرى أن المتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً فلا يخفـى

---

(501) محمد بن عبد الغني المصري ، نظرية الجاحظ في النقد الأدبـي ، دار مجـد لاوي ، عمـان ، ط1 ، 1987م ، ص 29 .

(502) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج2 ، ص 7-8 .

قَمينٌ : جدير وخليق.

(503) المصدر السابق ، ص 13 .

السهو: السهل الليّن.

الرهو: السهل.

انثالت : اجتمعت وانصبت من كل وجه.

(504) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 19 .

على ذوي العلم ما نزلَ بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء وحذف ما بالمعـاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه.

أما المطبوع من الشعراء فهو من سمح بالشّعر واقتدر على القوافي وتبينـت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة[505].

ولم يكن ابن المعتز المتوفى سنة 296هـ بغائب عن تطور المداول النقدي، وتغير نظرة النقاد إلى الشّعر في عهده ، فقد ألف كتابه "البديع" فكان أول محاولـة علمية في تدوين علم البديع وفيه نفى أن يكون البديع من ابتكار المحدثين ؛ فالبـديع موجود منذ القديم وهو متناثر في القرآن الكريم وفي أحاديث النبـي صـلوات ا وسلامه عليه وفي أشعار المتقدمين ، وفي الكتاب ينعى المؤلف علـى أبـي تمـام إفراطه في استخدام البديع حتى خرج به إلى حد التكلف والصنعة وقد تقدم الحـديث عن ذلك.

وآراء ابن المعتز النقدية برزت كذلك في رسالته في محاسن شعر أبي تمـام ومساوئه والتي أوردها المرزباني في كتابه الموشح. وتقدم حديثنا عنها ضمن آثاره ومؤلفاته.

هذه الأحكام النقدية التي تجلت في كتابه البديع وفي رسالته في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه – والتي تدل على إدراكه للمستجدات التي طرأت علـى الأثـر الأدبي في زمانه – رفدها المؤلف بآراء وأحكام نقدية أخرى نجدها مبثوثة في كتابه طبقات الشعراء هذا الذي نحن بصدد تبيان منهجه فيه.

(ب) منهجه:

يقول ابن المعتز في مقدمة الكتاب :"... عَقَد الفكر طرفي ليلـةً بـالنجوم ، لواردٍ ورد علي من الهموم ، نَفَضَ عن عَيْنَي كُحْل الرقاد ، وألـبسَ مقْلتـي حلَـل السهاد ، فتأملتُ ، فخطر علي الخاطر في بعض الأفكار ، أن أذكرَ في نـسخةٍ مـا وضعته الشعراء من الأشعار ، في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس ، ليكون مذكوراً عند الناس ، متابعاً لما ألفَه ابن نجيم قبلي بكتابه المسمى "طبقـات

---

(505) المصدر السابق ، ص 36-37 .

الشعراء الثقات" ، مستعيناً با المسهّل الحاجـات ، وسـميتُه "طبقـات الـشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين" . فكان أول ترجمة ابن نجيم بشار بن برد ومالـه من الأشعار والآثار ، فنظرت في ذلك أن أجمعهـم فـي هـذا الكتـاب ، فرأيـتُ الاختصار لأشعارهم عَيْنَ الصواب ، ولو اقتصّيْت جميع مالهم من الأشعار لطـالَ الكتاب ، وخرج عن حد القصد ، فاخْتصرتُ ذلك وذكرتُ ما كان شاذاً من دواوينهم ، وما لم يذكر في الكتب من أشعارهم ، واقتصرت على ما كـان مـن مطـولات قصائدهم ، وبا الاستعانة والتوفيق"[506].

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ عباس إقبال محقّق الكتـاب يـرى أن هـذه المقدمة المثبتة في صدر الكتاب، لم تكن المقدّمة الحقيقية للطبقات ، ودليله في ذلـك أن صاحب "مختصر طبقات الشعراء" وهو المبارك بن أحمد الأربلي[507]، وعلـى الرغم من أنه لم يثبت المقدّمة الأصلية للكتاب في مخْتصره إيثاراً للإيجاز، إلا أنـه قد ألمح إليها في ترجمة "علي بن الجَهْم" وهو قوله :"قالَ المبارك بن أحمد: ذكـره (أي علي بن الجهم) فيما عده في أول كتابه من تراجم الشعراء وقال: ومنهم علـي بن الجهم القرشي وكان مولعاً بآل طاهر يهجوهم ويمتدح المتوكّل . قتله آل طاهر، وذلك أنه قال في شعر له يعرّض بهم وأنشد البيتين المذكورين وقال: فلما بلغ هـذا الشعر عبد ا بن طاهر كتب إلى الخليفة وسأله أن يحْمَـل إليـه فَحمِـل فـصلبه بالشاذياخ وقتله وله أخبار كثيرة سنذكرها عند ذكر الشعراء"[508].

ما ذكره المبارك بن أحمد يشير إلى أن النسخة الأصلية لكتاب الطبقات كانت تبتديء بمقدمة طويلة كتبها المؤلف نفسه ، واسـتعرض فيهـا قائمـة بالـشعراء والشاعرات الذين كان ينوي دراسة تاريخ حياتهم والحديث عنهم في طبقاتـه ، وأن هذه المقدمة كانت تحتوي على نُبذ وكلمات موجزة عن كل شاعر ، وهذا ما خلـت منه المقدمة التي بين أيدينا.

---

(506) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 15 – 16

(507) ص 97 من هذا البحث .

(508) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعار ف ، ص 585 وهامش ص 448 من نفس المصدر.

ويخاص الأستاذ عباس إقبال إلى أن المقدمة الحالية للكتاب منْتَحلة لقارئ ملم بالأدب ، رأى الكتاب بلا مقدّمة "فحرر هذه المقدّمة معتمداً على معلوماته ... وعلى بعض معلومات استقاها واستلهمها من الكتاب نفسه"[509].

ونرى الأستاذ عبد الستار أحمد فراج أحد من عرضوا للكتاب بالتحقيق يوافق الأستاذ عباس إقبال في أن مقدمة الكتاب ليـست مـن تـأليف ابـن المعتـز[510]، ويشايعهما الرأي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الذي يـرى أن مقدمـة الكتـاب يظهر فيها أسلوب بعيد عن أسلوب ابن المعتز وعصره "والظاهر أنه تحميد لأحـد نساخ الكتاب كتبه في أوله فأضافه النساخ بعده إلى أصل الكتاب"[511].

مما تقدم أرجح أن مقدمة "طبقات الشعراء" التي بين أيدينا منتْحلة ولم تكـن من إنشاء ابن المعتز ؛ لأن ما نلحظه في هذه المقدمة من ولوع بالسجع لم يكن يشبه أسلوب ابن المعتز وطريقته في الكتابة النثرية ، كما نلحظ أن هناك فرقاً شاسعاً في الأسلوب بين مقدمة كتاب "طبقات الشعراء" ، ومقدمة كتابه "البديع"[512] التـي مـن خلالها يمكننا التعرف على أسلوب ابن المعتز.

والناظر في كتاب طبقات الشعراء ، يجد أن ما ورد في المقدمة مـن سـجع يخالف تماماً الأسلوب الذي نراه في ثنايا الكتاب "وأسلوب السجع هذا لم يكن شائعاً أو مسْتساغاً في القرن الثالث للهجرة ، كما أن ابن المعتز لم يعوّل عليه فـي كتبـه الأخرى وفي ما نقلته المصادر من نثره"[513].

ومهما يَكُن من أمر هذه المقدّمة فإنها تضمنت إشارات يسْتَدل بها على منهج المؤلف والغاية من تأليفه الكتاب.

وينبغي هنا أن نقف عند "ابن نجيم" الذي ذكره ابن المعتز في مقدمة كتابه ، وأشار في ذلك إلى أنه ألف كتابه طبقات الشعراء متابعاً لكتابٍ قبله ألفه "ابن نجـيم"

---

(509) المصدر السابق ، ص 585 .

(510) المصدر السابق ، ص 7 .

(511) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 521 .

(512) ص 71-72 من هذا البحث.

(513) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 54 .

واسمه "طبقات الشعراء الثقات" ، وذكر بأن أول ترجمة اشتمل عليها كتـاب "ابـن نجيم" هي ترجمة الشاعر بشار بن برْد.

ويرى بعض الدارسين أن "ابن نجيم" المذكور في مقدمة الكتاب محَرف عن "ابن المنجّم" والمراد به هارون بن علي بن يحيى المـنَجّم ، وأن كتـاب "طبقـات الشّعراء الثقات" المقصود به كتاب "البارع" في أخبار الشعراء المولدين(514). لابـن المنجّم.

وقد بحثنا في كتب التراجم وغيرها من المصادر والمظان التي تعنى بالسّير والأخبار ؛ فما أعثرنا البحث على من اسمه "ابن نجيم" لذلك فإنني أميل إلى ما ذهب إليه محقق الكتاب وغيره ، من أن "ابن نجيم" هو نفسه "ابن المنجّم" وهو هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجّم البغدادي المتوفى سنة 288هـ(515)، قال عنه ياقُوت الحموي :"كان أديباً شاعراً راوية نديماً ظريفاً ، وهـو أحـد بنـي المـنجم المشهورين بالأدب والفضل"(516).

وتذكر المصادر أن هارون المنجّم صنف كتاب "البارع" في أخبار الـشعراء المولدين ، وجمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً ، وافتتحه بترجمة بشار بن بـرد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه(517). وذكر ابن خلكان أن ابن المنجم قال في مقدمة كتابه "البارع" : "إنّي لما عملتُ كتابي في أخبار الشعراء المولدين ذكرتُ ما اخترته من أشعارهم ، وتحريـت فـي ذلـك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتي وانتهى إليه علمي ، والعلماء تقولُ : دل على عاقل

---

(514) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 7 ، 585 ، 586 ود. مـصطفى الـشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 434 .

(515) الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ضبط وشرح د. زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972م، ج1، ص 265 وابـن النـديم، الفهرسـت، ص 275 وياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7 ، ص 194 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج6 ، ص 78 – 79 .

(516) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج7 ، ص 194 .

(517) أبو منصور الثعالبي ، الإعجاز والإيجاز ، ص 171 وياقوت الحموي ، معجـم الأدبـاء ، ج7 ، ص 194 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج6 ، ص 78 .

اختياره ، وقالوا اختيار الرجل من موفور عقله ، وقال بعضهم : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من عقله ، واختياره قطعة من علمه"[518].

ويشير ابن خلكان كذلك إلى أن ابن المنجم كان له كتاب طويل فاختصره بعد أن حذف منه كثيراً من أشعار من ترجم لهم ، وأثبت منها زبدتها وترك زبدها ، واسماه "البارع" في أخبار الشعراء المولدين[519]. وهذا يجعلنا نرجّح أن كتاب "طبقات الشعراء الثقات" الذي ورد ذكره في مقدمة كتاب ابن المعتز المقصود به كتاب "البارع" ، وسمي في الفهرست "البارع" في اختيار شعر المحدثين[520].

ويتساءل محقق الكتاب عن هدف ابن المعتز من تأليف كتابه فيقول :"ولا ندري هل كان يبغي من تأليفه أن يكمل كتاباً سابقاً له ، أو أن يبتدىء بالكتابة عن الشعراء المحدثين الذين ينتمي هو إليهم"[521].

ويبدو لي أن ما ورد في المقدمة من قول ابن المعتز :"متابعاً لما ألفه ابن نجيم قبلي " – والذي هو ابن المنجّم – فيه إشارة إلى أن ابن المعتز أراد أن ينهج في طبقاته نهج هارون المنجّم في كتابه "البارع" ويحذو حذوه في الاهتمام بالمحدثين والتأليف فيهم .

ومنهج ابن المنجم الذي قام على اختيار أجود الأشعار وأفضلها هو يقرب من منهج ابن المعتز الذي حرص فيه كذلك على إثبات الجيّد والنادر لمن ترجم لهم في كتابه طبقات الشعراء، فضلاً عن أن كلاً من ابن المنجم وابن المعتز قد استقصى في كتابه عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين.

أما ما أشار إليه مؤلف المقدمة المنْتَحلة من أن ابن المعتز افتتح طبقاته بأخبار بشار بن برد كما فعل ابن المنجم قبله، فقد أثبت محقق الكتاب عدم صحة ذلك، حينما ذكر بأن النسخة الأصلية لكتاب طبقات الشعراء والتي اختصر منها

---

(518) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج6 ، ص 78 .

(519) المصدر السابق ، ص 78 وياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج7 ، ص 194 .

(520) ابن النديم ، الفهرست ، ص 275 .

(521) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 590 .

المبارك بن أحمد كما سـبق وأن ذكرنـا[522]، كانـت تبـدأ بالـشاعر إبـراهيم بن هَرْمَة، كما هو الحال في النسخة التي بين أيدينا، ولعل مؤلف مقدمـة الكتـاب استوحى هذا الزعم من النسخة التي كانت بين يديه والتي كانت تبدأ بذكر بشار بـن بُرْد.

وهدف ابن المعتز من تأليف الكتاب هو الترجمة لمن مدح بني العباس مـن الشعراء حتى زمن ابن المعتز . يشير إلى ذلك في مقدمة كتابه فيقول:" فخطر على الخاطر في بعض الأفكار ، أن أذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس ليكون مذكوراً عنـد النـاس"[523]. لذلك نراه جمع في كتابه جلّ من مدح بني العباس من الشعراء ، مبتدءاً بإبراهيم بن هَرْمة[524]، يتلوه بشار بن برْد[525]، ثم السّيد الحِمْيري[526]، ومن بعده سدَيف بـن مَيمون[527]، ومروان بن أبي حفصة[528]، وزَنْد بن الجَوْن المعروف بأبي دلامة[529] وغيرهم ، إلى أن ختم كتابه بالحديث عن ست من الجواري الشاعرات وهن : عَنَان جارية الناطفي[530]، وسَكَنْ جارية محمود الـوراق[531]، وعائـشة العثْمانيـة[532]، وخَنْساء جارية هشام المكفوف[533]، وعَريب جارية المأمون[534]، وأخيـراً فَـضْل الشاعرة[535] التي ختم بها ابن المعتز كتابه طبقات الشعراء.

---

(522) ص 99 من هذا البحث .

(523) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 15 .

(524) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16 – 17 .

(525) المصدر السابق ، ص 17 – 27 .

(526) المصدر السابق ، ص 28 – 31 .

(527) المصدر السابق ، ص 32-36 .

(528) المصدر السابق ، ص 36 – 46 .

(529) المصدر السابق ، ص 46 – 54 .

(530) المصدر السابق ، ص 383 .

(531) المصدر السابق ، ص 384 – 385 .

(532) المصدر السابق ، ص 385 – 386 .

(533) المصدر السابق ، ص 386 – 387 .

(534) المصدر السابق ، ص 387 .

(535) المصدر السابق ، ص 388 .

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أنْ حرص ابن المعتز في أن يضمن كتابه كل من مدح بني العباس من الشعراء مهما عظم شأن هذا الشاعر أو قل هو الذي جعله "يبدأ كتابه بالشاعر ابنْ هَرْمة السّكير الذي بلغ به الدلال عند الخليفة العباسي بحيث يجعله يكتب إلى عامله بالمدينة ألا يوقع عليه حد الخمر إذا ضبط سكراناً"[536].

واعتقد أن ابن المعتز لم يبدأ كتابه بابن هَرْمه ، لأن ابن هَرْمَة مدح الخليفة المنصور ومن ثم حظي بمنزلة رفيعة عنده كما ذهب الدكتور الشكعة ؛ فكل من مدح بني العباس من الشعراء نظر إليه العباسيون بعين الرّضا والإعجاب . وأغدقوا له في العطايا والهبات.

وأغلب الظن أن ابن المعتز افتتح كتابه بذكر ابن هَرْمَة ؛ لأن ابن هَرْمة المتوفى سنة 150هـ يعد أقدم شاعر ترجم له ابن المعتز في كتابه وإن لم يلتزم ابن المعتز بالترتيب الزمني لترجماته ، فضلاً عن أن الشاعر ابن هَرْمَةَ يمثّل آخر الشعراء الأمويين وأول العباسيين ، مما جعل ابن المعتز يرى ضرورة ابتداء كتابه به ؛ فالأصمعي يقول :" خُتِم الشعر بابن هَرْمَة فإنه مدح ملوك بني مروان ، وبقي إلى آخر أيام المنصور"[537].

وعلى الرغم من أن الكتاب باسم "الطبقات" فإن ابن المعتز لم يقسّم كتابه طبقات كما فعل ابن سلام الجمحي في طبقاته ، بل أورد الشعراء وحال كل ما

---

(536) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 433 . ولعل الدكتور الشكعة يشير إلى القصة الطريفة التي رواها ابن قُتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" ومفادها أن ابن هَرْمة شخص إلى أبي جعفر المنصور لما وَلي الخلافة "وامتدحه فاسْتحسن شعره وقال : سلْ حاجتك ، قال : تكتب إلى عامل المدينة أن لا يحدني إذا أُتي بي إليه وأنا سكْرَان . قال أبو جعفر : هذا حد من حدود الله تعالى وما كنت لأعطله ، قال : فاحتل لي فيه يا أمير المؤمنين . فكتب إلى عامل المدينة : مَنْ أتاك بابن هَرْمة وهو سكران فاجلده مائة جلدة واجلد ابن هَرْمَة ثمانين ؛ فكان العون يمر به وهو سَكْران فيقولُ : مَنْ يشتري ثمانين بمائة؟". ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 507 .

(537) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16 .

يتصل بهم وبشعرهم تحليلاً واسعاً "فهو يسير على النمط الذي سار عليه ابن قتيبة مع اختلاف في الاتجاه والغاية"(538).

ولعل ابن المعتز كان يهدف من مصطلح "طبقات" إلى تبيان أن العدد الكبير من الشعراء الذين حواهم كتابه هم ليسوا في درجة واحدة من الشاعرية والفحولة ، بل هم درجات متفاوتة وطبقات كما يظهر ذلك في ثنايا الكتاب لذلك نراه جمع في كتابه مخضرمي الدولتين من طبقة : ابن هَرْمة(539)، وبشار بن برد(540)، وسديف بن ميمون(541)، ومروان بن أبي حفصة(542)، وعبد الله بن رِبْعي المشهور بأبي الهندي(543) وغيرهم ، ثم المحدثين من طبقة : أبي نواس(544)، وأبي تمام(545)، ومسلم بن الوليد(546)، والبحتري(547)، وغيرهم ممن عاشُوا إلى زمن تأليف الكتاب.

وابن المعتز وإنْ لم يقسم شعراءه طبقات فإننا – نلمح في أكثر من موضع من الكتاب – إشارته إلى أن من روى أخبارهم من الشعراء لم يكونُوا في طبقة واحدة ، بل هم طبقات مختلفة ومن ذلك قوله في ترجمة مروان بن أبي حفصة :"وسنورد من شعر مروان وطبقته من المعروفين القصائد التي يقل وجودها عند أكثر الناس ، مثل كافيته وما أشبهها من مخزون شعره، والكافية هذه ، وأولها:

لامَ في أمّ مَالِك عاذِ لاكا وَلَعَمْر الإله ما أنْصفَاكا
وكلا عَاذِلَيْكَ أصبحَ مِما بكَ خلْواً ، هَوَاه غيْر هَوَاكا
عَذَلا في الهوى ، ولو جرباه أسْعدا إذْ بَكَيْتَ أو عَذَراكا"(548)

---

(538) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 523 .

(539) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 16-17 .

(540) المصدر السابق ، ص 17-27 .

(541) المصدر السابق ، ص 32-36 .

(542) المصدر السابق ، ص 36 – 46 .

(543) المصدر السابق ، ص 124 – 130 .

(544) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 175 – 197 .

(545) المصدر السابق ، ص 258 – 262 .

(546) المصدر السابق ، ص 214 – 219 .

(547) المصدر السابق ، ص 358 – 359 .

(548) المصدر السابق ، ص 41 .

وقوله في معرض ترجمته لعبدا بن ربعي المعروف بأبي الهنْدي :" وكان جماعة مثل أبي نواس والخليع[549] وأبي هفان وطبقتهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهنْدي، وبما اسْتَنبطوا من معاني شعره"[550].

وابن المعتز حين يجعلُ شاعراً أرفع طبقة من غيره يورد الأحكام النقدية التي بموجبها قدم هذا الشاعر على سواه ، ومن ذلك قوله في أبَان بن عبد الحميد اللاّحقي:" وكان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نُواس . وقد هجاه أبو نواس بشعرٍ كثير . فما سار فيه شيء على شهرةُ شعره ، ولم يقلْ في أبي نواس غير ثلاثة أبيات وقد سارت في الدنيا ، وهي هذه:

أبو نواس بن هَانِئٍ وأمه جلّبان
والناس أفطن شيءٍ إلى حروفِ المعاني
إنْ زِدْتَ بيتاً على ذِي ما عِشْتُ قَاقْطَع لِسَاني"[551]

فابن المعتز يقدِّم أبان اللاحقي على أبي نُواس لسبب يراه ابن المعتز موضوعياً بمقاييس النقد الأدبي وقتذاك ، وهو أن أبا نواس هجا أبان اللاحقي بأشعار كثيرة فلم تُسِر بين الناس رغم شهرة شعر أبي نواس ، بينما لم يهج أبان اللاحقي أبا نواس بغير هذه الأبيات الثلاثة التي يفهم منها كل سامع خبير بمعاني الحروف ودلالتها ، أن أبا نواس لم يكن عربياً أصيلاً فهو من أم أعجمية تدعى "جلّبان" وهو اسم فور سماعه يدرك الأديب الفطن إنه اسم غير عربي ، لذا سارت هذه الأبيات الثلاثة لأبان اللاحقي ، ولم يسر ما قاله فيه أبو نُواس رغم كثرته.

وهذا الحكم النقدي الذي ساقه ابن المعتز في تفضيل أبان بن عبد الحميد اللاحقي على أبي نواس ، ينَافي ما ذهب إليه الأستاذ نعيم طوني كساب من أن ابن

أَسَعده عَلى الأمر: أعَانَه.

(549) **الخليع**: هو الحسين بن الضحاك ، من الأدباء الشعراء وأهل الخلاعة والمجون ، نادم جماعة من خلفاء بني العباس منهم : الأمين ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، وهو غلام أستاذه والبة بن الحباب .
ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 246 – 248 والشابشتي ، الديارات ، ص 55.

(550) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 130 .

(551) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 220 – 221 .

المعتز في كتابه طبقات الشعراء لم يخرج ولو بحكم نقدي واحد ، وأنه " لم يجعـل شعراءه طبقات بل أطلق عليهم الحكم نفسه وقال فيهم المقالة ذاتها فجعلهـم طبقـة واحدة"[552].

ومن إشارات ابن المعتز الدالة على أن من ذكرهم في كتابه هـم طبقـات ، قوله في ثنايا أخبار علي بن عاصم العنبري الأصبهاني :" كان علي بن عاصم هذا من الشعراء المجيدين . وكان يسكن الجبل . وكان قد دخل العراق ومدح ملوكهـا . ولو أقام بها لخضَعَت له رقاب الشعراء ، فإنه كان أكثر محاسن شعر مـن مـسْلِم وأبي الشّيص[553] وطبقتهما، وهو صاحب القصيدة اللامية التي ليس لأحد مثلها:

نُحِـرَتْ جمـالُكم علـى الأطـلال ... كـم تتبعـوني وَقْفَـةَ الأحْمَـال
كم تَعْذِلُوني قـد حَـشَوْتُ مَـسَامِعِي ... فَـسَدَدْتُها عـن نَغْمَـةِ العـذال
كم تعنفُونَ علـى الـذينَ صـدورهم ... طُوِيـتْ علـى الزفَـراتِ والبَلْبـال
سَقْيـاً لأيـامٍ مَـضَيْنَ سَـوَالفاً ... قَـصَرَ الحبائـب طولهـا بوصَـال
ما كان طولُ سرورها – لما انقضتْ- ... إلا اكْتحـالَ متـيمٍ بخيـال
والحادِثـاتُ متـى فَغَـرْنَ لِغـصتي ... أَلقمـتُهن شَـجى بوخـذ جِمـال
ونَضَوْتُ سِـرْبَال المفـاوز بالـسرى ... وجَعْلْتُ أَرْدية الدجَى سِـرْبَالي"[554]

يشكو الشاعر قسوة عذاله ولائميه في حبّه ، ويَضْرب عن سماع لومهم وعذلهم ، ثم يتحسر على تلك الأيام التي سعد فيها بقرب الحبيبة ، وكانـت أيامـاً عامرة بالوصال ؛ فمرت سراعاً كما يمر طيف الحبيب ، والشاعر متـى حاولـت نوائب الدهر ، ومصائب الزمان إذلاله والنيل من عزيمته ، فهو لا محالـة يتـشجم الصحراء ويقطع الفيافي والمفاوز معتلياً بعيره ، غير آبه بوحشة البيد وظلامها.

---

(552) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 64 .
(553) سبقت ترجمة أبي الشّيص ص 24 .
(554) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 323 – 324 .
فَغَرنَ : فغرَ فَمَه **فغراً** : فتحه.
شَجَى: ما يعترض الحلق.

ومنهج ابن المعتز يقوم على الاختصار والإيجاز في إيراد الشواهد الشعرية، كما يقوم كذلك على إثبات القصائد والأشعار التي خلت منها دواوين الشعراء الذين روى أخبارهم، وأغفلت ذكرها كتب الأدب ومصادره، أشار إلى ذلك في مقدمة طبقاته بقوله:"فنظرْتُ في ذلك أن أجمعهم في هذا الكتاب، فرأيتُ الاختصار لأشعارهم عَيْنَ الصواب، ولو اقْتَصيْتُ جميع ما لهم من الأشعار لطال الكتاب، وخرج عن حدّ القصد، فاختصَرْتُ ذلك وذكرتُ ما كان شاذاً من دواوينهم، وما لم يذْكر في الكتب من أشعارهم، واقْتَصْرتُ على ما كان من مطولات قصائدهم"[555].

وهدف ابن المعتز من الاختصار لِئلا يطول الكتاب ومن ثم يمله القارئ ، لذلك أخذ من كل خبر عَيْنَة ، ومن كل قصيدة نموذجاً أشار إلى ذلك بعد أن أورد منتخبات من قصائد متنوعة للشاعر أبي الشّيص ، منها قوله في المشيب:

أبقَى الزمان به نُدوبَ عِضَاضِ ... ورَمَى سوَاد قُرونِهِ ببياضِ
نَفَرت به كأس النديم وأغمَضتْ ... عنه الكواعب أيما إغماضِ
وَلَربما جعلت محاسن وجههِ ... لجفونها غَرَضاً من الأغراضِ
حَسَرَ المشيب قناعَه عن رأْسهِ ... فَرَمَيْنَه بالصَدّ والإعراضِ
اثنان لا تصبو النّساء إليهما ... ذُو شَيْبةٍ ومخالفُ الإنفاضِ
عوّضْتُ عن بُرْدِ الشباب ملاءةً ... خَلَقاً وبئسَ مَعوضَةُ المعْتاضِ
أيام أفراسِ الشباب جَوامِحٍ ... تأبي أعِنتها عَلَى الرواضِ[556]

ذهب الشباب عن الشاعر أبي الشّيص ، وداهمه المشيب ، فأبدل سواد شعره بياضاً ، فنفرت عنه الكواعب ، وجفته الحسان ، فالمرء إذا ما شاب شعره وهلك ماله فليس له في ودهن من نصيب ، وأخيراً يتحسر الشاعر على شبابه الذي كان ملْء السمْع والبصر.

نَضَى الشيء: نزعه وألقاه.

(555) المصدر السابق ، ص 15-16 .

(556) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 66 – 67 .

عِضاض : العِضاد هو كل ما يحيط بالعَضد من حلي وغيرها.

مخالف الإنفاض: الإنفاض من أنْفَضوا إذا هلكت أموالهم وفنى زادهم.

ومن قلائد أبي الشّيص السائرة في الأرض قوله:

يـا دار مالَـكِ لـيْسَ فيـكِ أنِـيس إلا معـ ـ ـ ـالم آيهـ ـ ـ ـن دروس
الدهْر غالكِ أم عَـراكِ مـن البِلـى بعــد النعــيم خُــشُونةٌ ويبــوس
ما كانَ أخْضَبَ عَيْـشنا بـكِ مـرةً أيــام ربعــك آهِــلٌ مَــأنُوس
فــسقاكِ يــا دارَ البلــى متجــرِّفٌ فيــه الرواعــد والبــروقُ هَجــوس
دار جــلا عنهــا النعــيم فَرَبْعهــا خَلَــق تمــر بــه الرِّيــاح يَبــيس
ولربمــا جــر الــصِّبا ِلــي ذيلَــه فيــهِ، وفيــه مَــأْلَفٌ وأنــيس
من كلّ ضـامرة الحـشا مهـضومةٍ لحبالِهـ ـ ـا بحبالِنـ ـ ـا تَلْبـ ـ ـيس
متَـ ـسَتِّراتٌ بالحيـ ـاءِ لـ ـوابس حلَلَ العفافِ عنَ الفواحشِ شُوس[557]

يقف الشاعر حزيناً على دار محبوبته بعد أن هجرتها ، فتغيرت معالمهـا ، ومحيت آثارها ، وأبدلت بعد النعيم يباساً وبؤساً ، ثم يدعو لها بالسقيا . والشاعر لا يخفي أساه وأسفه على تلك الأيام التي قضاها في ربوع المحبوبة ، وهي أيام كانت عامرة بالود والأنس والوصال ، بين نساء يجمعن كل صفات الحسن والجمال مثل : نحافة الخصْر والحياء والعِفة والابتعاد عن كل ما يعيب ويشين.

بعد أن أورد ابن المعتز أكثر من ثلاثين بيتاً من هذه الـسِّينية وفـي آخـر ترجمته لأبي الشّيص ألمح إلى غايته من الاختصار والإيجاز ، وهو أن يبعد الملـل والضيق عن قارئ الكتاب كما تقدم ، ومن ثم يقبل عليه بنهم وشوق ورغبة وهـو قوله عن أبي الشّيص:"وأشعاره ونوادره وملحه كثيرة جداً ، ولكنا لا نخـرج مـن شرط الكتاب، لئلا يمله القارئ إذا طال عليه الفن الواحد ، ولـيحفظ هـذه النكـت والنوادر والملح ... فمن ههنا أخذنا من كل خبر عينة ومن كل قلادة حبتها"[558].

ويقوم منهج ابن المعتز كذلك على إثبات القصائد التي تفرد الخاصة بمعرفتها ، أما الشائع المشهور فلا يرى ضرورة لإثبات الكثير منه ، يقول :" وإنْ كُنـا قـد

(557) المصدر السابق ، ص 74 – 75.
الشوس: إظهار التيه والنّخوة.
(558) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 77 .

كتبنا في بعض المواضع القصائد الطوال ، وإنما نثبت منها ما لم يكن موجوداً عند أكثر الناس ، وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه ، وإنما نقتصر من كـل قصيدة على هذه الأبيات اليسيرة ، بل ربما اقتصرنا على ذكر القصيدة أو بيت واحد منها فقط"[559].

لذلك يلاحظ أن ابن المعتز أطال في أخبـار ربيعـة الرّقـي ، وأورد لـه مختارات من قصائد متنوعة بلغت أكثر من مائتي بيت ، وبرر إطنابه في أشـعار ربيعة الرقي بقوله:" لأن شعر ربيعة لم يكثر في أيدي العوام"[560].

ومن بين ما اختاره ابن المعتز لربيعة الرقي قصيدة غزلية تتألف من أربعـة وأربعين بيتاً ومنها قوله:

دَست سـعَاد رسـولاً غيْـر مـتهمٍ	وَصِـيفَةً فَأَتَـتْ إتْيـانَ منكـتِمِ
جـاءَ الرسـولُ بِقِرْطَـاسٍ بخَاتَمِـهِ	وفي الصحيفةِ سِـحْر خُـط بـالقَلَمِ
فيـه فُتُـون هَـوَى ظلـت تُغَيّبـه	على الجهول وما يَخفَى علـى الفهـمِ
وقدْ فهمتُ الذي أخْفَـت فقلـتُ لهـا	بوحي بلا ونعـم مِـن بـيّن الكلِـمِ
أقدم ربيعةُ في رحـبٍ وفـي سَـعَةٍ	في غير قمْرَاء ، والظلمـاء فـاغتنم
فزرتُها واقعاً طَرْفـي علـى قَـدَمي	وقـد تلبـسْتُ جلبَـابَين مِـن ظُلَـم
فكانَ ما كـانَ لـم يعلـمْ بـه أحـد	وما جَرَحْـتُ ومـا عَلّلْـتُ بـالحَرَمِ
زارتكَ سعْدى وسعْدَى مِنْـكَ نازحـةٌ	فأرقْتـكَ ومـا زارتـك مـن أَمَـمِ
أهلاً بطَيْفِك يـا سـعْدى الملـم بنـا	طَيـفٌ يـسير بـلا نجـمٍ ولا عَلَـم
قالتْ فـؤادك بَـيْنَ البـيضِ مقْتَـسمُ	ما حاجتي في فَـؤادٍ منـكَ مقْتَـسِم
يا ليتَ من لامنا في الحـبّ جَربَـه	فلو يذوقُ الذي قـد ذقـتُ لـم يَلُـمِ

---

(559) المصدر السابق ، ص 254.

(560) المصدر السابق ، ص 151.

ربيعة الرّقي:هو ربيعة بن ثابت بن لجأ الأنصاري، كان شاعراً ضريراً ، يلقب بالغاوي، ويكنى أبا شبابة ، ولد بالرقة ونشأ بها فأشخصه الخليفة المهدي إليه فمدحه بعدة قصائد فأثابه عليها ثواباً عظيماً.

المصدر السابق ، ص 144-155وأبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، طبعـة دار الثقافـة،ج16، ص 189. والصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر، 1911م،ص151-152.

الحـــب داء عَيَـــاء لا دواءَ لـــه   إلا نسيم حَبيـبٍ طيّـب النـسَمِ[561]

وابن المعتز بجانب إيراده النادر الذي يجهله العوام ، يورد كـذلك القـصيدة كاملة أو تكاد إذا كانت رائعة ومشتملة على فوائد جمة ليستفيد منها من رغب فـي الحفظ، يقول:"ونستغرق في خلال ذلك القصيدة – في القَرْط – إذا كانت رائعة كثيرة الفوائد، ليكون أحفظ للناظر في الكتاب إذا أراد الحفظ"[562]. لذلك نراه أورد لبكر بن النطاح قصيدة من أربعة وثمانين بيتاً، وهي أطـول قـصيدة وردت فـي طبقـات الشعراء، وهي كذلك من قلائد ابن النطاح[563] وأمهات قصائده [564] ومطلعها:

وليلةِ جَمْـعٍ لـم أَبِـتْ ناسـياً لكُـم   وحينَ أفَاضَ الناس من عَرَفَـاتِ[565]

أما إذا كانت القصيدة مشهورة فإن ابن المعتز يكتفي فقط بذكر بيت أو بيتين منها ، مثل ما فعل مع الشاعر الرقاشي[566] حيث أورد له البيت الأول فقـط مـن إحدى قصائده وهو قوله:

أَوْصَـى الرقاشِـي إلـى خِلانِـهِ   وصية المَحْمـودِ فـي إخوانـه[567]

ثم علق على القصيدة أسفل هذا البيت بقوله:" وهي مشهورة موجودة"[568].

واكتفى ابن المعتز كذلك بذكر البيت الأول من قـصيدة لـدِعْبل بـن علـي الخزاعي في آل الرسول صلوات ا_ عليه وعليهم وهو قوله:

مَدَارس آيـاتٍ خَلَـتْ مـن تـلاوةٍ   ومَنْزِلُ وَحْي مقْفـر العَرَصـاتِ[569]

---

(561) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 152 – 153.

(562) المصدر السابق ، ص 71.

(563) بكر بن النطاح: هو بكر بن النطاح الحنفي ويكنى : أبا وائل حسن الشعر ، كثير التصرف فيه ، وكان صعلوكاً يصيب الطريق ، توفي سنة 200هـ.

المصدر السابق ، ص 198 – 205 والصفدي، الوافي بالوفيات ، ج10 ، ص 218 – 221.

(564) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 200 .

(565) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص200.

(566) الرقاشي: واسمه الفضل بن عبد الصمد مَولى ربيعة ، وكان مطبوعاً سهل الـشعر ونقـى الكـلام . المصدر السابق، ص206–207 وأبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، ج16 ، ص180.

(567) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 206 .

(568) المصدر السابق ، ص 245 .

(569) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ثم أعقب هذا البيت قائلاً :"وهي أشهر من الشمس ، ولا حاجة بنا إلى تضمينها ولا تضمين شيء منها"[570].

وابن المعتز في أحكامه النقدية يحتكم في الجودة إلى "الطبع" الذي يعني عنده السهولة والعذوبة والرقة ومجانبة التكلف والصّنعة.

فهو يقول في بشار بن برد:"كان مطبوعاً جداً لا يتكلف ، وهو أستاذ المحدثين وسيّدهم"[571]. وفي سديف بن ميمون:"كان مطبوع الشعر حسنه"[572]. وفي سلم الخاسر :"كان من المطبوعين المجيدين"[573] وفي أبي دلامة :"كان أبو دلامة مطبوعاً مفلقاً ... وكان صاحب بديهة"[574]. وفي علي بن الجهم :"كان علي بن الجهم شاعراً مفلقاً مطبوعاً يضع لسانه حيث يشاء"[575]. وفي يعقوب التمار :"والتمار هذا من المعروفين فيمن حوى جودة الطبع وقلة التكلف"[576].

ويعلق على شعر لربيعة الرّقي فيقول:"وهذا أطبع ما يكون من الشعر وأسهل ما يكون من الكلام"[577]. ومن هذا الشعر قول ربيعة في الغزل:

صَاحِ إنّي غيرُ صَاحِي ... أبداً من حبّ داحِ
صارَ قَدْحاً حبّ داحِ ... في وادِي المسْتَبَاحِ
جَنَحَ القلب إليها ... إن قلبي ذو جَنَاحِ
وعَصَى فيّ حبّ داحِ ... كلّ لاحٍ ولاحِي
ليتَ لي رسلاً من الجن ... نّ إليها والرِّياحِ
تُبْلِغُ الحاجاتِ عَنّي ... ثم تأتي بالنجاحِ[578]

(570) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(571) المصدر السابق ، ص20 .
(572) المصدر السابق ، ص 32 .
(573) المصدر السابق ، ص 90 .
(574) المصدر السابق ، ص 46 .
(575) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 292 .
(576) المصدر السابق ، ص 375 .
(577) المصدر السابق ، ص 148 .
(578) المصدر السابق ، ص 147 .

ويقولُ معلقاً على أبيات لمحمد بن يسير الرّياشي :"وهذه ألفاظ كما سمعتَ في عذوبة الماء الزلال ، ومعانٍ أرق من السّحر الحلال"[579]. والأمثلة على ذلك كثيرة وسنعرض لها ضمن مبحثنا الخاص باللغة والأسلوب إن شاء ا .

ويلاحظ أن أغلب آراء ابن المعتز النقدية جاءت انطباعيـة ؛ فهـو يـصدر أحكامه على ما يعرض من أشعار معتمداً على معرفته الجيّدة بالشّعر وعلى تـأثره الذاتي وذوقه الخاص ، وميله "إلى أخذ المسائل أخذاً وجدانياً بعيداً عن الجدل الذّهني الذي غلب على النقد فيما بعد"[580].

ومبدأ التأثرية هذا جعل المؤلف يفرط في الثناء والإعجاب على معظم مـن ترجم لهم إن لم يكن جميعهم، والشواهد على ذلك كثيرة نجدها متناثرة فـي كتابـه طبقات الشعراء، فهو – مثلاً – يقولُ في بشار بن برْد :" ومما يسْتَحسن من شـعره وإن كان كله حسناً"[581].وفي مروان بن أبي حفصة :"وأشعار مروان كثيرة جـداً، ولو أردنا عيون شعره لطال بها الكتاب؛ فليس له إلا كل عـين"[582]. وفـي أبـي الهندي :"ومما يسْتَحسن له ، وإنْ كان شعره كله حـسناً جيـداً"[583] وفـي ربيعـة الرّقي:"ومما يستملح له قوله – وإنْ كان شعره كله مليحـاً عـذباً مطبوعـاً جيـداً هيناً"[584]. ويقول في ربيعة في موضع آخر :ومما يستلمح له ويرْوى بكـل أرض عند الخواص:

أعلّلُ نفسي منـكِ بالوعـدِ والمنـى   فَهَـلا بيـأسٍ منـكِ قَلْبـي أُعَلّـلُ
وموعدك الـشهد المـصفى حـلاوةً   ودونَ نجاز الوعد صـابٌ وحنظـلُ
وأمْنَح طَرْفَ العَـيْن غيـرك رقْبَـةً   حِذارَ العِدا والطرفُ نَحْوَكِ أمْيَلُ[585]

---

(579) المصدر السابق ، ص 257 وسترد الأبيات في ص 227 من هذا البحث.

(580) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268 .

(581) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 24 .

(582) المصدر السابق ، ص 46 .

(583) المصدر السابق ، ص 128 .

(584) المصدر السابق ، ص 149 .

(585) المصدر السابق ، ص 151 .

رِقْبَة: الرّقبةُ : هي الحالة التي تكون عليها المراقبة.

ومن أحكام ابن المعتز العامة قوله في محمد بن عبد الملك الحارثي :" ومن جيّد شعره وإن كان كل شعره جيّداً:

أتى دونَ حلْوِ الوَعْدِ من تُكتَم المَطْـلُ   وأي هَوَى يَبْقى إذَا لم يكنْ بَـذْلُ"[586]

وقوله في عوفٍ بن محلم الخُزاعي:"ومما يسْتحسن لعوف ويختار لـه من شعره – على أنه كله مختار ليس فيه بين ساقط ولا ناقص:

وكنـتُ إذا صَحِبْتُ ديارَ قَوْم   صَحْبتُهم وَنِيّتَيَ الوَفَاء"[587]

وعلى شاكلة ذلك كان حكمه على القصائد التي رواها للشعراء فهو يمتدح معظمها ويعيب القليل جداً منها ، ومن ذلك قوله – في بيت للحارثي يصف فيه ممدوحه بأنه يسعى إلى بلوغ أقصى غايات المجد والرفعة - :"هذا البيت سجدة للشعراء"[588] والبيت هو:

إذا نال من أقْصَى عرَا المجدِ غَايـةً   سَمَا طَالباً من تلك أَسْنَى وَأرْفَعَـا[589]

وقوله في قصيدة لعلي بن جَبَلَة يمدح فيها أبا دلف:"وقد سارت هذه في أبي دلف مسير الشمس والريح"[590] والقصيدة منها:

صاغَكَ اللهُ أبـا دلفِ   صيغةً في الأرض من خِيَرهْ

كل مَنْ في الأرضِ مِن عَربٍ   بَيْنَ باديـهِ إلى حَضَرهْ

مستَعيرُ مِنْـكَ مَكْرمةً   يَكْتَسِيهَا يوَمَ مفْتَخَرهْ[591]

وقوله في قصيدة لدعبل بن علي الخزاعي في مدح آل رسول الله صلى الله عليه وسلم :"وهي أشهر من الشمس"[592] والقصيدة أولها:

مَدَارس آيـاتٍ خَلَتْ مـن تِلاوةٍ   ومَنْزِلُ وَحْيٍ مقْفِـر العَرَصَاتِ[593]

---

(586) المصدر السابق ، ص 255 .

(587) المصدر السابق ، ص 173 .

(588) المصدر السابق ، ص 255 .

(589) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 255.

العرا: جمع عرْوة ، وهي ما يستمسك به ويعْتَصَم.

(590) المصدر السابق ، ص 162 .

(591) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(592) المصدر السابق ، ص 245 .

وقوله في أبيات لربيعة الرقي :" ومما سار له في الآفاق وصار مثلاً ، قوله يمدح يزيد بن حاتم ويهجو يزيد بن أسلم السلمي":

لَشتان ما بَيْنَ اليزيـدين فـي النـدى   يزيدِ سليْمٍ والأغـرِّ بـن حـاتمِ[594]

وابن المعتز في منهجه النقدي إما أن يفرط في مدح القصيدة وتقريظها ، أو يفرط في ذمها ، على أن مواضع الذم عنده قليلة جداً ، ومن أمثلتها قوله في بيـت لبكر بن النطاح :"هذا البيت أقرت الشعراء قاطبة أنه لا يكون وراءه حسن ولا جودة معنى"[595] والبيت هو:

كـأن غمـام العـزِّ حَـشو أكُفِّهـم   إذَا طَبِــقَ الآفــاقُ بالــدِّيماتِ[596]

وقوله في أشعار القصافي التميمي:"كان عمرو القصافي يقول الشِّعر سـتين سنة ، ولم يقل شيئاً جيداً غير بيت واحد"[597].

والحق أن منهج المؤلف في كتابه طبقات الشعراء يختلف اختلافاً كبيراً عـن منهجه في رسالته في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه ؛ ففي حين جهد في "الرِّسالة" في الميل إلى التعليل الموضوعي وإبراز الشواهد التي استند إليها في نقده لأبي تمام ، نراه في طبقاته يحتكم إلى طبعه وذوقه وانفعاله وتأثره بالنص الأدبي.

والعرب منذ القديم كانت تعوّل على طباعها وأذواقها في نقد الشعر وتقويمه، يقرر ذلك حازم القرطاجني فيقول :"إن الطِّباع أحوج إلى التقـويم فـي تـصحيح المعاني والعبارات عنها من الألسنة إلى ذلك في تصحيح مجاري أواخر الكلـم ، إذ لم تكن العرب تستغني بصحة طباعها بالقوانين المصححة لها ، وجعلها ذلك علمـاً

---

(593) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(594) المصدر السابق ، ص 145 .

(595) المصدر السابق ، ص 205.

(596) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

الدِّيمات: جمع ديمة وهي المطر يطولُ زمانه في سكون.

(597) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 279.

تتدارسه في أنديتها ويستدرك به بعضهم على بعض ، وتبصير بعضهم بعضاً فـي ذلك"[598].

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن المعتز لجأ إلى هذه التأثرية لأنها تـسبغ عليه صفة "سعة الصدر" في النقد وتحميه من الاتّهام بالتحيز ، وتحقق له صفة الناقد العادل أكثر مما تحققه الموضوعية[599].

ويبدو لي أن ابن المعتز لم يكن يقصد من ظهوره بهذا المظهر التأثري فقـط إرضاء لشعرائه ، وإنما المظهر التأثري كان يمثل جزءاً أصيلاً من مقاييس النقد في القرن الثالث الهجري نجد ذلك عند ابن سلام الجمحي ومن بعـده ابـن قتيبـة وإن اختلف عنهما ابن المعتز في إفراطه في الثناء على من ذكرهم من الشعراء.

والأمثلة على أن الناقد الأدبي كان يحتكم إلى طبعه وذوقـه ، وميلـه إلـى إصدار الأحكام العامة وإنصرافه عن التحليل والتعليل نجدها متناثرة في طبقات ابن سلام ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، فابن سلام يقول :"أخبرني يـونس بـن حبيب : أن علماء البصرة كانوا يقدّمون امرأ القيس بن حجْر ، وأهل الكوفة كـانوا يقدّمون الأعْشى ، وأنَّ أهل الحجاز يقدّمون زهَيْراً"[600].

والمؤلف لا يرى في كثرة شعر الشاعر دليل على جودته ، فهو يقول في أبي خالد المهلبي :"كان أبو خالد هذا من فحولة المحدثين ومجيـديهم ، وشـعره قليـل جداً"[601].

واعتقد أَن هذا منهج فيه قدر كبير من الموضـوعية والإنـصاف للمقلّـين المجيدين من الشعراء.

وليس صواباً ما ذهب إليه أحد الدارسين من أن السبيل السهل الذي سلكه ابن المعتز في النقد جعله لم يقم "موازنة بين شاعرين ، ولم يتوجه بالنقد إلى أي شاعر

---

(598) حازم القَرْطَاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بـن الخوجـة ، دار الكتـب الشرقية، تونس ، 1966م ، ص 26.

(599) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 117 .

(600) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 44 .

(601) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 286 .

من شعرائه"[602]. فكتاب طبقات الشعراء يزخر بكثير من الموازنات الأدبية التـي يعقدها ابن المعتز بين شعرائه من حين لآخر ، وهو خلال هذه الموازنـات يقـوم بإصدار الأحكام النقدية السديدة على ما يعرض من شعر ، ومن الأمثلة على ذلـك قوله:" لما قال بشار بيته هذا:

مَنْ راقَبَ الناسَ لم يَظْفَـرْ بحاجتـهِ   وفَازَ بالطّيبات الفاتـك اللهـج"[603]

"أخذ سَلْم هذا المعنى ، وجاءَ به في أجود مـن ألفاظـه وأفـصح وأوجـز فقال:

مَـنْ رَاقَـبَ النـاسَ مـاتَ غَمـاً   وفَـازَ باللـذةِ الجَسـور"[604]

وقوله لما أنشد أبو الشّيص بيته الذي يقول فيه:

أَشْـبهْتِ أَعْـدائي فـصرتُ أُحِـبهم   إذ كان حَظي مِنْكِ حَظِي مِـنْهم[605]

أخذ أبو نواس هذا المعنى وضمنه قوله في الخصيب:

فما جَازه جـودٌ ومـا حَـل دونَـه   ولكن يَصير الجود حَيْثُ يَـصِير[606]

فسار بيت أبي نواس ولم يَسِرْ بيت أبي الشيص[607].

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن ابن المعتز كان يهدف مـن كتابـه طبقـات الشعراء "لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذي بال ، وأن كنوز الـشعر العربـي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف"[608] وشايعه الرأي الدكتور غصوب خميس الذي ذهب إلى أن ابن المعتز "كان يهـدف إلى تبيان أن كل معاني وصور هؤلاء الشعراء كانت لها جـذور وأصـول عنـد

(602) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 67.
(603) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 90.
(604) المصدر السابق ، ص 91 .
سَلْم : المقصود به سَلْم الخاسر.
(605) المصدر السابق ، ص 65 .
(606) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 65.
(607) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.
(608) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 334.

السابقين ، وأن هؤلاء يعيشون عالة في شعرهم على جهد من سبقهم ؛ فليس في شعرهم شيء جديد ذو بال"[609].

والدارس لكتاب الطبقات يعن له ما يخالف ما ذهب إليه الباحثان الفاضلان من أن هدف ابن المعتز من كتابه هو تعصبه للقديم ، فعلى العكس من ذلك تماماً نلحظ أن ابن المعتز يشير في ثنايا كتابه إلى أن ما دفعه لتأليف طبقات الشعراء هو أن الناس في زمانه قد أفاضوا في رواية أشعار القُدامى فملوها ، ومن ثم أقبلوا على أخبار المحدثين وأشعارهم لطرافتها وجدتها ، يقولُ مخاطباً قارئ الكتاب :"ولا يحفظ هذه النكت والنوادر والملَح ، وليستريح من أخبار المتقدمين وأشعارهم ، فإن هذا شيء قد كثرت رواية الناس له فملوه ، وقد قيل: لكل جديد لذة . والذي يستعمل في زماننا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم"[610].

وأتفق مع الدكتور أحمد كمال زكي في أن ابن المعتز هدف من كتابه طبقات الشعراء إلى مخالفة أساتذته مثل الدّمشقي والبلاذري والمبرد وثعلب "في تعصبهم للقديم وفي أن يكون كالناس اهتماماً بأشعار المحدثين وأخبارهم فيضع كتاباً في ذلك لم يسبق إلى مثله – على نحو ما – سوى ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ باسم الشعر والشعراء"[611].

على أن ابن المعتز لم يكن مقصده من الكتاب إثبات أن الشعراء العباسيين لم يأتوا بشيء جديد ذي بال كما زعم البعض ، فالمتأمّل في كتاب طبقات الشعراء يلحظ أن ابن المعتز أثنى على جل من ترجم لهم من الشعراء العباسيّين ، وشهد لهم بجودة الطبع ، وحسن البديهة ، والفصاحة والاقتدار ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في بشار بن برد :"وكان مطبوعاً جداً لا يتكلف"[612] وقوله في أبي نُخَيلة[613]

---

(609) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 83.

(610) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 77 .

(611) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 80.

(612) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 20.

(613) أبو نُخَيلة: واسمه يَعْمَر وأبو نُخَيلة كنيته لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، عاش في العصرين الأموي والعباسي ، وهو شاعر مجيد والغالب عليه الرجز ، قُتِلَ في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور.
الجاحظ ، الحيوان ، ج2 ، ص 100 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 55 .

:"وكان من أفصح الناس وأشعرهم ، وكان مطبوعاً مقتدراً كثير البدائع والمعاني غزيراً جداً"[614]، وقوله في علي بن الجهم :"كان علي بن الجهم شاعراً مفْلقاً مطبوعاً يضع لسانه حيث يشاء"[615]، وقوله في أبي الهندي :"وهو أحد الدهاة ، فصيح جيّد البديهة"[616] وقوله في مسلم بن الوليد :"ومما يسْتحسن له – على أن شعره كله ديباج حَسن لا يدفعه عن ذلك أحد – قوله:

فإني وإسماعيلَ يَوْمَ وداعِهِ لكالغِمْدِ يومَ الروْع زايله النصْلُ
فإنْ أغْشَ قوماً بعده أو أزورهم فكَالوَحْشِ يدْنيها مِنَ الأنَس المحْلُ"[617]

ثم ذكر ابن المعتز أن ما حواه هذين البيتين من مَعْنى يعْجز أي شاعر من شعراء العربية أن يأتي بمثلهما وهو قوله :"وهذا مَعْنى لا يتفق للشاعر مثله في ألف سنة"[618].

ولم يكن ابن المعتز قد هدف من اهتمامه بالمحدثين وقصر طبقاته عليهم إلى "تحطيم المأثور وإقامة الجديد"[619] كما يرى الدكتور أحمد كمال زكي ؛ فابن المعتز كان يجَاري أهل عصره في اهتمامهم بالمحدثين وأشعارهم كما فعل قبله هارون بن علي المنجم في كتابه "البارع" ، وعلى نحو ما فعل ابن قتيبة في كتابه "الشّعر والشعراء" ، وحذا حذو ابن المعتز وزيره محمد بن داود بن الجراح الذي قصر كتابه "الورقة" على الشعراء المحدثين.

وابن المعتز في طبقاته قد زاوج بين القديم والحديث ، فهو لم يكن في منهجه مناهضاً للقديم ، ولا متعصباً للحديث ، بل إن أهم ميزة في الكتاب هي "القصد والاعتدال"[620].

---

(614) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 55.
(615) المصدر السابق ، ص 292 .
(616) المصدر السابق ، ص 124 .
(617) المصدر السابق ، ص 215 .
(618) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.
(619) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268.
(620) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وقد حرص في مختاراته أن تكون متمشية مع سنن الموروث الشعري ، كما ربط بين مقوّمات الجودة ونمط القدماء ومعانيهم ، يقول في عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :"كان الحارثي شاعراً مفْلقاً مفوهاً مقتدراً مطبوعاً ، وكان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين . وكان نمطه نمط الأعراب"[621].

وفي أبي الخطاب البَهْدلي[622]:"مقتدر على الكلام مجيد للوصف ، حسن الرصف قد جمع إلى قوة الكلام محاسن المولدين ومعاني المتقدمين"[623].

ولو كان ابن المعتز يقصد تحطيم المأثور وإقامة الجديد كما ذهب الدكتور أحمد كمال زكي ، لما بدأ كتابه بالشاعر ابن هَرْمَة المتوفى سنة 150هـ ، وقال عنه :" خُتِمَ الشّعر بابن هَرْمَة"[624] ثم أعقبه بتراجم لشعراء عاش بعضهم إلى ما بعد سنة 280هـ .

فابن المعتز بذوقه المرهف وحسه الرقيق كان مقياسه هو الجودة، دون أن يعوّل على قدم الشاعر أو حداثته، فهو مع إنصافه للمحدثين، نراه يرد كل عناصر الإبداع الشّعري مثل: جزالة اللفظ وقوة المعنى والفصاحة والاقتدار، إلى منابتها وأصولها عند الأعراب والشعراء المتقدمين. فمذهبه يشبه مذهب ابن قتيبة الذي أشار إليه في مقدّمة كتابه "الشّعر والشعراء" بقوله:"ولا نظرتُ إلى المتقدّم منهم بعَيْن الجلالة لتقدمه وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخّره بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين وأعطيتُ كلاً حظّه ووفرْتُ عليه حقه"[625].

والاتّجاه المحافظ عند ابن المعتز يظهر في كتابه "البديع" الذي أثبت من خلاله أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنون البديع ، كما أن "كتابه طبقات

---

(621) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 252 .

(622) أبو الخطاب البهدلي : واسمه عمر بن عامر البهدلي التميمي ، بصري فصيح ، وهو أحد الرجاز ، وكان الأصمعي يتخذه حجة ويروي شعره ، وهو أحد العرْجان .
ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 121 – 124 وابن الجراح ، الورقة ، ص 25 .

(623) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 123 .

(624) المصدر السابق ، ص 16 .

(625) ابن قتيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 19 .

الشعراء المحدثين يدل على ثقافة واسعة بالشّعر العباسي ، ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده"[626].

والملاحظ في منهج ابن المعتز أنه كان يكتب بطريقة السند حتى عن معاصريه ، وقد بلغ جملة من روى عنهم نحو مائتين وثمانية عشر راوياً كما تقدم. فلا نكاد نجد ترجمة من التراجم الواردة في كتاب طبقات الشعراء إلا وقد اشتملت على رواية مسندة إلى أصحابها بالسماع أو الخبر المتواتر ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في ترجمة بشار بن برْد :"حدثني جعفر قال: قال ابن أبي أفْلح : قال رجل لبشار : إن الله عز وجل ما سلب أحداً كريمتيه إلا عوضه عنهما حسْن صوت أو ذكاء ، فأنت ماذا عوضك من بصرك ؟ فقال عوضني فُقْدان النظر إلى ابن زانيةٍ مثلك منذُ أربعين سنة"[627] وقوله في ترجمة بشار أيضاً :" حدثني ابن أبي أفلح قال: أخبرني أبو حاتم السجستاني قال: سئل أبو عبيدة – وأنا حاضر- عن شعر بشار فقال : شَذَرة ونُقْرة"[628] وقوله في ترجمة أبي الهنْدي :"حدثني صالح بن إبراهيم قال حدثني جعْيفران الموَسْوس الشاعر: قال لي صدقة البكري: شَرِبَ أبو الهندي مع قوم في قرية من قُرى مَرو على سَطْح ليس له سِتْر فسكر ، وكان خبيث السكر والنوم ..."[629] وقوله في ترجمة الخليل بن أحمد الفراهيدي:"حدثني محمد بن يزيد المبرد قال: حدثني أبان بن رزين البصري قال:زَعَم يونس النحوي أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة"[630]وقوله في العمانِي:"[631]حدثني حَيان بن علي البصري قال حدثني الرياشي عن الأصمعي قال:

---

(626) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 334.

(627) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 19.

(628) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

الشذرة: القطعة من الذهب أو هي اللؤْلؤة الصغيرة.

النقرة: الفضة المذابة ، جمعها نُقار.

(629) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 126 .

(630) المصدر السابق ، ص 87 .

(631) العماني: هو محمد بن ذُؤيب الفقيمي ، ولم يكن من أهل عمان وإنما العماني لقب غلب عليه ؛ لأن دكْيناً الراجز نظر إليه فرآه مصْفراً مهزولاً فقال: من هذا العماني لصفرة وجهه ، وقد مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة . ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 509 والمصدر السابق ، ص 100 – 103.

كان العماني شاعراً قديماً مفْلقاً مطبوعاً مفيداً، وكان جيّد الرجز والقصيد غيـر أن الأغاب عليه الرجز، وكان يصف الفرس فيجيد ويحسن"[632].

واللافت في أسلوب ابن المعتز أن بعض رواته لم يذكر أسماءهم كاملة ، بل نراه يكتفي فقط بذكر كناهم أو ألقابهم مما يجعلنا نجهل هؤلاء الرواة ومن الأمثلـة على ذلك قوله في أخبار سدّيف بن ميمون :"حدثني العوفي قال: حدثني أحمـد بـن إبراهيم الرّياحي قال: سلم سدَيف بن ميمون على رجل من بني عبد الدار فقال لـه الرجل: من أنتَ ؟ قال سدْيف: أصلحك ا أنا أحد أهلك ، أنا سدّيف بن ميمـون ، قال العَبْدي : وا ما أعرف في أهلي ميموناً قال سدْيف: ولا مباركاً"[633]. وقولـه في ترجمة والبة بن الحباب :"حدثني اليزيدي قال: حدثني أبو سَلْهب الشاعر قـال: كان والبة بن الحباب ماجناً خليعاً ، ما يبالي ما قال ولا ما صنع"[634]. فقد يجهـل القارئ "العوفي" و "اليزيدي" اللذين وردت أسماؤها في الروايتين السابقتين.

ومن الشواهد على ذلك أيضاً قوله في أخبار ابن مناذر "حدثني العروضـي قال: قال لي أبو إسحاق: قال العتبي : رأيتُ محمد بن مناذر وقد قام بمكـة وقـت الموسم ينَادي بأعلى صوته ، معاشر الناس ، مَنَاذِر قرية ، وأنا ابن مناذر"[635] وفي أخبار أبي نواس يذكر ابن المعتز راوياً يدْعى أبو النجم ولا نكاد نعرف من هو أبو النجم ؟ وهو قوله :"حدثني أبو النجم قال: بلغني أن أبا نواس وهو فـي الكتـاب – وكان مليحاً صبيحاً – مرت به صبية وضية الوجه ، فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضضة وانصرفت ، فقال:

شـــجَرَ التفـــاح لاخفْـــتَ القَحَـــلْ ... لا ولا زالـــتَ لِغايـــات المثَـــلْ
تَقْبــلُ الطّيــبَ إذا علـــت بِـــهِ ... وبهـا مِـنْ غيـر طِيـبٍ مُحْتَمـلْ
وَعَـــدْتني قُبْلَـــةً مِـــنْ ســـيدي ... فتَقاضَتْ سَـيدي حِـينَ فَعَـلْ"[636]

---

(632) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 100-101 .
(633) المصدر السابق ، ص 32.
(634) المصدر السابق ، ص 79.
(635) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 109 – 110.
(636) المصدر السابق ، ص 189 .

ويذكر المؤلف أن هذه الأبيات هي التي رغبت والبة بن الحباب في أبي نواس ؛ فأخذه غلاماً فأدبه وخرجه[637].

وابن المعتز لم يكن بدعاً في ذكره أسماء بعض رواته غير كاملة ، ففي كثير من كتب السّير والتراجم التي اعتمدت في رواية الأدب على السند نجد من نحا هذا النحو . ويظهر ذلك جلياً في كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب ابن سلام وفي خبر الشاعر عَبْيد بن حصّين المعروف بالراعي النميْري من قول المؤلف:"أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام قال: حدثني أبو الورد الكلابي قال : اجتمع الراعي والأخطل عند بِشْر بن مروان ، فقال لهما : أيكما أشعر؟ فقال الراعي : أما الشّعر فالأمير أعلم به"[638].

وقول ابن قتيبة في ترجمة نُصَيْب :" دخلَ الأقْيشَر على عبد الملك بن مروان وعنده قوم فتذاكروا الشعر وذكروا قول نُصَيب:

أهِم بدَعْدٍ ما حَييتُ فإنْ أَمت فَيَا ويحَ دَعْد مَنْ يهيم بها بَعْدي

فقال الأقْيشَر : وا لقد أساء قائل هذا الشعر"[639].

فابن سلام وابن قتيبة كلاهما ذكر راوياً ناقص الاسم فالأول أشار إلى راوٍ كنيته "أبو خليفة" والثاني أورد راوياً يسمى "الأقْيشَر".

وذهب أحد الباحثين إلى أن ابن المعتز حيناً يعيب أحكامه عدم الاحتراز في إثبات الروايات المتعارضة والغريبة[640]، بيد أن الناظر في كتاب طبقات الشعراء يلحظ أن المؤلف كان دقيقاً في نقل الروايات والتحقق منها ، ولم نر أن ابن المعتز أورد خبراً من الأخبار ثم نفاه في الترجمات اللاحقة ، أو أشار إلى عدم اطمئنانه لما ذكر ، ولو لم يكن ابن المعتز محترزاً في نقل أخباره ؛ فكيف نفسّر الاتفاق

---

(637) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(638) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 442.

(639) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 261.

(640) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268.

والتطابق الذي ورد في بعض روايات طبقات ابن المعتز وروايات أخرى وردت في كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة ، وكتاب "الورقة" لمحمد بن داود بن الجراح كما تقدم.

ويزخر كتاب طبقات الشعراء بكثير من الأمثلة التي تدل على تثبت ابن المعتز ودقته في نقل رواياته ، ومنها قوله في ترجمة أبي نواس :" حدثني على بن حرب أخو محمد بن حرب بن خالد بن المِهْزَم قال: حدثني أخي محمد بن حرب – وكان بين الأخوين قريب من خمسين سنة – أن أبا نواس – واسمه الحسن بن هانيء ، ويكنَى أبا علي – ولد بالأهواز ، بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان سنة تسع وثلاثين ومائة ، ومات ببغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، وكان عمره خمساً وخمسين سنة ، ودفِن في مقابر الشونيزي في تل اليهود"[(641)].

فابن المعتز حينما روى خبر أبي نواس عن على بن حرب عن أخيه محمد بن حرب ، لم يكتف بإيراد الخبر فحسب ، بل يحترز وينبه القارئ إلى أن هذين الأخوين لم يكونا يعيشان في زمنٍ واحد بل بينهما ما يقرب من الخمسين سنة ، ولعل في هذا المثال الذي سقناه ما ينهض دليلاً على أن المؤلف لم يكن مجرد راوياً للأخبار فحسب ، ولكنه كان يتحقق من رواته ومن سنده ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها قوله في ترجمة أبي دلامة :"اسمه زَنْد بن الجَون ، بالنون ، وقال بَعْضهم : زَيْد بالياء وقد غُلّط . هكذا رواه العلماء بالنون"[(642)]. فهو يخَطّيء من يطلق على أبي دلامة اسم "زيد" بالياء ويذكر أن الصواب هو "زَنْد" بالنون ، ثم يشير إلى أن حجته في ذلك هي رواية العلماء له بالنون.

ودليل آخر على احتراز ابن المعتز ودقته ، فهو حتى عندما يصدر حكماً نقدياً قاطعاً حول قصيدة أو بيت من الشّعر نراه حيناً يشير إلى أن هناك إجماع من أهل الأدب ومتذَوقي الشعر حول هذا الحكم ومن ذلك قوله حول بيت بكر بن النطاح:

---

(641) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 175.

(642) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 46.

كأن غَمام العِزِّ حَشْوَ أكفِّهِم ... إذا طَبَّقَ الآفاقُ بالدِّيمَاتِ[643]

"هذا البيت أقرت الشعراء قاطبة أنه لا يكون وراءه حسن ولا جودة معنى"[644].

وحَوْل بيت أبي العَتَاهية:

قالتْ : فأي الناس يَعْـ ... لم ما تقول فقلتُ : كُلُّ[645]

يقول ابن المعتز:(أجمع أهل الأدب أنهم لم يسمعوا قافية أحق بمكانها من قوله:"فقلتُ كُلٌّ")[646].

والمؤلف كما عني في كتابه طبقات الشعراء بالمشهورين من شعراء العصر العباسي ، واختار أجود ما لهم مما لا يعرفه إلا الخاصة كما تقدم ، عني كذلك عناية بيّنة بالمغمورين من الشعراء ، ولعل هذا ما يميز كتاب ابن المعتز عن كتب الطبقات الأخرى ككتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي ، وكتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة.

فابن سلام ذكر بأنه حصر كتابه "طبقات فحول الشعراء" في المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، ويعترف بأنه لم يضمن كتابه المغمورين منهم ، يقرر ذلك في مقدمة كتابه فيقول :" ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم"[647].

وسار ابن قتيبة في كتابه "الشّعر والشعراء" على منهج سلفه ابن سلام في الاهتمام بالمشهورين المعروفين من الشعراء ، وإهمال المغمورين منهم ، يشير إلى

---

(643) المصدر السابق ، ص 205 .

الدِّيمَات : جمع ديمة ، وهي المطر يطول زمانه في سكون.

(644) المصدر السابق ، ص 205.

(645) المصدر السابق ، ص 209 .

(646) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(647) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 5.

ذلك في مقدمه كتابه فيقول:"وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب ا عز وجل وحديث رسول ا صلى ا عليه وسلم ، فأما من خفي اسمه ، فما أقل من ذكرتُ من هذه الطبقة إذ كنتُ لا أعرف منهم إلا القليل ولا أعرف لذلك القليـل أيضاً أخباراً وإذ كنتُ أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن اسمّي لك أسماء لا أدل عليهـا بخبر أو زمان أو نسب أو بيت يسْتَجاد أو يسْتَغْرب"[648].

ترجم عبد ا بن المعتز – رحمه ا – في كتابه طبقات الشعراء لكثير من الشعراء المغمورين ممن ندر ذكرهم وشحت أخبارهم في أغلب المصادر القديمة ، بل أن معظم هؤلاء الشعراء المغمورين الذين أوردهم ابن المعتز في كتابه لم نعثـر لهم على أيّ ترجمة أو ذكر في كل المصادر التي بين أيدينا ومن هؤلاء الشعراء : خالد النجار[649]، وابن شَـادَة المعـروف بالمخنـث[650]، ودَرَسْـت المعلّـم[651]، وإسماعيل بن يوسف البصري[652]، وجَحْشَوَيه[653]، والصّيني شاعر طـاهر بـن الحسين[654]، وأبو حَيان الموَسْوس[655]، ومصْعَب الموَسْوس[656]، وأبـو حَفْـص البصريّ[657]، وأَحمد بن إسحاق الخَارَكي[658]، ومن الشاعرات سكّن جارية محمود الوراق[659]، وعائشة العثْمانية[660] وغيرهم.

---

(648) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص17.
(649) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 296.
(650) المصدر السابق ، ص 303.
(651) المصدر السابق ، ص 305.
(652) المصدر السابق ، ص 309.
(653) المصدر السابق ، ص 353.
(654) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 278.
(655) المصدر السابق ، ص 350.
(656) المصدر السابق ، ص 351.
(657) المصدر السابق ، ص 379.
(658) المصدر السابق ، ص 280.
(659) المصدر السابق ، ص 384.
(660) المصدر السابق ، ص 385.

وعلى الرغم من إغفال كتب التاريخ ومؤرخي الأدب لهؤلاء الشعراء ؛ فابن المعتز – باطلاعه الواسع ومعارفه الغزيرة – يورد من أخبارهم ما يشير إلى أن بعضهم لا يقل في فصاحته وجودة شعره عن الفحول من الشعراء ، مستشهداً في ذلك بطائفة جليلة لأجود ما قاله هؤلاء المغمورين من أشعار.

فأبو حفص البصري الذي لم نعثر له على ترجمة أو ذكر في سائر المصادر التي بين أيدينا ، يذكر ابن المعتز أن المبرد كان يقدّم أبا حفص البصري على سائر شعراء بغداد ، ويشهد له بجودة الشّعر ، وسلامة القول والاعتدال والبعد عن الإسراف والمبالغة ، ومن ذلك قول ابن المعتز في أخبار البصري :"حدثني محمد بن حبيب قال: تذاكرنا الشعراء عند المبرد فقال لي: لا أعرفُ بمدينة السلام أحداً غير أبي حَفْص . فدخلْتُ على المبرد بعد أيام فقلْتُ: بلغني أنك تُجيد شِعْر أبي حَفْص البصري ، فبأيّ شيء ؟ فقال: بكل قولٍ صحيح سليم من السرف ليس فيه تخليط أليس هو القائل:

ربما الله لا تُعَاب ولكنْ ... نِعْمة الله تُقْبحتْ علَى أَقْوامِ
لا ولا نُور بَهْجة الأنْعَامِ ... لا يَليقُ الغِنَى بوَجْهِ ابن يَعْلى
ذَوْن ، والسرج تَحْتَه واللجامِ ... وَسِخُ الثوبِ والعمامةِ والبِرْ"(661)

فالمبرد يفضّل أبا حَفْص البصري على غيره من شعراء بغداد بهذه الأبيات التي يهجو فيها ابن يَعْلى ، ويذمه بكل ما هو قبيح ، فنعمة الله المقطوع بجمالها تُرى قبيحة على ابن يَعْلى ، وهو رجل لا يستحق الغنى ، ولا يستحق جمال النعم، وهو كذلك متسخ الثوب والعمامة ، وكل ما يستعمله ينبئك عن اتّساخه وقذارته بما في ذلك فرسه وسرجه ولجامه.

ومن المغمورين الذين أغفل الرواة ذكرهم ، وروى أخبارهم ابن المعتز الشاعر دَرَسْتَ المعلّم الذي لم نعثر له على خبر أو ذكر في المصادر التي تُعْنى بالسير والأخبار ، وبرغم إهمال الرواة له نلحظ أن المؤلف ينبّه إلى أن درست هذا

(661) المصدر السابق ، ص 379.

السرفُ: مجاوزة الحد ، أو الضراوة بالشيء والولوع به.

كان من شعراء الاحتجاج ، ويَذْكر أن الجاحظ كان يحتج بشعره[662]. ويصف ابن المعتز درست المعلّم بأنه :"كان فصيحاً جيّداً لقول الشّعر"[663].

ويختار ابن المعتز بعض أبيات لدرست المعلّم يتغزل فيها بمحبوبته ؛ فالحبيبة أسيلة الخدين ، ناعسة العينين ، لدنة القوام ، ضخمة الأرداف ، وهو يستعطفها ويبثها آلامه ومعاناته وأحزانه ، ويشكو حرقة الهوى ، ولوعة الشوق ، وألم الفراق والبين والصد والهجران ، يقولُ:

أَمَا والخال في الخدّ الأسيل ... وطَرْفٍ فاترٍ غَنِجٍ كَحِيل
وقَدٍّ مائلٍ يحكيه غُصْنٌ ... على دِعْصٍ من الرِّدْفِ الثقيل
أَنَا المقتولُ من بين الأُسَارَى ... فَهَل تَرثى لمحزونٍ نحيل
لَقَد أبْدى هواك لنا سيوفاً ... فكم بسيوفِ حبّك من قتيل
ألا يا عَيْن قبْلَ البَيْن جودِي ... بِدمْعٍ واكفٍ همِلٍ هَطُول
على جِسْمٍ براه هَجْر حبٍّ ... أراه سوفَ يودِي عن قليل[664]

ويمضي ابن المعتز في بيان فضل هؤلاء الشعراء المغمورين وعظم شأنهم؛ فيقول في معرض ترجمته للشاعر خالد النجار :"كان خالد النجار ، شاعراً متقدماً"[665] ويقولُ عن الصّيني شاعر طاهر بن الحسين :"وكان مطبوعاً مقتدراً"[666].

وذكر المؤلّف في ترجمة الصّيني أن الصّيني كان لا يفارق بغداد فلذلك كانت أخباره "قليلة جداً"[667]، ومما رواه للصّيني قوله:

---

(662) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 305 .

(663) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(664) المصدر السابق ، ص 306 .

الدِّعص: قطعة من الرمل مسْتدِيرة ، يشبه ردف المرأة بها.

الواكف: المَطَر المنْهل ، شبه الدمع به.

الهَمِلُ: السائِل ، الفَائض . وهملت العَيْن هَمْلاً ، وهَمَلاناً ، وَهمولاً : فاضت وسالت.

(665) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 296.

(666) المصدر السابق ، ص 278 .

(667) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

زَعَمــوا أن مــن تَــشَاغَل باللــذ اتِ عَمــــن يحِبــــه يَتَــــسلى

كَــذَبوا والــذي تُــسَاقُ لــه البــدْ ن ومَــنْ لاذَ بــالطوافِ وَصَــلى

لَرسِيس الهَوَى أحــر مِــن الجَمْــ ــرِ على قَلْــبِ عَاشِــقٍ يَتقلــى[668]

يقْسم الصّيني أن الحب إذا تمكن من قلب امريء ، يظـل معـذب الـنفس ، محرق الفؤاد ، ومن ثم يصعب عليه نسيان محبوبته أو التلهي والتشاغل عنها.

ويروي ابن المعتز أن بعض المقلين كان لهم أثر في المشهورين من الشعراء ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في خبر أحمد بن إسحاق الخارَكي :"حدثني أبو جعفر محمد بن عمر قال : حدثني ابن الداية قال: قال لي أبو نُواس : ما مجنت ولا خَلَعْتُ العذار حتى عاشَرْتُ الخَارَكي فجَاهَر بذلك ولم يَحْتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومَنْ يذهب مذهبنا عيال عليه"[669].

وهذه الرّواية تشير إلى أن الخارَكي على عدم شهرته كان له أثرُ بيّن علـى أبي نواس ورفاقه من المجان ، وأن الخاركي كان أستاذهم جميعاً ، فهو الذي قاد أبا نواس ومن سلك مسلكه إلى خلع العذار والعكوف على اللهو والمجون.

بقى أن نعرف أن ابن المعتز كان لا يذكر تاريخ وفاة الشاعر إلا نادراً ، ففي ترجماته التي بلغت عدتها مائة واثنين وثلاثين ترجمة نلحظ أنه لم يذكر تاريخ وفاة الشاعر إلا لسبعة شعراء فقط وهم : بشار بن برد وقد ذكر المؤلف بأنه توفي فـي سنة 167هـ أو 168هـ[670]، ومطيع بن إياس وتوفي سنة 199هـ ـ[671]، وأبـو الشمَقْمق وتوفي سنة 180هـ[672]، وأبو حية النُمَيْري وتوفي سنة 210هـ ـ[673]،

---

(668) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

الرسِيس : بدء الشيء ، أو بقيته وأثره.

تقلى فلان: تَقلب متَمَلْملاً كأنه على المِقْلى.

(669) المصدر السابق ، ص 280 .

(670) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18 .

(671) المصدر السابق ،ص 86.

(672) المصدر السابق ، ص 118 .

(673) المصدر السابق ، ص 133 .

ونُصَيْب الأصغر وتوفي بعد التّسعين والمائـة[674]، وأبـو نُـواس وتـوفي سـنة 195هـ[675]، ثم محمود الوراق وقد توفي في سنة 230هـ[676].

ولعل ابن المعتز لم يكن يهتم كثيراً بتحديد زمن وفاة الشاعر؛ لأنـه يـؤرّخ لجمهرة من الشعراء، عاشوا في عصر أدبي واحد هو عصر العباسيين، وفي فتـرة محددة بما يزيد قليلاً على قرن واحدٍ من الزمان "لذلك كان يصرف اهتمامـه إلـى الفترة الزمنية التي عاشها الشاعر لا إلى التـاريخ المحـدد الـذي يحـدد مـيلاده ووفاته"[677].

وخلاصة القول فإن منهج ابن المعتز قام على الاختصار والإيجـاز ، وقـد أورد للشعراء الذين ترجم لهم القصائد والأشعار التي تفرد الخاصـة بمعرفتهـا ، والتي خلت منها دواوين هؤلاء الشعراء وأغفلت ذكرها كتب الأدب والتاريخ ، وهو لم يقسم كتابه طبقات كما فعل ابن سلام الجمحي ، بل ذكر الشعراء وحلل كـل مـا يتصل بهم وبشعرهم تحليلاً واسعاً.

وابن المعتز في أحكامه النقدية يحتكم في الجودة إلى "الطّبْع" الذي يعني عنده السهولة والعذوبة والرقة ، ومجانبة التكلف والصنعة، وقد جاءت أغلـب أحكامـه النقدية انطباعية مستلهمة من تأثره الذاتي وذوقه الخاص، وهذا ما جعله يفرط فـي الثناء والتقريظ على أكثر من ترجم لهم وروى أخبارهم.

والمؤلّف كان يكتب بطريقة السند حتى عن معاصريه ، فلا تكاد تخلو ترجمة من الترجمات الواردة في كتاب طبقات الشعراء من رواية مسندة إلـى أصـحابها بالسماع أو الخبر المتواتر ، وكما عني ابن المعتز بالمشهورين من الشعراء ، عني كذلك بالمغمورين منهم . والكتاب وإنْ خصه المؤلف بالشعراء المحدثين ، فهو لـم يكن فيه مناهضاً للقديم ولا متعصباً للحديث ، بل نظر لكل منهمـا بعـين القـصد والاعتدال وأعطى كلّ ذي حقٌّ حقه . وقد رسم ابن المعتز من خلال هـذا المـنهج

---

(674) المصدر السابق ، ص 143 .

(675) المصدر السابق ، ص 175.

(676) المصدر السابق ، ص 335 .

(677) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 440.

الذي بَيناه صورة صادقةً للحياة الاجتماعية والفكرية في العصر العباسي ، وهذا ما سنبحثه في الفصل القادم.

الفصل الرَّابع

صورة الحياة الاجتماعيَّة والفكريَّة فى طبقات الشُّعراء

(أ) الحياة الاجتماعية

المبحث الأول : الخمر واللهو

المبحث الثاني : الزندقة والزهد

المبحث الثالث : مظاهر الثراء ومظاهر الفقر

المبحث الرابع : الفكاهة والنوادر

(ب) الحياة الفكرية

المبحث الخامس: الشّيعة وأصحاب الكلام والخوارج

الفصل الرابع

صورة الحياة الاجتماعية والفكرية في طبقات الشعراء

(أ) الحياة الاجتماعية:

المبحث الأول : الخمر واللهو

المتتّبع لمسيرة الشّعر العربي ، يرى أن الشعراء الجاهليين قد عرضوا للخمر فوصفوا ألوانها ودنانها وكاساتها ومجالسها . واللافت للنظر أن الجاهلي كان يتناول الخمر في معرض الفخر بنفسه ، والتندر بكرمه وسخائه ، وإغداقـه فـي البـذل والعطاء . ونلمح ذلك جلياً عند طَرَفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد بن ربيعة . ومن أمثلته بعض أبيات للبيد يخاطب فيها محبوبته نَوار، مظْهراً افتخاره بنفسه . ويلاحظ أن لبيداً عرض لذكر الخمر ضمن موضوعات معلقته المتعددة ليتخذ منهـا سبباً ينفذ من خلاله إلى هذا الفخر؛ فهو يخاطب حبيبته فيقول: إن محبوبته تجهـل كثيراً من الليالى الساكنة الهادئة التي قضاها بين لذيذ اللهو وجميل المنادمة ، وهذه الليالي على كثرتها كان لبيد هو الذي يسْمر فيها أصحابه، وهو لفرط سخائه يغـالي في سعر الخمر حتى يحْجم الآخرون عن شرائها ، ومن ثم ينفرد بالاستحواذ علـى كل ما في آنية الخمار من هذه المدام الصافية ، ليهنأ بمعاقرتها بصحبة هذه المغنية الحاذقة التي تعالج عودها في أناة وتؤدة ، يقولُ:

بَل أنتِ لا تـدرينَ كـم مـن ليلـةٍ   طَلْـقٍ لذيـذٍ لَهْوهـا ونِـدَامها
قَد بِـت سـامِرَها ، وغايـةَ تَـاجرٍ   وافيْـتُ إذ رفعَـتْ وعَـز مـدَامها
أُغْلي الـسّباءَ بكـلّ أَدْكَـنَ عـاتقٍ   أوجونةٍ قُـد حَـتْ وفُـض خِتامهـا
وصـبوحِ صـافيةٍ وجـذبِ كرينـةٍ   بِمـوَترٍ تَأتـا لَـه إِبهامهَـا[678]

---

(678) لبيد بن ربيعة ، ديوان لبيد بن ربيعة ، ص 175.

النّدام: المنَادمة. **سامرها**:سامراً فيها.**غاية**:راية. **التاجر**: بائع الخمر. **السّباء** : شراء الخمر. **أدكـن**: زقّ أدكن. **عاتق** : عتيق. **الجونة**: الخابية السوداء . **قُدِحت**: غُرف منها ومزجت. **فُض**: كُسِر. **الكرينـة**: ذات الكِران وهو البربط. **مَوتر**: عود موتر أي ذي أوتار. **تأتاله**: تصلحه وتعمله . **وتأنى له**: تعالجه في أناة.

والحق أن الجاهليين لم يسْرِفُوا في اللهو والمجون ، كما فعل الأعشى الـذي شهد حضارة الحِيرة فتأثر بها أبلغ التأثر فخلع العذار وأسرف في المجون وشـرب الخمر التي عاش لها ، وأجاد وصفها مما جعل النقاد القدامى يقولون: إن الأعـشى من أشعر الجاهليين إذ طرب[679] أي إذا شَرِبَ الخمر ووصفها "والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيها وألوانها وما تفعلـه بعقـول شاربيها وما تحدث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغوفاً بها مفتوناً ، بل سكيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعـة المجـان فـي العصر العباسي أمثال أبي نواس"[680].

وصور الأعشى في الخمر من الصور التي أكثر العباسيون مـن تـداولها ، مثلما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دنانها[681].

وقد عرفت بيئة العراق بدور اللهو والمجون منذ العصر الجاهلي فقد كانـت الحِيرة التي قامت الكوفة بالقرب منها تزخر بالحانات والأديرة وفنون اللهو والعبث وظل هذا شأنها حتى العصر الأموي، بل أن الكوفة تُعد الوارثة للحيرة فـي هـذا الجانب ، وأشهر المجان في العصر الأموي هم: الأقيشر المغيرة بن عبـد ا فـي العراق ، والوليد بن يزيد في الشام ، وغالب بن عبد القدوس في خراسان[682].

ولا نكاد نصل إلى عصر العباسيين حتى نجد أن تيار اللهو والمجون قد بلغ حِدته ، وبرزت طائفة من الخلعاء الذين جمع بينهم اللهو ، وقربهم الهوى والعبـث والاستهتار بكل القيم الفاضلة ، نراهم يجوبون الحانات ويعكفون على دور الخمـر يقضون فيها أياماً وليالي بل بعضهم ممن أنفق أغلب سِنيّ عمره في اللهو والقصف غير مَبالٍ بما حوله.

---

(679) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج9 ، ص 108.

(680) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص 357 .

(681) المرجع السابق ، ص 360 .

(682) محمد عثمان علي ، في أدب الإسلام (عصر النبوة والراشدين وبني أميـة) ، دار الأوزاعـي ، ط2 ، 1986م ، ص 538.

وكان للبيئة أثرها في الإنجراف نحو الحياة اللاهية ، فـضلاً عـن طبيعـة المجتمع العباسي الذي اتسم بتعدد الأمم والثقافات من الفـرس والأتـراك والهنـود وغيرهم ، وقد قاد أنصهار هذه الثقافات إلى تغير نمط الحياة ، والنزوع نحو الحياة المتحضرة.

وقد كان للفرس وعلى رأسـهم البرامكـة دور كبيـر فـي شـيوع اللهـو والمجون ؛ فالفرس منذ القديم يعْرفَون بالميل إلـى اللهـو والـسرور ، والإفـراط في حب النبيذ ، وقد كانت الديانة الزرادشتية[683] تبيح شرب النبيذ بل تجعلـه مـن شعائرها ، فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية ، وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة ، وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث ، ونقلـوا لهوهم من نبيذ ومجالس غناء وغزل[684].

ويبدو أن الأمر لم يقف عند عامة الناس ، بل أن تيار اللهو والمجـون قـد جرف علية القوم وخاصتهم يروي ذلك المسعودي في حديثه عن مجلـس الخليفـة المتوكل (232هـ -247هـ) فيقول:"ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في النـاس تركـه إلا المتوكّل فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له ، وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته ، فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابـه وقواده من يوصف بجودٍ ولا إفضال ، أو يتعالى عن مجون وطَرَب"[685].

وقد أسهم مجتمع الجواري والقيان بنصيب كبير في حياة اللهو والعبث ، فقد طفحت بهن الدور والأبنية والقصور والأسواق ولا أدل على ذلك مـن أن أغلـب الخلفاء من نَسْلهن كما تقدم، وقد غَالى الخلفاء العباسيون في اقتناء الجواري والرقيق

---

(683) **الزردَشْتية** : وهم أصحاب زردشت بن يوشب ، وقد زعموا أن زردشت عندما بلغ ثلاثين سنة بعثه ا تعالى نبياً ورسولاً إلى الخلق ، وكان دينه : عبادة ا والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر ، وهي من معتقدات المجوس. الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 236 – 237.

(684) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 82.

(685) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 122.

مثل الرشيد والمعتصم والمتوكل كما سبق وأن أشرنا[686]، يـروي المـسعودي أن جواري الخليفة المتوكل بَلَغْنَ:"أربعة آلاف سرية"[687].

وهؤلاء الجواري قد اشتهرن بالحسن والجمال والملاحة والظـرف ، وكـان بعضهن ممن أدركتهن حرفة الأدب فكن شاعرات حاذقات ، وتقدم الحديث عـن أن ابن المعتز خص ست من الجواري الشواعر بترجمات منفصلة في كتابـه طبقـات الشعراء.

وكان من فرط جمال هؤلاء الجواري وفصاحتهن أن وقع بعض الخلفاء فـي شراكهن ، إذ يرْوَى : أن المأمون كان يعشق جارية تُسمى عَريب ، وقد وصف ابن المعتز خصال عَريب وحسنها فقال:"كانت عريب جارية المأمون من أحسن النّـساء وجهاً ، وأفصحهن لساناً ، وأبلغهن بياناً ، وأصنعهن كفاً وكانـت شـاعرة مفْلِقـة مطبوعة ، وكان المأمون يعشقها ، وهي عند مولاها"[688].

ويحكي ابن المعتز كذلك في معرض ترجمته لخنساء جارية هشام المكفوف ، أن خنساء كانت جليلة نبيلة أديبة شاعرة ، حسنة العقل فائقة الحسن والجمال :"مـن حواذق المغنيات المحْسنات ، وقد نازعت الشعراء ومدحت الخلفاء ، وأعطي بهـا هشام مالاً جليلاً فقال: وا لو أعطيت بها خراج السواد ما بعتها ، وما أصنع بالمال ، ومتعتي بها يوماً واحداً أجل من كل ذخر ، وأَمْتَع من كل فائدة"[689].

كان للغناء إسهامه في اللّهو والقصف فقد انتشر المغنين والمغنيات وامتلأت بهن قصور الخلفاء ووزرائهم فضلاً عن انتشار فن الغناء في الحـدائق والبـساتين والشوارع ، وكانت الجواري يؤدين الغناء بأصوات جميلة وأنغام عذبة ، وقد وضع بعض أبناء الخلفاء ألحاناً وأصواتاً يتَغَنى بها كإبراهيم بن المهدى ، والواثـق بـن

---

(686) ص 21 – 22 من هذا البحث.

(687) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 122.

(688) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 387.

(689) المصدر السابق ، ص 386 .

المعتصم ، والمنتصر بن المتوكل ، وعبد ا بن المعتز الذي بلغ من اهتمامه بالغناء أن ألف فيه كتاباً أسماه "الجامع في الغناء" كما سبق وأن بينا[690].

وقد كثر الغلمان في هذا العصر ، فكان لهم أثرهم في حياة اللهو والمجون ، يروي التنُوخي أن دار الخليفة المقتدر قد اشتملت :"على أحَدَ عشر ألف خادم خصي وكذا من صَقْلبي ورومي وأسود"[691] فضلاً عن اشتمال قصر المقتدر على ألـوف كثيرة من الغلمان الفحول[692].

وفي هذه البيئة التي تعج بالجواري والغلمان انتشرت ديارات النصارى فـي بغداد وما حولها ، وهي أماكن للخمر واللهو والمجون ، وقد أحْصى الشابشْتي فـي كتابه الدّيارات أكثر من ثلاثين ديراً يؤمها أهل الخلاعة وطلاب اللهو والمجـون ، وكانت الدّيارات تقام في أحسن البقاع عمارة وعلى شواطيء دِجْلَة ، وهي عـامرة نَزهة كثيرة البساتين والفواكه والكروم ، مليئة بالحانات والخمارين معمورة بأهـل التطرب والشُرب والجواري والغلمان المرْد، وهي موطن مـن مـواطن الخلعـاء والمجان[693].

وأشهر هذه الدّيارات ، دير سابر ، ودِير مَرْجِرْجسْ ودير باشَـهْرا ، ودِيـر العاث ، ودِير العَذَارى ، وإنما سمي دير العذارى بهذا الاسم ؛ لأنـه فيـه جـوارٍ متبتلات عَذَارى هن سكانه وقطانه ، ولابن المعتز في دير العَذارى قوله:

خَليلي ، قُم حتى نموتَ مـن الـسكْر　　بحانـةِ خمـارٍ مماتـاً بـلا قبْـر
ونَـشْرب مـن كرخيـةٍ ذَهَبيـةٍ　　ونَصْفحَ عن ذنب الحوادثِ والـدهْر
ألا ربَ أيـامٍ مَـضَيْنَ ، حميـدةٍ　　بَدْير العَذَارَى وَالصوامِع والقَصْر[694]

---

(690) ص 23 من هذا البحث.

(691) التنُوخي ، نشوار المحاضرة ، تحقيق عَبود الثالجي ، الفجر العربـي ، بيـروت ، 1973م ،ج5 ، ص 48.

الصقالبة: وهم السلاف ، الشعوب القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكي في شرق أوربا ووسطها.

(692) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(693) الشابشْتي، الدّيارات ، ص 54 ، 69.

(694) المصدر السابق ، ص 34 ، 35 ، 109 وابن المعتز ، الديوان ، ص 350 – 351 .

مماتاً بلا قبر : أي كأنه ميّت ولكنه حي.

ومن دور اللهو بالكوفة دار ابن رَامِين هذه الدّار التي جمع فيها ابن رامـين مجموعة من الجواري المغنيات ممن يجدن فنون اللهو والغناء والطرب ، وإغـراء الرّجال ، والمنادمة على الشراب ، وفتحها لشبان الكوفة وظرفائها ومجانها وأدبائها ونبلائها واستطاعت جواري ابن رامين إثارة الفتنة في أرجاء الكوفـة ، فقـد كُـن يتغنين بشعر يذوب رقة ، ويلبسن ثياباً رقيقة تكشف عن محاسـنهن ، ويخططـن حواجبهن ، ويصففن شعورهن بطريقة فاتنة ، كما كُن يخططن شوارب خُضْراً تمتد على شفاههن امتداد الطِراز[695].

ولم تكن مجالس الخمر واللهو قد انحصرت في هذه الديار التي تقدم الحديث عنها ، بل لقد اشتهرت بعض قُرى بغداد وضواحيه بجودة الخمر ، وانتشار مجالس اللهو والمجون مثل "قُطْرَبل" التي كانت مجمعاً للخلعاء ، ومألفـاً لأهـل القـصف والطرب ، وعنها يقول أبو نُواس:

قُطْرَبل مَرْبعي ولـي بقُـرى الكَـرْخ مـصيفٌ وأُمّـي العنـب[696]

الدارس لكتاب طبقات الشعراء يلحظ أن ابن المعتز قد صور حيـاة اللّهـو والمجون – التي كانت سائدة في عصر العباسيين – تصويراً دقيقاً ؛ فالكتاب يزخر بكثير من القصص والحكايات التي تتصل بالخلعاء والمجان، وما كان يؤلف بيـنهم من صلات وأسباب مبعثها الخمر والكأس، ومجالس اللهو والشراب، وقد حفل كتاب طبقات الشعراء كذلك بتراجم مفصلة لعدد كبير من شعراء اللهو والمجـون الـذين شربوا الخمر؛ فأجادوا وصفها ، ووصفوا مجالسها ومجتمعها فأبدعوا في ذلك أيمـا إبداع، ومن هؤلاء الشعراء: والبة بـن الحبـاب[697]، وأبـو نُـواس[698]، وأبـو

كرخية: خمرة منسوبة إلى الكرخ وهو حي في بغداد.

دير العذارى والصوامع والقصر : أسماء مواضع,

(695) د. يوسف خليف ، حياة الشّعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، 1968م ، ص 211-212.

(696) نوفل الطرابلسي ، صناجة الطرب في تقدمات العرب ، دار الرائد العربي ، بيـروت ،ط2، 1982م ، ص18.

(697) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 77-79.

(698) المصدر السابق ، ص 175-197.

الهندي[699]، ومسلم بن الوليد[700]، والحمادون الثلاثة: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزّبرقان[701]، وزَنْد بن الجَون المعروف بأبي دلامـة[702]، وأبـو الشّيص[703]، والحسين بن الضحاك المعروف بـالخليع[704]، وعَـوْف بـن محَلّـم الخُزَاعِي[705]، وربيعة الرّقي[706]، وبكر بن النطـاح[707]، وسـلم الخاسـر[708]، وإسماعيل بن يوسف البصري[709].

وهؤلاء الشعراء الذين ذكرنا ، يروي ابن المعتز من أخبارهم وأشعارهم ما يدل على أنهم كانُوا من مشاهير المجان في العصر العباسي ، يقولُ عن أبي نواس: كان "ماجناً خليعاً متهتكاً ألوفاً لحانات الخمارين"[710]، وقد بلغ أبو نواس من شـغفه بالخمر أن جعلها مَذْهباً فنياً ، فطفق يفتتح بها قصائده ومن ذلك قوله:

لا تبكِ لَيْلَى ولا تَطْرَبْ إلى هنْـد   واشْرَبْ على الوَرْدِ من حمراء كالوردِ[711]

ويصف ابن المعتز والبةَ بنَ الحباب الشاعر بأنه كان ماجناً خليعاً مـسْتَهْتراً فيقول:"كان والبة بن الحباب ماجناً خليعاً ، ما يبَالي ما قال ولا ما صنع"[712].

ويمضي ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء فـي التـأريخ لحيـاة اللهـو والمجون في زمن بني العباس، محاولاً رسم صورة واضحة لهذه الحياة، مورداً من الأخبار والروايات ما يجعلنا نقف على طبيعة هذه الحياة اللاهية، يـصف تطـرح

(699) المصدر السابق ، ص 124 – 130.
(700) المصدر السابق ، ص 214 – 219.
(701) المصدر السابق ، ص 60-63.
(702) المصدر السابق ، ص 46-54.
(703) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64-77 .
(704) المصدر السابق ، ص 246 – 248 .
(705) المصدر السابق ، ص 168 – 175 .
(706) المصدر السابق ، ص 144 – 155 .
(707) المصدر السابق ، ص 198 – 205 .
(708) المصدر السابق ، ص 90 – 96.
(709) المصدر السابق ، ص 309 – 310 .
(710) المصدر السابق ، ص 196 .
(711) المصدر السابق ، ص 64.
(712) المصدر السابق ، ص 79 .

الحمادين وعكوفهم على الخلاعة والمجون بالكوفة ، فيقول:"وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد بن الزّبرقان وحماد الراوية، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون أجمل عِشْرة. وكانُوا كأنهم نفس واحدة"[713].

ويقولُ في عوْف بن محلّم الخُزاعي :"كان عَوْف بن محلّم سخياً على الطعام جداً ، صاحب شراب ولهو وخلاعة ، وكان له إخوان يتمتع بهم ومعهم ، ويعاشرهم ويفْضِل عليهم"[714] وفي ابن الضحاك :"كثير المجون ، صاحب جِد وهَزْل... وهو غُلام أستاذه والبة بن الحباب"[715] ، ويروي ابن المعتز أيضاً أن أبا الهندي الشاعر : كان منهوماً بالشراب مستهتراً به ويقال إنه :"كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق"[716]، وكان أبو الهندي :"ينزل في سكة يقال لها كُوَى زيان ، وتفسيرها بالعربية : سكة الخُسْران – وهي بِسِجِسْتَان ، كان يباع فيها الخمر والفواحش ، ويقال لها اليوم : سكّة العدول والمستورين وأهل الصلاح"[717].

وقد بلغ هؤلاء الشعراء من العكوف على المجون والخلاعة ، أنْ لَفظ بعضهم أَنْفَاسه الأخيرة وهو بين الكأس والدّنان ، يَذكر المؤلف أن أبا الهندي مات في بيت خمارة ، ويروي طريقة موته فيقول :"حدثني صالح بن إبراهيم قال: حدثني جعَيْفران الموسوس الشاعر : قال لي صَدقة البكري : شَرب أبو الهندي مع قوم في قريةٍ من قُرى مَرْو على سطح ليس له سِتْر فسكر ، وكان خبيث السكر والنوم فلما جَن الظلام ومضى في الليل ما مضى ، وقد سَكِروا وأرادوا أن يناموا، خشوا على أبي الهندي أن يسقط من السطح ، فربطوا في رجله حبلاً وأوثقوه ، وطولوا الحبل – لسكرهم – وشدوا طرف الحبل إلى شيءٍ في السطح على غير عَمْدٍ منهم . فقام

---

(713) المصدر السابق ، ص 60.

(714) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 172 .

(715) المصدر السابق ، ص 248 .

(716) المصدر السابق ، ص 124 .

(717) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

أبو الهندي في بعض الليل ليبول ، فسقط فتدلى من السطح وهم لا يَشْعرون ، فلمـا أصبحوا وجدوه متَدَلياً ميتاً"[718].

لقد شرب هؤلاء الشعراء الخمر ، وسرت نشوتها في أوصالهم ؛ فمـن ثـم افتنوا بوصفها ، فوصفوا قدمها وألوانها ، ورائحتها ، وكاساتها ، وأباريقها ، ودنانها ، وسقاتها ، فضلاً عن وصفهم الدقيق لمجالسها وفعلها في الشاربين.

ويلاحظ أن شعراء المجون في العصر العباسي قد ساروا على نهج الشعراء المتقدمين في أوصافهم الخمر إذ نراهم لم يخرجوا عن الصور والموضوعات التـي تناولها القُدامى في أشعارهم الخمرية.

ولما كان الشعراء العباسيون كذلك قد عكفوا على حياة اللهو والمجون وتبذلوا في هذه الناحية بصورةٍ لم يألفها سابقوهم، فقد أجادوا نعـت الخمـر ، ووصـفوها وصف خبير مجرب شرب الخمر، وكرع منها مرات فسكر وأدمن الشراب ، لذلك جاءت أوصافهم تنبض بكثير من الصور الدقيقة والحية ، فضلاً عـن أن الـشعراء العباسيين أضافوا لأوصاف الخمر شيء من الجدة والطرافة كما سنرى ذلك لاحقاً.

(أ) <u>قدم الخمر</u>:

فمن أوصافهم أن الخمر قديمة ، فهي موجودة منذ قديم الزمان ، ومنذ عَهْـد عاد ، ومن ذلك قول إسماعيل بن يوسف البصري:

يـارب خمـارةٍ بـالقفصِ حانتُهـا   عادِيـةٍ ذات أطمـارٍ مهاريـت[719]

وقد شبهوا الخمر بعانس قد زَهِد الرّجال في خطبتها والزواج منها ، وهي قد شهدت عهد نبي ا يونس عليه السلام ، يقولُ إسماعيل بن يوسف البصري:

قالت:أصِبْتَ المنى من عَانسٍ عصِرتْ   في العَهْدِ من صاحبِ اليقْطِين والحوتِ[720]

---

(718) المصدر السابق ، ص 126 .

(719) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 309 .

عادية: كل قديم ينسب إلى عاد.

أطمار : ثياب.

المهاريت : الممزقة.

(720) المصدر السابق ، ص 310.

والخمر قد شهدت تعاقب العصور والدهور ولم يزدها ذلك إلا تلألأً وبريقـاً ولمعاناً ، يقولُ أبو الشّيص:

ربيبةُ أحقابٍ جـلا الـدهْر وجْههـا   فليس بها - إلا تلألُؤها - نَدْب[721]

وعن قدم الخمر وعذريتها يقول أبو الشّيص:

وســبيئةٍ مـــن كَرْمهـــا حيريـــةٍ   عذراء من لمـس الرّجـال شـموس
لـم يفتـق النعمـان عـذْرَتها ولـم   يَرْشِـفْ مجاجـةَ كأسِـها قـابوس
كتـبَ اليهـود علـى خـواتم دنّهـا   يادن أنـتِ علـى الزمـان حَبـيس
ذِميـــةٌ صـــلى وزَمْـــزَم حولهـــا   من آل بَرمكَ هَرْبَـذُ ومَجـوس[722]

يصفُ أبو الشّيص هذه الخمر المدفوعة الثمن بعذراء شديدة الصدود والتمنع ، يتعذر على الرّجال الدنُو منها ولمسها ، فالخمر وجدت منذ أزمان بعيدة لذا شهدت كثيراً من الحضارات السحيقة ، فقَد عاصرت النعمان بن المنْذِر ملـك الغـساسنة ، وقابوس ملك الحيرة ، وقد شهدت كذلك حضارات أخرى قامت واندثرت كحضارات الفرس من برامكة ومَجوس.

وكما وصفُوا الخمر بأنها قديمة ، وهي تـارةً عـانس ، وتـارة عَـذْراء ، وصفوها كذلك بأنها عجوز ، يقولُ أبو الشّيص:

عجـــوزُ نَـــسَج المـــاء   لهـا طَوْقـاً مـن الـشذْرِ[723]

فهذه المدام عجوز تتقلد عقداً نُضّد من قطع الذهب الصغيرة.

(ب) ألوان الشراب:

---

(721) المصدر السابق ، ص 72.
الندب: أثر الجرح.

(722) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 75.
الشموس: الممتنعة . **السبيئة** : المدفُوعة الثمن.
النعمان : المراد به النعمان بن المنذر ملك العرب في الجاهلية.
قابوس: إشارة إلى قابوس ملك الحِيرة.
الزمزَمة: كلام المجوس عند أكلهم.

(723) المصدر السابق ، ص 68 .
الشذْر : قطع الذهب الصغيرة.

وصف شعراء المجون ألوان الخمر ، وكانت أكثـر ألوانهـا دورانـاً فـي أشعارهم هي: الأحمر ، والأصفر ، والكميت ، والأبيض.

1- الشراب الأحمر:

فالخمر حمراء اللون ، ومن ذلك قول أبي نواس:

كأْساً إذا انْحَدَرَتْ من كـفّ شـاربها أَجْدَتْه حمْرَتُها في العَيْن والخـدّ[724]

ويذكر ابن المعتز في كتابه فصول التماثيل أن الشراب الأحمر يعد من أفضل أنواع الأشربة وأكثرها إدراراً للدم ، يقـول:" قـال جـالينُوس: إن أصـلح الأشْربة لتوليد الدم ما كان أحمر غليظاً لازماً وما كان كذلك من الـشراب فلـيس يحتاج من التغيير إلى شيء يسير حتى يتقلب فيصير دماً"[725].

ووصف الخمر باللون الأحمر من الصور التي تكررت كثيراً عند القـدامى؛ فالأعشى يقولُ:

وسـبيئةٍ ممـا تُعَتّـقُ بابـلٌ كدم الـذبيح سـلبتُها جِرْيَالَهـا[726]

فهو يشبه الخمر في حمرتها بلون دَم الحيوان المذبوح ، كما يـشبهها بلـون الصّباغ الأحمر.

وللأعشى بيت آخر يشبّه فيه لون الخمر بلون ماء اللحم الذي لـم يطـبخ ، ويقصد به الدم وهو قوله:

وكأسٍ كماءِ النـيّ بـاكرْتُ حَـدهَا بِغِرتِهَا إذْ غـابَ عَنّـي بغَاتُهـا[727]

---

(724) المصدر السابق ، ص 64.

(725) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 27.

(726) الأعشى ، ديوان الأعشى ، شرح د.يوسف شكري فرحات ، دار الجيـل ، بيـروت ، ط1، 1992م ، ص 227.

السبيئة: الخمرة المدفوع ثمنها.

الجِريال: صباغ أحمر استعار الشاعر لونه للخمرة.

(727) المصدر السابق ، ص 45.

ماء النيّ: ماء اللحم الذي لم يطبخ ، ويشبه به لون الخمرة.

وماء اللحم هو الدم.

حدها: سورتها ، حرارة طعمها . **الغِرة**: الغفلة ، البغتة. **البغاة**: الظالمون ، المزْعجون.

2- **الشراب الأصفر:**

يَمْضِي شعراء المجون الذين ذكرهم ابن المعتز في طبقات الشعراء في تتبع ألوان الخمر ؛ فالخمر عندهم كذلك صفراء اللون وهي تبدو على الكأس كأنها اللهب المشتعل ، كما تتراءى وقد مزجت بالماء مثل سبائِك الذهب التي ألقيت على ميـاه الدر البيضاء ؛ يقولُ أبو الشِّيص:

إذا فُرجَـاتُ الكَـأسِ منهـا تُخُيِّلَـتْ تأملتَ فـي حافاتهـا شُـعَل اللهَـبْ

كـأن اطِّـراد المـاءِ فـي جنباتِهـا تَتبع ماءِ الدرِّ في سبكِ الـذهَبْ[728]

ويقولُ ابن المعتز عن التشبيهات الواردة في الشراب الأصفر إن :"العـرب تمثله في أشعارها بثلاثة أشياء : بتوقد الكوكـب ، وبـصفرة الـذهب ، وبتـضرم اللهب"[729].

ولأبي نُواس في الشراب الأصفر:

حَلَبْتُ لأصـحابي بهـا دِرة الـصَّبا بصفراءَ من ماءِ الكُروم شَـمول[730]

ويروي الأصْمعِي أن الفضل بن يحيى لما سَمِع قصيدة أبي نواس التي منهـا البيت المتقدم، قال:قاتله ا ما أشعره! وطلب من غلامه أنْ يثبتها، ثم قال عن أبـي نواس:"أما وا لولا قالة الناس فيه ما فارقني، ولكن إذا فكرتُ فيه وجدتُ الرجـل ماجناً خليعاً متهتكاً ألوفاً لحانات الخمارين فأترك نفعه لضره"[731].

وقد بلغ الشعراء المجان من شدة إقبالهم على الشراب ، أن كانُوا على دراية وخبرة يِمَيْزة كل لون من ألوان الخمر ، ومدى فائدته وتأثيره على البدن ، كما كانُوا على معرفة تامة بالمواسم والأجواء التي يَصْلُح فيها كل لون من ألوان الخمر ، فابن المعتز الذي طالما شرب الخمر ونهل منها مرات ، كما تقـدم[732]، نـراه يـصف الشراب الأصفر وصف خبير مجرِّب فيقولُ:"وهو جيِّد للأبدان التي تحتاج إلـى أن

---

(728) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 72.

(729) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 30.

(730) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 196.

(731) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(732) ص 52-53 من هذا البحث.

تسخن ، ولمن كان الغالب عليه البلغم وهو المِزاج البارد ، ولمن كان في بدنه خلط كثير ، ولمن كان في البلاد الباردة ، ولمن كان شأنه الخفض والسكون ، ولمن كان في الشتاء والهواء البارد الرطب"[733].

3- الشراب الكُمَيت:

وكما وصفُوا الخمر بالإحمرار والإصفرار ، وصفوها كذلك بأنها كُمَيْـت ، وهي الخمرة التي يميلُ لونها إلى السواد ، يقولُ أبو الهندي:

كُمَيْتاً ثَوَتْ في الـدنّ تِـسعينَ حِجـة مشَعْشَعةً في شُرْبها وَاجب الحـدّ[734]

والخمر كذلك كُمَيت وقد أَتْقَنَت حرارة الصيف الملتهبة طبخها ، لذا فهي لـم تحوج خمارها بأَنْ يوقِد لها ناراً أو يشعل لها حطباً ، يقولُ أبو الشّيص:

كُمَيْتٍ أجادت جَمْرَةُ الصيْفِ طبخَهـا فأتتْ بلا نَار تُحَش ولا حَطَـبْ[735]

ومن تشبيهات القُدماء للشراب بالكُمَيْت ، قول الأعْشَى:

كُميْــتٍ يُــرَى دون قَعْــر الإنَــى كمِثْل قَذَى العَـيْن يقْـذَى بهَـا[736]

وبذكر الكُمَيْت وهي الخمرة المائلة إلى السواد ، يكون شعراء الدولة العباسية قد استوفوا كل ألوان الخمر التي عرفها الشعراء منذ قديم الزمان ؛ فابن المعتز قـد اسْتَقصى في كتابه فصول التماثيل ألوان الخمر التي تناولها الشعراء منذ الجاهليـة فوجدها أربعة ، ومن ذلك قوله في قِسمة ألوان الشراب :"الألوان الصحاح أربعـة : الأحمر ، والأصفر ، والأبيض ، والأسود"[737].

4- الشراب الأبيض:

---

(733) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 29.

(734) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 127.

(735) المصدر السابق ، ص 72 .

حَش النار : أوقدها.

(736) الأعْشَى ، ديوان الأعشى ، ص 37.

الكُمَيت : الخمرة المائلة إلى السواد.

الإنى: الإناء.

قَذَى العَين: مايؤْذي العَيْن.

(737) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 26.

يشبّه أبو نواس الخمر البيضاء باللؤلؤة فيقول:

فالكـأس ياقوتـةٌ والخَمْـر لُؤلـؤةٌ من كفّ لؤلـؤةٍ مَمْـشُوقَة القَـدّ[738]

وقد وصفوا الخمر في الصفاء بعين الدّيك يقول حماد عَجْرد:

عقَارُ مِثْـلُ عـين الـدّيك صِـرْفٌ كأن شُـعَاعها لَهَـب الـسّراج[739]

ويقول أبو نُواس:

وكأْسٍ كَعَيْن الـدّيك قبْـل صِـيَاحِهِ شَـرِبْتُ بزهْـرٍ لـم يَـضِرْني ضَـريرها[740]

فالحسن بن هانيء يستيقظ مبكراً ، مسْتبقاً صياح الدّيك ، ليصطبح من هـذه الخمر الصافية.

وللأعشى صورة قريبة من هذه الصورة وهو قوله:

وكأْسٍ كَعيْن الـدّيكِ بـاكرْتُ حَـدها بفتيان صِدْقٍ والنواقيس تُضْرَب[741]

(ج) رائحة الخمر وأدواتها ومجالسها:

مثلما وصف شعراء اللهو والقصف – الذين حواهم كتاب طبقات الشعراء – عِتق الخمر وألوانها ، وصفوا كذلك عبقها ورائحتها التـي طالمـا أذكـت أنـوفهم وعطرت أجسادهم رائحةً ومشماً ؛ والشعراء منذ القديم قد عرضوا لرائحة الخمـر، وشَبهوها بريح المِسْكِ ، يقولُ الأعشى:

مِثْـلُ ذَكـي المِـسْكِ ذَاكٍ ريحهَـا صَبها الساقِى ، إذا قِيـلَ تَـوَح[742]

ويبدو لي أن حرص شعراء المجون في العصر العباسي في الإقبـال علـى الشراب العطري لم يكن ناتجاً من فراغ ؛ فقد أدرك هؤلاء مـن طـول تجـاربهم،

---

(738) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64.

(739) المصدر السابق ، ص 63.

(740) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 129.

(741) الأعشى ، ديوان الأعشى ، ص 16.

كعين الدّيك : كناية عن الصفاء.

النواقيس : الأجْراس.

(742) المصدر السابق ، ص 59.

تَوَح : أسرعَ في الصب.

وعكوفهم على حانات الخمارين، أن الشراب العطري أكثر فائدة ، وأتم نفعاً، وأقـل ضرراً من غيره، يقول عبد ا بن المعتز :"الشراب العطري جيّد في توليد الدم إلا أنه يَضر بالرأس، والشراب الرديء الرائحة مذموم لأنه أردى الأشْربة"[743].

فمن تشبيهات العباسيين لريح الخمر بأراييح المسك قول أبي الهندي:

وفارةُ مِـسْكٍ مـن عِـذَارٍ شَـمَمْتُها   يَفُوح عَلَيْنَـا مِـسْكُها وعَبِيرهـا[744]

وقول أبي الشّيص:

لطيمةُ مِـسْكٍ فُـت عنهـا ختامهـا   معَتقَةٌ صَـهْبَاء حِيريـة النـسب[745]

وقوله أيضاً:

عَجـوزٌ غَـذا المِـسْك أصْـدَاغَها   مـضَمخةِ الجلْـدِ بــالزعْفَران[746]

وقول حماد عَجْرد:

أَمِن صَهْبَاء ، ريـح المِـسكِ مِنْهـا   تَرَقْرَقُ في الإناءِ لَـدَى المِـزَاج[747]

ومن أوصاف رائحة الخمر بريح العطر قول أبي الهندي:

أُقَبّلهــا فَــوْقَ الفِــراشِ كأنهــا   صَلايَةُ عَطارٍ يَفُـوح زَريرهـا[748]

وصف شعراء المجون- الذين ترجم لهم ابن المعتز في طبقاتـه- كاسـات الخمر وأباريقها ودنانها وسقاتها ومجالسها فأجادوا في ذلك، يقولُ أبو الهندي:

حبـــذا الـــشرب بـــدارينَ إذا   بــت أُسْــقَاها وقَــدْ غَــابَ القَمَــرْ

عِنْـــدَنا صَـــناجةٌ رَقاصَـــةٌ   وَغُـــلامُ كلمـــا شِـــئْنا زَمَـــرْ

حَـــسَن العِـــرْنين ذو قَـــصابةٍ   زانَـــه شَـــذْرُ ويـــاقوتٌ وَدرْ

وإذا قلْـــتُ لـــه قُـــمْ فاسْـــقِنا   قامَ يَمْـشِي مِـشْيةَ اللّيْـث الهَـصِرْ

---

(743) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 17.

(744) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 128.

(745) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 72.

اللطيمة : وعاء المسك.

(746) المصدر السابق ، ص 70.

(747) المصدر السابق ، ص 63.

(748) المصدر السابق ، ص 129.

الصلاية : مدق الطيب . **الزرير**: نبات يصبغ به.

وأتانَــــا بـــــشَمولٍ قهـــــوةٍ	نَتَعاطاهــا بكاســاتِ الــصفُرْ
وأبـــاريقَ تناهـــت سَـــعَةٍ	والـذي فـي الكـفّ مَلْثُـوم أغَـرْ
مِثْـل فَـرْخٍ هَـب فـي غَيْطلَـةٍ	حَـذَر الـصقْر فـأقْعَى ونَظَـرْ
أوكظبـي اللـصبِ وَافـى مَرْقبـاً	حَـذَر القَـانِص صـبْحاً فَنَفَـرْ
فَعَـلا ثـم اسْـتوَى مرْتبئـاً	قِلة الطوْدِ عَلَـى رأسِ الحَجَـرْ(749)

يمضي أبوَ الهندي ورفاقه من المجان إلى حانة دارين بعد أن غاب القمـر ، وذهب من اللّيل أكثره ، لينهلوا من خمرها الطّيّب ، وقد ضم مجلسهم مغنية حـسنة الصوت مجيدة للرقص ، يشاركها الغناء والطرب هذا الغلام الـذي يتـزين بقطـع الذهب ، والدر والياقوت ، وهو يقدم الخمر للشاربين في تـثنٍ وتمايـل وانعطـاف بكاسات من الذهب . وهؤلاء الندامى عندهم من المدام أوفرها ؛ فالأباريق والـدّنان واسعة وكبيرة وهي ممتلئة خمراً.

ثم يبدع الشاعر في وصف الكاسات التي يتعاقرون بها هذه الخمر ، فهو تارة يشبهها بطائر صغير يتخذ من الأشجار الكثيفة سِتْراً له مخافـة مـن أن تـصطاده الصقُور ، وتارة أخرى يشبهها بهذا الظبي الذي تيقن أن أحد الصيادين يرقبه ليظفر به ، فمن ثم نفر وفر في وجلٍ وخوف ناجياً بنفسه من الهلاك.

وأبو الهندي من الشعراء الذين برعوا في وصف الخمر ، ووصف أباريقهـا وزقاقها ، فجاء بكثير من الصور الجميلة ، والتماثيل الرائعة ، وقد لفتـت عنايتـه بالخمر ابن المعتز فقال فيه : "كان شعره كله حسناً جيداً ولا سـيما إذا قـال فـي الشراب"(750)، ولأبي الهندي في ذلك قوله:

سَيغْني أبا الهنْدي عن وَطْـبِ سـالمٍ	أباريقُ كـالغُزْلان بـيضُ نُحورهـا
مفَدمــةٌ قــزاً كــأن رقَابَهــا	رقَاب الكَرَاكي أفْزَعَتْهـا صـقُورها
مــصَبغة الأعْلَــى كــأن سَــرَاتها	ذبَـائح أنْـصَابٍ تَوافـتْ شُـهورهَا

---

(749) المصدر السابق ، ص 127 – 128.

دارين:اسم موضع. **الشذر**:قطع الذهب الصغيرة.**القهوة**: من أسماءالخمر.**الغَيطلة**:الشجر الكثيف الملتف.

اللصب: مَضِيق الوادي ، والشّعب الصغير في الجبل. **ارتبأ** : علا وأشرف.

(750) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 128.

تَـلألأ فـي أيْـدي الـسقَاةِ كأنهـا نُجـوم الثريـا زينَتُهَـا عَبورهـا

يَمـج سـلافاً مـن زِقَـاقٍ كأنهـا شُيوخُ بني حامٍ تحَنت ظُهورهـا[751]

يَسْتغني أبو الهندي عن شرب الحليب ، بإقباله على معاقرة الخمر ، وهي في مجلسهم تقدم للشاربين في أباريق جميلة كأنها الغزلان ، وقد بدت هذه الأباريق بعد أن وضع الخمار خِرقاً على فمها مثل رقاب طائر الكراكي الذي أحس بأن جماعات الصقور تترصده فاستبد به الخوف والفزع، وهي أباريق يعتني صَـاحبها بتزيينهـا فتظهر الصّباغ والألوان في أعاليها وعلى ظهورها مثل ذبائح شُدت على النـصب شهوراً ريثما تقدم قرباناً لهذه النصب، وتبدو الخمر كذلك في أيدى الـسقاة صـافية متلألأة كأنها نجوم الثريا، ثُم يَنْدِاف الشاعر إلى وصف الزّقاق التي تقدم بها الخمر ؛ فيشبهها بشيوخ لبني حام تقدمت بهم السّن ، وأصابهم الهرم والـشيخوخة فتحنـت ظهورهم . ولا يخفى ما في هذه الصورة من جمال وبراعة وافتنان.

وإجادة أبي الهندي وصف الخمر جعلت ابن المعتز يقدمه على جميع شعراء المجون في عصره ، بل يعده أستاذاً لأبي نواس ، والحسين بن الضحاك المعروف بالخليع ، وأبي هفان المخزمي تلميذ أبي نواس ، يقول ابن المعتز :"وكان جماعـة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفان وطبقتهم ، إنما اقتدروا على وصف الخمر بمـا رأوا من شعر أبي الهندي ، وبما استنبطوا من معاني شعره"[752].

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب طبقات الشعراء وإن خلا من نظـرات تكـوّن اتجاهاً لابن المعتز في مشكلة السرقات ، كما فعل ابن سلام وابن قتيبة، إلا أن فـي إشارة ابن المعتز لتتلمذ بعض شعراء الخمر على أبي الهندي، دليل على أن الشاعر في حاجة إلى مثال يحتذيه وأن ابن المعتز "كان متنبهاً إلى فكرة احتذاء المثال"[753].

---

(751) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

الوَطْب: سقاء اللبن ، وهو جلد الجذع فما فوقه.

السرَاة: الظهر . **مفدمة**: الفدام خِرْقة توضع على فم الإبريق ليصفى بها.

العبور: أحد نجمين بجوار الجوزاء.

(752) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 130.

(753) د. محمد مصطفي هدارة ، مشكلة السرقات في النقد العربي ، ص 96 – 97.

ومن جميل ما أورده ابن المعتز في وصف الكاسات قول أبي نُواس:

تدور علينا الراح في عَسجديةٍ حَبَتْها بألوان التصاوير فارس
قَرَارتُها كِسْرى وفي جنباتها مهاً تدريها بالقِسيّ الفوارس
فِللراحِ مازرتْ عليه جيوبها وللماءِ ما دَارَتْ عليه القَلانس[754]

عَني الفرس بكاسات الخمر عناية فائقة وزينوها بأجمل أنواع الرسوم ، ووضعوا عليها أبدع النقوش ؛ فالخمر تدار على الشاربين في كؤوس من ذهب ، وقد رسموا في أسفل الكأس صورة كسرى ملك الفرس ، وعلى جنبات الكأس صورة لبقرة وحشية يحاول الفرسان مداراتها لاصطيادها ، وتبدو الكأس وهي مملوءة خمراً ، حتى لتكاد الراح تغمر ما على رؤوس هؤلاء الفوارس من أغطية.

وفي ديوان ابن المعتز نلمح صورة قريبة من هذه الصورة وهو قوله:

يَمج سلافَ الخمر في عَسْجديةٍ تَوَهج في يمْناه الكوكب الفَرْدِ
محَفرةٍ فيها تَصاوير فارسٍ وكِسْرَى غَريقٌ حَوله خِرَقٌ الجنْدِ[755]

ومثلما حَفل كتاب طبقات الشعراء بتصوير دقيق للخمر وقدمها ، وألوانها ، وروائحتها ، وأباريقها ، وزقاقها ، وكاساتها – كما تقدم – حفل كذلك بتصوير لسقاتها ؛ فالمتأمل في الكتاب يلحظ أن شعراء المجون في الدولة العباسية قد أجادوا وصف السقاة ، وصوروا كل ما يتصل بهؤلاء السقاة من حسن وجمال وخفة ورشاقة تصويراً دقيقاً.

فالساقي يضاهي الغزال حسْناً وجمالاً ، وهو مرتج الروادف ، لدن القوام ، ضخم الأطراف ، ضامر الحشى ، دقيق الخصر ، ناعس العينين ، يقول أبو الشّيص:

سَقاني بها – والليلُ قد شاب رأسه - غزالٌ بحناءِ الزجَاجة مخْتَضبْ
يكاد إذا ما ارْتج ما في إزاره وَمالَتْ أعَاليهِ من اللّين يَنْقضِبْ

---

(754) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 187 .

في عسجديةٍ: في كؤوس عسجدية . **والعَسجد** : الذهب. **تدريها**: تختالها لتصطادها .

القلانس: أغطية الرأس في زمانهم.

(755) ابن المعتز ، الديوان ، ص 239.

لطيفُ الحَشَى عَبْلُ الشوى مُدْمَج القَرَى   مريض جفُون العين في طيهِ قَبَبْ(756)

ويقولُ أبو الهندي:

إذا ذَاقهــا مَــنْ ذَاق جــادَ بمالِــهِ   وقد قامَ ساقِى القـومِ وهْنـاً يـديرهَا

خَفِيفاً مليحـاً فـي قمـيصٍ مقَلـصٍ   وَجبةِ خَزِّ لـم تُـشَد زرورهَـا(757)

يقول: إن هذه الخمر التي تحمل من تذوقها على السخاء والجـود ، يـديرها ساقٍ ، خفيف الحركة ، ظريف ، قصير الإزار ، عاري الصدر.

وقد يكون السقاة والقائمين على تقديم الشراب من العجم والنصارى ، ويرى الجاحظ أن مما يضفي على مجالس الخمر شيء من الطـرب ، ويحقـق المتعـة للشاربين أن يكون الخمار أعجمياً ، ويكون كذلك من أهل الذّمة ، يقولُ:"ومن تمـام آلة الخمار أن يكون ذمياً ، ويكون اسمه أذين أو شلُوما ، أو مازيار ، أو أزدانقاذار ، أو مِيشا ، ويكون أرقط الثِّياب ، مختُوم العنق"(758).

ففتيات النصارى يَسْعين في إدارة الخمر على الشاربين وهن يتقلّدْنَ الصلبان على جيادهن ، يقول أبو الشّيص:

لَيَــالِي تَــسْعى بالمدامــةِ بَيْنَنَــا   بنــاتُ النــصارى فــي قلائِــدِها الـــــــــــــــــــــصلُب(759)

وفي السقاة الأعاجم يقولُ أبو الشّيص:

من كـلّ مـرْتَج الـروادفِ أحـورٍ   كِــسْرى أبــوه وأمــة بَلْقــيس

رَخْو العِنـان ، إذا ابتـديت فخـادم   وإذا صَــبَوْت إليــه فهــو جلــيس

يَــسْعَى بــإبريقٍ كــأن فِدَامَــه   من لونهـا فـي عـصْفر مغْمـوس

---

(756) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 72 – 73 .

الشوَى: الأطراف . **القَرَى** : الظهر.

أطواء البَطْن: مكاسِر طيه.

القَبَب: دِقة الخِصْر أو رقته وضمور البطن.

(757) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 129.

الزرور : جمع زر ، وهو ما يجعل في العروة.

(758) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 94.

(759) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 73.

يَـــسْقيك ريـــقَ ســـبيئةٍ حِيريـــةٍ مما اسـتباه لِفِـصْحِه القِـسِيس[760]

يصف أبو الشّيص هذا الساقى بأنه من العجم ، وهو كذلك مرتج الروادف ، أحور العينين ، مزدوج الصّفات فقد جمع إلى حذق الخدم ورشاقتهم ، ظرف الندامى ، وأدب الجلساء ، يدير هذا الخادم على الندامى شراباً جيّداً ، أصفر اللون وهو من نوع الخمر الذي تفرد الخاصة بتناوله ، فترى القسيس يحرص على شرائه واقتنائه ، ليهنأ باحتسائه في أجمل المناسبات عنده وهو يوم عيد الفصْح.

(د) __الجواري واللهو__:

كان لشيوع الجواري في المجتمع العباسي أثره في نشر الخلاعة والمجـون، وقد تقدم أن هؤلاء الجواري والقيان امتزْنَ بالحسن والجمال ، والملاحة والظـرف، وقرض الشّعر وحذق الغناء ، كما اهتممن بتصفيف شعورهن ، والتـزين بأجمـل ألوان الزينة ، والتطيب بأذكى أنواع الطيب.

ولما كانت الجواري من أمم مختلفة ، هنديات ، وروميـات ، وفارسـيات ، وتركيات ، فقد جلب كل جنس منهن عادات مجتمعه وتقاليده وزج بها في المجتمـع العباسي ، وكان من أثر ذلك أن أظهرت الجواري نوع من العادات التـي تتـصل بالظرف والرقة "كاقتناء الأزهار والرياحين وتعشقها والتهادي بها"[761].

هذه الصّفات مجتمعة دفعت بطائفة من مجتمع العباسيين لأن تَـصْبو لهـن وتذوب في عِشْقهن ، وبخاصة إذا عرفنا أن كثيراً من الجـواري نَـضَيْن أثـواب الفضيلة ، ونَصَبْنَ شراكهن لكل لاهٍ أو طالب غاية.

والمتأمّل في كتاب طبقات الشعراء يلحظ أن الكتاب حَـوَى تـصويراً جليـاً لمجتمع الجواري في عصر بني العباس ، وقد سلف أن أشْرنا إلى أن المؤلف ترجم

---

(760) المصدر السابق ، ص 76.

الفِدام: خرقة توضع على فم الإبريق ليصفى بها.

السبيئة: الخمرة المدفوعة الثمن.

فِصحه: إشارة إلى عيد الفصح عند النصارى.

(761) د. سهام عبد الوهاب الفريح ، الجواري والشعر في العصر العباسى الأول ، شركة الربيعـان للنـشر والتوزيع ، الكويت ، ط1 ، 1981م ، ص 41.

في كتابه طبقات الشعراء لست من الجواري الشواعر، فضلاً عن تناثر جملة من أخبار الجواري وقصصهن في ثنايا الكتاب.

وقد سبق أن ذكرنا أن قصور الخلفاء ووزرائهم كانت تعج بالجواري والقيان، يروي ابن المعتز أن دار المهدي بن المنصور (158هـ-169هـ) كانت عامرة بالجواري وقد أُعدّت غرفاً خاصة بهن ، كما يشير المؤلّف كذلك إلى إسهام جواري القصور في حياة اللهو والعبث ، وميلهن إلى مجالس الأنس والظرف ، والاستمتاع بأجمل اللحظات يقولُ :"دخل المهدي أيام خلافته على جماعة من جواريه ، وهن مجتمعات في حجرة بعضهن ؛ فجلس عندهن ... فَقُلْن له : لو أذنْتَ لبشار في الدخول علينا لنسامره ونحادثه – وكان من أحسن الناس حديثاً ، وأظرفهم مجلساً ، وأكثرهم ملَحاً – فأمر به فَأُحْضِر. واجْتَمَعْنَ عليه فحدثهن ، وجَعل يسرد عليهن من نوادره وملَحه وينشدهن عيون شعره ، فَسرِرْنَ بذلك سروراً شديداً ، وقُلْنَ له: يا بشار ، ليتك أبونا فلا نفارقك أبداً . قال: نعم ، وأنا على دين كسرى . فضحك منه المهدي ، وأمرَ له بجائزة"[762].

وجدير بالذكر أن خلفاء بني العباس لم يسلموا من الوقوع في عشق الجواري والهيام بهن ، ولا أدل على ذلك من أن أغلب أبناء الخلفاء من نسلهن ، وقد صور ابن المعتز كلف الخلفاء العباسيين بالجواري تصويراً ، يجعلنا نقف على أثر الجواري في الحياة العباسية هذا الأثر الذي أمتد فشمل أعلى طبقات المجتمع.

يروي ابن المعتز أن هارون الرشيد بن المهدي (170هـ-193هـ) شغف بجاريته "ماردة" أم المعتصم ، وحدث أن هجرها وأنِف أن يبدأها بالصلْح ، وتكبرت هي أيضاً من أن تُبادر بذلك ، فكاد الرشيد يموت جزعاً من فراقها ، وصبر إلى أنْ قيض ا له العباس بن الأحنف الشاعر ، فقال بعض أبيات يصوّر فيها ما حدث بين العاشقين من جفوة ، وعرض لحالهما ، وكانت هذه الأبيات سبباً في الصلح بين الرشيد وماردة فسعدا بذلك ، وأجزلا العطاء للعباس بن الأحنف ، يحكي ابن المعتز هذه القصة ، فيقول :"ذُكِر أن الرشيد هجر جاريته ماردة وهي أم المعتصم ، وكاد

---

(762) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 19.

يموتُ من عِشْقها ، فتكبر أن يبدأها بالصلْح وتكبرت هي أيضاً ، فصبرا على ذلك بأمر عيش ، وكاد الرشيد يتلف . وكان وزيره الفضل بن الربيع ، فأحضَر الفضلُ العباس بن الأحنف ، وعرفه القصة وقال: قُلْ في ذلك شيئاً ، فقال:

العاشقان كلاهما متجنّب وكلاهما متَعَتّبُ متَغَضب
صَدتْ مهَاجرةً وصَد مهاجراً وكلاهما مما يعَالج متْعَب
إن التجانب إنْ تطاولَ مِنْهما دَب السلو له فَعز المَطْلب

فبعث إليه الفضل بالأبيات فَسر بها سروراً ، ولم يستتم الرشيد قراءَتها حتى قال العباس أيضاً بيتين في ذلك وهما:

لابد للعاشق من وقْفةٍ تكون بَيْن الوَصْل والصرمِ
حتى إذا الهَجر تمادى بهِ راجعَ من يهوَى على الرغمِ

فاستحسنَ الرشيد إصابته حالهما ، وقال : وا لأُصَالحنها كما قال. وعرفت ماردةُ السبب في الشّعر ، ولم تدر مَنْ قائلُه . فسألت الرشيد فقال : لا أدري من صاحب الشّعر ، ولكن الفضل بن الربيع بعث به ، فأرسلت إلى الفضل تسأله ، فأعلمها ، فأمرتْ له بألف دينار ، وأمر له الرشيد بألفي دينار ، وأمَرَ له الفَضْل بخمسمائة دينار"[763].

ويروي ابن المعتز كذلك أن الخليفة المأمون بن الرشيد كان يَهيم بجارية تُدْعى "عَرِيب" ، وهي جارية متناهية الحسن والجمال ، فصيحة اللسان ، بليغة القول ، فضلاً عن أنها كانت شاعرة مفْلِقة مطبوعة[764].

وتتناثر أخبار الجواري في كتاب طبقات الشعراء ، فيذكر المؤلف أن أبا العتاهية كان يعشق جارية تُدعى "عتْبة" ، وكانت عتْبة التي يشبب بها أبو العتاهية جارية لرائطة بنت أبي العَباس السفاح ، وكانت رائطة متزوجة من ابن عمها المهدي بن المنصور[765]. ومن شعر أبي العتاهية في عتبة قوله:

---

(763) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 235 . والعباس بن الأحنف ، ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر ، بيروت ، 1978م ، ص 6-7.

(764) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 387.

(765) ابن قتيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 535 والمصدر السابق ، ص210 .

أعْلَمْــــتُ عتبُــــةَ أننــــي		مِنْهــا علــى شَــرَفٍ مطِــل
وشــكوتُ مــا ألْقَــى إليـــ		هــا والمـــدامع تـــسْتَهل
حَتــى إذا بَرِمــتْ بمـــا		أشْــكُو كمـــا يــشكُو الأذلّ
قالــت : فــأي النــاس يَعْـــ		لَـم مــا تقُــولُ فَقُلْــتُ : كُــل[766]

يشكو أبو العتاهية فيما تقدم من أبيات ما يلقاه من محبوبته عتبة مـن صـدّ ونفور، لم يشفع له معها انهمار دموعه، ولم يجْديه تذللـه. ويذكر أن المهدي لمـا أحس بجزع أبي العتاهية على عتبة، رق له ووعده بأن يـستوهبها مـن مولاتهـا ويدفعها إليه، ولكن عتبة حين علمتْ بذلك توسلت إلى المهدي بأن لا يجعلهـا مـن نصيب أبي العتاهية وذكرت بأنها لا تطيقه لوضاعته، وتيقنها من أنه يظهر عـشقها وهو ليس بعاشق مخْلصٍ في حبّه وعشقه، واستعطفت المهدي بأن يَعْدِل عـن أمـر هبتها ويستبدل ذلك بإعطاء أبي العتاهية نصيباً وافراً من المال يكون لـه عوضـاً عنها، يروي ابن المعتز ذلك فيقول :"قالت: يا أمير المؤمنين أستجير في مروءَتـك وشرفك وما يلزمك من حق خدمتي وصحبتي أنْ تخرجني من دار النّعمة إلى بـائع جرار سوقي دنيء النفس . وبعد، فإنما يريد الذّكْر والشهرة، وليس بعاشـقٍ، فـإنْ أردتَ أن تعرف ما يقول فَمرْ له بمالٍ له خطرُ، فإنه سيلهيه عنّي ويشغله عن ذكري . فأمر له المهدي بمائة ألف ، ولم يسم وَرقاً ولا عَيْناً . فأورد أبو العتاهية توقيعـه بذلك على الكُتاب ، فأعطوه مائة ألف درهم على أنه لم يسم شيئاً ، فأبى ولم يرض وقال: أنا لا أراه وقع إلا بمائة ألف دينار، فإنه لم يكن ليعوّضني منها أقل من هذا ، فقالوا : حتى نؤامره إذاً في هذا الكتاب، وكان يتردد شهراً يطالب به، فأشرفت عليه عتبة وقالت له – وقد دخل الدار يقتضِي ذلك - : يا صفيق الوجه لو كنت عاشـقاً لشغلك العشق عن المفاضلة بين الدراهم والدنانير . وبلغ كلامها المهدي، فعلم أنهـا كانت أعرف بقصة الرجل ، فأمسك عن أمره"[767].

---

(766) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 208 – 209.

الشرفُ : الموضع العالي يشرف على ما حوله ، يقال هو على شرف من كذا: مشرفٌ عليه ومقارب لـه، ويريد هنا ، الإشراف أو الإشفاء على الهلاك . **تَستَهل** : تنهل : تتساقط.

(767) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 210 – 211 .

وكان الفَضْل بن يحيى وزير الرشيد يهيم بجارية تُدْعى "خِشْف" ؛ فكـان إذا سمع ذكر اسمها أو ما يشبهه خر مَغْشياً عليه ، أخبر ابن المعتز أنه ذات يوم :"مَر إنْسان في الشارع ينادي على خشْف يبيعه ، يدور به على القصور ، فلمـا سـمِعَ الفضل ذكر الخشْف غُشِي عليه ، وصار كأنه ميّت ، فنضَحوا الماء عليه وغمـزوا أطرافه ساعةً حتى أفاق ، فقالوا له: ما قِصتك؟ قال : سَمِعْتُ ذكر خِشْفَ – يعنـي جاريةً كان يهواها ، يقال لها خِشْف – وهي سروري من الدنيا"[768].

ونتيجة لانتشار الجواري في المجتمع العباسي، فقد كثرت أسـواق الرقيـق والنخاسة، ففي طبقات الشعراء أن أحمد بن الحارث البغدادي "ربما اجتمـع عنـده بمائة ألف دينار رقيق"[769]. وقد لازم غلبة الجواري على الحياة العامة، أنْ أصْـبَح بعض أفراد المجتمع يقدّمهن لمن يحبه بغرض الاستمتاع بهن؛ فمَن أَهْدَى صـديقَه جارية ولم تعجبه أو رأى منها ما لا يسره استبدلها له بأخرى، كما في هذا الخبـر الذي يَسوقه المؤلف في ترجمة محمد بن أبي حَازم ، وفيه يقولُ:"حدثني محمد بـن الصقر الموصلي قال: أخبرني أبو دعامة قال: سَمِعْتُ محمد بن حازم يقولُ: وجـه إلي عبد الله بن طاهر بجارية حسناء وضيئة، فلم أتمالك أن وقعتُ عليها، فوجـدتها من السّعة والبَرْد فَوْق الصّفة ... فأحْبَبْتُ أن أعرّف عبد الله أمرها فكتبتُ إليه:

لِلّـــهِ جَـــوْهَرةٌ يـــرو قُ العَـــيْنَ حـــسْن صَـــفَائِها
أَبْـــصرتُها فَحَمـــدْتُها مِـــن قَبْـــل حـــينَ جَلائِهـــا
فَنَـــدِمْتُ إلا كَنْـــتُ قَـــدْ تركْتُهـــــا بغطائِهـــــا
ورَضَـــيْتُ واســـتَمْتَعْتُ مِـــنْهـــا زَهْرَهَـــا بروَائِهـــا"[770]

فابن حازم يشكو مصيبته في الجارية لمولاها ابن طاهر ، ويبدي أسفه وندمه على قبولها ، فقد خدعه ما بدا له فيها من حسن وجمال ، يبْهج العين ، ويسرح فيه

---

(768) المصدر السابق ، ص 236.
(769) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 388 .
(770) المصدر السابق ، ص 281-282.
الرواء: المنظر الحسن ، والرواء: حَبْل يشَد به الحِمْلُ والمتاع على البعير، والرواء من الماء: العَذْب.

النظر ، فظن أنها منية المتمنّي ، بيد أنه لما واقعها تكشفت له حقيقتها ، ورأى منها مالا يعْجب ، وبان له من أمرها ما لا يَسر.

وفي القصة أن الأبيات حينما وصلت إلى ابن طاهر بعثَ لابن حازم بجارية أخرى ، ظاهرها كباطنها ، فباع الأولى بخمسمائة دينار[771].

ولعل ابن طاهر بادر في إجابة ابن حازم لما كان يعلمه من أمـر الرجـل ، فابن المعتز يصف ابن حازم بأنه كان شديد الحِرْص ، ملحاحاً في السؤال والطلـب على الرغم من كثرة ذكره للقناعة في شعره ، يقول عنه :" كان محمد الباهلي مـن ألحف الناس إذا سأل ، وألحهم إذا اسْتَماح ، مع كثرة ذِكره للقناعة بشعره ... وابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة وكان أحرص من الكلب ، كان يركب النّيل في دِرْهَم واحد فضلاً عن غيره"[772].

وكانت الجواري ينادِمْنَ الخُلعاء على الشراب ، ويزيّنَ مجالس اللهو بالغنـاء والطرب ، وقد اشتهْرن بإجادة الغناء ، والبراعة في أداء الألحان ، مما يجعل قلوب السكارى تميل معهن طرباً ونشوة.

يروي عبد ا بن المعتز أن إحدى الجواري شَربَت مع الشاعر محمـد بـن وهيب ، فلما دب فيهما الشراب غنت بهذا الصوت:

راحـوا يَـصِيدون الظّبـاءَ وإننـي | لأرَى تـصيدَها علـي حَرَامَـا
أَشْـبَهْنَ مِنْـك سَـوالِفاً وَمَـدامعاً | فَأرى لَهـن بِـذَا عَلـي ذِمَامَـا[773]

ويصف ابن وهيب حسْن صَوْتها ، فيقول :"فو ا ِ إنّني لأنتاب القِيـان منـذُ ثلاثين سنة إن كنتُ سمعتُ قط أحْسن من صوتها ، ولا غناء أحسن مـن غنائهـا ، فكِدْتُ أطير طرباً ، وقُلْتُ يا سيّدة النساء ما سَمِعْتُ بهذا الصوت قط"[774].

ومما ورد في طبقات الشعراء عن حذق الجواري للغناء قول المعلّي الطائي يصف جارية مغنية:

---

(771) المصدر السابق ، ص 282 .

(772) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 282 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 224.

(773) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 284.

(774) المصدر السابق ، ص 285.

لقد سَـعِدَتْ عَيْنـي بوجـهِ كريمـةٍ وإنْ كان في غبِّ السرور بها حَتْفـي
إذا سَمعَتْ أُذْنـايَ منطـق عودِهـا وأفصَحت الأوتار عنها بمـا تُخْفـي
وغنت كصوتِ الصنْج تَحْتَ لَهَاتِهـا تجاوبه النايـات فـي نَغَـم الأنْـفِ
فَيَجْمع بين الرجْـز وَالـشج حِـذْقها وتسكتُ من غنْج على مَقْطع الحرفِ
موردةُ الخـدين مهـضومةُ الحـشَا معَقْرَبةُ الصدْغَين فاترةُ الطـرفِ[775]

إن من بواعث سعادة الشاعر المعلي الطائي أنه ظفر بالنظر إلى وجه هـذه المغنية التي لا يطيق البعاد عَنْها ، وهي مجيدة للغناء ، بارعة في معالجة آلة العود ، تكشف في ألحانها عما تكنه وتخفيه في نفسها ، خبيرة بصنعتها ، ذات مقدرة على توليد الألحان الشجية ، والأنغام العذبة ، التي تُلْهب المشاعر ، وتهـيج الأشـواق ، وتثير الأحزان ، وهي جارية موردة الخدين ، ضامرة الحشا ، ناعسة العينين.

وكانوا يحرصون على ألا تخلو مجالس اللهو من المغنين والمغنيات ، وقـد زعموا أن السماع "يحيى النفوس ويزيد في الأعمار"[776]، والكأس لا يَطيب رشفها ويحلو مذاقها إلا على وقع المعازف والألحان ، جاء في فصول التماثيل أن من أدب الشراب "أخذ القدح وشمّه والنظر فيه والمحادثة عليه ، والإصغاء إلى الغناء وشربه قبل انقطاع الصوت على تمهل"[777].

يقولُ أبو الهندي:

وفارةُ مِـسْكٍ مِـنْ عَـذَارٍ شَـمَمْتُها يَفُـوح عَلَيْنـا مِـسْكُها وعَبيرهـا
إذا ذاقهـا مَـنْ ذاقَ جـادَ بمالِـهِ وقد قامَ ساقِى القـوم وَهْنـاً يـديرها
وجاريـةٍ فـي كفِّهـا عـود بَـرْبَطٍ يجاوبهـا عِنْـدَ التـرنم زيرهـا
إذا حركته الكـف قُلْـتَ : حمامـةٌ تُجيب على أغْصَان أيـكٍ تـصورهَا

---

(775) المصدر السابق ، ص 305 .
الصنْج: صَفيحة من النحاس تثبت في أطراف الدف أو في أصابع الراقصة يدَق بها عند الطرب.
النايَاتُ: جمع نَاي وهو آلة من آلات الطرب .**الرجز**: يَرْجز رَجْزاً : ينشد شعراً من بحر الرجَز.
الشج : شجاه الغناء : هيجَ أحزانه وشوقَه ، وشجاه الأمر: أحْزَنَه.
(776) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 190.
(777) ابن المعتز ، فصول التماثيل ، ص 73.

تُجـاوب قُمريـاً أغـن مطوقـاً شـقائقُه منـشُورةٌ وشـكيرها
إذا غردتْ عِنْـد الـضحاء حَـسبتَها نَوائحَ ثَكْلى أوجَعَتْهَـا قُبورهـا[778]

يعاقر الندامى خمراً بكراً تفوح منها رائحة المسك ، وهي خمر تـدفع بمـن سرت نشوتها في جسده إلى أن يجود بماله في كرم وسخاء ، والساقي يديرها علـى الشاربين في رفقٍ وتؤدة ، وإذا بجاريةٍ تعالج مزْهرها في حـذق وإتقـان ، وهـي تضاهي في حسن صوتها وعذب غنائها ، تلك الحمامة التي تشدو من على غصنها وهو يتمايل بها فتتجاوب معه نشوانة طربة ، ويمتزج صوت هذه الحمامة بـصوت قمرية تغرّد في طرب وهي مفردة الجناحين ، منثورة الرّيش ، تشجي من سـمعها حتى ليخال إليه أن ما يسمعه ليس بطائر القمري المعروف ، وإنما امـرأة فقـدت ولدها ؛ فاستبد بها الجزع فظلت تنوح على قبره.

(هـ) فعلها في الشاربين:

صور شعراء المجون فعل الخمر في الشاربين أدق تَـصْوير ؛ فالكـأس لا محالة تصرع مَنْ قاربها، والمدام يسري تأثيرها في أوصال الشارب كمـا يـسري السم في الجسد ، فتلجم لسانه عن الكلام، وتتخاذل رجلاه ولم تقـو علـى المـشي، فيصبح كمَنْ طُعِنَ طعنة نافذة بلغت جوفه؛ فأقعدته عن الحركة، يقول أبو الشّيص:

وصريع كـأسٍ بـت أرقبـه وقـد نَهَشَتْه مِـن أفْعـى المـدام كُـؤوس
عَقـلَ الزجَـاج لـسانَه وتَخاذلـتْ رجـلاه فَهْـو كأنـه مَطْـسوس
سـطتِ العقَـار بـه فـراحَ كأنمـا مج الردَى في كأسِـهِ القَـاعوس[779]

---

(778) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 128-129 .

الفارة: القارورة.

البَربط: العود والمزهر . **الزّير**: الدقيق من الأوتار.

صاره: أماله.

أغَنُ: هو من بصوته غُنة أي صوت يخرج من الأنف.

المطوقُ: هو الحمام الذي له طوق في عنُقه.

الشكير: صِغار الرّيش.

(779) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 76.

المَطْسوس: المطعون طعنة بلغت جوفه . **وطعنة طاسة** : طعنة تبلغ الجوف.

والعقار إذا تمكنت مِن الشارب ترنح في مشيه مثلما يترنح مـن قُيِّـد وهـو يمشي على الوحل ، يقول مسلم بن الوليد:

إذَا مَـا عَلَـتْ مِنـا ذُؤابـةَ واحـدٍ تمشت به مَشْيَ المقَيدِ في وَحْـل[780]

ولو تذوق طعم المدام شيخ مسنٌ ارتعشت مفاصله ، فازداد حزنه وانهمـرت دموعه تحسراً على أيام شبابه التي ذهبت ولم يهنأ فيها بمعاقرة الخمـر ومغارفـة اللهو يقول أبو الهندي:

عقارٌ إذا ما ذاقها الـشيخُ أرعَـشَتْ مفَاصلَه وازدادَ وَجْـداً إلـى وَجْـد
ويبكي على مـا فاتَـه مـن شَـبَابِهِ بكاءَ أَسيرٍ في الصّفادِ وفي القـدّ[781]

وخير تصوير لفعل الخمر في الشاربين قول أبي الهندي أيضاً:

مـن شَـرَابٍ خُـسْرواني إذَا ذَاقَـه الـشيخُ تَغَنَـى وطَـرَبْ
يتـركَ القـومَ إذَا مـا طربـوا فـي صـياحٍ ومِـراءٍ وصَـخَبْ
وإذا مـا منْـتَشٍ قامـت بـه رفَعـوا الأوْصَـالَ منـه بالخَـشَبْ
ثُـم نـاحَوا نَوحَـةً ثـم بَكَـوْا ثُـم ضَـجوا ضَـحكاً ، باللعِـبْ
وهـو منكـب علـى جَبْهتِـه مزْبِد الـشِّدْقين مـسْتَرْخِي العَـصَبْ
رفَـعَ الـشرب لـه يـا فُوخَـه بَعْـد لأي مـا تـولى وانْقَلَـبْ
سـاعةً ثـم دَعَـوْه باسْـمه فأجـابَ المـرء صَـوْتاً وَوَثَـبْ
يَـنْفُض الـرأسَ عليـه غَبْـرةٌ مِـن تُـرابٍ ورمـادٍ وقَتَـبْ[782]

الفاعوس: الحيةُ.
(780) المصدر السابق ، ص 64.
(781) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 127.
(782) المصدر السابق ، ص 130.
خُسرَواني: منسوب إلى خسرو شاه.
المِراء: الجدل.
قتَب: لعلها محرفة عن قثب "بالثاء" وهو كل قذر.
يافوخه: اليَافُوخ: هو ملْتَقى عظم مقَدم الرأس ، ومؤَخره أو هو الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل.

يصف أبو الهندي في أسلوب قصصي هذا الشراب الخُسرواني الجيّد وقـوة تأثيره في الشاربين ؛ فهو يفعل بالشيوخ ما يفعله بالشباب ، فَمن تذوقه من الـشيوخ فقد رشده فصدح بالغناء والطرب ، ولما طرب الندامى ضـج مجلـسهم بالـصياح والجدال والصخب ، وإذا سرت نشوة الراح في أحـدهم حـاولوا رفعـه وإفاقتـه مستعينين في ذلك بما عندهم من أعواد الخشَب ، ثم أعقبوا ذلـك نواحـاً وبكـاء ، وتعالت أصواتهم بالضحك واللعب والمزاح ، ثم يصف ما فعلته الكأس بنـديمهم ؛ فهو لا يزال منكب على جبهته ، منهار الأعصاب ، يتطاير الزبد من فمه وشـفتيه، فالخمر قد لعبت برأسه ، وسرت في عقله ، وما لبث ندماؤه أن دعوه باسمه فوثـب وأفاق من سباته وجعل يزيلُ ما لحق برأسه من غبار وتراب ورماد.

أَضْفى شعراء المجون العباسيون على وصف الخمر وفعلها فـي الـشاربين شيء من القصص كما تقدم، والشعراء منذ الجاهلية كانوا يمزجون أوصاف الخمـر بالقصص، مما يضفي على أوصافهم بعضاً من الحيوية على نحو ما كـان يفعـل الأعشى[783].

وعن فعل الخمر في الشاربين نسوق هنا هذه القصة التي تُصوّر ما وصـل إليه حال المجان من عبث وخلاعة وتطرح في حانات الخمارين ، إذ يـروي ابـن المعتز أن أبا الهندي بكر يوماً من أيام لهوه إلى بيت خمار في موضع يقال له "كُوَى زيان" وهو مكان معروف بالخمر والفواحش :"فأتاه الخمار بعين الشراب وصفوه ؛ فأعجبه حسن الشراب وعجل فَسكِر ونام من أول النهار . ودخل إلى الخمـار نفـر فرأوا أبا الهندي فقالوا : من هذا المطروح على وجهه ؟ قال : هذا أبـو الهنـدي ، اشتهى وأسرع فسكر ونام . فقالوا للخمار : هات ما سقيته وعجّل حتى نلحق بـه ، وأتاهم به فشربوا حتى سكروا وناموا . فانتبه أبو الهندي عند العصر ، فسأل عنهم الخمار فقال: قومُ دخلوا فرأوك مطروحاً ، وسألوني عنك فـاعلمتهم عـن حالـك واشتاقوا إلى مثلها فسقيتهم من الشراب الذي شربته ما أرْوَاهم ، حتى صرعوا كما

---

(783) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص 357.

تراهم ، قال أبو الهندي : ويحك عجّل ، قال : ما تشاء ؟ قال : ألحقني بهم ولا تسقني إلا المكيال ، حتى سكِر ونام ..."[784].

ويمضي ابن المعتز في سرد القصة ، فيذكر أن أبا الهندي وأَصْحابه :"أقاموا كذلك عشرة أيام في حانة ذلك الخمار ، لا يلتقونَ معه ، ولا يلتقي معهم ، كلما أفاق أبو الهندي وجدهم مصروعين ، وإذا قاموا وجدوه مصروعاً"[785].

يصور أبو الهندي كلّ ذلك في أسلوب قصصي فيقول:

نَدامى بعد عاشرة تلاقوا ... وضمهم بكُوَى زيانَ راح

رأوْني في الشروق صريع كأسٍ ... معتقةٍ ومَا مَتَعَ الصباح

فقالُوا : أيها الخمار مَنْ ذا؟ ... فقالَ : أَخٌ تخونه اصْطباح

أدارَ الراح حتى أقْعَصَتْه ... فخر كأنه عَوْدٌ شَنَاح

فقالُوا : قُمْ وألْحقنَا وعَجِّلْ ... بهِ إنا لِمَصْرَعِهِ نُراح

وحانَ تَنَبهي فسألتُ عنهمْ ... فقالَ : أتى بهم قَدَر متَاح

فَقُلْتُ لـه : فسرّع بي إليهمْ ... حَثيثاً فالسراع هو النجَاح

فَما إنْ زَالَ ذاكَ الدأب مِنا ... إلى عَشْرٍ نَضيقُ ونُسْتَبَاح

نُقِيم معاً وَلَيْسَ لَنا تَلاقٍ ... بِبَيْتٍ مَا لَنا مِنْه بَرَاح[786]

(و) مجاهرتهم بالمعاصي:

تحدثنا فيما تقدم عن المجان من شعراء الدولة العباسية – الذين حواهم كتاب طبقات الشعراء – ورأينا ولعهم بالخمر وعكوفهم على حياة اللهو والقصف، وحسبك في ذلك ما ذكره أبو العلاء المعري عن الشاعر العباسي ديك الجن[787]، أحد من أسرفُوا في الشرب والفتك والخلاعة ، وهو قوله :"ولعلك تؤاخذُ الدّيكَ ، فحل الدجاج

---

(784) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 124-125 .

(785) المصدر السابق ، ص 125 .

(786) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 125-126.

اقْعَصَتْه : قتلته مكانه . **العَود** : المسِن من الإبل . **الشناح** : الطويل الجسيم من الإبل.

(787) سبقت ترجمة ديك الجن ص 106.

، بما جناه المعروف به ديك الجن الشاعر ، فإنه كانَ شريباً سكيراً ، وربما نَطَـق بالإلحاد"[788].

والمتأمل في طبقات الشعراء يلحظ أن شعراء اللهو الذين تـرجم لهـم ابـن المعتز في كتابه ، لم يكتفوا بالعيش للخمر والسكر والعبـث ، وارتيـاد الحانـات والمواخير ، بل طفقوا يجاهرون بالمعاصي ، ويـصدحون بالتهتّـك والخلاعـة ، ويَرون أن سنوات العمر ينبغي أنْ تُنْفَق في اللهو والطرب ومقارفة اللـذات ، وإن تعدت ذلك إلى سواه ؛ فلا قيمة لها ولا فائدة من ورائها .

فالشاعر ربيعة الرّقي يجاهر بمجونه فهو يهلك أمواله ويصرفها فـي طلـب اللذات ، غير مبالٍ بعواقب ذلك ، وعلى الرغم من علمه بأن ما يفعله يقـود إلـى معصية ا ، نراه يصرح بأن كل همّه في ارتكاب المعاصي والذنوب ، يقولُ:

مهْلِـك الأمـوال فـي اللـ ـ ـ   ذاتِ مَخْـشِي القِـصاصِ
ذاكَ مـن مَعْـصية اللـ ـ ـ ـهِ وهمّـي فـي المعاصِـي[789]

ويعْلن أبو الشّيص في صراحة بأنه منهمك في الخلاعة ، مطيـع لنـزوات صباه ، سادر في غيّه ، يقارف الذنوب والآثام ، غير آبه بما يكتُبه الملكـان مـن عقوبة ، يقول:

جَـرور الإزار خَلِيـع العِـذَار   علـي لِعهـد الـصّبا برْدَتَـان
أُصِيـب الـذنوبَ ولا أتقـي   عقوبـةَ مـا يكْتُـب الكاتبـان[790]

ويقول منصور الأصْبهاني:

أأتـرك الخمـرَ لِأنْ حرّمـت   وأسـألُ الأنـذالَ شُـرْبَ الحَـلالْ
آليْـتُ لا أتْركهـا طائِعـاً   قـد آذنـتْ تَوْبَتُنـا بارتحـالْ[791]

---

(788) أبو العلاء المعري ، رسالة الصاهل والشاحج ، تحقيق د.عائشة عبد الـرحمن بنـت الـشاطيء ، دار المعارف ، القاهرة ، 1975م ، ص 253.

(789) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 147.

(790) ابن قُتْيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 574 والمصدر السابق ، ص 70.

خليع العذار: خَلَع فلان عذَارَه أي انْهمك في الغي ولم يَسْتح.

الكاتبان : لعله يقصد بهما رقيب وعتيد الملكان الموكلان بكتابة الحسنات والسيئات.

فعلى الرغم من أن الخمر حرام مقطوع بحرمتها ، إلا أن تحريمها لم يردع الأصبهاني ويجعله يتركها ويكف عن شربها ، فهو مصمّم علـى ألا يتـوب ، ولا يهجر الشراب.

ويرى مسلم بن الوليد صريع الغواني ، أن العيش لا يطيب إلا بـين الخمـر والدنان ومغازلة الحسان ، يقولُ:

هَل العيشُ إلا أَنْ تَروحَ مـع الـصّبا وتَغْـدو صـريعَ الكـأسِ والأعْـين النجْـــــــــــــــل[792]

ويروي ابن المعتز في سبب تسميته "صريع الغواني" أن مسلم بن الوليد مدح الرشيد ؛ فلما بلغ البيت المتقدّم قال له :"أنْتَ صريع الغواني ، فَسمِي بـذلك حتـى صار لا يعْرف إلا به"[793].

---

(791) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 320.

(792) المصدر السابق ، ص 215 .

(793) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

ويقولُ دِعْبِل بن علي الخُزاعي:

إنمــا العـــيشُ خِـــلالٌ خمـــسةٌ حبــذا تلــكَ خِــلالاً حبــذا

خِدْمــةُ الــضَّيْف ، وكــأسُ لَــذَة ونــديمُ ، وفتــاةٌ ، وغِنَــا

وإذا فاتَتْــكَ مِنهــا واحِــدُ نَقَصَ العيشُ بنقـصان الهَـوَى[794]

فمتعة العيش عند دِعْبل تكون في خمس خصال : إكرام الضيْف ، ورشف الكأس ، ومجالسة الندامى ، واللهو مع الفتيات ، والاستماع إلى الغناء ، وإنْ نقصت واحده من هذه الخلال نقصت لذة العَيْش.

ويتنَدر أبو الهندي بخلاعته ومجونه ، فهو يجوب حانات "كُوَى زَيَان" طلباً للهو والقصف ، ففي هذه المواخير تُستباح الخمر والزّنا ، فما العيش عنده إلا بالتطرح في حانات الخمارين ، ترافقه البيض الحسان ، ويجاهر أبو الهندي كذلك بأنه لا محالة عاكف على الشراب ، منهمك في السكر ، عاصِياً لمن ينهاه عن معاقرة المدام ، ويكفّه عن طلب الحسان ، فهو ينفق حياته في الطرب والملذات ، غير مهتم لما بعد الموت ، يقولُ:

ثبَــتَ النـــاس علـــى رَايـــاتهم وأبــو الهنــدي فــي كــوَى زيــان

منــزلٌ يــزْري بمَــن حَــل بــهِ تُــسْتَحل الخمْــر فيــهِ والزوانــي

إنمــا العَــيْشُ فتــاةٌ غَــادَةٌ وَقُعودِي عَاكِفـاً فـي بيـت حَـان

أشرب الخمرَ وَأعـصِي مَـنْ نَهـى عن طِلاب الراحِ والبـيضِ الحِـسان

فـــي حَيَـــاتي لَـــذةٌ ألهـــو بهـــا فَـإذا مـت فَقَـدْ أَوْدَى زَمـانِي[795]

ويذهب أبو الهندي في الفتك إلى أبعد من ذلك ، فهو يوصِي بأن يعدوا له – عند موته – كفناً من أوراق العنب، ويجعلوا قبره معصرة من معاصر الخمر ، وأن يدفنُوا معه الراح ، ويضعوا أقداحها حول قبره ، يقول:

اجْعَلُــوا إنْ مِــت يومــاً كفَنــي وَرَقَ الكَــرْم وقَبْــري مَعْــصَرهْ

وادفِنُــوني وادِفنُــوا الــراح مَعِــي واجعلُــوا الأقــدَاحَ حَــوْل المَقْبُــرهْ

---

(794) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 245.

(795) المصدر السابق ، ص 126 .

إِننــي أرْجــو هِــنَا غَــداً   بَعْدَ شُرْبِ الراح حسْنَ المغْفِـرَهْ[796]

يقولُ صدقة البكري :"قَرَأْتُ على قبر أبي الهندي هذه الأبيـات ... ورأيـتُ الفِتيان يجتمعون عند قبره ويشربون ويصبون نصيبه على قبره"[797].

ولعل أبا الهندي قد تحققت أمْنِيته فقد سبق وأن ذكرنا أن أبا الهندي مات في بيت خمارة كان يالفُها ، وقد أَوْرَدْنا قصة موته كاملة ، وهي تدلنا على أنـه مـاتَ موتةَ شنيعةً[798].

والخمر عند والبة بن الحَبَاب لا تَطِيب إلا بممارسة اللّواط، يقول:

يعاطينـا الزجاجـةَ أَريحـي   رَخيم الـدلّ بـوركَ مِـنْ معَـاطِي

أقـولُ لـه علـى طَـرَبٍ أَلِطْنِـي   ولـو بمـؤاجرٍ عِلْـجٍ نَبَـاطِي

فـإن الخَمْـرَ لـيسَ تَطِّيـب إلا   على وَضَـر الجنايـة بـاللّواطِ[799]

بعد أن قدمنا من حديث عن اللّهو والمجون ؛ فمن الحقّ أن نُـشير إلـى أن خلفاء بني العباس لم يقفوا من مظاهر العبث والخلاعة موقف المتفـرّج أو المعِـين على ذلك ، فمنهم من آثر حياة الجدّ والحزم ، ووقف حائلاً منيعاً في وجه المجـان، تارة يزجرهم وينهاهم عن الشراب ، وتارة يقيم عليهم الحد ، ولا تأخذه فـي ذلـك لومة لائم ، فأبو العباس السفاح كان شديد الحزم ، زاهداً في الطـرب والملـذات ، مضْرب عن الجواري ، يحكى أنه لما تزوج أم سلمة بنـت يعقـوب بـن سـلمة المخزومي :"حَلَفَ ألا يتزوج عليها ولا يتسرى"[800]. ويرْوَى أيضاً أن خالـد بـن صفوان القناص الشاعر جَهد في أن يثير ملاذه وشهواته بذكر الجواري وأنواعهن، فما وَجَد إلى ذلك سبيلاً[801]، وكان يؤثر العلم ومجالسة العلماء على ضروب اللهو ،

---

(796) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 126.

(797) المصدر السابق ، ص 126 – 127 .

(798) ص 163 من هذا البحث.

(799) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 78.

عِلجُ : العِلْج هو الرجل الضخم القوي من كُفار العجم ، ويطْلَق على الكافر مطلقاً . **الوَضَر**: هو الوَسَخ.

نَبَاطِي: نسبة إلى النبط ، وهم جيل ينزلون البَطَائح بين العِرَاقَيّين.

(800) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 275.

(801) المصدر السابق ، ص 275 وما بعدها.

يذكر المسعودي أن السفاح :"كان كثيراً ما يقولُ : إنما العجب ممن يترك أن يـزداد علماً ، ويختار أَنْ يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكـلام يـا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امـرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ، ويروي نقصاً ، فقال له الهذَلي : لذلك فـضلكم ا ُ على العالمين ، وجعلَ منكم خاتم النبيين"[802].

وكان أبو جعفر المنصور صارماً في كلّ ُأمور حياته "قليل الهَزْل"[803]، فهو لا يَشْرب النبيذ ولا يسمح لأحد أن يشربه على مائدته ، ولما قَدِم بختيشُوع الطبيـب عليه أمر المنصور بطعام يتغذى به فلما وضعت المائدة بين يدي بختيشُوع طلـب شراباً فقيل له: لا يشْرَب على مائدة أمير المؤمنين فقال : لا آكل طعاماً ليس معـه شراب ، فُأخْبر أبو جعفر المَنْصور بذلك فقال : دعوه[804].

وكان المنصور لا يتهاون في إقامة الحد على السكارى يروي ابن قتيبـة أن إبراهيم بن هَرْمة :"شَخَص إليه وامتدحه فاستحسن شعره وقال: سَلْ حاجتك ، قـال تكتُب إلى عامل المدينة أن لا يحدني إذا ُأتي بي إليه وأنا سكران . قال أبو جعفر : هذا حد من حدود ا تعالى وما كنْتُ لأعطّله"[805].

وقد سار المهدي بن المنصور سيرة سلفه ، فنَهى بشار بن برْد حتـى عـن الغزل ، مخافة أن يفتن الناس بغزله الفاحش ، وشعره الداعر ، وفي ذلـك يقـولُ بشار:

وا لـولا رضَـى الخليفَـةَ مـا	أَعْطَيْتُ ضـيماً علـي فـي شَـجَن
قد عِشْتُ بينَ الريْحان والراح والـ	ـمِزْهَـر فـي ظـلّ مَجْلـسٍ حَـسَن
وقد مَلأتُ الـبلادَ مـا بـيْنَ يَعْبـو	رَ إلـى القيْـروان فـاليَمَن
شعراً تُـصَلّي لـه العَواتـقُ والثـ	ـيـب صـلاةَ الغُـواةِ للـوَثَن
ثـم نَهـاِني المهـدي فانْـصَرَفَتْ	نَفْـسِي صَـنيعَ الموفـق اللقـن

---

(802) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 278 .

(803) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 116.

(804) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 79 .

(805) ابن قتيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 507.

فالحمــد ــد لا شــريكَ لــه   ليسَ بباقٍ شــيء علــى الــزمن[806]

يقسم بشار بأنه لولا حرصه على رضَى المهدي ما اسَتجاب له في الكفّ عن النسيب والغزل ، مع أن ذلك يحزنه ، فقد كان يعيش أجمل أيامه بين مجالس القصف والطرب ، وشعره على لسان أهل الشرق والغرب ؛ لأنه شعر جميل تقدسه وتحبه العَذَارَى والمتزوّجات على السواء.

وفي طبقات الشعراء أن أبا العباس السفاح كان مولعاً بأبي دلامة لا يفارقه "لحسن أدبه وجودة شعره ، وكثرة ملحه ، ومعرفته بأخبار الناس وأيامهم ، وكان أبو دلامة خليعاً ماجناً ، وكان يَهْرب منه ويأتى حانات الخمارين ، فيشرب مع إخوانه ، ويكره مجالس الخلفاء لما في ذلك من المشقة والتعب وشِدة التوقي"[807]، ولما رأى أبو العباس ذلك وكل بأبي دلامة من يراقبه ويحبسه عن الذّهاب إلى الحانات "وألزمه ألا يَبْرحَ حضرته ، وكان يصلّي معه الصلوات كلها"[808]. فأنشد أبو دلامة مبيناً أن إرغامه على ترك مجالس الطرب قد أضر به فقال:

ألــم تَعْلمِــي أن الخليفــةَ لَزنــي   بمسجدِه والقَصْرِ ، مــالِي وللقَصْرِ
أُصَلِي به الأولى مع العَصْرِ دَائبــاً   فويلي من الأولى وويْلي مِن العَصْرِ
وَيَحْبِسنِي عــن مَجْلــسٍ أســتِلذه   أُعَلــلُ فيــهِ بالــسمَاعِ وبــالخمْرِ
ووا مــا بــي نِيــة فــي صَلاتهِ   ولا البر والإحسان وَالخير من أمْري

---

(806) بشار بن برْد، ديوان بشار بن برد، شرح حسين حَمَوي، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1996م ، ج2 ، ص 535 – 536 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 241-242 مع اختلاف في رواية الأبيات.

الخليفة: أى الخليفة المهدي بن المنصور . **الضيم** : غمط الحقّ.

الشَجَن: الحزْن.

الريحان: نبات طيّب الرائحة.

المزهَر: العود آلة الطرب.

يَعبور: في الأغاني "فُغْفُور" ولعلها الأصح وتعني بلاد الصّين، وفُغْفُوركذلك لقب ملك الصّين.

العَواتق: جمع عاتق وهي المرأة الشابه قبل التزوج.

الثيِّب: بتشديد الياء وكسرها ، هي المرأة المتزوجة.

(807) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 52.

(808) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

ومـــا ضـــره والله يــصْلح أَمْـــرَه لـــو أن ذنُـــوب العـــالمِين علـــى ظهْـــــــــــــــــــــــري[809]

ويقال : إن أبا العباس لما سمع الأبيات يئس من صلاح أبي دلامـة وقـال: "والله ما يفلح هذا أبداً ، فذروه وأصحابه"[810].

(ز) الغزل بالمذكّر:

سبق وأن تحدثنا في ثنايا هذا البحث عن شيوع الغلمان في المجتمع العباسى ، وذكرنا أن القصور والدور كانت تطفح بالألوف من الغلمان الـذين كـانُوا مـن مختلف الأمم والأجناس ، كما رأيناهم في الأديرة والحانات وهم يقومـون بتقـديم الشراب ، ويشاركون في مجالس اللهو والطرب ، وتقدم أن أسواق الرقيق والنخاسة كانت تعج بالغلمان المجلوبين من كل حدب وصوب.

وقد فَشي الرقيق الخِصيان في زمان العباسيين ، وكان مـن أثـر ذلـك أن الجاحظ الذي عاش في هذا العصر رأى هؤلاء الخِصيان وخبرهم ، فعقد لهم فصولاً في كتابه الحَيَوان تناول فيها أخبارهم وطبائعهم ، وأخلاقهم وصفاتهم ونـوادرهم ، كما ذكر الخصائص التي تميّز كل جنس عن الآخر[811].

وقد قادت كثرة الغلمان تصاحبها تلك الموجة العنيفة من الخلاعة والمجـون كما تقدم ، إلى بروز ظاهرة جديدة في الحياة العباسية ، وهي ظاهرة الولع بالغلمان ؛ فكانت "آفة من آفات هذا العصر"[812]. وقد أفْضَى فساد البيئة وعشق الغلمان إلى ظهور بدعة جديدة في الغزل ، وهو ما يعْرف بالغزل بالمذكر[813].

وكان والبة بن الحبَاب أول من اشتهرَ بالغزل في الغلمان المرْد ، وصـرح بذلك في غير مواربة ولا استحياء[814]، ويروي ابن المعتز رحمه الله : أن والبة هو

---

(809) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 53 .

(810) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(811) الجاحظ،الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1996م،ج1،ص116وما بعدها.

(812) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 108 .

(813) مارون عبود ، أدب العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، 1979م ، ص 196.

(814) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 73.

الذي أفسد أبا نُواس[815]، فقد صحب أبو نواس منذ صغره والبة بن الحباب فعلمـه الشّعر والعهْر والخلاعة . روى المؤلف في ترجمة والبة عن إسـماعيل العمـري قوله:"رأيتُ الحسن بن هانيء غلاماً مع والبة بن الحباب صـغيراً مليحـاً نـادراً ، يخدمه ويتصرف في حوائجه الخفاف ، ووالبة هو الذي أدب أبا نواس"[816].

ووالبة لا يقر بإفساده أبي نُواس فحسب ، بل نراه يجاهر في استخفاف بكـل القيم والأخلاق ، ويذكر بأنه قد اتخذ من أبي نواس وسيلة لإشاعة الغواية والرذيلـة في أوساط المجتمع العباسي ، ويبدي سعادته لأن جعل من الحسن بن هانيء جنْـدياً من جنود إبليس وسهماً من سهامه يصوّبه على من يشاء من المسلمين ، يقول والبة :"رأيتُ إبليس فيما يرى النائم كأنه أتاني فقال لي : تَرى غلامَك الحسن بن هـانيء هذا ؟ قُلْتُ : ما شأنه ؟ قال : إن له شأناً . وا ِ لأغوين به أمة محمد عليه السلام ، ولألقين محبته في قلوبهم"[817].

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة عشق الغلمان بدأت تظهر ظهوراً واضحاً مع ازدياد النفوذ الفارسي ، إذ أن هذه الشهوة لم تكن شائعة في الأعراب ، ولو كانـت كذلك لنُسِبوا بالغلمان من جراء تعشقهم لهم ، ولحدثت في ذلك أخبار وأشعار ولجاء لهم فيه باب من النسيب كالذي نراه عند شعراء الدولة العباسية ، وإنما طرأت هـذه الفاحشة وسرت من ناحية الخراسانيين ، فقد كان هذا الأمر شائعاً فـي خراسـان ، ولقد أشاعه فيهم كثرة خروجهم في البعوث الحربية ، وكانُوا لا يستطيعون إخـراج النساء والجواري معهم ، ولم يكن لهم بد من غلمان تهيء مئونتهم ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في النهار والليل ، وفي حالة التبذل والتكشف ، وكانـت الغلمـة تهيج بهم ، شغفوا بغلمانهم[818].

---

(815) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 78.

(816) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 77 .

(817) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(818) د. يوسف خليف ، حياة الشّعر في الكوفة ، ص 216 – 217 .

ولعل مما يؤيد ذلك أن الزي الذي كان شائعاً بين هؤلاء الغلمان هو الـزي الخراساني: القرطق والقباء، وكلاهما يكون محبوكاً على الأجـسام، يظهـر دقـة الخصور ، ووفرة الأرداف، بخلاف الثياب العربية الفضفاضة[819].

ولما كان الغلمان عنصراً أصيلاً من العناصر المكونة للمجتمـع العباسـي ، نرى أن ابن المعتز قد وقف عندهم طويلاً ، ورفد كتابه طبقات الـشعراء بطائفـة جليلة من أخبارهم وقصصهم ، فضلاً عن تناوله لكثير من الرّوايات والقصص التي تتصل بالولع بالغلمان ، وإيراد طائفة من الشواهد الشعرية التي تبرز التغزل فيهم.

وخير دليل على شغفهم بالغلمان هذه القصة التي يسوقها ابن المعتز ، والتي يستشف منها ، أن بعض من ابتلوا بهذه الآفة من المجان كانوا لا يَـسْتَتِرون ، ولا يخفون رغباتهم الجامحة في عشق المرْدان ، بل أخذوا يتحينُون كل سانحة للظفـر بمبتغاهم ، ولا سيما الأسواق حيث التدافع والزّحام ، روى ابن المعتز عن الحمدوني أنه قال :"مررتُ ببعض الأسواق ببغداد يوماً والزّحام كثير ، وإذا ببغاء قد لزق بي في الزحمة يمس متاعِي ويؤذيني ، وإذا بلوطي خلفي قد ظنني أمرد ، فهو يتعرض فقحتي ويسدّد مَتَاعه على جحري ، فلما رأيتُ أنّي قد ضغِطتُ من خلفي ومن قُدامي أخذتُ يد البغاء فوضعتها على مَتاع اللوطي وخرجْتُ من بينهما في عافية"[820].

ويذكر المؤلف كذلك أنه كان للبحتري الشاعر ، غلام يسمى "نَـسيم" وكـان البحتري يحبه حباً شديداً ، فسعى أبو الفضل بن الحسن بن سهل في أنْ يبتاعه منه، "فقال: كيف أبيعك من لو فارقته ساعةً فارقتني روحي"[821]. ويمضي المؤلف فـي سرد القصة فيذكر أن أبا الفضل غالى في ثمن "نسيم" فأغرى البحتري ذلك فاضطر لبيعه ، ثم ندم بعد ذلك أشد الندم على فراق غلامه ، وازداد جزعه فأخذ يتردد على باب أبي الفضل ويستعطفه في أن يرد له غلامه نسيماً، غير أنه لم يجد مـن أبـي الفضل غير الرفض واللأي ، فكتب إليه:

---

(819) المرجع السابق ، ص 217 .

(820) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 337 .

البَغاء : الفاجر. **الفَقْحة**: لعله يريد الدبر.

(821) المصدر السابق ، ص 359 .

أبا الفَضْل في تسع وتـسعينَ نَعْجَـةً غِنًى لكَ عن ظَبْـي بِـساحَتنا فَـرْدِ
أَتأخـذُه مِنّـي وقـدْ أخـذَ الهَـوَى فؤادي له فيمـا أُسِـر ومـا أُبْـدِي
وتَغْـدو عليـهِ صَـبْوَتي وصَـبَابَتي ولم يَعْده وجْدِي ولـم يَأْلُـه جهْـدي
وقُلْتَ : اسْلُ عنه ، والمنيـةُ دونَـه وكَيْف سلُو ابن المفرّغ عن بـرْدِ[822]

في هذه الأبيات يظهر البحتري تذلله ، ويبدي أسفه وحزنه على فراق غلامه ، ويناشد أبا الفضل أن يرده له ، ويخاطبه قائلاً: إن لأبي الفضل كثير من الغلمـان وهو ليس بحاجة لأن يستأثر كذلك بغلام البحتري ، وهو غلام وحيد ولا يملك غيره ويقول : إن غلامه ملك فؤاده وتمكن من قلبه ، ولم يعد يحتمل فراقه ، ففي فراقـه الحتف والموت.

وفي طبقات الشعراء كذلك أن سعيد بن وهب كان عنـده دار لهـا بابـان ، أحدهما كبير والآخر صغير ، وكان لا يدخل إليه " من هذا الباب الصغير إلا المرْد فقط"[823].

وكان لسعيد بن وهب غلام غاب عنه فترة ، ثم رجع وهو ملْتح وجاء هـذا الغلام كعادته ليدخل من الباب الصغير ، بينما يَلح سعيد في أن يدخل من بابه الكبير بعد أن زهد فيه بسبب التحائه ، وفي ذلك يقول سعيد:

قُـــلْ لِمَـــنْ رامَ بِجَهْـــلِ مَـــدْخلَ الظبـــي الغَريـــر
بَعْـدَمَا علَـقَ فـي خديـــــــهِ مِخْـــلاةَ الـــشعير
انْقَلِـــتْ وادخَـــل إذا شِئْـــــتَ مـــن البـــاب الكبيـــر[824]

ولسعيد في المجون والغزل في الغلمان قوله أيضاً :

وقُلْ لمن كـانَ أمْـرَداً يـضع الـ ـمعـروف مِـن قبْـل آفـةَ الـشعَر
كـأنهم بَعْـدَ بهجـةٍ دَرَسَـتْ رَكْـب علـيهم عمـائم الـسفَر
وصِـرْتُ بَعْـدَ بَهْجَـةٍ بهـم أَصرفُ عنهم إذَا بَدوا بَـصَري[825]

---

(822) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 359.

ابن المفرّغ: شاعر كان له غلام اسمه برْد فباعه وندم وله فيه أشعار كثيرة.

(823) المصدر السابق، ص 237 .

(824) المصدر السابق ، ص 237 – 238 .

وها هو سعيد بن وهب يتغزل في غلام آخر مَن غلمانه ، وهو لا ينفك يبعث تحاياه وأشواقه لهذا الغلام ، ويدعو ا أن يمن عليه بالخير والسلامة ، وأن يصرف عنه كل شر ومكروه ، فهو كذلك دائم السؤال عن حال غلامه ، شديد الحزن على فراقه ، يقولُ:

صَبحَكَ الرحمن يا سيِّدِي ... ما عِشْتَ بالخَيْر ومساكا
أحْمَلُ الدهْرَ وَأوْقَاتِهِ ... كل البَلايا غير شكْوَاكا
خَبرَني مَنْ كُنْتُ ساءَلْتُه ... عَنْ حال مَمْسَاكَ وحماكا
بكُلِّ ما أَهْوَى ولكنه ... قَطعَ قَلْبي عنْدَ ذكْراكا
لاَ خَيْرَ في الدنْيا إذا لم أكُنْ ... أَسْمَع فِيها حسْنَ نَجْواكا(826)

وجملة القول فإن ابن المعتز قد رسم في كتابه طبقات الشعراء صورة بيِّنة لحياة اللهو والمجون في عصر بني العباس ، إذ أقبلت طائفة من الخلعاء في العكوف على القصف والشراب ، وقد أسهم مجتمع الجواري والغلمان وما تبعه من انتشار للغناء والمغنين بنصيب كبير في الحضّ على الحياة اللاهية، وقد تفرد شعراء المجون في الدولة العباسية بوصف الخمر ، وعرضوا لكل الموضوعات المتصلة بها ، فوصفوا أدواتها ومجالسها وسقاتها وفعلها في الشاربين وصفاً دقيقاً يدل على براعة واقتدار في هذا الفن . وقد جاءت أوصافهم للشراب متمشّية مع سنن الموروث الشعري ، إذ لم يخرجوا فيها عن نهج الشعراء المتقدمين ، وإنْ أضاف الشعراء العباسيون إلى وصف الخمر شيء من الجدة والطرافة تمثل في ابتكارهم لكثير من الصور الدقيقة والتماثيل الحية ، تأثراً ببيئتهم واستلهاماً لروح عصرهم وما شهده من تطور في كافة مناحي الحياة.

---

(825) المصدر السابق ، ص 239 .

الأمرَد: الذي طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبْد.

الركب: الراكبون ، العشرة فما فوق.

(826) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 239.

وقد دفع إسراف هؤلاء الشعراء في اللهو والمجون . لأن يسلكوا مسلكاً أكثر تطرفاً ، وأبلغ خطراً ، وهو الاتّجاه نحو حياة الزنْدقة التي كان يقابلها تيار قوى من تيارات الزهد ، وهذا ما سنتناوله بالبحث والدرس في مبحثنا القادم.

المبحث الثاني : الزندقة والزهد

(أ) الزنْدَقة:

سبق وأن أشرنا إلى أن الفرس عندما قوي سلطانهم في الدولة العباسية ، نقلوا حضارتهم المادية وما فيها من لهو ومجون ، وميل إلى العبث والغناء والطرب[827]. وكما غزا الفرس المجتمع العباسي بحضارتهم المادية اللاهية ، غزوه كذلك بحضارتهم الروحية المتمثلة في معتقداتهم الدينية الباطلة ، ومذاهبهم الفاسدة ، فنقلوا معهم تعاليم الديانة "الزرْدَشْتِية" التي تزعم أن العالم يتألف من أصلين متضادين هما : النور والظلمة ، وكل التراكيب كالخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث ناتجة عن امتزاج النّور بالظلمة[828].

وكان صنف من المجوس الزرْدَشْتية يأمر أتباعه بإرسال شُعورهم ، واستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة ، وعدم ذبح الحَيوان[829].

نقل الفرس كذلك الديانة المانَوية وهم أصحاب ماني بن فاتك الحكيم ، وكانت المانوية تتفق مع الزرْدَشْتية – التي سبقتها في الظهور – في القول بثَنَوية العالم ، فَهي تزعم "أن العالم بما فيه ، مِن عَشرة أجناس : خمسة منها خَيْرٌ ونورٌ، وخمسة منها شرٌ وظُلْمة"[830]، وقد أحدث أصحاب ماني كذلك في عقيدتهم ديناً مزج بين المَجوسِيَة والنصرانية[831].

أخذ ماني يفسّر كتاب زرادشت المسمى "الأفستا" تفسيراً عَقْلياً ، ويؤوّله تؤويلاً انحرف به عن ظاهر نصوصه ، فعده الفرس في أول الأمر مارقاً ، وسموا أتباعه زنادقة أي ملْحِدين[832].

إذن فكلمة زنديق أي مَانَوي ليست عربية وإنما هي فارسية معَربة، وقد اتسع مدلولها في العصر العباسي فشمل كل من اعتنق مذهب ماني، أو ألحد بالدين

---

(827) ص 158 من هذا البحث .

(828) الشهرستاني ، الملل والنّحل ، ج1 ، ص 237 . سبقت ترجمة زرادشت ص 158 من هذا البحث.

(829) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 238 – 239 .

(830) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 441 .

(831) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 244 .

(832) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 79 والفن ومذاهبه ، ص 110.

الإسلامي الحنيف، أو أظهر الإيمان وأبطن الكفر، يقولُ الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي في تعريف كلمة زنديق:"الزِّنْدِيق – بكسر الزاي – من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة، أو مَنْ لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية، أو مَنْ يبْطن الكُفْر ويظْهر الإيمان"(833).

وقد تطور مدلول مصْطلح زنديق أكثر فأخذت تطلق على كل مَنْ جاهر بالفسق والإثم والفجور ، أو استهتر بدين الإسلام(834).

كان الزنادقة يمثلون خطراً عظيماً على الإسلام ، ويسعون إلى إفساد العقيدة الإسلامية ، والتشويش على المسلمين ، بوضعهم الأحاديث المكذوبة ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لذا فقد أدرك خلفاء بني العباس خطر هؤلاء الزنادقة على الإسلام وأهله ، فظلوا يتعقبونهم منذ فجر الدولة العباسية . وتروي لنا المصادر القديمة أخباراً عن هؤلاء الزنادقة يقرون فيها بوضعهم كثيراً من الأحاديث المكذوبة والمَصْنُوعة ، يحكي الشريف المرتضي في أماليه :"أن عبد الكريم بن أبي العوجاء قال لما قَبَضَ عليه محمد بن سليمان وهو وإلى الكوفة من قِبَل المنصور وأحضره للقتل وأيقن بمفارقته الحياة لِئن قتلتموني لقد وَضَعْتُ في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة"(835).

وسلف أن ذكرنا في فصلنا الأول أن المهدي بن المنصور كان شديد البأس على الزنادقة الذين رأى فيهم خطراً على الإسلام وعلى دولته ، فقضَى على ثوراتهم وفتك بالكثيرين منهم. بل أن المهدي أوْصَى ابنه الهادي بالتجرد للزنادقة وملاحقتهم واستئصال شأفتهم، فقال:"يابنى إنْ صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة –يعني أصحاب ماني– فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حَسَن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء

---

(833) عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، معاهد التنصيص ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، 1947م ، ج1 ، ص 148 .

(834) الشريف المرتضي ، أمالي السيّد المرتضي ، تصحيح وضبط السيد محمد بدر الدين النعساني ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، 1907م ، ج1 ، ص 88-90 .

(835) المصدر السابق ، ص 88 – 89 .

الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثُم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلْمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الدنيا إلى هداية النور؛ فارفع فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى ا لا شريك له، فإني رأيتُ جدك العباس في المنام فقلدني بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين"[836].

مَضَى العباسيون في التنكيل بالزنادقة والتنبه إلى خطرهم على الإسلام ، روى يا قوت الحموي أَن هارون الرشيد أخذ :"زِنْديقا فأمر بضرب عنُقِه ، فقال له الزِّنديق:لمَ تَضْرب عنقي يا أمير المؤمنين؟قال: أريح الناس منك ، قال : فَأين أنتَ عن ألف حديث وضعتُها على رسول ا صلى ا عليه وسلم ، ما فيها حرف نَطَقَ به رسول ا صلى ا ُ عليه وسلم، قال: فأين أَنْتَ يا عدو ا من أبي إسْحاق الفزاري ، وعبد ا بن المبارك يَنْخُلانِها نَخْلاً ، فَيخْرِجانِها حرفاً حرفاً"[837].

ظل خلفاء الدولة العباسية يورثُون أبناءهم كراهية الزنادقة ، فها هو المأمون بن الرشيد قد بلغه خبر عشرة من الزنادقة يسكنون البصرة ، ويقولون بمذهب ماني فأمر بحملهم إليه ، فلما ادخلوا عليه امتحنهم واستتابهم لكنهم رفضوا التخلي عن مذهبهم فقتلهم جميعاً[838].

واشهر من رموا بالزندقة في العصر العباسي : حماد عَجْرد[839]، وحماد الراوية[840]، وحماد بن الزّبرقان[841] ومطيع بن إياس[842] ووالبة بن الحبَاب[843]،

---

(836) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ، ص 220.

(837) يا قوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج1 ، ص 202.

يَنْخُلانها:أي يدقّقان في الأحاديث المروية لتخريج الصحيح منها، وإضعاف ما ليس مقبولاً في مسنده أو في متنه.

(838) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 9-10.

(839) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 525 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 58 ، 60.

(840) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60.

(841) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 89 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60.

(842) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 89.

وبشار بن برْد[844]، وصالح بن عبد القدوس[845]، ويحيى بن زياد الحـارثي[846]، وعلي بن الخليل الشيباني[847]، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي[848].

الدارس لكتاب طبقات الشعراء يلحظ أن الكتاب لم يَغْفِل ذكر الزنادقة الـذين عاشوا في عهد بني العباس ، فقد أورد ابن المعتـز – رحمـه ا – طائفـة مـن أخبارهم ، وساق جملة من القصص والرّوايات التي جعلت معاصريهم يرمونهم بهذه التهمة ، وأشهر من عدهم ابن المعتز من الزنادقة : بشار بن برد[849]، والحمـادين الثلاثة : حماد عَجْرد[850] وحماد الراوية[851] وحماد بن الزّبْرقان[852]، وصالح بن عبد القدوس[853]، وإبراهيم بن سيابة[854]، وأبا العتاهيـة[855]. وفيمـا يلـي بيـان

---

(843) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص90 .

(844) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 16 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18.

(845) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 80 والمعري ، رسالة الغفـران ، ص 436 – 437 والبغـدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص 303.

(846) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 89.

(847) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 .

على بن الخليل الشيباني : هو مولى يزيد بن مزيد الشيباني ويكُنى أبا الحسن ، وهو كوفي أتهم بالزندقـة فطلبه الرشيد عند قتله الزنادقة ؛ فاستتر طويلاً ثم قصد الرقة وبها الرشيد فمدحه فعفا عنه الرشيد.

المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 101 وما بعدها.

(848) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 447 – 448 .

(849) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18.

(850) المصدر السابق ، ص 58 ، 60.

(851) المصدر السابق ، ص 60.

(852) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(853) المصدر السابق ، ص 80.

(854) المصدر السابق ، ص 83.

إبراهيم بن سيابة: كان مولى لبني هاشم فأعتقه بعضهم ، ليست له نباهة ولا شعر شريف ، خليعاً ماجناً ، طيب النادرة ، كان يميل بمودته إلى إبراهيم الموصلي وابنه اسحاق فغنيا في شعره ورفعانـه وكانـا يذكرانه للخلفاء والوزراء فينفعانه بذلك.

أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج12 ، ص80.

(855) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 208.

وتفصيل لما ورد حول كل واحد من هؤلاء الشعراء – الذين ذكرنا – من قصص وأخبار تتصل باتّهامهم بالزندقة.

ففيما يخص بشار بن برد ، يذكر المؤلّف أن بشاراً هذا كان يرْمى بالزندقة فقتله المهدي بن المنصور العباسي ، ويبيّن طريقة قتله فيقول:"وقِيلَ ضربه سبعين سوطاً فمات ، وقيل ضَرب عنقه"[856].

وتُورد المصادر روايات مختلفة حول سبب اتّهام بشار بالزندقة منها:

(1) أن بشار كان يصوّب رأي إبليس في تقديم النار على الطّين ، ويؤيّده في امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام ، وفي ذلك يقولُ:

الأرض مظلمةٌ والنار مشرقةٌ والنار مَعْبودةٌ مذ كانت النار[857]

ويقول أيضاً :

إبليس أفْضلُ من أبيكم آدم فتَبَينُوا يا مَعْشَرَ الأشْرار

النار عنْصره ، وآدم طينةٌ والطين لا يَسْمو سمو النار[858]

(2) وروى أبو الفرج أن بشار كان "يدين بالرجْعة ، ويكفّر جميع الأمة"[859].

(3) ومن جملة التهم التي سيقت لبشار وقادت إلى رميه بالزنْدقة ، أن بشار كان يذهب مذهب الديانة المانوية ويقولُ بثنوية العالم ، يحكي الشريف المرتضي أن رجلاً قال لبشار :"أتأكل اللحم وهو مباين لديانتك يَذْهب إلى أنه ثنَوي فقال بَشار إن هذا اللحم يدفع عَنّي شر هذه الظلمة"[860].

---

(856) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18.

(857) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 16 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 96 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 145 .

(858) المعري ، رسالة الغفران ، ص 310.

(859) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 145 .

الرجعة : الإيمان بالرجوع بعد الموت إلى الدنيا وهو مذهب قوم من العرب في الجاهلية ، ومذهب طائفة من أهل البدع والأهواء من المسلمين يقولون إن الميت يرجع إلى الدنيا ويكون فيها حَياً.

(860) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 96.

ويورد ابن المعتز رواية أخرى حول مقتل بشار ، وهي أن بشار قتله المهدي لما بلغه أن بشار هجاه ، على أن ابن المعتز يشير إلى أن هذه الرّواية ضعيفة وإنما الصواب عنده أن بشار قتله المهدي بسبب زندقته[861].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه خبراً آخر يتّصل باتهام بشار بالزندقة ؛ فيذكر أن بشار لما هجا يعقوب بن داود وزير المهدي بقوله:

بَني أميـة هبـوا طـالَ نـومكُم إن الخليفـةَ يَعقـوب بـن داودِ
ضَاعت خِلاَفِتكم يـا قـوم فالتمِـسوا خَليفةَ ا بـينَ الـزّق والعـودِ[862]

إن يعقوب دخل على المهدي فقال له:"يا أمير المؤمنين ، إن هـذا الأعمـى الملحد الزّنديق قد هجاك ، فقال : بأيّ شيء ؟ فقال : بما لا ينطق بـه لـساني ولا يتوهمه فكري ؛ قال له : بحياتي ألا أنشدتني ! فقال: وا لو خيرتني بين إنـشادي إياه وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي ، فحلف عليه المهدي بالأيمان التي لا فسحة فيها أن يخبره ؛ فقال : أما لفظاً فلا ، ولكني أكتب ذلك ، فكتبه ودفعه إليـه ، فكاد ينشقُ غيظاً"[863].

ويمضي أبو الفرج في سرد القصة فيذكر أن المهدي حين تناهى إليه خبـر هجوه أمر بضرب بشار ، فَضرب سبعين سوطاً أُتْلِفَ فيها[864].

ويقال: إن المهدي لما قتلَ بشار نَدِم على قتله ، وأحب أن يجد شيئاً يتعلق به فبعَث إلى كتبه ، فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعاً في أن يجد فيها شيئاً ممـا أحزنـه عليه ، فلم يعثر على شيء ، ومر بطومار مختوم ، فأمر بنشره فإذا فيه:"بـسم ا الرحمن الرحيم ، إنّي أردتُ أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبد ا بن العبـاس ، فذكرت قرابتهم من رسول ا صلى ا عليه وسلم وآله ، فمنعني ذلك من هجوهم ، ووهبتُ جرْمَهم ـِ عز وجل ، وقد قلتُ بيتين لم أذكر فيهما عِرْضاً ولم أقـدح فـي دين وهما:

---

(861) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18.

(862) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 243 .

(863) المصدر السابق ، ص 243 – 244 .

(864) المصدر السابق ، ص 244 .

دينـــار آل ســـليمانٍ ودِرْهَمهـــمْ كالبـــابليّين شُـــدا بالعَفَاريـــتِ
لا يوجَـــدَان ولا يرْجَـــى لقاؤُهمَـــا كمـــا سَـــمعْتَ بهـــاروتٍ وَمَـــاروتِ

فقال: الآن وا صح الندم"[865].

ويضيف أبو الفرج أن المهدي لما قرأ ما في الطومار وأيقن من براءة بشار مما نُسب إليه :"بكى وندم على قتله ، وقال: لا جَزَى ا يعقوب بـن داود خيـراً ، فإنه لما هجاه لفقَ عندي شهوداً على أنه زنديق فقتلتُه ثـم نـدِمْتُ حـين لا يغْنـي الندم"[866].

تقدم الحديث عن أن كلمة "زنديق" اتسع مدلولها فـي العـصر العباسـي ؛ فأُطْلِقت على كل من جاهر بالإثم والفجور ، أو استهتر بالدين والقيم والأخلاق ، لذا كان الحمادون الثلاثة : حماد عجرد ، وحماد بن الزّبرقان ، وحماد الراوية يرمون بالزندقة لمجاهرتهم بالخلاعة ، وإشاعتهم للفسق والمجون في أرجاء الكوفة ، روى ذلك ابن المعتز في ترجمة الحمادين فقال:"وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمـادون : حماد عجرد وحماد بن الزّبرقان ، وحماد الراويـة ، يتنـادمون علـى الـشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون أجمل عشرة . وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة"[867].

وأشهر الحمادين بالزندقة : حماد عَجْرد[868]، الذي يذهب إلى القول بالثنوية ويزعم أن للعالم إلهين: أحدهما للنور وآخر للظلمة، يحكي ذلك الشريف المرتـضي فيقولُ :"فأما حماد عجرد فشهرته في الضلالة كشهرة الحمادين ، وكان يرْمَى مـع ذلك بالتثْنِية"[869].

---

(865) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 18.
(866) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 249.
(867) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 60 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافـة ، ج14 ، ص 305 – 306 .
(868) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 525 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج14 ، ص 306.
(869) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 92.

يصفُ أبو نُواس حماد عَجْرد بأنه كان من كبار الزنادقـة وأئمـتهم ومـن المستهترين بالعقيدة الإسلامية ، فيقول:"كنْتُ أتوهم أن حماد عجـرد إنمـا رمـي بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبسْتُ في حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمامُ من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم"[870].

أما حماد الراوية فيوصف بأنه كان زنديقاً "منسلخاً من الدّين وزاريـاً علـى أهله مدمناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور ... مشهوراً بالكذب في الرّواية وعمـل الشّعر"[871]. وقد هجاه صديقه حماد بن الزّبرقان فوصفه بأنه عاصٍ لربّه ، تـارك للصلاة ، عاكف على الشراب ، فدنان الخمر قد أرخت شفاهه وإدمانه الخمور جعل وجهه مبيضاً ، يقول:

نِعْم الفتى لـو كـان يعـرفُ ربـه ... ويقـيم وَقْـتَ صَـلاتِه حمـاد
هَـدَلَتْ مـشافِرَه الـدّنان فأنْفُـه ... مثـل القـدوم يـسنها الحـدَاد
وابيض من شُـرْب المدامـةِ وجهـه ... فبياضه يـومَ الحـساب سَـوَاد[872]

وأما صَالح بن عبد القدوس فقد اتهمه المهدي بالزندقة ، وأمر بحمله إليـه ، فلما خاطبه ُأعْجِب بغزارة أدبه وعلمه وبراعته ، وحسن بيانه وكثرة حكمته ، فأمر بتخلية سبيله[873]، و اتهم الرشيد أيضاً صالحاً بالزندقة و قال له: "ألسْتَ القائل:

والـشيخُ لا يتـرك أخلاقَـه ... حتـى يـوارى فـي ثـَرَى رمْـسِه
إِذَا ارْعَـوى عَـادَ إلـى جَهْلِـهِ ... كـذِي الـضنَا عَـادَ إلـى نُكْـسِه

قال: نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وأنْتَ تترك أخلاقك؟ ونحن نحكـم فـي نفسك بحكمك ، فأمر به فَقُتِل"[874].

---

(870) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج14 ، ص 307.

(871) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 90 – 91 .

(872) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 445 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 525.

هَدَلَت مشافره: استرخت شفاهه.

الدّنان: جمع دَن وهو وعاء يحْفظ فيه الخمر.

القَدوم: بالفتح : قدوم النجار ، وهي كلمة مؤنثة.

(873) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 80 و البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص 303.

(874) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 80 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص101.

وكان صالح بن عبد القدوس يتظاهر بمذاهب الثنوية ، وله مع أبي الهـذيل العلاف مناظرات ومجادلات، وقد أنكر عليه أبو الهذيل اعتقاده في مذهب مـاني ، وقال له ذات مرة:"على أي شيء تَعْزم يا صالح فقال: استخير ا وأقول بـالاثنين، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك"[875].

ويرى المؤلف أن الصواب في مقتل صالح ، هو أن المهدي أُبلغَ عنه أبيـات يعرِّض فيها بالنبي صلى ا عليه وسلم ، فأحضره المهدي وقال له:"أنْتَ القائل هذه الأبيات؟ قال : لا وا يا أمير المؤمنين ، ما أشركْتُ با طرفة عين ، ولا تـسفك دمي على الشبهة ، فقد قال النبي صلى ا عليه وسلم :"أدرَءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم" وأخذ يرقق قلبه ، ويستنزله عما عزم عليه بفصاحته وبيانه، ويتلو القرآن ، حتى رق له وأمر بتخلية سبيله ، فلما أراد أن يخرج من بين يديه قـال: أَنـشدني قصيدتك السّينيه فأنشده حتى إذا بلغ قوله:

والـــشيخُ لا يتـــرك أخلاقـــه حَتى يوارى في ثَـرى رَمْـسِه"[876]

أَمر به حينئذٍ فضربت عنقه ، وصلِب على الجسر ببغداد[877].

ويقال: إن صالحاً قبل قتله تاب مما هو عليه توبة نصوحة[878]، ولما نوظر كذلك فيما قُذِف به من الزندقة بحضرة المهدي ، قال: إنّي أتوب وأرجع ، فقال لـه المهدي هيهات ألست القائل:

والـــشّيْخُ لا يتـــرك عاداتـــهِ حتى يوارى في ثَـرَى رَمْـسِه[879]

ثُم قُدّم فَقُتِل.

ويحكى أن صالحاً شُوهد وهو يصلّي صلاةً تامة الركوع والـسجود، فقيـل له:"أتُصلّي هذه الصلاة ومذهبك ما تذكر؟ فقال: إنمـا هـو رسـم البلـد، وعـادة الجسد"[880].

---

(875) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 100 .

(876) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 80 – 81 والبغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص 303.

(877) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 81 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 101.

(878) أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، ص 437 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج3 ، ص 147.

(879) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 100 – 101.

ومن جملة الزنادقة الذين ورد ذكرهم في طبقات الشعراء : إبراهيم بن سيابة[881]، ويروي ابن المعتز في ترجمة ابن سيابة ، أن المهدي لما اتهم ابن سيابة بالزندقة أحضر كتبه فلم يجد فيها شيئاً من ذلك ، فأمنه واستكتبه ، وكان يكتب في مجلسه وبين يديه[882].

ونرى ابن سيابة يشير في شعره لما اتهم به من زندقة ، فيقول:

قد كنْتُ قبلَ اليوم أُدْعَى مُسْلماً والَيومَ صارَ الكُفْر من أَسْمَائِي[883]

وممن اتهموا بالزندقّة في زمن العباسيّين: أبو العتاهية إذ يذكر المؤلف أن أبا العتاهية كان يرْمَى بالزندقة على الرغم من كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ ، وذكر الموت والحشر والجنة والنار[884]، ويضيف المؤلف أن أبا العتاهية كان يدِين بمذهب الديانة المانوية، يقولُ عنه:"والذي يَصح لي أنه كانَ ثنوياً"[885].

ويورد أبو الفرج في كتابه الأغاني روايات متعددة تتصل باعتقاد أبي العتاهية ومذهبه الفلسفي . ويبدو لي أن هذه الرّوايات التي جاءت في الأغاني ، كانت سبباً في اتهام أبي العتاهية بالزندقة ومنها:

(1) إن قوماً من أهل عصره كانُوا ينسبونه "إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد"[886].

والحق أن هذا الحكم لا يخلو من القسوة ومجانبة الصواب ؛ فالمتصفح لديوان أبي العتاهية يلحظ أن شعره الزهدي لم يقتصر فقط على ذكر الموت والفناء متجاوزاً بذلك التعرض لذكر البعث والنشور ؛ ففي الديوان تُطالعنا أكثر من قصيدة

---

(880) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 81 والمصدر السابق ، ص 100.

(881) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 83 وأبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج12 ، ص 83 .

(882) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 83 .

(883) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(884) المصدر السابق ، ص 208 .

(885) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(886) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص2 .

لأبي العتاهية في ذكر الحشر والبعث والحساب ، ومشاهد القيامة ، وما تؤول إليـه عاقبة الإنسان من خير يقوده إلى الجنة ، أو شر يسوقه إلى النار.

وحري بشاعر كأبي العتاهية أفنى خمسين عاماً من عمره في الإنصراف إلى شعر الزهد، والإعراض عما سواه من أغراض الشّعر الأخرى؛ أنْ يعرض للـدار الآخرة وما فيها من أهوال، فهو يرى أن أمر الإنسان لا ينتهي عند الموت بل أن ما بعد الموت أشد هولاً حيث البعث والنشور والحساب والعقاب، يقول:

مـا أشـد المَـوْتَ حَـدا ولكِـنْ مـا وراءَ المـوتِ حَقّـاً أشَـد[887]

ويقولُ:

كُـل نفـسٍ سَتُقاسِـي مَـرةً كُـرَبَ المَـوتِ ، فللمـوْتِ كُـرَبْ
وحِـساب ، وكتـاب حـافظٌ ، ومَـوازين ، ونـار تَلْتَهـبْ[888]

وقد أعدت الجنة للمتقين الأخيار ، وأعدّت النار للمذنبين الأشرار:

والخيْـر مَوْعِـده الجِنَـا ن وظِلُهـا ، ورَحِيقُهـا
والـشر مَوْعِـده لَظَـى وزَفِيرهـا ، وشَـهيقُها[889]

ويوم القيامة تكون وجوه المذنبين مسودة مظْلمة وهـم مكبلـين بالـسلاسل والأغلال ، بينما المتقين وجوههم مشرقة نضرة:

يـومُ ينَـادَى فيـه كـلّ مـضَلِ بِمقَطعـاتِ النـار والأغْـلال
للمتقـينَ هنـاكَ نَـزْلُ كرامـةٍ عَلَتِ الوجوهَ بنَـضْرَةٍ وجَمـال[890]

ويصور يوم البعث بيوم يَلْجِم فيه الناس العَرق ، يقول:

ما أغْفلَ الناسِ عَـن يَـوْمِ انْبِعـاثِهمِ وَيَوْمِ يلْجِمهم في المَوقِفِ العَرَقُ[891]

وهو يوم تزلزل فيه الأرض ، فتقشعر الجلود ، ويشيب الأطفال ، وتضع كل ذات حملٍ حملها يقول :

---

(887) أبو العتاهية ، الديوان ، ص 140 .
(888) المصدر السابق ، ص 43 .
(889) المصدر السابق ، ص 294 .
(890) المصدر السابق ، ص 326 - 327 .
(891) المصدر السابق ، ص 288 .

يـومٌ تَقْـشَعِر جلـودهمْ وتَشِيب فيه ذَوَائِب الأطْفَال
يَوْم النوازل والزلازل ، والحَوا مِل يَقْذِفْنَ بالأحْمَال
يَوْم التغَابن والتبَاين والتنا زل والأمور عَظِيمةِ الأهْوال[892]

(2) إن أبا العتاهية كان متطرِّفاً في تَشيعه ، فهو "يتشيع بمذهب الزيدية[893] البترية المبْتدعة"[894].

(3) وفي الأغاني كذلك أن أبا العتاهية "كان مجْبراً ... مذبذباً في مذهبه : يعتقد شيئاً فإذا سَمِع طاعناً عليه ، ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره"[895].

والجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، ويزعم الجبرية :"أن الإنسان لا يقدر على شيء ، ولا يوصَف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار"[896].

ولما كان أبو العتاهية من الموالي وهو "نَبَطِي" أصلاً ونسباً ، يرى الدكتور محمد الدّش أن أبا العتاهية إنما اصطنع مذهب الجبرية الذي يصدر عن أصول ثنوية مانوية تقوم على روح الاستسلام ؛ لكونه يتناسب ويتلائم مع أصله النبطِي[897]، ذلك أن بعض الفرق من هؤلاء الجبرية ، كالضرارية تقول بصلاحية الإمامة في غير قريش ، فإذا اجتمع قُرشِي ونَبطي رَبما قُدم النبطي[898].

(ب) <u>الزهد</u>:

معنى "الزهد" لغةً واصطلاحاً:

---

(892) المصدر السابق ، ص 326 .

(893) **الزيدية** : فرقة نسبت إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، تقصر الإمامة في أولاد فاطمة ولا تجيز الإمامة في غيرهم.
الشهرستاني، الملل والنحل ، ج1 ، ص 154.

(894) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص6 .
البترية: طائفة منهم كثير النوى الأبتر ، توقفوا في أمر عثمان ، وفضلوا علياً على جميع الناس.

(895) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص6.

(896) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 87.

(897) د. محمد الدش ، أبو العتاهية حياته وشعره ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1968م ، ص 125.

(898) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص91.

جاء في لسان العرب مادة "زَهَد" : "الزهْد والزهادة في الـدنيا ، ولا يقـال الزهْد إلا في الدّين خاصة ، والزهْد : ضد الرغبة والحرص على الدنيا ، والزهادة في الأشياء كلها ضد الرغبة"[(899)].

وفي القاموس المحيط زَهَد "زهْداً" وزهادةً أو هي في الدنيا ، والزهْـد فـي الدين ضد رَغِب ... والزهيد : القليل ... والتزهيد فيه وعنه : ضد الترغيب"[(900)].

وفي سنن التّرمذي حديث للرسول صلى الله عليه وسلم بـين فيـه المعنـى الحقيقي للزهد ، وهو قوله :"الزهَادةُ في الدنيا ليست بتحريم الحـلال ولا إضـاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديكَ أوثق مما في يد الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذَا أنْتَ أُصِبْتَ بها أرغب فيها لو أنها أُبقيتْ لكَ"[(901)].

وقال بعضهم :"الزهْد عزوف النفس عن الدنيا بلا تَكلف"[(902)]. والزهد عنـد أبي القاسم الجنيد "هو اسْتصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب"[(903)].

والزهد هو الأساس الذي قام عليه التصوف في كل أدواره وأبـرز سـمات الزاهد : العبادة والنسك والتقشف واتباع السلف الـصالح والمحبـة والإخـلاص ، والمجاهدة والتمسك بأحكام الشريعة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة على حد الكتـاب والحـديث والفقـه والأصول[(904)].

وإذا ألقينا لمحة عابرة على نشأة الزهد ، نجد أن الزهد نشأ نـشأة إسـلامية خالصة ، فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية الشريفة ، لذا نرى أن

---

(899) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ج3 ، ص 196.

(900) الفيروزا بادي ، القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسـالة ، بيـروت ، ط2 ، 1987م ، ص 365.

(901) الإمام الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط2 ، 1983م ، ج4 ، ص3 .

(902) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص 216.

(903) المصدر السابق ، ص 217.

(904) أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي (تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره) ، مكتبة الأنجلو المـصرية ، القاهرة ، 1970م ، ص24.

موجة النسك قد انتشرت "في صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهد الأمة وعابدها الأول: رسول ا صلى ا عليه وسلم ، وانتشر معها كثير من المجاهدات والرياضات ، وخاصة في الصوم والصلاة"[905].

وفي العهد الأموي سادت العالم الإسلامي نزعات زهد قوية[906]، وبخاصة العراق فكل "من يدرس هذه الموجة من الزهد ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية في أثناء عصر بني أمية يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو إقليم العراق"[907].

ومن مشاهير الزهاد في العصر الأموي : مرة بن شراحبيل الهمداني السَّكْسَكِي المتوفى سنة 76هـ ، يُرْوى أن مرة هذا :"كان يصلّي في اليوم والليلة خمسمائة ركعة"[908]، ومنهم : همام بن الحارث بن قيس الكوفي العابد المتوفى سنة 65هـ[909]، ومن كبار الزهاد والوعاظ أيضاً : أبو يحيى مالك بن دينار المتوفى سنة 130هـ[910]، وزياد مولى عياش بن أبي ربيعة المتوفى سنة 135هـ[911].

أما في العصر العباسي فقد نشأت حركة زهدية نشطة ؛ فتيار اللهو والمجون والزندقة الذي تقدم الحديث عنه ، كان يقابله تيار قوي من تيارات الزهد، وإذا كانت طائفة من الناس آثرت الحياة الفانية على الباقية ؛ فانهكمت في اللهو والملذات ، كانت هناك طائفة أخرى أدركت أن ملذات الحياة الدنيا ومتاعها مصيرها إلى الزوال ، وأن الدار الآخرة الباقية خير من الدنيا الفانية الزائلة، استشعاراً لقوله تعالى :"بَلْ تُؤْثِرونَ الْحَيَاةَ الدنيا * وَالآخِرَةُ خَيْر وَأَبْقَى "[912]. وخلصت هذه الطائفة

---

(905) د. شوقي ضيف ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط8 ، 1959م ، ص57.

(906) رينولد .أ. نيكولسون ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، نقلها إلى العربية وعلق عليها أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1969م ، ص2 .

(907) د. شوقي ضيف ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص 58-59 .

(908) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج3 ، ص129.

(909) المصدر السابق ، ص 193.

(910) المصدر السابق ، ج1 ، ص120 .

(911) المصدر السابق ، ص 364.

(912) سورة الأعلى الآيتان 16 و 17 .

من الناس كذلك إلى أن الدار الآخرة لا يفوز بها إلا المتقين الأبرار كما قال سبحانه وتعالى : "تِلْكَ الدار الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لا يريدونَ علُواً فِـي الأَرْضِ وَلا فَـسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمتقِينَ"[913]، فانقطعت للعبادة والتبتل والنسك والزهد في الدنيا.

ولا ينْكر أن ثمة عوامل كان لها تأثيرها القوي في حركة الزهد في عـصر العباسيين ، وأبرزها العامل السياسي ؛ فالمجتمع الإسـلامي لـم يعـرف الهـدوء والاستقرار السياسي طوال العصر الأموي وفترة غير قصيرة من الدولة العباسـية، وكان من أثر ذلك أن طائفة من الناس فقدوا اطمئنانهم إلى الحياة وضاع أملهم فيها، فنفضوا أيديهم عنها وخلفوها وراء ظهورهم ، ومضوا يعملون للآخـرة؛ ففرضـوا على أنفسهم حياة متقشفة زاهدة يسيطر عليها شبح الموت والقبر[914]، فـضلاً عـن العامل الاجتماعي ؛ فظهور فوارق كبيرة بين طبقات المجتمع ، أوجد طبقة فقيـرة بائسة قانعة بالكفاف من العيش ، وقد أخذت هذه الطبقة تحتقر المال وزخرف الدنيا ، وتنصرف إلى تقوى ا وعبادته والتوكل عليه ، والعمل لما بعد الموت[915].

وقد ذكرنا في فصلنا الأول طائفة من كبار الزهاد وأهل التقـوى والـورع والصلاح، الذين عرفهم هذا العصر، وعرضنا لمعاً من مناقبهم ومجاهـداتهم، فـلا حاجة بنا إلى ذكرهم هنا[916].

ونتيجة لتطور حركة الزهد في عصر بني العباس "نرى أن طائفة من شعراء هذا الطور قد حققت الكثير من معاني الزهد فأوجدوا بذلك موضـوعاً جديـداً فـي الشّعر العربي ، وهو موضوع كان له وجود كبير عند شعراء طور بني العباس مثل أبي العتاهية"[917]، وباتّساع شعر الزهد وشيوعه في العصر العباسي ، يكـون قـد ظهر "فن جديد"[918] ولون من ألوان الشّعر يضاف إلى أغـراض الـشّعر وفنونـه الأخرى.

---

(913) سورة القصص آية 83.

(914) د. يوسف خليف ، حياة الشّعر في الكوفة ، ص 200.

(915) محمد عثمان علي ، في أدب الإسلام ، ص 555 – 556 .

(916) ص 27 ، 28 ، 29 من هذا البحث.

(917) محمد عثمان علي ، في أدب الإسلام ، ص 560 .

(918) مارون عبود ، أدب العرب ، ص 196 .

الناظر في كتاب طبقات الشعراء يلحظ أن ابن المعتز صور في كتابه جانباً من حياة الزهد والزهاد التي كانت سائدة في عصر العباسيين ؛ فالكتاب يزخر بطائفة جليلة من شعراء الزهد مرفقة بقسط وافرٍ من أشعارهم الزهدية.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض شعراء القصف والعبث – الذين تحدثنا عنهم في صدر هذا المبحث – لما ذهبت عنهم نضارة الصّبا ، وغضارة الشباب وداهمهم المشيب ، شعروا بأن عمر الإنسان لا محالة إلى نفاد ؛ فارعووا عن غيّهم وندموا على ما هم بسبيله من فتك وخلاعة ، فأقلعوا عن اللهو والمجون، وسلكوا سبيل التوبة والإنابة والرجوع ، فظهرت عليهم بوادر الزهد والنسك ، وأول هؤلاء أبو نواس ، يقول:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مع الغُواةِ بِدَلْوِهِمْ   وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللهو حَيْثُ أَسَاموا
وبلغتُ ما بلغَ امرؤٌ بشبابِهِ   وإذَا عصَارة كلّ ذاكَ أَثَامُ[919]

فالحسن بن هانيء بعد أنْ عب من صنوف اللهو ما عب ، وخلص إلى أن ثمرة ذلك هو إثقال النفس بالمزيد من الذنوب ولا شيء غير الذّنوب نراه "يتوب عن إخلاص ، فهو أنموذج لقوة الروح وحياة الوجدان ، في مسالك الهوى ومسارب الضلال"[920]، وهو كذلك "أظهر شخصية تكلمت في الزهد بعد المجون"[921].

وها هو أبو الشّيص الذي قضى شطراً من حياته في اقتراف الملذات ، والركض وراء الشهوات كما تقدم ، ها هو الآخر يودّع أيام الهوى والكأس والطرب ، وليس له من زاجر سوى إحساسه بمفارقة الشباب ، يعينه في ذلك تجاربه الطويلة التي أفضت به إلى أن الخير كل الخير في التوبة والتزام الوقار والاحتشام ، يقولُ:

فورعني بعد الجهالةِ والصّبا   عن الجهل عهدُ بالشبيبة قد ذَهَبْ

---

(919) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 192 .

نهز بالدلو في البئر : ضَرَبَ بها في الماء لتمتليء.

السرح : المال السائم.

أسميته : أرعيته.

(920) د. زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت ، ج1 ، ص 76.

(921) المرجع السابق ، ص 76.

وأحداثُ شيْبٍ يَفْتَـرِعْنَ عـن البِلـى ودهرُ – تهر الناسَ أيامـه – كلـبْ
فأصْبحَتُ قد نكَبْتُ عن طُرقِ الـصّبا وجانْبتُ أحداثَ الزجاجـة والطـربْ
وكَفْكَفَ مِن غَرْبي مَـشِيبُ وكَبْـرةٌ وأَحْكَمني طولُ التجاربِ والأدبْ[922]

ومن كبار الزهاد الذين حواهم كتاب طبقات الشعراء : المعلّي الطائي ، يذكر ابن المعتز أن المعلي هذا كان :"يصلّي في اليوم والليْلة ألف ركعة ، وكان من أقنع الناس وقال يوماً: يكفيني في كلّ سنة خمسون درهماً فضة ، فتعجب من ذلك بنوه ، وكان لا يغتاب أحداً ولا يتكلم فيه ، وكان أعف الناس فرجاً وأصدقهم لساناً"[923].

وورد في طبقات الشعراء أن المعلّي قبل أنْ يَزْهَد كـان :"يتعـاطى الفتـوة والشطارة ، ويطلب ويعبث ويفسد ويقطع ويشرب الخمر ، ثم تاب وصار بالـصّفة التي وصفناها"[924] وفي طبقات الشعراء كذلك أن المعلّي "لما تاب تـرك الـشّعر ، وكان يقال له: لم لا تقوله وأنت نسيج وحدك؟ فيقولُ : قد أبدلني ا به تلاوة كتابه، وما قال بعد ذلك شعراً حتى مات"[925].

ويعد أبو العتاهية من أشهر شعراء الزهد الذين ترجم له ابـن المعتـز فـي طبقاته ، إذ يشهد المؤلف لأبي العتاهية بكثرة "أشعاره في الزهد والمواعظ ، وذكر الموت والحشر والنار والجنة"[926]، وأبو العتاهية يتقدم شعراء العربية في هذا الفن "وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها"[927].

ولما كان الحديث عن الزهد يتصل اتصالاً أكيداً بـالإعراض عـن الـدنيا ونعيمها الزائل ، والانشغال بالدار الآخرة دار البقاء والخلود ، وأن المـرء يتقـرر مصيره بعد موته فإما أن تكون عاقبته النعيم والسعادة أو الشر والعذاب ؛ فلما كـان

(922) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 73.
(923) المصدر السابق ، ص 304 .
(924) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.
(925) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(926) المصدر السابق ، ص 208 .
(927) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط21 ، 1981م ، ص 270.

ذلك كذلك ، كانت أكثر المعاني التي تناولها شعراء الزهد – الذين حـواهم كتـاب طبقات الشعراء – تدور حول شبح الموت والخوف منه ، يقول أبو العتاهية:

نَعَـى نَفْـسي إلـي مِـنَ الليـالي   تَـصرفُهن حـالاً بعـد حـال
لقـد أيقَنْـتُ أنّـي غَيـر بـاقٍ   ولكنّـي أرانـي لا أُبَـالِي
كـأن مَمرضـي قـد قـامَ يَـسْعَى   بـنَعْشٍ بَـيْنَ أربعـةٍ عِجَـال
وخَلْفـي نِـسْوةٌ يَبْكـينَ شَـجْواً   كـأن قُلـوبهن عَلَـى المَقَـالِي[928]

فهاجس الموت يطارد أبا العتاهية وهو يراه في كل خطوة من خطوات حياته ، وتبدل الأيام والليالي وعدم استقرارها على حال ، كل ذلك يدله على أنه لا محالة مفارق الحياة منْتهٍ إلى المصير المحتوم وهو الموت ، ويذهب خيال أبي العتاهية إلى أبعد من ذلك في تصور موقف الموت ، فها هو ممرضه يشيّعه في تـسارع إلـى مثواه الأخير ، والنّساء خلفه يبكين بأسى وحرقة بالغة.

والموت هو مصير كل إنْسان، ولا أحد بناج من شـراكه، كبيـراً كـان أو صغيراً، فهذا قضاء ا وقدره ومشيئته في خلقه ولا راد لإ رادته وحكمه؛ فالجميع يساقون إلى الموت ويتجرعون كأسه وينهلون من حياضه ، يقول ابن منَاذِر:

كل حـيٌ لاقـى الحِمَـام فمـودِي   مـا لحِـيٌ مؤمّـلٍ مـن خُلـودِ
لا تَهـاب المنـون شـيئاً ولا تَـر   عَـى علـى والـدٍ ولا مولُـود
يَفْعَـلُ ا ُ مـا يـشاء فَيمْـضِي   مـا لِفِعْـل الإلـهِ مِـنْ مَـرْدودِ
فكأنـا للمـوتِ ركـبُ مجِـدٌ   ونَ سِـرَاع لِمَنْهـلٍ مَـوْرودِ[929]

---

(928) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 213 – 214 .

المَقَالي : جمع : مِقْلاة : وهي وعاء يقْلى فيه السمك أو البيض أو نحوهما.

(929) المصدر السابق ، ص 112.

أودَى: هَلَكَ ، **وأودى الموت به** : ذَهَبَ به وأهلكه.

ابن منَاذِر: هو محمد بن مناذر مَوْلى لبني يَرْبوع ويكنى أبا ذريح وقيل أبا جَعْفر ، من أهل عـدن أقـام بالبصرة ثم خرج منها إلى مكة فلم يزل بها مجاوراً إلى أنْ مات ، وابن منَاذر من حذاق المحدثين وفحولهم . ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 591 والمصدر السابق ، ص 108 وما بعدها.

والخوف من الموت عند شعراء الزهد يلازمه الخوف من القبر ؛ ففي تبـدل الأزمنة والعصور ، وتغير الأحوال ، وفناء كثير من الوجوه موعظة للإنسان بـأن مآله الاطراح في القبر الذي لا مفر منه ولا منجاة ، يقول أبو العتاهية:

وَعَظَتْـكَ أحْـداثٌ صمـتْ   وَنَعَتْـكَ أزْمنـةٌ خفُـتْ
وتكلمَـتْ عـن أوْجُـهٍ   تَبْلـى وعَـن صـوَرٍ شُـتُتْ
وأرَتْـكَ قبْـرَكَ في القُبـو   رِ وأنْـتَ حَـي لـم تَمـتْ[930]

ومن المعاني التي شغلت شعراء الزهد هي عدم الاطمئنان إلى الدهر وتغلباته وغدره ، يقول ابن منَاذِر:

يَقْدَح الدهْر في شـماريخ رَضْـوى   ويحـط الـصخُورَ مِـن هَبـودِ
ولقـد تتـرك الحـوادثُ والأيـا   م وهيـاً فـي الـصخرةِ الجلمـودِ
أينَ رب الحصن الحـصين بـسورا   ءَ ورب القـصر المنيـف المَـشِيدِ
شَـادَ أركانَـه وبوبـه بَـا   بَـيْ حديـدٍ وحفـه بجنـودِ
كان يجْبى إليـه مـا بَـيْن صَـنْعا   ءَ فبـصْرى فَقَرْيَتـيْ يَبْـرودِ
فَرَمَـى شَخْـصَه فَأقْـصده الدهـ   ـر بَـسهْم مِـن المنَايـا سَـديدِ
ثم لم ينْجِـه مـن المَـوْتِ حِـصْنُ   دونَـه خَنـدقٌ وبـاب حَدِيـدِ[931]

فَللدهر ثورة عنيفة فهو يلْقِي الصخور من أعالي الجبال ، وحـوادث الأيـام تُوهن الصخور الصلبة الصماء ، فكم من ملك شاد قصراً فارهاً وأحاطه بأسوار من الجند والقلاع الحصينة ، وكان يأتيه خراج مملكته من الأصـقاع النائيـة والـبلاد البعيدة ، بيد أن الدهر أرسل إليه سهماً نافذاً من سهام الموت فحينئذٍ لم يجده حراسه وحصونه نفعاً.

---

(930) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 213.

(931) المصدر السابق ، ص 112 .

الشماريخُ: جمع شِمْراخ ، وهو العِثكال عليه بسْر ، أو العنقود عليه عنب **هبـود**: جبـل ، وقيـل : بئـر باليمامة ماؤها ملح لا يشْرب منه.

وقد أثنى ابن المعتز على القصيدة المتقدّمة ووصفها بأنهـا قـصيدة "فَحْلـة محكمة فصيحة جداً"[932].

والدهر لا يصفُو لأحد ، ويوهِم مَنْ أطمأن إلى الدهْر وركن إليه ، وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصاري:

والدهْر آخِذُ ما أعْطَـى مكـدِّر مـا ... أَصْفى وَمفْسِد مـا أهْـوَى لـه بيَـدِ
فـلا يَغُـركَ مِـن دَهْـرٍ عَطيتـه ... فليس يَتْرك ما أَعْطَى على أحـدِ[933]

والدهْر كذلك لا يبقى على حال ؛ فهو يوم لك ويوم عليك ، يقول علي بـن الجهم:

هـي الـنفس مـا حَملتهـا تتحمـلُ ... وللـدهْر أيـامُ تَجـور وتَعْـدلُ[934]

ومن القيم النبيلة والمثُل التي دعا إليها الإسلام وتناولها الشعراء العباسـيون: الصبر ، فالصبْر هو مفتاح كل فرج ، وميسر كل أمر عسير ، وبالـصبر تُقْـضَى الحوائج ويصل الإنسان إلى مراده ومبتغاه ، يقول محمد بن حازم الباهلي:

إن الأمــور إذا ســدت مــسالكُها ... فالصبر يَفْتِقُ مِنْهَا كُـل مـا ارْتَتَجَـا
لا تيأسَــن وإنْ طالــتْ مطالبــةٌ ... إذَا اسْتَعنتَ بصبر أنْ تـرى فَرَجَـا
أَخْلق بِذِي الصبْر أنْ يَحْظى بحَاجَتِـهِ ... وَمدْمِن القَـرْع للأبْـوابِ أَنْ يَلجَـا
أطلبْ لرجْلكَ قبْل الخَطْو مَوْضـعَهَا ... فَمَنْ عَلا زلقاً عَنْ غِـرةٍ زَلِجَـا[935]

ويقولُ منصور الأصبهاني:

فَدونك هـذا الـصبْر إنّـى وجدتُـه ... معيناً عَلى الأمر الذي عز جانبهْ[936]

والإنسان الصبور دائماً محمود العاقبة ، يقول علي بن الجهم:

وعاقبــةُ الـصبْر الجَميـل جميلـةٌ ... وأفضلُ أخلاق الرّجال التفَـضلُ[937]

---

(932) المصدر السابق ، ص 111 .

(933) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 216.

(934) المصدر السابق ، ص 293.

(935) المصدر السابق ، ص 282 .

رَتَجَ البَابَ: أغلقه . **الزلق**: الموضع الذي لاتثبت عليه القدم لملاسته . **وزلجَ**: زلق : زلت به القدم

(936) المصدر السابق ، ص 316.

ومن معاني الزهد التوكل على الله ، والإيمان بقضائه وقدره ، والتسليم بأن الأرزاق لا تأتي بالذكاء والحيلة بل هي من عند الله سبحانه وتعالى يهبها من يشاء من عباده ، يقول العتبي:

ليسَ احتيالٌ ولا عَقْلٌ ولا أدبُ — يجدي عليك إذا لم يُسْعِدِ القَدَر
ولا تَوانٍ ولا عَجْزٌ يَضر إذَا — جاء القَضَاء بما فيه لك الخِيَر
ما قَدر اللهُ لا يعْييكَ مَطلبه — والسعْي في نيل ما لم يَقْضِهِ عَسِر[938]

فمن العبث أنْ تَطْلب الدنيا وتنَال منها ما تُريده إنْ لم يسعفك القضاء والقدر، يقول منصور الأصبهاني:

ومَنْ طلب الدنْيا على ما يريده — أصَابَ ثراء أو أرنت حبائبهْ
فلا تحْسبِ المقدورَ فاتَ وقوعه — فإن قَضاءَ الله لابد طالِبهْ[939]

وعلى المرء أن يقوّي ثقته بالله وألا يجزع عند الحاجة ، وعليه كذلك ألا يقتّر على نفسه مخافة الفقر ؛ فالحرص لا يعصم الإنسان من الفقر ، يقول العتبي:

إنّي – على عسري – بالله ذو ثقةٍ — ورب قومٍ إذا ما أعْسَروا كفروا
كم مانع نَفْسه لذاتِها حذراً — للفَقْر ليس له مِنْ ماله ذُخُر
إنْ كان إمساكُه للفقر يَحْذَره — فَقدْ تعجل فقراً قبْل يَفْتَقِر[940]

ومَنْ يصبر على العوز والفاقة يخلفه اللهُ خيراً ، وعلى الإنسان أن يعوّد نفسه على القناعة ويكبحها عن الطمع ؛ فبالرّفق والتلطف والحيلة يدرك المرء غايته ، يقول منصور الأصْبهاني:

يا نفس لا تَجْزعي من التلفِ — فإن في الله أعظَمَ الخَلَفِ
إنيّ إذَا النفس رَاوَدتْ طمعاً — يَقْصر عن نيْلهِ ذَوو الشرَفِ

---

(937) المصدر السابق ، ص 293 .

(938) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 288 .

(939) المصدر السابق ، ص 316.

أرنت: ارتفع صوتُها بالبكاء.

(940) المصدر السابق ، ص 288 – 289.

وحاولــت خُطــة تُقــصّريــي كَبَحْتُهــا بالحيــاءِ والأنــف

حَتــى أتــاني الــذي أُؤمّلــه بالرّوْق مِنْ حيلتي ومِـنْ لَطَفِـي(941)

وخلاصة القول فإن كتاب طبقات الشعراء حفل بذكر طائفـة مـن أخبـار الزنادقة الّذين تقوم تعاليمهم على القول بمذاهب الديانة المانوية ، وعلى مجـاهرتهم بالإثم والفجور واستهتارهم بالدّين والقيم والأخلاق ، وتيـار الزندقـة فـي عهـد العباسيّين كان يقابله تيار قوي من تيارات الزهد ، فقد هبت طائفة مـن الـشعراء ينافحون هؤلاء الزنادقة ويفضحون دَعْواهم ، ويعملون على تزهيد الناس في الـدنيا ونعيمها الزائل ، ويذكرونهم بالموت والقبر والاستعداد للدار الآخرة ، ويتقدم هؤلاء أبو العتاهية.

على أن المجتمع العباسي كان يزخر بصور أخـرى مـن صـور الحيـاة الاجتماعية التي درسها ابن المعتز في طبقاته مثل : مظاهر الثراء والتـرف الـذي كانت تقابله صورة مضادة من صور الفقر والبؤس وهو ما سندرسه فـي مبحثنـا القادم.

(941) المصدر السابق ، ص 314 – 315.

المبحث الثّالث : مظاهر الثراء ومظاهر الفقر

سبق وأن ذكرنا في فصلنا الأول أن عصر العباسيين اتسم بمظـاهر الثـراء والترف الذي تمتع به الخلفاء ووزراؤهم وحواشيهم ، ومن اتصل بهم من العلمـاء والشعراء والمغنيين ، وقد رأينا أن العباسيين أُغْرموا ببناء القصور والدور والحدائق والبرك ، وكان المتوكل أكثر الخلفاء افتناناً ببناء القصور إذ بلغت قـصوره تـسعة عشر قصراً[942]، أنفق على بنائها زهاء "مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم"[943]. كما بَنَى المعتضد قصر الثّريا وحفه بالبرك والبساتين[944].

يصف التنوخي جانباً من الترف الذي كان يعيشه العباسيون فيذكر أن "عِـدة كل نوبة من نوب الفراشين في دار المتوكل على ا أربعة آلاف فراش"[945].

ومن يتأمل حجم المبالغ المالية التي كان ينفقها العباسـيون علـى حفـلات الزواج، يدرك تماماً مقدار الثراء والرفه الذي كانُوا يتمتعون به، قيل: إن هـارون الرشيد لما تزوج زبَيْدة ، جمع الناس في قصره المعروف بالخلد وحشدهم من الآفاق وفرق فيهم الأموال ؛ فبلغت النفقة في هذا الغرض من بيت مال الخاصة "سوى مـا أنفقه هارون من ماله خمسين ألف ألف دِرْهَم"[946].

ويرْوَى أن المأمون حين تزوج ببوران بنت الحسن بن سـهل أنفـق علـى زواجها "خمسة وثلاثين ألف ألف ، وكان يجْرى في جملة الجرايات في كـل يـوم على نيِّف وثلاثين ألف مَلاح"[947].

---

(942) ص 20 من هذا البحث.

(943) الشابشتي ، الدّيارات ، ص 159.

(944) ص 20 من هذا البحث.

(945) **التنوخي** ، نشوار المحاضرة ، ج5 ، ص 48.

نَوبَة: كانت نوبة الفراشين في دار الخلافة يوماً كاملاً أي : 24 ساعة ، ثم يحضر غيرهم فيحـلّ محلهـم ويعني ما تقدم أن عدة الفراشين في قصر الخلافة كانت ثمانية آلاف فراش على أقل تقدير.

(946) الشابشتي ، الديارات ، ص 156 – 157 وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص 314 – 315.

(947) الشابشتي ، الديارات ، ص 158 .

الجراياتُ: جمع جراية وهي المنحة التي يتقاضاها المتوظّف آخر الشهر.

الملاحة: هي صنعة الملاح ، فن السفر في البحار والأنهر والجو.

ولما زفّت قطر النّدى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون للخليفة المعتضد "كان في جهازها أربعة آلاف تِكة مجوهرة ، وعشرة صناديق جوهر"[948].

وفضلاً عما كان يتمتع به الخلفاء العباسيون من ثراء ونعيم ؛ فإن حياة الترف قد شملت أيضاً وزراءهم ومعاونيهم ، وبخاصة البرامكة ، فمنذ فجر الدولة العباسية عمل الخلفاء العباسيون على استوزار البرامكة وأغدقوا لهم في العطايا والهبات ، حتى بلغوا في عهد هارون الرشيد مبلغاً عظيماً من الثراء والمجد والرفعة يروي ابن كثير أن الرشيد جعل للبرامكة "من الرّفعة في الدنيا وكثرة المال ... شيئاً كثيراً لم يجعل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء ، بحيث أن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم"[949].

ويصف ابن كثير كذلك ما بلغه جعفر بن خالد البرمكي – وزير الرشيد – من كثرة الأموال ، فيذكر أن الرشيد "كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر"[950].

وكان خلفاء بني العباس يجزلون في النوال والهبات على خاصتهم ومَنْ أَنِسوا بصحبته يحْكى "أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عباد بن المهلب : يا أبا عبد ا قد أعطيتك ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف وأعطيك ديناراً"[951].

ولما أنشد الحسين بن الضحاك الخليفةَ المتوكل قصيدته الغزلة التي منها:

تمنيتُ أنْ أُسْقى بكفيه شربةً   تُذكرني ما قد نَسيتُ من العَهْدِ
سقَى ا ُ دهراً لم أبِتْ فيه ساعةً   من الليل إلا من حبيبٍ على وَعْدِ[952]

قال المتوكل :"يعْطى لكل بيت ألف دينار"[953].

---

(948) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 370.

(949) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ، ص 189 .

(950) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(951) المصدر السابق ، ص 278.

(952) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 123 .

(953) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

هذا الثراء والترف الذي تحدثنا عنه كان خاصاً بالخلفاء وبطاناتهم كما تقدم ، أما السواد الأعظم من الشعب فقد كانوا يعانون الفقر والبؤس والحرمان. فالعباسيون قد أرهقوا رعيتهم بالضرائب الباهظة ، واستشرى الاستبداد والفساد فـي أوسـاط وزرائهم وولاتهم فَسَلَبوا الفلاحين في القرى بعض غلاتهـم ، واغتـصبوا أمـوال الشّعب ونهبوا ثرواته ؛ فضاقت أبواب الرزق على الناس ، فكثر اللصوص ، وتعدد قطاع الطرق[954].

وفيما يلي سنولي مظاهر الغنى والفقر– التي تناولها ابن المعتز فـي كتابـه طبقات الشعراء– قدراً من الدّراسة التي تجعلنا نقف على طبيعـة هـذه المظـاهر، فنقول:

(أ) مظاهر الثراء:

اشتمل كتاب طبقات الشعراء على تصوير دقيق لمظاهر الثراء والغنى فـي زمن العباسيين ؛ فالناظر في الكتاب يلحظ أن الثراء والترف كان حكراً على الخلفاء ووزرائهم ولا سيما البرامكة ، وقد وصف ابن المعتز جانباً مـن قـصور بعـض الخلفاء ، كما وصف ملامح من حياة وزرائهم البرامكة ، وصفاً يبصرنا بما بلغـه هؤلاء من الغنى وترف العيش. فالعباسيون قد تفردوا في بناء ألواناً مـن القـصور والدور التي لم يعرف التاريخ أمثالها ، وبالغوا في تزيينها بكل غالٍ ونفيس ، فكانت تدهش الناظر ويسرح فيها البصر.

وصف ابن المعتز قصر الخليفة محمد الأمين فقال :"بني للمخلوع مجلسُ لم تر العرب والعجم مثله ، قد صوّر فيه كل التصاوير ، وذُهّب سقفُه وحيطانُه وأبوابه ، وعلّقت على أبوابه ستور معَصْفَرة مذهبة ، وفُرِشَ بمثل ذلك من الفَرْش ، فلمـا فُرِغَ من جميع أسبابه ، وعَرَف ذلك ، اختار له يوماً ، وتقدم بأنْ يـؤْمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ... فدخلوا فرأوا ُأساً لم يروا مثله قـط ولم يسمعوا به ، من إيوان مشرف فائح فاسح ، يسافر فيه البصر ، وجعِل كالبيضة بياضاً ، ثم ذهّب بالإبريز المخالف بينه باللازْوَرد ذي أبواب عظـام ، ومـصاريع

---

(954) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس ، مطبعة دار الهلال ، القاهرة ، 1958م ، ج3 ، ص 190 وما بعدها.

غِلاظ تَتَلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قُمّعتْ رؤوسها بالجوهر النفيس ، وقد فُـرِشَ بفُرشٍ كأنها صِبْغُ الدم ، منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العِقْيان ، ونُضّد فيه العنبر الأشهب والكـافور المـصعد وعجـين المـسك وصـنوف الفاكهـة والـشمامات والتزايين"[955].

ويصف ابن المعتز كذلك ما كان فيه البرامكة من سعة ونعـيم نقـلاً عَـنْ الأصمعي فيقول:"قال الأصمعي : ما رأيتُ أنجب من البرامكة رجالاً وأطفالاً ، ولا أشرف منهم أحوالاً ، ما أعلم أني حضرتُ يحيى والفضل ولا جعفراً إلا انـصرفتُ عنهم ولإخواني بالحِباء الجزيل . ثم قال : طرب الفضل بن يحيى إلى مـذاكرتي ، فأتاني رسوله ، وكان يوماً بارداً ذا صِرّ وقُر . فقال : أجِب الوزير . فمضيتُ معه ، فلما دخلتُ عليه إذا هو في بَهْو له قد فُرِشَ بالسمور ، وهو في دست منه ، وعلى ظهره دواج سَمور أشهب مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضة، فوقه أُثفيةُ ذهـب ، في وسطها تمثال أسد رابض ، في عينيه يا قوتتان تتوقدان ، وفوق الصينية إبريـق زجاج فرعوني ، وكأس كأنها جوهرة محفورة ... ثُم أُتي بخوان لم أدْر ما جنـسه غير أنّي تحيرتُ في جنسه ، وبصَحْفة مشْمسة فيها لون من مخ الطيـر ، فتناولنـا منها ، ثم تتابعتْ الألوان ؛ فأكلتُ من جميع ما حضر ، ألا والذي اصطفى محمـداً صلى ا عليه وسلم بالرسالة ما عرفتُ منها لوناً واحداً، إلا أنّي لم آكل في الـدنيا شيئاً يدانيها قط لذة وطيباً عند خليفة ولا ملك . ثُم رفِع الخِوان ، وأُتينا بألوان مـن الطيب فَغَسلْنا أيدينا ، وكنتُ كلما استعملتُ منه لَوْناً ظننتُه أطيب ما في الـدنيا مـن عطر فاخر حتى إذا استعملتُ غيره زاد عليه طيباً ، فلما فرغنا من ذلك إذا غلام قد أقبل معه جام بلور فيه غاليه ، قد أزرقت بكثرة العنبر ، فتناولنا بملعقة من الـذهب حتى نضحناه"[956].

---

(955) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 189 – 190 .

العِقيان: الذهب الخالص.

(956) المصدر السابق ، ص 194 – 195.

السمور: هو حيوان ثَدْيي ليلي من آكلات اللحوم يتخذ من جاده فَرْو ثمين .

دَست: الدسْتُ هو صدر المجلس.

خَز: الخَز : هو نسيج من الحرير أو الصوف. **الخِوان**: هو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل ، جمع أَخْوِنَةٌ.

والنصان المتقدمان يدلان على ما بلغه أسلوب ابن المعتـز مـن الرصـانة والسلاسة وإتقان الوصف في أسلوب عز نظيره[957].

وكانت صلات الخلفاء العباسيين لا تنقطع عن الشعراء ، فمَن وقف ببـابهم مادحاً ، أو رأوا فيه شاعراً مجيداً ، أو انفرد بـصحبتهم ومؤانـستهم أو اتـصف بالملاحة والظرف أجزلوا له العطاء ، ويزخر كتاب طبقات الـشعراء بكثيـر مـن صور إكرام الخلفاء لخاصتهم من الشعراء ، وسنكتفي هنا بـإيراد بعـض الأمثلـة والشواهد على ذلك ومنها : قول ابن المعتز :"مدحَ أبو دلامة المهدي فلما أنشده سر بذلك وقال: سلْ حاجتك . فقال له : يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صـيد ، قـال المهدي : يا ابن الحمقاء ما تصنع بكلب ؟ وأية حاجة هذه ؟ قال : يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك ؟ قال : بل لك قال : فإنّي أسألك أن تهب لي كلب صيد. فأمر لـه بكلب ، فقال : يا أمير المؤنين وإن تهيأ لي أنْ أخرج إلى الصيد أَفَأخْرج راجـلاً ؟ فَأمر له بدابة ، قال : ومَنْ يسوس الدابة ؟ قال : أعطوه سائساً . قال : فَمَنْ يطـبخ لنا صيدنا؟ قال : أعطوه طباخاً . قال : وهؤلاء كلهم من يعولهم؟ قال: اكتبـوا لـه بمائتي جَريبٍ عامرة ومائتي جَريبٍ غامرة"[958].

وهذا هو مروان بن أبي حفصة "كان رسـمه علـى الخلفـاء مائـة ألـف درهم"[959]، "ويقال : ما أخذ أحد من الشعراء المتقدمين ولا المحدثين ما أخذ مروان بالشّعر"[960].

جَام: الجَام هي الكأس وقد غلب استعمالها في قدح الشراب .

غَاليةٌ: الغالية هي أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر جمع غَوَالٍ.

(957) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 6 من المقدمة ونعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره فـي ضـوء عصره ، ص 69.

(958) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 50.

الجَريب: مقدار معلوم من المساحة ، قيل إنه ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

الغَامِرةُ : التي لا شيء فيها.

(959) المصدر السابق ، ص 43 .

(960) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

ويروي ابن المعتز أن الرشيد اتخذ ربيعة الرّقي[961] نـديماً ، وأعطـاه ذات مرة ثلاثين ألف درهم ، وخلع عليه حلتين[962].

وقِيلَ : إن أبا الغُول[963] دخل يوماً على الرشيد ؛ فالتفت فإذا الأمين قائم عن يمينه والمأمون عن يساره ، فأنشأ يقولُ:

بَنَيْـتَ لعبـد ا بَعْـدَ محَمـدٍ ذُرَا قُبةِ الإسـلام فاخْـضر عودهـا
همَـا طُنُباهَـا بـاركَ ا فيهمـا وأنْـتَ – أميـر المـؤمنينَ - عَمودهـا[964]

فقال "الرشيد: وَأنت بارك ا فيك ، أحسَنْتَ وأجدتَ ... ثم وصـله بعـشرة آلاف درهم وخلع عليه"[965].

ولم تكن نساء الخلفاء – لثرائهن – بأقل سخاء على الشعراء من أزواجهـن، ومن ذلك ما رواه ابن المعتز من أن الرشيد كان يَسْتحسِن الرقة ويستطيبها فأطـال المقام بها مرة وكانت زوجته زبَيْدة تقيم ببغداد فقالت للشعراء: مَنْ يَـصِف مدينـة السلام في أبيات تشوّق أمير المؤنين إليها فقال منصور النمري[966] أبياتاً أولها:

مـاذَا ببغـدادَ مـن طيـب أفَـانين ومِـن عجائِـبَ لِلـدنيَا ولِلـدّين
إذا الـصبَا نَفَحَـتْ والليـلُ معتكـر فحرشت بَيْنَ أغصان الريـاحين[967]

---

(961) سبقت ترجمته ، ص 133 من هذا البحث.

(962) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 145.

(963) أبو الغُول : واسمه عِلْبَاء بن جوشن ، شاعر عباسِي وهو من بني قطن بن نهشَل . وهو أحد المجيدين ، وله شعر كثير . ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 136 – 137 .

(964) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 136.

عبد ا ومحمد : هما عبد ا المأمون ، ومحمد الأمين ابنا الرشيد.

طنباها: الطنُب: هو حبل يشَد به الخِباء ، والسرادِقُ ، وهو عِرْق الشجرةِ ، وعَصَب الجسدِ.

(965) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(966) منصور النمري: واسمه منصور بن سَلَمَة بن الزّبْرقان من النمر بن قاسط ، وهو من رأس العَيْن ، من فحولة المحدثين ، وكان مقدماً عند الرشيد وله فيه مدائح كثيرة.

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 583 وما بعدها، وابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 221 وما بعدها.

(967) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 225 .

فلما سمع الرشيد هذه الأبيات انحدر إلى بغداد "فوهبت زبْيدة للنمري جوهرة . ثم دستْ إليه من اشتراها بثلاثمائة ألف درهم"[968].

(ب) مظاهر الفقر والحرمان:

مثلما تضمن كتاب طبقات الشعراء صوراً لمظاهر الغنى والترف الذي نعـم به خلفاء بني العباس وبطاناتهم كما تقدم ، تضمن كذلك صوراً أخرى لمظاهر الفقر والبؤس الذي كان يقاسيه الغالب الأعم من الناس ، ففي الكتاب أن العباسـيين قـد أذاقوا الرعية صنوفاً من الشقاء والحرمان بسبب الضرائب الفادحـة التـي كانـت تُفْرض على ضياعهم ومزروعاتهم ، إذ كان عامل الخراج والعشور يتردد كثيـراً على أصحاب المزارع فيلحقهم غير قليل من الأذى والذل والإهانة .

وخير مثال على ذلك ما ورد في طبقات الشعراء من أن أحمد بن أبي فَـنن كانت له ضَيْعَة يعتاش منها ، وكان عامل الخراج يأتيه كثيراً فيؤذيه ويكلفه مـا لا يطيق ، وربما حمله إلى الحاكم ، يذكر ذلك المؤلف في معرض ترجمته لأحمد بن أبي فنن ، فيقول:"وكانت له ضَيْعة في قطيعة لمحمد بن عبد ا بن طـاهر فكـان الحاشر يصير له كثيراً فيؤذيه وربما أشخصه"[969].

وكان خراج ابن أبي فنن "في كل سنة ستة آلاف درهم"[970]، فكتب إلى ابن طاهر يستجير به ويشكو معاناته مع عامله ، فقال:

أَبِنـ ـ ـي حـ ـسَيْنٍ إننـ ـ ـي ... أصـبحتُ فـي كنـفِ الأميـر
ولَنَـا مَعَـاشٌ فـي قَطِيـ ـ ـ ... ـ ـعَتِهِ علـى المـاءِ النميـر
لَـ ـ ـوْلاَ تـ ـ ـردد حَاشِـ ـ ـرٍ ... كالكلْـبِ فـي اليـوم المَطِيـر
غَـ ـ ـادٍ عَلـ ـ ـي ورَائِـ ـ ـحٍ ... يَـصلُ الـرواحَ إلـى البكُـور
فـ ـإذا بَـ ـدا لـ ـي وَجْهـ ـه ... أُخْرِجْـتُ صـغْراً مـن سـروري

---

(968) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(969) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 361.

الحاشر: عامل العشور والجزية.

أشخصه: أزعجه ، وأشخصه من بلده : أخرجه ، وأشخص فلاناً إليه : بعث به.

(970) المصدر السابق ، ص 362.

فَهَــــل الأميـــــر بفَـــضْلِهِ   هِــن فُــبْح طَلْعَتِــهِ مجِيــري[971]

في هذه الأبيات يشكو ابن أبي فَنَن معاناته مع عامل الخراج إلى الأمير ابـن طاهر ، ويقول : إنه يتعهد مزرعته بالرّي والسقيا ليعيش من ثمارهـا ، غيـر أن عامل الخراج يتردد عليه كثيراً واصلاً نهاره بليله في همّة ونشاط كما يفعل الكلاب، فيحس معه بالذل والصغار ، لذا فهو يستجير بالأمير ابن طاهر عله يبادر بإغاثتـه فيكف عنه أذى عامله.

وفي كتاب طبقات الشعراء كذلك نلمح صوراً متنوعة للشعراء الفقراء، يبثون فيها شكواهم من الفقر والحاجة، وما يقاسونه من آلام العوز والفاقة فهؤلاء لم يتركوا "جانباً من جوانب حياتهم البائسة أو مظهراً من مظاهر افتقـارهم إلا ألمـوا بـه، وفصلوا القول في بعضه تفصيلاً يظهرنا على ما كانوا يعيشون فيه هـم وأطفـالهم وأهلهم من الضيق والإملاق، وما كانوا يحتملونه من العذاب النفسي والجسدي"[972] وقد جاءت صورهم مفْعمه بالألم تبعث على الحزن والشفقة .

ولعل أبا فِرْعون الساسي أفضل من عبر عن قَسْوَة الفقر ومرارة الحرمـان، وشظف العيش ؛ فها هم أطفاله الصغار وقد تغيرت ألوانهم من طول ما قاسوا مـن الجوع ، وداهمهم الشّتاء وهم عراة ؛ فكانوا يلتحفون صدر أبيهم عله يخفف عـنهم آلام البرد ، ويقيهم وطأة الصقيع ، يقولُ:

وَصِبْيَـــةٍ مِثْـــل فِـــراخ الـــذر   ســـودِ الوجـــوهِ كَـــسَوادِ القِـــدْرِ
جـــاءَ الـــشتاء وَهَـــمَ بِـــشَرّ   بِغَيْـــر قُمْـــصٍ وَبِغَيْـــر أُزْرِ

---

(971) المصدر السابق ، ص 361 – 362.

أبني حـسَين: إشارة إلى أبناء طاهر بن الحسين ، وقد تقلدوا مناصب إدارية مهمة في عهد الدولة العباسية ، فجدهم طاهر بن الحسين كان أحد قواد الجند في زمن الأمين بن الرشيد ، وعبد ا بن طاهر بن الحسين المتوفى سنة 230هـ كان والياً على مصر من قبل الواثق بن المعتصم ، وتولى محمد بن عبيـد ا بـن طاهر إمارة الشرطة ببغداد في فترة النفوذ التركي.

المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 398 – 399 وج4 ، ص 77.

النمير من الماء : الطيب الناجع في الرّيّ. **الصغْر والصغَار**: الذلُ.

(972) د. حسين عطوان ، شعراء الشعب في العصر العباسي الأول ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، 1970م ، ص 37.

حَتـى إذَا لاحَ عمـود الفَجْـر وجَـاءَني الـصبْح غَـدْوتُ أسْـري

وَبَعْـضهمْ ملْتَـصِقٌ بِـصَدْري وبعـضهمْ منْحجـرُ بحجْـري

أَسْـبقُهمْ إلـى أُصَـول الجـدْر هـذا جميـع قِـصتي وأَمـري

فـارحمْ عِيَـالي وتـول أمْـري كَنيْـتُ نَفْـسِي كُنْيـةً فـي شِـعْري

أَنَا أبو الفقـر وأم الفقـر[973]

وأبو فرعون هذا "كان من أفـصح النـاس وأجـودهم شـعراً، وأكثـرهم نادرة"[974].

ولأبي الشمَقْمَق صورة أخرى من صور البؤس وضـيق العـيش ، لا تقـل صدقاً عما جاء به أبو فرعون الساسي في أبياته المتقدمة ، فغاية مـا يتمنـاه أبـو الشمَقْمَق هو حصوله على القدر اليسير من الخبز واللحم الذي يكفيـه لأن يعـيش وينجو من الموت جوعاً ، فها هو عيد الفطر الذي يفرح فيه الأطفال بجديد الملـبس ولذيذ المأكل قد اقترب ، وأطفاله لا يملكون أقل ما يكون لدى الأطفال في يوم العيد وهو التمر والأرز ، فقد قسا عليهم الدهر ، وجار بهم الزمان ؛ فعنزهم التي كـانُوا يقتاتون من لبنها قد هَلكت ، فَلو هم أبصروا الخبز من مكان بعيد لتسابقوا إليه برغم هزالهم ، ولاستنفدوا كل قواهم الخائرة في سبيل بلوغه ، يقول:

مـا جَمـعَ النـاس لِـدنيُاهم أَنْفَـعَ فـي البيـتِ مـن الخُبْـز

والخُبـز بـاللحم إذا نِلْتَـه فَأَنْـتَ فـي أمـنٍ مِـن التـرز

والقَلْـز مـن بعـد علـى إثْـرِهِ فإنمـا اللـذاتُ فـي القَلْـز

وَقـدْ دَنـا الفطْـر وصِـبْيا نُنـا لَيْـسوا بِـذِي تَمْـر ولا أُرْز

وذَاكَ أَن الـدهْرَ عـاداهم عَـداوةَ الـشاهينَ لِلْـوزّ

كانَـتْ لهـم عَنْـزُ فـأُودى بهـا وأجْـدَبوا مِـنْ لَـبَن العَنْـز

فلـو رأَوا خُبْـزاً علـى شَـاهِقٍ لأَسْـرَعوا للخُبْـز بـالجَمْز

---

(973) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 343 .

الذر : صغار النمل.

(974) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 342.

ولـو أطـاقُوا القَفْـزَ مـا فَـاتَهمْ   وَكَيْـ ـفَ للجـ ـائعِ بـ ـالقَفْزِ[975]

وقد بلغ الفقر بالشعراء العباسيين مبلغاً فقدوا معه القدرة والصبر على احتماله ، فأسلموا نفوسهم إلى اليأس والقنوط؛ فتمنوا موت أبنائهم ، لئلا يعانُوا في حياتهم . نلحظ ذلك في أبياتٍ لمحمد بن يسير الرياشِي يتمنى فيها موت ابنته برغم تعلقها به وشدة حبها إليه، فهو يخشى أن يموت قبلها؛ فيجفوها أهلها وأرحامها ولا تجد بينهم من يرعاها ويرحمها ويشفق عليها فتقاسي ذُلّ اليتم والحرمان، يقول:

لَوْلاَ البنَيةُ لـم أجْـزَعْ مـن العَـدَمِ   ولم أجبْ في الليالي حِنْـدِس الظلَـمِ
وزَادني رغبةً في العـيش مَعْرفَتـي   ذُل اليتيمَـةِ يجفُوهـا ذَوو الـرحم
أخـشىَ فَظَاظـة عـمّ أو جفـاء أخٍ   وكُنْتُ أخْشَى عَلَيها مـن أذَى الكِلَـمِ
إذا تَـذكرتُ بنتـي حِـينَ تَنْـدبني   جَرَتْ لعَبْـرةِ بنتـي عَبْرَتِـي بـدَم
تَهْوَى بَقَائِي وأَهْـوى مَوْتَهـا شَـفَقاً   والموتُ أكرم نَزالِ على الحـرَمِ[976]

ومن صور الحاجة قول أبي فرعون الساسِي:

لـيس إغلاقِـي لِبَـابي أن لِـي   فيـهِ مـا أخْـشَى عليـه الـسرَقَا
إنمـا أغْلِقُـه كَـيْ لا يَـرَى   سوءَ حَـالي مَـنْ يجـوب الطرقَـا
مَنْـزلٌ أوْطَنَـه الفقـر فلـو   دَخَـلَ الـسارقُ فيـه سـرقَا
لا تَرانـي كاذِبـاً فـي وَصْـفِهِ   لو تَراه قُلْتَ لِـي : قـد صَـدَقا[977]

فأبي فرعون يوصِد بابه على نفسه وأسرته ليس خوفـاً مـن أن يَـسْطُوَ اللصوص على ما في داره من متاع وأغراض ، وإنما يوصده حتى لا يطلع أحد من الناس على حقيقة بيته الذي ليس فيه سوى صور البؤس والشقاء والحرمان.

---

(975) المصدر السابق ، ص 117.

النزز : الموت . **القلز** : ضَرْبُ من الشرب ، وقد قَلَزَ فلانُ : شَربَ مصاً.

والقلز : النشاط والوثوب . **الجَمز** : العدو السريع.

(976) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 257.

الحِنْدس : الظلْمة أو الليل الشديد الظلْمة. **الفظاظةُ** : القَسْوَة والغِلْظَة.

(977) المصدر السابق ، ص 343.

ونتيجة لسوء حال الطبقات الفقيرة في المجتمع العباسي ؛ فقد انتشرت ظاهرة الكُدْية ، وشاع التسول واتخذ منه البعض حرفة ؛ فطفق يجوب البلاد مسْتَرْجِماً ومسْتَعْطِيا ، كما في قول محمد بن الدوْرَقِي:

تَنَقلْتُ كي أطلُبَ المرْحَمَةْ وأَرْفَعَ عن نَفْسِي المَغْرَمَةْ[978]

ويروي المؤلف – رحمه الله تعالى – أن من بين الشعراء الذين اتخذوا من التسول والشحذة مهنة لهم: أبو فرعون الساسِي الذي وصِفَ بأنه كان "لا يَصْبر عن الكُدْية"[979].

ولعل أبا فرعون الساسِي كان يزيِّن لنفسه إقباله على الكُدْيَة واستجداء الناس ؛ ففي أبيات له نراه يَنْدب حظه ويشكو عسر حاله وضيق رزقه في أسلوب لا يخلو من الدعابة والسخْرية ، فيقول:

رأيتُ في النوم بَخْتي في زي شَيْخٍ أَرَتِّ
أعْمَى أصمّ ضئيلاً أبا بَنِينٍ وبنْتِ
فَقُلْتُ حيِّيتَ رزْقي فقال : رزْقُكَ بَاسْتِي
فكَيْفَ ؟ لِي بِدَوَاءٍ يلين لي بَطْنَ بَخْتِي؟[980]

ومن الصور المؤلمة للفقر المدقع في أيام العباسيين أن بعض الشعراء يموتون وهم لا يملكون ثمن الكفن الذي يوارى فيه جثمانهم ؛ فهذا هو السيِّد الحِمْيري على شهرته وكثرة شعره وصفاء طبعه ، ها هو يحْتَضَر وليس عنده من المال ما يكفيه لشراء كفنٍ لنفسه ؛ فإذَا غلامه يتسول الناس عله يظفر بكفنٍ ليكُفن به سيده ، يروي ذلك ابن المعتز في ترجمة السيِّد فيقول:" لما احْتَضر السيِّد نظر إليه غلامه وبكى . فقال له : ما يبكيك؟ قال : وكيف لا أبكي وأنتَ تموت وليس لك كفن ؟ فقال: إذا أنَا قضيتُ فَصِر إلى صَفِّ الخزازين . فَقُلْ : ألا إن السيد الحِمْيري

(978) المصدر السابق ، ص 307.

(979) المصدر السابق ، ص 342.

الكُدية : حِرْفَةُ السائِل.

(980) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 342 – 343.

بَخْتي: البَخْتُ: هو الحظ والسعْد، جمع : بخُوت وصاحبه مَبْخُوتٌ. **الأرت** : مَنْ في لسانِه رتة أي عجْمَة.

مادح آل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات . ففعل ، فوافاه سبعون كفناً فيها الوَشْي والدِّيْبَقي"[981].

فالمال كان لا يوجد إلا عند الخلفاء ووزرائهم وخاصتهم ، فمن أراد الغنى وخفض العيش فليشخص ببصره صوب الخلفاء ولينزل قصورهم مادحاً أو مهنئاً أو منادماً ، وإلا فاليمتهن الصعْلكة وقطع الطريق ؛ فلا سبيل إلى الغنى إلا في هاتين ، ومن ذلك قول أبي نُواس:

سَأَبْغِي الغِنَى إما نَدِيمَ خَلِيفَةٍ يقيم سواء ، أو مخِيفَ سَبيل[982]

لذلك نرى أن كثيراً من الشعراء عندما تستبد بهم الحاجة ، يلوذون بخلفاء بني العباس ، ويخصونهم بالمدائح والإطراءات علهم يجدون عندهم ما يخفف عنهم ضيق العيش وعسر الحال ، كما في هذه الأبيات التي يرويها ابن المعتز لأبي الشمقمق:

إن العيَالَ تَركْتُهمْ بالمِصْرِ خُبْزهم العصَاره
وَشرابهم بَوْلُ الحِمَا رِ مزَاجُه بَوْلُ الحِمَارهْ
ضَجوا فقلتُ تَصَبروا فالنجح يقْرَن بالصبَارهْ
حتى أزورَ الهَاشِمي أخَا الغَضَارَة والنضَارهْ
وَلقَدْ غدوتُ وَليْسَ لِي إلا مَدِيحكَ مِنْ تِجَارَهْ[983]

في هذه الأبيات يصف أبو الشمقمق ما وصل إليه حاله من الفاقة والحرمان، حتى أنه ترك أبناءه وهم يفتقرون إلى القليل من الطعام الذي يسد رمقهم ويطفيء عنهم لهيب الجوع ، فقد كثر بكاؤهم وصراخهم من طول ما عانوا من الجوع

---

(981) المصدر السابق ، ص 31 .

الثّياب الديبقية : ثياب دقيقة فيها رقمات منسوجة بالذهب.

(982) المصدر السابق ، ص 196 .

(983) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 116.

العصَارَة : نُفَايَة ما عصر.

النجح: الفوْز والظفر.

والحرمان، وهو لا يملك سوى أن يطلب منهم الاصطبار ، ريثما يذهب فيمدح الخليفة العباسي عله يظفر منه ببعض المال فيشتري منه خبزاً وطعاماً.

ولما اشتد الفقر والبؤس على محمد بن عروس الشّيرازي ، شكا حاله إلى الوزير أبي بكر الفتى ، فقال:

إلى ا ِ أشكو والوزير مذلتي ببغداد والدنيا ربيع مبكر[984]

ويحكي ابن المعتز في أخبار محمد بن عروس الشيرازي، أن ابن عروس عندما بث شكواه هذه لم يمْس يومه حتى حمل إليه الوزير أبي بكر"أربعمائة دينار، وقاد إليه دابة فارهة ، وحَمَلَ إليه ثياباً"[985].

ومجمل القول فإن ابن المعتز قد صور في كتابه طبقات الشعراء مظاهر الثراء والفقر التي سادت الحياة الاجتماعية في عصر الدولة العباسية، فالترف والنعيم كان وقفاً على الخلفاء ووزرائهم وبطاناتهم، وقد تجلى ذلك في تفنن العباسيين في بناء القصور والدور، وتزيينها بفاخر الفرش، ومنضود الأثاث، وقد أغدقوا كذلك على خاصتهم وشعرائهم في البذل والعطاء وخلعوهم فاره الحلل ونفيس الثّياب، على أن العباسيين قد قسوا على رعيتهم فأرهقوها بالضرائب الفادحة التي فُرضت على ضِيَاع الفلاحين ومزروعاتهم، فكان السواد الأعظم من الشعب يقاسي الفقر والبؤس والفاقة، وقد صور الشعراء الفقراء مظاهر حياتهم البائسة، وما كان يعانيه أبناؤهم وأطفالهم من جوع وحرمان صوروا كل ذلك في زفرات حزينة وأنات باكية تتألم لها النفوس وتلتاع لها القلوب، على أن هذه الفوارق الطبقية الكبيرة بين غنى مترف، وفقير معدم، لم تمنع من أنْ تشيع بين أفراد المجتمع العباسي أجواء من الفكاهة، والنادرة وهذا ما سنناقشه في المبحث القادم.

---

(984) المصدر السابق ، ص 382.

(985) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

فارِهَةُ : فَرِهَ فَرَاهةً وَفُروهةً : جَمِلَ وحَسنَ ، أو خَفَ ونشط ، فهو فاره ، وهي فارهة.

المبحث الرابع: الفُكَاهة والنوادر

زخر التراث العربي منذ القديم بالفكاهات والطرف والنوادر ، فالناظر في المكتبة العربية يجد طَرَفاً من الفكاهة والنادرة مبثوثة في كثير من كتب الأدب والسّير والتاريخ مثل : كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي ، وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب "المسْتَطْرف في كلّ فن مستَظْرف "لشهاب الدين الأبشيهي وغيرها ، بل أن بعض المؤلفين تخصصوا في هذا الفن فصنفوا كتباً مستقلة تحكي نوادر وطرائف الحَمْقى والمغفلين من الرواة والشعراء والمتأدّبين والكتاب والمعلمين ، ككتاب "طرائف الحَمْقى والمغفلين" لابن الجوزي ، وكتاب "جمع الجواهر في الملح والنوادر" للحصري القيرواني وغيرها.

وقد جبلُوا على معاشرة من اتصف بالظرف وخفة الروح وأنفُوا من الثقيل الفَدْم ، لذلك وضعوا للمسامِر شروطاً بها يطيب المجالس ويحلو السمر وتلذ المنَادمة ، يقولُ الحصري القيرواني:"ومِن شَرْط المسَامر والمنادِر أن يكون خفيف الإشارة ، لطيف العبارة ، ظريفاً رشيقاً ، لبقاً رفيقاً ، غير فَدْم ولا ثقيل ، ولا عنيف ولا جهول ، قد لبس لكل حالة لباسها ، وركب لكل آلة أفراسها ، فطبق المفاصل ، وأصاب الشواكل ، وكان برائق حلاوته ، وفائق طلاوته ، يضع الهنَاء مواضع النقْب ، ويَعْرفُ كيف يخرج مما يدخلُ فيه إذا خاف ألا يسْتَحسن ما يأتيه"[(986)].

ويذهب الجاحظ إلى أن الكلام إذا انصرف كلّه إلى الجد مله السامع واستثقله المنادم ، لذلك فهو يرى أن على المسامر والمحادث أنْ يتصرف في وجوه كلامه فلا يجعله كله جداً لئلا يمَل ، بل أن يسلك حيناً سبيل الهَزْل والدعابة، ثم يعود إلى ما كان فيه من حزم ، فذلك أرْوَح للنفس وأشحذ للهمم . وقد حَقق الجاحظ هذا المنهج الاستطرادي في مؤلفاته ونبه إليه في كتابه البيان والتبيين فقال: "لا تَكدوا

(986) الحصري القيرواني ، جمع الجواهر في الملح والنوادر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1953م ، ص9.

الفَدم: العيي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم.

الهناء : القطران.

النْقب: الجرب أو القطع المتفرّقة منه.

هذه القلوب ولا تُهْمِلوها ؛ فخيْر الفِكْر ما كان عَقِب الجَمَام ، ومَنْ أَكْره بصره عَشي . وعاودوا الفكرة عند نَبَوات القلوب ، واشحذوها بالمذاكرة ، ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتُحِنْتُم ببعض الاستغلاق ؛ فإن مَنْ أدامَ قرع الباب وَلَج"[987].

ويرى الحصري القيرواني أن الكتاب أو المؤلف إذا حَوَى قدراً من النوادر والملَح "وفواكه الفكاهات ، ومنازه المضْحكات ، ترتاح إليه الأرواح ، وتطيب له القُلوب ، وتُفْتَق فيه الآذان ، وتُشْحَذُ به الأَذْهان ، ويطْلق النفسَ من رباطها ويعيد إليها عادة نشاطها إذا انقبضت بعد انبساطها . فقد قيل القلب إذا أكره عَمى"[988].

وإذا ألقينا لمحة عابرة على عصر الدولة العباسية – الذي يعنينا في هذه الدّراسة وما سبقه من العصور – نجد أن طبيعة الحياة الاجتماعية في عهد العباسيين أدت إلى شيوع الفكاهات والنوادر بصورة لم تشهدها العصور السالفة ؛ فطابع الترف الذي صبغت به الحياة الاجتماعية في بعض جوانبها "جعل الشعراء يتظرفون ويتنادرون ويفتنُون في أساليب الهَزْل؛ لأن ذلك كان سبباً من أسباب معاشهم ، إذ رَأَوْا الخلفاءَ والأمراءَ قد اتخذوا لأنفسهم مقربين ممن يضحكونهم بالنوادر"[989] فنهجوا منهج هؤلاء المضحكين وسلكوا مسلكهم بغية الحصول على المال وكسب الرزق.

ويكفينا هنا أن نشير إلى أن عصر الدولة العباسية شهد طائفة لأشهر الظرفاء الذين عرفهم التراث العربي وهم : أشعب الطماع [990].

---

(987) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 274 .

الجَمَام : الراحة.

(988) الحصري القيرواني ، جمع الجواهر ، ص 1-2.

(989) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مراجعة د. درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2004م ، ج3 ، ص 125.

(990) هو أشعب بن جبير مولى عبد الله بن الزبير ، وكان من أحلى الناس مفاكهةً ، وأطيبهم غناء وأكثرهم ملحاً ، من أهل المدينة ، ونسك في آخر عمره ومات على ذلك ، وكان يوم قُتل عثمان غلاماً يسقي الماء وبقي إلى خلافة المهدي ، وتوفي سنة 154هـ.

الحصري القيرواني ، جمع الجواهر ، ص 68.

وجحَا[991]، وأبو دلامة[992]. وعلى شاكلتهم برز صنف من الشعراء يحكون ألفـاظ الناس من البلاد المختلفة مع مخارج حروفهم ، لا يغادرون من ذلك شـيئاً ، كمـا يحكون كذلك ألسنة الدواب والبهائم[993].

روى الثعالبي في يتيمة الدهر أن رجلاً يدْعى أبو الورد "كان مـن عجائـب الدنيا في المطايبة والمحاكاة، وكان يخدم مجلس المهلبي الوزير[994]، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي، فيعجب الناظر والسامع ويضْحك الثكلان"[995].

أشاع ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء طُرَفاً أدبية وملحاً اجتماعية ونكات تدفع الابتسامات إلى الشّفاه دفعاً ليبعد الملل عن نفس قارئه ويثيـر الفـضول إلـى متابعة ما يقدم من أدب. فضلاً عن أن المؤلف كثيراً ما يرمي في طريـق القـارئ وأمام عينيه أبياتاً للحمقى تثير الضحك والإشفاق ، أو قـصائد لـشعراء الهـزلين الفكهين الذين ينتزعون الضحك انتزاعاً من أعماق القلوب ؛ فيكون هذا الشعر فـي غالبه عامل تسرية ومبعث ترفيه ، ويخلق عنـصر التـشويق والإمتـاع لمتابعـة كتابه[996].

---

(991) جحا : ويكنى أبا الغصن ، كان يقيم بالكوفة ، وقد روي عنه ما يدل على ذكاء وفطنـة إلا أن الغالـب عليه التغفيل ، واشتهر بالظرف والكياسة ، وكان الخليفة المهدي يحضره ليمازحه ، وقد قيل: إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات وا أعلم؛ فعن مكي بن إبراهيم أنه يقولُ :"رأيتُ جحا كيساً ظريفـاً ، وهـذا الذي يقال عنه مكذوب عليه ، وكان له جيراناً مخنثين يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه".

ابن الجوزي، طرائف الحمقى والمغفلين، تحقيق مهدي الطفيلي، دار التضامن، بيـروت،1991م،ص48 وما بعدها.

(992) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 235 والعباسي ، معاهد التنصيص ، ج2 ، ص 212 .

(993) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج3 ، ص 125.

(994) المهلبي الوزير:واسمه:الحسن بن محمد بن هارون المتوفى سنة 352هـ، وهو من ولد المهلب بن أبي صفرة، واسم المهلب ظالم بن سراق ولي خراسان من قبل الحجاج بن يوسف، وكان من أشـجع النـاس، وتوفي سنة 82هـ.

ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص337-338 وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1، ص 91 .

(995) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعـة الـسعادة ، القـاهرة ، ط2 ، 1956م ، ج2 ، ص 378.

(996) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 338-339.

وقد استطاع ابن المعتز من خلال هذه الطرف والنوادر التي بثها في ثنايا كتابه أن يصوّر جانب الفكاهة في المجتمع العباسي أصدق تصوير.

ويبدو أن المصنف – رحمه الله – كان حريصاً على أن يتوافر عنصر التشويق في أدبه ، لذا نراه لم يكتف فقط بالملح التي تناثرت في أثناء سرده لأخبار الشعراء ، بل لقد خص بعض الفكهين من شعراء العصر العباسي بترجمات منفصلة أورد خلالها نماذج متنوعة من نوادرهم.

ونرى أن أظهر شخصية فكاهية وردت في الطبقات هو الشّاعر زَنْد بن الجَوْن المعروف بأبي دلامة فقد أفرد له ابن المعتز ترجمة منفصلة ضمنها طَرَفاً من أخباره ونوادره وأشعاره الفكهة.

ولعل المؤلّف قد اهتدى إلى سبر أغوار هذا الشاعر ، فنراه يشير في أكثر من موضع إلى أن روح الفكاهة والدعابة كانت متغلغلة في نفس أبي دلامة ، وهو عنده مجبول على الظرف والنباهة فضلاً عن تفرده في سائر الفنون ، قال عنه :"كان أبو دلامة مطبوعاً مفلقاً ظريفاً كثير النوادر في الشّعر ، وكان صاحب بديهة، يداخل الشعراء ويزاحمهم في جميع فنونهم"[997].

وفي طبقات الشعراء كذلك أن خلفاء بني العباس كانُوا مولعين بأبي دلامة ينادمونه ويأنسون بصحبته ، ويجزلونه له العطايا والنوال لظرفه وحلاوته[998]. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن أبا دلامة كان منقطعاً "إلى أبي عباس وأبي جعفر المنصور والمهدي ؛ فكانُوا يقدّمونه ويصلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره"[999].

وصف ابن المعتز المكانة التي حظي بها أبو دلامة عند السفاح فقال:" كان أبو العباس السفاح مولعاً بأبي دلامة ، لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً لحسن أدبه ... وكثرة ملحه"[1000].

---

(997) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 46.

(998) المصدر السابق ، ص 46 وما بعدها.

(999) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 235.

(1000) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 52.

وهذا هو المنصور الذي عرف بالجد والصرامة والشدة على أهـل الفـسق والفجور ، ها هو وقد تبين أن أبا دلامة هذا "فاسد الدّين ، رديء المذهب ، مرْتكِبـاً للمحارم ، مضيّعاً للفروض ، مجاهراً بذلك ، وكان يَعْلَم هذا منـه ويَعْـرف بـه ؛ فيتجافى عنه لِلُطْفِ مَحَلِّهِ"[1001].

وفيما يلي سنورد جانباً من ملحه ونوادره : حكى ابن المعتز:أن أبـا دلامـة دخل يوماً "على المهدي وعنده عيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وناس من بني هاشم، فقال له المهدي:اهج أينا شئت. فنظر إلى القوم وتصفحهم، فكلّما مَر نظـره إلى رجل غمز بعينه:إني على رضاك ولا تفعل. فمكث هنيْهةً ثم أَنْشأ يقولُ:

ألاَ أَبْـــغْ لـــديك أَبـــا دلامـــةْ فَلَـــسْتَ مِـــن الكـــرَام ولا كرامـــةْ
جَمَعْـــتَ دمامـــةً وجَمَعْـــتَ لُؤْمـــاً كـــذاكَ اللـــؤْم تتبعـــه الدمَامـــةْ
فإنْ تَـك يـا علَـيْج أَصَـبْتَ مـالاً فَيوشِـــك أن تَقُـــومَ بـــك القِيامَـــةْ
إِذَا لَـــبِسَ العِمَامَـــةَ قُلْـــتَ قِـــرْد وخِنْزِيـــرٌ إذَا وَضَـــعَ العِمَامَـــةْ

فضحك المهدي وتعجب مِن حسْن ما أتى به من التخاص مما كان دفِعَ إليه؛ فلم يبق أحد في القوم إلا وصله وأهدى إليه"[1002].

ومن نوادر أبي دلامة كذلك أنه خرج ذات مرة "مع المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد ... فَرَمى المهدي بنشابه فأصاب ظبياً . ورمَى علي بن سليمان فأصاب كلبَ صيد ، فضحك المهدي فنظر إلى أبي دلامة فقال : قد وجَدْتَ مَقالاً فَقُل ولـكَ حكْمك . فقال:

قَـــدْ رَمَـــى المهـــدي ظبيـــاً شَـــــــك بالـــــــسهْم فُـــــــؤَادَهْ
وعَلـــــي بـــــــن ســـــــلَيما نَ رَمَـــــى كلْبـــــاً فَـــــصَادَهْ
فَهَنِيئـــــاً لَهُمـــــــا كـــــــ ـــــــلُّ امـــــــرئٍ يَأْكـــــــــل زاده

فاستفرغ المهدي ضحكاً وقال لعلي بن سليمان لأَحْكُمَنك على حكمه . قال : أعيذكَ با يا أمير المؤمنين ... وافْتَدى منه بمالٍ"[1003].

(1001) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 235.

(1002) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 49.

وممن شهروا بالفكاهة أبو الشَمَقْمَق الشاعر ، قال عنه ابن المعتز:"وشعر أبي الشمَقْمَق نوادر كله"[(1004)].

كان أبو الشمَقْمق مقتدراً على الإضحاك حتى في أحلك المواقف وأشدها حزناً ، ولا أرى موقفاً أشد هولاً وأعظم فجيعة من أن يقف المرء على شفا القبر استعداداً لدفن قريب له ، يروي ابن المعتز ذلك في نادرة من نوادر أبي الشَمَقْمق فيقول:" ماتت ابنة عم للمنصور ؛ فحضر المنصور دفنها ، فلما صار على شفير القبر إذا هو بأبي الشمَقَمَق ، فقال له : ما أعددتَ لهذا الموضع ؟ قال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور في ذلك الموضع ، على أنه قليل الهَزْل"[(1005)].

وعلى شاكلته العتابي[(1006)]، فقد قيل إن منصور النمري مر يوماً بالعتابي "فرأى به العتابي كآبة فقال له النمري : إنّي مغْتم بما مرأتي فلانة ، فإنها تمخض منذ ثلاث وقد عَسرَتْ عليها ولادتُها ، فقال له العتابي: ويحك ، فأين تركتَ الحزم ودواؤها عندك ؟ فقال: وما هو ؟ فقال: تكتب على متاعها الرشيد ، حتى تسهل ولادتها فإنّما عسر الولادة من ضيق المسلك . وإذا كتَبْتَ الرشيد على فرجها اتسع. فغضب النمري واختلط ، وقال : ويحك أشكو إليك مثل هذا الأمر وتستقبلني بمثل هذا ، وتستخف باسم أمير المؤمنين وذِكْره؟ فقال العتابي: فلا تغضبن فأنت علمتنا هذا . ألست القائل في الرشيد:

إِنْ أخْلَفَ القَطْر لم تُخْلِفْ مَخَايلُه أوضَاقَ أمرُ ذكرناه فيتسع"[(1007)]

ومن الظرفاء أصحاب الفكاهة محمد بن عمرو بن عطاء المعروف بالجماز البصري، وكانت "أكثر نوادره على الطعام"[(1008)]. وجل ما ذكره المؤلف من أخبار

(1003) المصدر السابق ، ص 51 .

(1004) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 118.

(1005) المصدر السابق ، ص 116.

(1006) العَتابي: هو كلثوم بن عمرو من بني عتاب، ومن ولد عمرو بن كلثوم التغْلِبي، ويكنى أبا عمرو وكان شاعراً محسناً وكاتباً في الرسائل مجيداً ولم يجتمع هذان لغيره ، أدرك بني العباس فمدحهم ونال عطاياهم. ابن قتيبة ، الشّعر والشعراء ، ص 586.

(1007) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 221.

(1008) الحصري القيرواني ، جمع الجواهر ، ص 9.

الجماز البصري كانت تتصل بنوادر الجماز وملحه ، وسنكتفي هنـا بواحـدة مـن طرفه.

قال ابن المعتز :"حدثني أحمد بن الخصيب البصري قال : اجتمع الجماز مع قوم يشربون ، وعندهم جارية تُغنّي . فبينا هي في بعض أمرها إذ ضرطت ضرطةً خفيفة لم يسمعها إلا الجماز ، وكان قريب المجلس منها . فظنت الجارية أنـه لـم يسمعها ، وأن أحداً غيره لم يسمعها إنْ كان هو لم يسمعها ، فقالت له لمـا صـار القدح إليه: أي صوتٍ تحب أن أغني لكَ يا أبا عبد ا ؟ فقال : غني: "يا ريح مـا تَصْنَعِينَ بالدّمَن"فضحكتْ الجاريةُ وقالت : أكتم علي"[1009].

وخلاصة القول فإن عامل الترف الذي صبغت به الحيـاة الاجتماعيـة فـي عصر العباسيين أشاع أجواء من الفكاهات والنوادر، فكثر الشعراء الظرفاء واتخـذ البعض من الفكاهة حرفة له؛ فطفق ينادم الخلفاء ويضحكهم وينال عطاياهم كما فعل أبو دلامة وغيره، وقد تتبع المؤلف أخبار هؤلاء الشعراء الفكهين فبث في كتابه لمعاً من طرفهم الأدبية وملحهم الاجتماعية التي تثير الضحك وتبعد الملل عن نفس قارئه وتثير فضوله إلى متابعة ما يقدّم من أدب، ومثلمـا صـور ابـن المعتـز الحيـاة الإجتماعية للمجتمع العباسي ، صور كذلك حياته الفكرية وما انتشر من عقائد دينية ومذاهب فكرية ، وسنتناول ذلك بالبحث والدّراسة في مبحثنا القادم إن شاء ا .

(1009) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 340.

(ب) الحياة الفكرية:

المبحث الخامس: الشّيعة وأصحاب الكلام والخوارج

1- الشّيعة:

ازدهرت الحياة العقلية في هذا العصر ؛ فكان من نتاج هـذا الازدهـار أن انتشرت المذاهب الفكرية ، وراجت العقائد الدّينية وكثر شيوخها وأتباعها . ولعـل من أبرز هذه الفِرق: فرقة الشيعة و "هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنـه علـى الخصوص . وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصيةً ، إما جَلياً وإما خفياً ، واعتقـدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإنْ خرجَت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية مـن عنده . وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتـصب الإمـام بنصبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن الدّين ، لا يجوز للرسل عليهم الـصلاة والسلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة"[1010].

وقد حملهم غلوهم في تشيعهم إلى علي كرم الله وجهه إلى الاعتقاد بأن علياً كان أحق بالخلافة "من أبي بكر ، وعمر ، وعثمان وأن النبي صلى الله عليه وسـلم عهد له بها من بعده"[1011].

والشيعة بحسب أصولهم "خمس فِـرَق : كيـسانية[1012] ، وزيديـة[1013] ، وإمامية[1014] ،

(1010) الشهرستاني ، الملل والنّحل ، ج1 ، ص 146 .

(1011) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج3 ، ص 646.

(1012) الكَيْسَانية: وهم أصحاب كَيْسَان مولى علي بن أبي طالب ، ومنهم فرق كثيرة ترجع في أصـلها إلـى فرقتين : إحداهما تزعم أن أبا القاسم محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية والمتوفى في سنة 81هـ حي لم يمت وهم ينتظرونه ، ويزعمون أنه المهدي المنتظر ، والفرقة الثانية منهم يقرون بإمامتـه في وقته وبموته وينقلون الإمامة بعد موته إلى غيره ، ويختلفون بعد ذلك في المنقول إليه.

عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، د.ت ، ص 17 ، 26.

(1013) سبق شرح "الزيدية" ص 207.

(1014) الإمامية : وهم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي عليه الصلاة والـسلام ، نـصاً ظـاهراً وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين ، ثم تخطوا هذه الدرجة إلى الوقيعـة فـي كبار الصحابة طعناً وتكفيراً ، واختلافات الإمامية أكثر من اختلافات الفرق كلها فقد وحلوا فـي الـضلال فبعضهم معتزلة وبعضهم مشبهة وغير ذلك.

وغُلاة[1015]، وإسماعيلية[1016]"[1017]. ثم تعددت آراؤهم واختلفت مذاهبهم فكثـرت طوائفهم.

وقد تقدم أن العلويين وشيعتهم وقفوا من الدولة العباسية موقف العداء ، فقـد رأى العلويون أن نَسْل فاطمة الزهراء بنت رسول ا صلى ا عليه وسـلم أحـق بالخلافة من العباسيين أبناء العمومة ، لذا كثرت ثوراتهم واشتد سـعيهم لتقـويض سلطة بني العباس ، فتصدى لهم العباسيون وفتكوا بهم[1018]، يروي المسعودي : أن المنصور وحده قتل خمسمائة رجل من الشّيعة[1019].

لم يغفل المؤلف الحديث عن الحياة الفكرية في عصر العباسيين فقد عـرض لأهم المذاهب الدينية التي نشطت وقتذاك وهم: الشّيعة والمتكلمون والخوارج . ولما كان مذهب التشيع قد تجذر في المجتمع العباسي ؛ فقد شغل به ابن المعتز قطعة من كتابه طبقات الشعراء وذلك بترجمته لطائفة من شعراء الشّيعة وهي ترجمات يمكن للقاريء من خلالها الوقوف على حقيقة التشيع والاطّلاع على مذاهبه.

فمن شعراء الشيعة الكَيْسَانية : الـسّيد الحميـري ، يـذكر ذلـك المؤلـف فيقول:"كان السّيد أول زمانه كَيْسَانياً يقولُ برجعة محمد بن الحنفية"[1020].

الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص162 وما بعدها.

(1015) غُلاة: ويعرفون كذلك بالشيعة الغالية ، وهم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود البشر ، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق وقد نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية والتناسخية ومذاهب اليهود والنصارى ، وبدعهم كثيرة وهم أحد عشر صنفاً. الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 173-174.

(1016) الإسماعيلية : وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زيـن العابـدين بـن الحسين بن علي بن أبي طالب المتوفى سنة 148هـ ، وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل ، فلا تـزال فرقة منهم منتظرة لإسماعيل بن جعفر على الرغم من وفاة إسماعيل في حياة أبيه . عبد القاهر بن طـاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 42.

(1017) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 147.

(1018) ص 6 ، 17 ، 18 من هذا البحث.

(1019) المسعودي ، مروج الذهب ، ج3 ، ص 308.

(1020) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 29.

والرجعة عند الشّيعة "معناها رجوع جميع المؤمنين : الأنبياء فمـن دونهـم والأئمة المعصومين وغيرهم ليقاتلوا جميعاً تحت راية علي بن أبي طالب ورجـوع جميع الكافرين ... ليثأر علي وآله والمؤمنين منهم ، وليجازوهم ما فعلوه بهم مـن ظلم وعدوان"[1021].

واعتناقاً لهذا المذهب فإن السّيد كان يؤمن برجوع محمد بن علي بـن أبـي طالب – المعروف بابن الحنفية – إلى الحياة الدنيا ؛ فهو يعتقد أن ابن الحنفية "لـم يَمت وأنه في جبل رَضْوَى بين أسد ونمر يحفظانه وعنده عينان نضاختان يجريـان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما مِلِئت جوراً"[1022].

لذا فالسّيد يرتقب رجعة محمد بن الحنفية وينتظرها بشوقٍ ولهفة ، يقول:

حَتى مَتَى؟ وإلى مَتَى؟ ومَتَى المَدَى؟ يا ابْنَ الوَصيِّ وأنْتَ حي تُرْزَقُ[1023]

بيد أن المؤلف يذكر أن السّيد الحميري في آخر أمره عدل عن مذهبـه ، إذ قيض الله له رجلاً من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب وهـو جعفـر الـصادق فأخبره أنه على ضلالة وناظره وألزمه الحجة فرجع وأناب[1024]. لذاك نراه يـشير إلى تركه تلك المقالة ورجوعه عما كان عليه ويذكر جعفر الصادق ، ويطلب العفو والمغفرة من الله تعالى ؛ فيقول:

تَجَعْفَـرْتُ باسـمِ الله والله أكبـر وأيْقَنْـتُ أن الله يعفُـو وَيَغْفـر
ويثْبِـتُ مَهْمَـا شَـاءَ ربِّـي بـأَمْرِهِ وَيَمْحـو وَيَقْـضِي فـي الأمـور وَيَقْـدر[1025]

وممن اتهموا بالتشيع إبراهيم بن هَرْمة "وكانت له مدائح في عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وفي حسن بن زيد عليهما السلام ، وكان منقطعاً إليهما"[1026]. ومن شعره في ذاك:

(1021) عبد الله علي القصيمي ، الصّراع بين الإسلام والوثنية ، ط2 ، 1982م ، ج2 ، ص 27.
(1022) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج9 ، ص 197.
(1023) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 29.
(1024) المصدر السابق ، ص 29 والصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج9 ، ص 197.
(1025) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 29.

ومهمـــا أُلام عَلَــــى حبّــــهِ فــإنّي أُحـــب بنـــي فَاطِمَـــهْ
بَنِـي بِنْـتِ مـن جَـاءَ بالمحْكَمـا تِ والـدّين والـسنةِ القَائِمـــهْ[1027]

ومن شعراء الشّيعة منصور النمري حيث "كان النّمري يدين بالإمامة سِـراً، ويمدح آل الرسول ويعرض في شعره بالسلف"[1028].

ومنهم دِعْبل بن علي الخُزاعِي وقد اختص بمدح الشّيعة فكانُوا يجزلون لـه العطية ، روى ابن المعتز أن دعْبلاً هذا :"كان يجتاز بقُم[1029] فيقيم عنـد شـيعتها فيقسطون له في كل سنة خمسين ألف درهم"[1030].

ومن الشاعرات المتشّيعات المنافحات عن مذهب الشيعة عائشة العثمانيـة ، ويذكر في تعصبها للشيعة أنها "كانت كثيرة المال والعبيد ، تفـرّق مـا لهـا فـي الطالبيين وتجّهز جيوشهم ، وتقوّي أمورهم ، وتخرج وتحارب دونهم ، وكانت من أشجع الناس ، وخرجت في غير جيش ، وحاربت في مواطن كثيرة ، وقتلت بـشراً كثيراً"[1031].

ولم تكن فَضْل الشاعرة جارية المتوكل بن المعتصم بن الرشيد والمتوفى في سنة 262هـ ، بأقل تعصباً لمذهب الشيعة من عائشة العثْمانية ، إذ "كانـت تتـشيع وتتعصب لهذه العِصَابة ، وتقضي حـوائجهم بجاههـا ومنزلتهـا عنـد الملـوك والأشراف"[1032].

ويروي ابن المعتز في أخبار فضل : إن فضلاً "عشقت سعيد بن حميد الكاتب ، وكان سعيد من أشد الناس نصباً وانحرافاً عن آل الرسول عليهم السلام . وكانـت

(1026) المصدر السابق ، ص 17.

(1027) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(1028) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 223.

(1029) قُم: مدينة في إيران ، وهي معقل من معاقل الشّيعة وموضع مقدس عندهم.

(1030) المصدر السابق ، ص 243.

(1031) المصدر السابق ، ص 385.

(1032) المصدر السابق ، ص 388 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج3 ، ص 185.

فَضْل في الغاية والنّهاية من التشيع ، فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه ؛ فلم تزل على ذلك إلى أنْ توفيت"[1033].

2- أصحاب الكلام:

نشط علم الكلام في عصر الدولة العباسية وكثرت فرقه وطوائفه ومن أشهر فرق المتكلمين يومئذٍ "المعتزلة" ، وذُكر في سبب تسمية المعتزلة بهـذا الاسـم أن واصل بن عطاء[1034] كان تلميذاً للحسن البَصْري المتوفى سنة 110هـ ؛ فـدخل رجل على الحسن يسأله في أمر مرتكب الكبيرة من المؤمنين ؛ فبينما الحسن يهـم بإجابته إذ ابتدره واصلٌ قائلاً :"أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقـاً ، ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتـزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة مـن أصـحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسمِي هو وأصحابه مُعْتَزلة"[1035].

فواصل بن عطاء هو مؤسس فرقة المعتزلة وحامل لوائهـا والـداعي إلـى مذهبها وعنه أخذ غير واحد.

ومن أشهر علماء المعتزلة وقتـذاك بـشر بـن المعتمـر المتـوفى سـنة 210هـ[1036] "ويقال إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مسْتَجيبيه"[1037]، و إبـراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة 220هـ[1038] و أبو الهذيل العـلاف المتـوفى سـنة

(1033) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 388 وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج3 ، ص 185-186.

(1034) واصل بن عَطَاء الغَزال: يكنى أبا حذيفة ، مولى بني ضبة ويقال: مولى بني مخزوم ، مولده بالمدينة سنة 80هـ ، ولم يكن غزالاً ولكنه لقب بذلك ؛ لأنه كان يلزم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن ، كان ألثق في الراء ، طويل العنق ، قرأ العلوم والأخبار على يد أستاذه الحـسن البـصري ، وتوفي واصل سنة 131هـ. المبرد ، الكامل ، ج3 ، ص 137 وابـن النـديم ، الفهرسـت ، ص 333 والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1، ص 113 . والشهرستاني، الملل والنحـل، ج1، ص 46.

(1035) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 48.

(1036) ابن النديم ، الفهرست ، ص 338.

(1037) المرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 131.

(1038) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 248 وابن النديم ، الفهرست ، ص 339.

226هـ وهو "شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة والمناظر عليها"[1039]. والجاحظ المتوفى سنة 255هـ[1040].

وسبق أن أشرنا إلى أن بعض خلفاء بني العباس كان ممن اعتنق مذهب الاعتزال وهم: المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، وأشرنا كذلك إلى قول هؤلاء الخلفاء الثلاثة بخلق القرآن.

ولما كان مذهب الاعتزال يعتمد اعتماداً أصيلاً على الجدل والمناظرات فقد انكب المعتزلة على "مطالعة كتب الفلاسفة"[1041]، واتخذ متكلموهم من عنايتهم بالفلسفة رافداً يعينهم في إثبات حججهم وبراهينهم ، يقول الجاحظ في كتابه الحيوان :"وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحْسِن من كلام الدّين ، في وزن الذي يحْسن من كلام الفلسفة"[1042].

وقد تقدم أن أهل الكلام خاضوا في جملة من المسائل التي تتّصل بالعقيدة الإسلامية ، وأكثروا من مجالس المناظرات والجدل ، ونشأت المعارك بين المعتزلة وخصوهم من المذاهب الأخرى ، وكان المعتزلة ينتخبون لهذه المناظرات من يتقن لغة الجدال ويمتلك القدرة على إفساد عقائد المسلمين[1043].

وصف ابن خلكان براعة أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة في الجدل والمناظرات ، فقال عنه :"حسن الجدال ، قوي الحجة ، كثير الاستعمال للأدلة والإلزمات"[1044].

عرض المؤلف في كتابة – طبقات الشعراء – لشعراء الكلام باقتضاب وايجاز ، ولعل ذلك مرده إلى ندرة المتكلمين من الشعراء الذين ترجم لهم وقص أخبارهم.

(1039) الشهرستاني ، ج 1 ، ص 49.

(1040) ابن النديم ، الفهرست ، ص 345.

(1041) الشهرستاني ، الملل والنّحل ، ج1 ، ص46 .

(1042) الجاحظ ، الحيوان ، ج2 ، ص 134 .

(1043) ص 38 من هذا البحث.

(1044) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4 ، ص 265.

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة "اعتزال" لم ترد في طبقات الشعراء سوى مـرة واحدة فقط ، كما في قول علي بن الجهم يرد على بعض خصومه:

تَضَافرت الروافِض[1045] والنصارى وَأَهْلُ الاعتزال علـى هِجَـائِي[1046]

ذكر ابن المعتز في طبقاته أربعة شعراء فقط من المتكلمين وهم: إبراهيم بن سيار النظام[1047]، وأبا نُواس[1048]، ودرست المعلّم[1049]، والعطوي[1050].

ففيما يخص النظام يشير المؤلف إلى أن النظام هذا كان مذهبه "في أول أمره الشّعر ، وانتقل إلى الكلام"[1051] ويذكر في موضع آخر أن النظام كان يستعين على قول الشّعر بما يتقن "من الكلام والجدل"[1052]. وعلى العكس منه تماماً أبو نُواس ، إذ كان مذهب أبي نواس في أول أمره "الكلام وانتقل إلى الشّعر"[1053].

ويبدو أن مذهب أهل الكلام لم يرق لأبي نواس ، إذ رأى فيه ضـرباً مـن الجدل الفلسفي الذي يراد منه تصوير الباطل على أنه حق ، لذلك نراه يصب جـام غضبه على المعتزلة وشيخهم النظام ، إذ قال يخاطب النظام ويتهمه بالجهل:

فَقُلْ لِمَن يَـدعِي فـي العلـم فلـسفةً ذَكَرْتَ شيْئاً وغابت عَنْكَ أَشْيَاء[1054]

(1045) الروافض: فرقة من فرق الشيعة وهم صنوف ومنهم غلاة يقولون بألوهية الأئمة ويبيحون محرمـات الشريعة ، ويسقطون وجوب فرائضها.

عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 16-17.

(1046) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 292.

(1047) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 248 – 249.

(1048) المصدر السابق ، ص 248 – 249.

(1049) المصدر السابق ، ص 305 – 306 .

(1050) العَطَوي : واسمه محمد بن عطية وقيل: محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية ويكنى أبا عبد الرحمن ، من حذاق المتكلمين ، وهو مع ذلك شاعر مطبوع من أهل البصرة ، نزع إلى مدينة السلام ، ثم منها إلـى سامرا.

المصدر السابق ، ص 359 وما بعدها وابن النديم ، الفهرست ، ص 383.

(1051) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 249.

(1052) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(1053) الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص 450 والمصدر السابق ، ص 249.

(1054) ابن النديم ، الفهرست ، ص 339.

ومن المتكلمين الذين ضمنهم ابن المعتز كتابه طبقات الـشعراء : درسـت المعلّم ، الذي اشتهر بإتقانه لغة المناظرات والجدل ، يروي المؤلّف أن درست هذا كان "يناظر في مسجد البصرة صنوف أهل العلم فيغلبهم ... وكان ذا بيـان وشـدة عارضة"[1055]. ومثل درست في الحذق العَطَوي ، أحد المتكلمين المتقدّمين ، قيـل إن العطوي :"كان إذا حَضَر مجلساً غَلَبَ عليه ببراعته وفصاحته"[1056].

3 – الخوارج:

الخوارج هم:" كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليـه ... سواء كان الخروج على الأئمة الراشدين ؛ أو كان بعدهم على التـابعين بإحـسان ، والأئمة في كل زمان"[1057].

وللخوارج فرق كثيرة منها الوعيدية "القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار"[1058]. ولعل أكثر ما شَغَل به الخوارج أنفسهم هو موضوع الإمامة فكانُوا يقولون :"بجواز الإمامة في غير قريش"[1059].

وسبق أن ذكرنا في فصلنا الأول أن الخوارج كانُوا يرون بأن خلفـاء بنـي العباس لا يصلحون للخلافة ؛ لأنهم لا تنطبق عليهم شروط الإمامـة ، ولـم يـتم اختيارهم من قبل الرعية لذلك يجب الخروج عليهم وقتالهم وعزلهم[1060].

والدارس لكتاب طبقات الشعراء يلحظ أن ابن المعتز أشار إلـى الخـوارج إشارات مقتضبة . وأكبر الظن أن ذلك يعود إلى أن الخوارج في العصر العباسي لم يكن قد نشط مذهبهم كما رأينا ذلك عند الشيعة وأهل الكلام.

فمنذ فجر الإسلام خَرَجَ الخوارج عَلَى أمير المؤمنين عَلِي بن أبي طالب كرم ا وجهه في حرب صفين وغَالَت بعض فرقهم فلعنُوا علياً وطعنُوا في عثمان رضي

(1055) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 306.

(1056) المصدر السابق ، ص 360.

(1057) الشهرستاني ، الملك والنّحل ، ج1 ، ص 114.

(1058) المصدر السابق ، الصفحة نفسها والمرتضي ، أمالي المرتضي ، ج1 ، ص 114.

(1059) عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 13.

(1060) ص 38 من هذا البحث.

ا عنه وفي أصحاب الجمل وصفين فقاتلهم علي"فما انْفَلَتَ منهم إلا أقل من عشرة"[1061].

وإذا كان الخوارج قد نشطوا في العصر الأموي ؛ فإن الأمويّين قد تجردوا لهم وقابلوهم بكل حزم وشدّة ، وسعوا لاستئصال شأفتهم ، يروي ابن الأثير أن عبد الملك بن مروان أمر قواده بأَنْ "يَتبِعوا الخوارج أين كانوا حتى يهلكوهم"[1062].

والراجح أن تنكيل الأمويين بالخوارج حد من نشاطهم في العصر العباسي ومن ثم "أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذٍ في الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً"[1063].

ذكر المؤلف الخوارج في ثلاثة مواضع فقط من كتابه طبقات الشعراء ، ففي بعض روايات مقتل بشار أشار المؤلف إلى أن بعض من يبغض بشار وشَى به "إلى المهدي بأنه يدين بدين الخوارج فقتله المهدي"[1064].

وفي ترجمة أبي نواس يحكي ابن المعتز أن أبا نواس "كان يتهم برأي الخوارج"[1065]. وكذا في أخبار درست المعلّم ، إذ يورد المؤلف أن درست كان يذهب مذهب الخوارج" ويرى الدار دارَ كُفْر ، ويقولُ : قد عطلوا الأحكام وغيروها . وقد قال ا [1066]: "وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ا ُ فَأُولئِكَ هم الكافِرونَ".

وجملة القول فإن المذاهب الفكرية قد ازدهرت في هذا العصر ، وكان أكثر هذه المذاهب نشاطاً هما : مذهبا الشيعة وأهل الكلام فقد كثرت فرقهما وتعدد شيوخهما وأتباعها.

(1061) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 114 وما بعدها.

(1062) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج4 ، ص 365.

(1063) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 33.

(1064) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 17-18.

سبق وأن أوردنا روايات مختلفة حول مقتل بَشار منها اتّهامه بالزندقة ، تجدها ص200 ، 201 ، 202 من هذا البحث.

(1065) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 176 .

(1066) المصدر السابق ، ص 305.

والمؤلف في تناوله للحياة الفكرية وإنْ أفاضَ في أخبار الشّيعة إلا أنه عرض للمتكلمين والخوارج باقتضاب وايجاز ، ولعل ذلك سببه ندرة الشعراء الذين ينتسبون إلى هاتين الفرقتين ، ومثلما شمل كتابه طبقات الشعراء تصويراً للحياة الفكريـة ، ومن قبلها الحياة الاجتماعية ، شمل كذلك تصويراً للحياة الأدبية فوقف على أغراض الشّعر ولغته وأساوبه ومعانيه وأوزانه وقوافيه . وسـنعرض لكـل ذلـك بالبحـث والدّراسة في الفصل القادم.

الفصل الخامس

أغراض الشّعر العباسي وخصائصه الفنيَّة

المبحث الأول : الأغراض الشّعرية

المبحث الثاني : اللغة والأسلوب

المبحث الثالث : الصورة الشّعرية

المبحث الرابع : الأوزان والقوافي

الفصل الخامس

أغراض الشعرالعباسي وخصائصه الفنية

المبحث الأول : الأغراض الشّعرية

طَبَعي أن يكون للشّعر دواع وبواعث تُهيج الشاعر وتدفعه إلى قول الـشّعر، وطبعي كذلك أن تختلف هذه البواعث باختلاف الموقف الذي يعرض للشاعر فيثيـر عواطفه وأحاسيسه ومن ثم يترجمه شعراً . ولما كان ذلك كذلك فالباحث في مسيرة الشعر العربي يجد أن له أغراضاً وفنوناً مختلفة ، وذلك لاختلاف الغرض الذي نظم فيه الشاعر.

وقد تباينت آراء النقاد في تقسيمهم لأغراض الـشّعر كـل حـسب رؤيتـه الفنية لهذه الأغراض ؛ فابن وهب يرى أن للشعراء فنوناً من الشعر كثيرة تجمعهـا في الأصل فنون أربعة هي: المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم تتفرع عـن كل صنف من هذه الأصناف فنون أخرى ؛ فيكون من المديح : المراثي ، والافتخار ، ويكون من الهجاء : الذم والعتب ويكون من الحكمة : الأمثال والتزهيد . ويكـون من اللهو : الغزل ، واللهو ، والطرد ، وصفة الخمر والمجون[(1067)].

وأغراض الشعر ستة عند قُدامة وهي :"المديح والهجاء والمراثي والتـشبيه والوصف والنسيب"[(1068)].

ويلاحظ أن قُدامة جعل التشبيه لشدة تأثيره فناً منفرداً ، والتشبيه لا يخـتص بفن دون غيره ، وإنما هو تصوير للعواطف المختلفة ولا أرى فيـه غرضـاً مـن أغراض الشّعر.

أما أبو هلال العسكري فيقول في أغراض الشعر وأقسامه :"كانـت أقـسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثي حتـى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه"[(1069)].

(1067) ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي ، جامعـة بغداد ، ط1 ، 1967م ، ص 170-171.

(1068) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغـداد ، 1963م ، ص 61.

(1069) أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1352هـ ، ج1 ، ص 91.

وفي كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني أن الشّعر بني على أربعـة أركـان وهي: المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرّثاء . وجعلت قواعده أربـع : الرغبـة ، والرهبة ، والطرب والغضب[1070].

(أ) <u>الغزل</u>:

على الرغم من أننا لا نكاد نجد فرقاً شاسعاً فـي الموضـوع بـين الغـزل والنسيب إذ أن كليهما مبعثه قوة العاطفة تجاه المرأة والوقوع في حبها والتشبيب بها ، وهذا ما قرره ابن قتيبة في حديثه عن أجزاء القصيدة العربية القديمة إذ لا نـراه يفصل بين المعنيين[1071]. وعلى الرغم من ذلك جهد قدامة بن جعفر في إيجاد فرق بين النسيب والغزل فقال:" إن النسيب ذكر الـشاعر خلـق النـساء وأخلاقهـن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن ... والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الـذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النّساء نُسِب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه"[1072].

وقد حاول ناقد محدث أن يتلمس فرقاً بين النسيب والغزل فلم يبعد كثيراً عما جاء به قدامة ، فقال:"الغزل هو الأفعال والأقوال الجارية بين المحب والمحبـوب ، والنسيب ذكر ذلك"[1073].

عرض ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء لأغلب أغراض الشّعر التي نظم فيها شعراء العصر العباسي ، بيد أن المتصفّح للكتاب يجد أن الغزل أكثر الفنـون الشّعرية دوراناً في أشعارهم نجده موضوعات مستقلة كما نجده مقدماً بـين يـدي المديح أحياناً.

ذلك لأن الغزل كان من أهم الموضوعات التي استغرقت الشعراء واستنفدت أشعارهم . إذ كانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنـسانية الخالـدة . وتلبيـة

(1070) ابن رشيق القيراوني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972م، ج1 ، ص 120.

(1071) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 27-28.

(1072) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 140.

(1073) د. عبده عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1972م ، ص 368.

لحاجات الناس الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات إلى المقطوعات والأشعار التي كانت توقع على الآلات الموسيقية والمعازف ، وكان الشعراء يختلفـون إلـى دور القيان والطرب ، لسماع الغناء في أشعارهم ولمغازلة الجواري والإماء[1074].

وقد أدى انتشار الجواري والقيان ، واتّساع موجة اللهو والخلاعة ، وجنـوح كثير من أفراد المجتمع العباسي نحو حياة الطرب والملذات ، إلى شـيوع الغـزل المكشوف ؛ فشعراء هذا العصر قد تبذلوا في تصوير الجوانب الحسية للمرأة علـى نحو لم يألفه سابقوهم.

فالمرأة لم تعد تلك المرأة العربية الحرة التي كان يتغزل فيها الشعراء القدماء ، بل هي المرأة الأجنبية وهي الجارية المغنية والساقية التي يعجبها هذا اللون مـن أحاديث اللهو والخلاعة[1075]. فضلاً عن أن الجواري "لعبْن دوراً واسعاً فـي دفـع المجتمع العباسي نحو الصبابة والعشق ، وكان منهن من ينحـرفْنَ عـن الطريـق السوي ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون ديناً ولا خلقاً ولا عرْفاً . وكان ذلك سبباً في أن يكثر الغزل الإباحي ، الذي لا يحتشم فيه الشاعر بل الذي يعبّر فيه أحياناً عن جوعه الجسدي وغرائزه الحيوانية"[1076].

ومن الحق أن نشير إلى أن من شعراء هذا العصر من التفـت إلـى القـيم المعنوية في المرأة ، ورأى فيها عناصـر جمـال لا تقـل أهميـة عـن جمالهـا المحسوس[1077].

ومهما يكن من أمر الغزل في هذا العصر فإنه كان موصول الروح بـشعر الغزل في عصور العربية السالفة ، فقد تأثر شعراء الغزل في عـصر العباسـيين بسابقيهم وطرقوا معظم الموضوعات التي طرقها أولئك الشعراء ؛ فـلا غـرو إذا

(1074) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 221-222 .

(1075) د. يوسف خليف ، حياة الشعر في الكوفة ، ص 610 وما بعدها.

(1076) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 222.

(1077) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي (الرؤية والفن) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1975م ، ص 397.

وجدنا شاعراً أشبه في معانيه الغزلة الفحول من الشعراء المتقدمين ، أو كان صنواً لعمر بن أبي ربيعة في رقته وخفة ظله ومغامراته الليْلية.

يقول ابن المعتز في أبي العتاهية :"وغزله ليّن جداً مشاكل لكـلام النّـساء ، موافق لطباعهن ، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعـة المخزومـي ، والعبـاس بـن الأحنف"[1078].

ويقول في تأثر العباس بن الأحنف بابن أبي ربيعة في موضـع آخـر مـن الكتاب :"كان العباس بن الأحنف صاحب غزل ، رقيق الشّعر ، يشَبه في عـصره بعمر بن أبي ربيعة المخزومي في عصره ، ولم يكن يمدح ولا يهجو ، إنمـا كـان شعره كله في الغزل والوصف"[1079].

فالعباس بن الأحنف مثل ابن أبي ربيعة يطلب رضاء محبوبتـه، ويبـديء تذللـه وخضوعه في سبيل تحقيق ذلك، فالحبيبة لم يقف أمرها عند معاتبة العبـاس بل ملته وجفته؛ فهو يعلل نفسه ويمنيها بوعد منها؛ فلنستمع – مـثلاً – إلـى هـذه الأبيات:

لَـو كُنْـتِ عَاتِبَـةً لَـسكن لَـوْعتي ... أَمَلي رضَاكِ وزرْتُ غَيْـر مرَاقَـبِ
لكِنْ مَللْـتِ فلـم تَكُـنْ لِـي حِيلَـةٌ ... صَد الملول خِـلافُ صـدِّ العَاتِـبِ
ماضر مـن قطـع الرجـاء ببخْلِـهِ ... لو كان عللنِـي بوعـدٍ كـاذبِ[1080]

ألا تراها تشبه قول عمر بن أبي ربيعة يخاطب محبوبته طالبـاً رضـاءها وودها وذلك حين يقولُ:

إنْ كُنْتِ عاتبـةً علـي ، فأهـلُ مـا ... أَنْ تُعْتَبـي فيمـا عَتبْـتِ وتُكْرَمِـي
إنّـي أتـوب إليـكِ توبـةَ مـذْنبٍ، ... يَخْشَى العقوبـةَ مـن مَليـكٍ مـنْعِمِ
حتى أَنَالَ رضـاكِ ، حيـثُ عَلِمْتُـه ... بطريفِ مَالي والتليـدِ الأقْـدمِ[1081]

(1078) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 208.

(1079) المصدر السابق ، ص 233 .

(1080) المصدر السابق ، ص 233 والعباس بن الأحنف ، الديوان ، ص 53.

(1081) عمر بن أبي ربيعة، الديوان ، شرح د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1992م ، ص 564

وأثر عمر بن أبي ربيعة نلمحه عند كثير من شعراء الغزل العباسيين ؛ فهذا هو ربيعة الرقي شاعر الرشيد يكاد يشبه في غزله ابن أبي ربيعة إلى حد كبيـر ، فهو مثله متعدد المحبوبات لا يستقر فؤاده على واحدة ، بل يتنقل قلبه ويتوزع هواه بين البيض الحسان ، والرقي كذلك كابن أبي ربيعة يكلفه ما عهد عنه من تنقله بين الفتيات إلى أن يقْسم بالإيمان على أنه لا يزال مقيماً على عهد من هو في حبّهـا ، يقول ربيعة الرّقي:

قالت : فؤادك بَـيْن البـيض مقْتَـسمُ   ما حاجتي في فـؤادٍ مِنْـكَ مقْتَـسَمِ
أَنْتَ المَلولُ الذي استبدلتَ بـي بَـدَلاً   قصرتَ بي وشَرَيْتَ اللـؤمَ بـالكَرمِ
قد كنتُ أقسمتُ أنّي من هـواكِ فمـا   بِرّي يَميني قد أغْلَظْتُ في القسمِ[1082]

ويقول ابن أبي ربيعة في ذات المعنى:

فو ا ِ ، ما أحْبَبْـتُ حبـكِ أَيِّمـا ،   ولا ذاتَ بَعْلٍ ، يا هنيـدةُ ، فَـاعْلَمِي
فَعَدتْ وقَالَتْ : كاذبُ ! وتَجَهمَـتْ ،   فَنَفْـسي فـداء المقـرض المـتجهّمِ
فَقَالَتْ ، وَصَدتْ : مَا تزالُ متيمـاً ،   صَبوباً بنجدٍ ذا هـوى متَقـسِّمِ[1083]

ويتجلى أثر عمر بن أبي ربيعة ونهجه الشعري في كثير من غـزل ربيعـة الرقي ، فالرقي مثل ابن أبي ربيعة تولع به الفتيات ، وينصبن شراكهن لا قتناصه، والتفرد بحبه ، يقولُ:

والغَـ ـ ـ ـ ـ ـواني مغْويـ ـ ـ ـ ـاتٌ   موْلَعـ ـ ـ ـ ـاتٌ باقتناصِـ ـ ـ ـ ـي
قـ ـ ــد تَوَاصَـ ـ ــيْنَ بحبّـ ـ ــي   حَبـ ـ ــذا ذاكَ التواصِـ ـ ــي[1084]

وإجادة ربيعة الرقي فن الغزل لفتت إليه ابن المعتز ، ففضله على معاصريه وعلى كثير من القدامى ، قال عنه :"فأما شعره في الغزل فإنّه يفضل على أشـعار

الطريف والتليد : الجديد والقديم الموروث .

(1082) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 153 .

(1083) عمر بن أبي ربيعة ، الديوان ، ص 530 – 531.

الأيِّم: الأرملة ، التي فقدت زوجها.

بَعل: زَوْج.

(1084) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 147 .

هؤلاء من أهل زمانه جميعاً ، وعلى كثير ممن قبله ، وما أجد أطبع ولا أصح غزلاً من ربيعة"[1085].

وفي طبقات الشعراء نقرأ شعراً لربيعة الرقي يَشبُه فيه مذهب العذريين وغزلهم العفيف ، وما يحمله من معاني اللهفة والحرقة والشكوى والظمأ إلى المحبوبة ، كما في قوله مخاطباً محبوبته "غنام":

فيا غنام يا بَصَري وسَمْعِي رَسِيس هواكِ أورثني سقَامَا

لقد أَقْصَدْتِ – حين رَمَيْتِ – قلبي بسَهْمِ الحبِّ إن له سهَاما

زَجَرْتُ القلبَ عنكِ فلم يطِعْني ويأبى في الهَوَى إلا اعتزامَا

إذا ما قُلْتُ أَقْصِرْ وَاسْلُ عَنها أبى مِن صَرْمِكُم إلاّ انْهِزَامَا

وكل الحبِّ لَغْواً غير حبِّي فقد أرْدَى الحَشا وبَرى العِظَاما[1086]

ويمكننا القول بأن ربيعة الرقي يعد من بين الشعراء العباسيين الذين جمعوا في شعرهم بين الغزل الحسي والمعنوي ، وأن تياري الغزل القديمين (المادي والمعنوي) وجدا امتداداً لهما عنده وعند العباس بن الأحنف ، وأبي العتاهية ، والحسّين بن مطْير وعند شعراء كثيرين في العصر العباسي على امتداده.

بل ومن الحق أَنْ نقول: إن شعراء آخرين من شعراء الخمر والتهتك والمجون ، كانت لهم بعض التجارب العاطفية الصادقة التي أنطقتهم شعراً من اللون المعنوي ، وفي مقدمتهم أبو نواس[1087].

فالغزل المادي الماجن – في هذا العصر- كانت تحفه دائماً معاني الغزل العربي العفيف الذي شاع في العصر الأموي ، وكانت هذه المعاني تخفف من ماديته كما كانت تشعل فيه جذوة الحب الظاميء وآلامه الثقال ، فلم يسقط في كثير من جوانبه ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف والشوق الجامح الذي يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها[1088].

(1085) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 146 .

(1086) المصدر السابق ، ص 150-151.

(1087) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، ص 395 ، 397 .

(1088) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 223 .

وكما طرق شعراء هذا العصر معاني الغزل العفيف أفاضوا – كما تقدم- في معاني الغزل الحسي ؛ فوقفوا عند المحاسن المادية للمـرأة ، وأبـرزوا مفاتنهـا ، ووصفوا كل ما يتصل بجمالها الخَلْقِي.

فالله تعالى منح المحبوبة من صنوف الجمال ما يعجـز عنـه الوصـاف ، فالحبيبة ضخمة الأرداف ، وهي كذلك تنوء بحمل أردافها فإذا همت بالقيـام تكـاد أردافها تقعدها على الأرض ، حتى ليخال إليك أنها تحمل كُثيباً من الرمل ، يقـولُ ربيعة الرقي:

بـدت منـكِ الـروادفُ مـشْرفاتٍ	روادفُ لـم تَـدَعْ للنـاسِ دِينـا
وقـد أعطـاكِ ربـك فَاشْـكُريه	جَمـالاً فَـوْق وصْـف الواصِـفينَا
لقـد أعْطيـتِ أَرْدَافـاً ثِقَـالاً	وقـد حمّلـتِ مـالا تَحْملينـا
إذا رمْـتِ القيـامَ نَخَـالُ دِعْـصاً	يمانِعـكِ القِيَـامَ فَتَقْعـدِينا[1089]

والحبيبة تفضل الشمس في الدل والحسن ، وجمالها يروع الناظرين ويبهرهم ، يقول ربيعة الرقي:

فما الشمس المـضيئةُ يَـوْمَ دَجْـنٍ	بأحـسنَ منـكِ يـوم تَبـذلينا
إذا أقْبلـتِ رعْـتِ النـاسَ حـسْناً	وإنْ أدْبَـرْتِ قيـدتِ العيونـا[1090]

وهي كذلك أسيلة الخدين ، ناعسة الطرف ، لدنة القـوام ، يقـولُ دَرَسْـت المعلّم:

أَمَـا والخَـال فـي الخـدّ الأسـيل	وطَـرْفٍ فـاترٍ غَـنِجٍ كَحِيـل
وقَـدّ مَائِـلٍ يحكِيـهِ غُـصْنُ	عَلَى دِعْصٍ مِن الرّدفِ الثِقِيـل[1091]

وهي مرتجة الأرداف ، دقيقة الخصر ضامرة البطن ، عذبة الأسنان ، يقولُ الحسين بن مطَير:

لمرتجةِ الأردافِ هِيـفٌ خُـصورها	عذَابٌ ثَنَايَاهَا عِجَـافٌ قُيودهـا[1092]

(1089) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 149.

الدّعص: هو كثيب الرمل المجتمع وشبه ردف المرأة به .

(1090) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(1091) المصدر السابق ، ص 306.

وأشد ما هال الشعراء العباسيين هو موقف فراق الأحبة وما يخلفه في النفس من معاني الحسرة واللوعة ، فقد وقف هؤلاء الشعراء أمام مشاهد الفراق ووصفوا مشاعرهم تجاه محبوباتهم وصفاً نلمس فيه حرارة العاطفة ومرارة الحرمان ، وهو وصف يذكرنا بنهج العذريين من شعراء العصر الأموي ، كما في هذه الأبيات التي يرويها المؤلف لابن ميادة:

كأن فُـؤَادي فـي يـدٍ عَلقَـتْ بـه محاذرةً أن يَقْـضبَ الحبـلَ قاضِـبهْ
وأُشْفِقُ من وَشْـكِ الفـراقِ وإنني أَظُـن لَمَحْمـولٌ عَليـهِ فَرَاكبُـهْ
فو ا ِ ما أَدْري : أَيغلبنـي الهَـوى إذَا جَـد جِـد البـين أم أَنـا غَالبـهْ
فإنْ أستطعْ أَغْلِبْ وما يغْلب الهَـوى فمثل الذي لا قيتُ يغْلُب صاحِبهْ[1093]

والمؤلف يصف ابن ميادة بأنه كان جيِّد الغزل ، ونمطـه نمـط الأعـراب الفصحاء ، وأن أبياته هذه اشـتملت علـى معـانٍ وألفـاظ يعجـز عنهـا أكثـر الشعراء[1094].

وفراق الحبيبة يحْرق كبد المحب ويجرّعه صنوفاً من غصص الأسى والألم والحزن ؛ فما أصعب أن ترى وجه محبوبتك مجسداً في كل وجه من الوجوه ولكنك لا تستطيع الوصول إليها ! يقول الأُخَيْطِل بَرْقُوقا:

أَيا كَبِـداه مـن غُـصَصِ الفِـرَاق وَحِـبّ مـا أراه وَمَـا أُلاقِـي
تُلاحِظـه العيـون بكُـلّ وَجْـهٍ ولكنْ لا سَـبيلَ إلـى التلاَقِـي[1095]

ومن الشعراء من تمنى الموت حتى لا يعيش قسوة الفراق ومعاناته ، يقـول ابن مَيادة:

(1092) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 106 .

هيف : هَيفَ الغلام ، وهافَ هَيَفاً : دق خِصْره وضَمر بَطْنُه.

عِجَاف : جمعَ عجفاء وهي الشاة أو البقرة الهزيلة . ويقال: أَرض عجفاء لا خير فيها . ولثـة عجفـاء : **ظمأى** . وشفتان عجفاوان: رقيقتان.

(1093) المصدر السابق ، ص 99.

(1094) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(1095) المصدر السابق ، ص 375 .

أَلا لَيْتَنِـــي قَبْــل الفــراقِ وَبَعْــدَه   سَـقَانِي بكَـأسٍ لِلْمَنيـةِ سَـاقِ[1096]

وقد شكا شعراء الدولة العباسية حرقة الهوى ولوعة الشوق ؛ فلهجوا بـشعر يفيض بالحسرة والندم والتذلّل والخضوع ، يقول الحسين بن مطير:

لقد كنتُ جَلْداً قبل أَنْ يوقِـدَ الهـوى   على كَبِـدي نـاراً بطيئـاً خُمودهـا
ولو تُركَتْ نـار الهَـوَى لتـضرمَتْ   ولكـن شـوقاً كـل يـومٍ وقودهـا
فَقد جعَلَتْ في حبةِ القلـبِ والحَـشَا   عِهَاد الهوى تُولِي بشوقٍ يَزيدها[1097]

كما شكوا هجر المحبوبة وصدها ونفورها وفي ذلك يقول ربيعة الرقي:

أعلّل نَفْسِي مِنْـكِ بالوَعْـدِ والمنَـى   فهـلا بيـأسٍ منـكِ قلبـي أُعَلّـلُ
ومَوْعِدكِ الـشهد المـصفى حـلاوةً   وَدونَ نِجَاز الوَعْدِ صَـابُ وحَنْظَـلُ
وَكَيْف بصَبْر القلبِ -لا كيف- عَنْكم   وَباب فـؤادِي دون صَـرْمِك مقْفَـلُ
ومنْ أينَ -لا من أين- يَحْرم قَـتْلُكُمْ   وقَتْلِـي لكـم يـا أُم لَيلـى محَـلُ
أَتبكِينَ مـن قَتْلِـي وأنْـتِ قَتَلْتَنـي   بِحبِّـكِ قَـتْلاً بَيِّنـاً لـيس يـشْكِلُ
فأنــتِ كَــذباح العَــصَافير دائبــاً   وَعَيْناه مـن وَجْـدٍ عَلَـيهن تَهْمـلُ
فَلْو كانَ مـن رَأفٍ بهـن وَرَحْمـةٍ   لكَف يَداً لَيْسَتْ مـن الـذبح تَعْطَـلُ
فَلاَ تَنْظُري ما تَهْملُ العَين وانظـري   إلى الكفّ ماذا بالعَصَافيرِ تَفْعَلُ[1098]

في هذه الأبيات يشكو ربيعة هجر محبوبته في زفرات حزينة وأنات باكية؛ فالحبيبة قد تمكنت من قلبه وملكت روحه وفؤاده فهو لا يزال متعلقاً بها كلفاً بحبّهـا ومع ذلك فهو موقن بأن لا سبيل إلى لقائها ؛ فها هو اليأس وقد تسرب إلى قلبـه ، فمحبوبته شهرت بقتل عشاقها وقتل المحب في شرعتها حلال لذا فـضحاياها كثـرُ وهو أحدهم ، ثم يشبه محبوبته في فتكها بالمحبين بمن دأب على ذبح العصافير ثـم تصنع حزنه عليها ؛ فلو كان حزنه يصدر عن رحمة ورأفه بهذه العصافير لكـف عن ذبحها.

(1096) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 99.
(1097) المصدر السابق ، ص 106.
(1098) المصدر السابق ، ص 151 – 152.

وكيف السبيل إلى المَحْبوبَة وهي تُقيم بأرض الشام ومحبوبها يسكن العراق، وبين المِصْرين بون شاسع ، يقولُ ربيعة الرقي:

وَلَـمْ أهْجـرْكِ مَقْلِيـةً ولكِـنْ حَلَلْـتُ عِـرَاقَكُمْ وحَلَلْـتِ شَـامَا
عِـدِينِي أَنْ أزوركِ إن دَاري ودَارَكِ لا أرى لَهمـا الِتيامَـا[1099]

لذاك ركبوا النوق الأصيلة من أجل الوصول إلى محبوباتهم على نحو ما كان يفعل الجاهليون ، يقولُ الحسْين بن مطَير:

هَلْ يـدْنِينكَ مـن سَـلْمَى وَجِيرتهـا قَلائِـص أرحبيـاتٌ حَـرَاجيج
هـدْلُ المَـشافِر أيْـديهَا موثقَـةٌ زج وأرجلهـا زلٌ ، هَـزَاليج[1100]

وإنْ تعذر الّلقاء فقد وَجَد الشعراء العباسيون ُأنساً في طيف المحبوبة الـذي يتسلل إليهم خلسةً بعد أن يرخي الليل أستاره ويهجع النوام ، كما في قول الحـسْين بن مطير:

زَارَتْـكَ سَـلْمةُ والظلمـاء داجيـةٌ والعَيْن هاجعـةٌ والـروح مَعْـروج
فَمَرْحَباً بـكَ مـن طَيْـفٍ ألـم بنـا ولـيس يـا سَـلْم بـي فـي الـسِلْم تَحْـريج[1101]

ولطالما وقفوا على ديار المحبوبة وأطلالها مثلما فعل أسلافهم مـن شـعراء العصر الجاهلي ، كما في هذه الأبيات التي يوردها ابن المعتز لخالد القناص ، وفيها يقولُ:

عوجوا عَلَى طَلَلٍ بـالقُفْص خَلانِـي أقْـوَى ، فَقُطانـه أرآلُ هيقـان

(1099) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 149.

(1100) المصدر السابق ، ص 105.

القلائص: النوق الشابة .

الحراجيج: النّياق السمينة.

الزج: جمع أزج وزجاء ، وهو الطويل الساقين .

الزل : جمع أزل وزلاء ، وهو الخفيف الوركين .

الهزاليج : السريعة.

(1101) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

قــد غيــرت آيــه ريــحُ شــآميةٌ   وَوَبْــلُ مثْعَنْجِــرٍ بالــسيْل مِرْنَــان
أمْسَى خلاء وأمْسى أهْلـه شَـحِطَتْ   نَواهم حَيْـثُ أمـوا أرْضَ نَجْـران
دارُ لجاريــةٍ بَيْــضاء لاهيــةٍ   كالشمسِ ضاحيةٍ في خَلْقِ جِنان[1102]

يصف خالد القناص تغير دار الحبيبة وتبدل أحوالها بعد أن هجرهـا أهلهـا فيقولُ : إن دار محبوبته قد تغيرت وتبدل ساكنوها فبعد أن كان يقطنها أحبابه وألافه صارت مرتعاً للنعام ، وقد هبت عليها ريح الشمال ، تصاحبها الأمطـار الغزيـرة والسيول الجارفة ، فدرست معالمها وأخفت آثارها ، وهي خلو من الأحبـة؛ فأهـل هذه الدار قد أبرموا أمرهم وعقدوا عزمهم على الرحيل إلى بلادٍ بعيدة ، فـأنى لـه بمحبوبته التي تضاهي الشمس حسْناً وبياضاً.

ولم يخف ابن المعتز إعجابه بقصيدة خالد القناص المتقدّمة ، هذه النونية التي تُعرف عند بعض أهل الأدب بالعروس لجودتها ونفاستها ، وقد بلغ المؤلّـف مـن استحسانه لهذه النونية إلى درجة أن قال :"إن مَنْ روى هذه ثم لم يَقُل الشّعر فأبعـده ا وأسحقه"[1103].

وأثر القدامى يظهر في كثير من غزل الشعراء العباسيين والأمثلة على ذلـك كثيرة نجدها متناثرة في كتاب طبقات الشعراء ، فالعباسيون – مثلاً – ذكـروا فـي غزلهم الحمام وأهدوه تحياتهم إلى محبوباتهم ، وفي ذلك يقول ربيعة الرقي:

حَمامــةُ بَلّغِــي عنــي ســلامَا   حَبيبــاً لا أطيــقُ لــه كلامَــا[1104]

كما ذكروا رسول الحب الذي يسعى بين المحبين ، كما فـي قـول ربيعـة الرقي:

دستْ سـعاد رَسـولاً غَيْـرَ مـتهَمٍ   وَصِــيفَةً فَأتــتْ إتْيــانَ منْكَــتِمِ

(1102) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 297.
أرآلٌ : جمع رأل ، وهو ولد النعام . **الهيقان** : الظلمان : أي ذكور النعام .
المثْعَنْجر : المنْصب ، والسيل الغزير . يقال : اثعنجر المطر والسحاب .
المِرنان : الكثير الرنين
شحطت : بعدت . **النوى** : الوجه الذي ينويه أو يريده المسافر.
(1103) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(1104) المصدر السابق ، ص 149.

جَـاءَ الرسـولُ بقرطـاسٍ بخَاتَمِـهِ وفي الصحيفةِ سِـحْرُ خُـط بـالقلَمِ
فيـه فُتُـون هَـوَى ظَلَـتْ تُغَيِّبـه على الجهول وما يَخْفى علـى الفَهـمِ
وقد فَهِمْتُ الذي أَخْفَـتْ فقلـتُ لهـا بوجِي بلا ونعم مِن بيِّن الكَلِـمِ[1105]

وقد ذكر شعراء هذا العصر في غزلهم جملة ممن يعكرونَ صفو الحب مثل العذال ، وفيهم يقول علي بن جَبَلَة:

وإذا تكلـمَ عَـاذِلٌ فـي حبِّهـا أَغْرَى الفؤادَ بها ورَق العَـاذِلُ[1106]

ويقولُ أبو نُواس عاتباً على من يعذله في حبّه:

يقولونَ : لو لم يَعْبَ بالحبِّ لا نْثَنَى خَليـونَ مِـن أوجاعِنـا يَعْـذِلُوننا
يَقومونَ في الأقـوامِ يَحْكُـونَ فعْلَنـا سَـفَاهَةَ أحـلامٍ وسـخريةٍ بِنَـا
فَلَوْ شَاءَ ربِّي لابْتَلاهم بِمِثْل مَا ابْـ ـتَلانَا فكانُوا لا عَلَيْنَـا ولا لَنَـا[1107]

كما ذكروا الأعداء وتصنعوا مداراتهم ، يقول ربيعة الرقي:

وأَمْنح طَرْفَ العَـيْن غَيْـرَكِ رِقْبَـةً حِذَار العِدا والطرفُ نَحْوَكِ أَمْيلُ[1108]

ولهجوا في شعرهم الغزل بذكر الوشاة وإسهامهم في مضاعفة آلام المحبـين وأسقامهم ، يقولُ محمد بن يسير الرِّياشي:

وسَـاوره سـقمُ وأَسْـهَره هـوى ورَوْحَةُ وَاشٍ وابتكـار عَـذُول[1109]

وفي طبقات ابن المعتز تطالعنا بعض النماذج الشّعرية للمغامرات الليلية التي يقوم بها الشاعر العباسي ، هذا الشاعر الذي يدفعه شغفه بمحبوبته إلى أن يتخذ من الظلام ستراً له فيخترق الحواجز مخاطراً بنفـسه فـي سـبيل الاخـتلاء بحبيبتـه والاستمتاع بالحديث إليها . وغالباً ما يصور الشعراء ما يدور بينهم وبين محبوباتهم

(1105) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 152.
(1106) المصدر السابق ، ص 167.
(1107) المصدر السابق ، ص 197 .
(1108) المصدر السابق ، ص 151.
رِقْبَةٌ : الرِّقْبَةُ هي الحالة التي تكون عليها المراقبة.
(1109) المصدر السابق ، ص 257.

في حوار يغلب عليه الطابع القَصصي على نحو يذكرنا بعمر بن أبي ربيعة وفتونه ومغامراته الليلية.

وكثيراً ما تخشى المحبوبة خلال هذه المغامرات من أن يفْتَضَح أمرها ويكون مصير زائرها الحتف والموت ، كما في هذه الأبيات التي يوردها ابن المعتز لمحمد بن عبد الملك الحارثي:

أتى دونَ حلْو الوَعْدِ من تُكْتَمَ المَطْلُ | وأي هـوى يبقـى إذا لـم يَكُـنْ بَـذْلُ
فقالت: وأَبْدَى الوجد ما دونَ صَدْرِها | فلـم يَبْـقَ بـاب دونَ سِـر ولا قُفْـلُ
أأشْعَرْتَ بي أهلِـي عـشية زرْتَنَـا | جَهاراً ، وما عذْري وقد شَـعَرَ الأَهْـلُ
فَقالتْ فَذَا قد كان ما لـيس رَاجعـاً | فَهَــل عِنــدكم إلا الــتحفظُ والعَــذْلُ
فقلتُ وما أَزْرى بنـا مـن تَحَفـظٍ | عَلَيْنَـا وقَـوْلي فـي عَواقِبِـهِ الـذحْلُ
فقلتُ لها ما زرْتكُـمْ قَاصـداً لكُـمْ | وإنْ كانَ ما في الناس لي ولكـم مِثْـلُ
وما جِئْتكُمْ عَمْداً ولكـن ذا الهـوى | إلى حَيْـثُ يَهْـوَى القَلْـب تَهْـوَى بـه الرِّجْـــــــــــــــــــــلُ(1110)

وسبق أن ذكرنا أن ربيعة الرقي كان من بين الشعراء العباسيين الذين عرِفوا بهذا اللون من الغزل ، وأن ربيعة هذا سلك في مغامراته الليلية مسلك عمر بن أبي ربيعة ونهج نهجه ، فربيعة الرقي مثل عمر بن أبي ربيعة يتجـشم أهـوال الليْـل وأشباح الظلام قاصداً محبوبته ، وهو حين يختلي بحبيبته لا يأبه بصياح الدِّيك الذي يؤذن بظهور الصبح على الرغم من يقينه بأن في الصبح افتضاح أمره وكشف سره ، يقولُ:

وفتـــــــاةٌ غيـــــــر داحِ | ذاتُ لَهْـــــــوٍ ومـــــــزاحِ
قـــــد تَجـــشمْتُ إليهـــا | هَـــــوْل ليـــــلٍ ونُبـــــاحِ
فَخَاونـــــــــا بفتـــــــــاةٍ | غـــــادةٍ غَرْثــــى الوشَـــاحِ
ثـــم لمـــا صـــاح ديـــكُ | قَبْـــــلَ إبـــــان الـــــصبَاحَ

(1110) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 255.

العَذْلُ : اللوم. **الذحلُ**: الثأر.

قُلْـت : صِـحْ يـا ديـك أَلْفـاً ... لَـيْس ذَا وَقْـتَ الْبَـراحِ
أَو أَرَى الصبحَ وإنْ كـا ... نَ لِفِي الصبح افْتِضَاحِي[1111]

وتقدم الحديث عن أن شيوع الغلمان في هذا العصر وما صاحبهم من انتشار للمجون والخلاعة ، أديا إلى ظهور بدعةٍ جديدة في الأدب وهو ما عرف بـالغزل بالمذكر ، الذي شهر به بعض مَنْ شَغَفَ بالغلمان من الشعراء العباسيين مثل : والبة بن الحباب ، وأبي نواس ، وسعيد بن وهب وغيرهم ، وقد تناولنا كل ذلك عند حديثنا عن اللهو والمجون ضمن الحياة الاجتماعية ؛ فهو بذلك الموضع أليق وبه ألصق[1112].

وخلاصة القول فعلى الرغم من جنوح المجتمع العباسي نحو حياة التمدن والتحضر ؛ فإن شعراء هذا العصر لم تنقطع جذورهم بماضي أسلافهم ، فكانوا في غزلهم مقلدين لمن سبقهم ، وإن اتجاهي الغزل القديمين "الحسي والمعنوي" وجدا امتداداً لهما عندهم. وعلى الرغم من غلبة الغزل المادي فإن من الشعراء من هام بالصّفات المعنوية للمرأة ، وقد جاء أكثر غزل العباسيين مستلهماً للصور القديمة ، وطرق شعراء هذا العصر ذات الصور التي طرقها القدامى ؛ فتحدثُوا عن فراق الأحبة ، وآلام البين ، وشكوا غصص الهجر ، وحرقة الهوى ، ولوعة الشوق ، ومرارة الحرمان ؛ فلهجوا بشعرٍ نلمس فيه حرارة العاطفة وصدق المشاعر ، كما أكثروا في غزلهم من ذكر الوشاة والعزال والرقباء ، وقد سجلوا حكاياتهم ومغامراتهم الليلية ، على نحو يذكرنا بعمر بن أبي ربيعة المخزومي.

وكان من نتاج اتساع موجة الخلاعة والتهتك أن ابتدع العباسيون اتجاهاً جديداً في الغزل ، وهو ما عرف بالغزل بالمذكر.

ومثلما طرقوا أبواب الغزل طرقوا كذلك أبواب المدح ، وهذا ما سندرسه في الصفحات القادمة .

(ب) <u>المدح</u> :

(1111) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 148 .

(1112) ص 191 وما بعدها من فصل الحياة الاجتماعية والفكرية.

فن المدح فن قديم قدم الشّعر العربي شأنه في ذلـك شـأن الفنـون الأدبيـة الأخرى ؛ فمنذ الجاهلية اتخذ الشعراء من المديح وسيلة للتكسب فأخذوا يقدمون على السادة والأشراف ووجهاء القبائل ، وعلى ملوك المنـاذرة والغـساسنة يمـدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة ، وهم في أثناء ذلك يعنون بقـصائدهم عنايـة بالغة حتى تُحقِق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم واشتهر بذلك الأعـشى ، وزهير والنابغة ، وحسان بن ثابت[1113].

ولما جاء العصر الأموي راج شعر المديح كما كان عليه سابقاً ، واشتهر من شعرائه جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، واحتفل خلفاء بني أمية بشاعر المدح وأعلوا من مكانته ، فهذا هو عبد الملك بن مروان لم يمنعه ما كان عليه الأخطل من نصرانية ظاهرة وولع بالخمر والسكر ، من أن يتخذه شاعراً ونديماً ويدنيه ويقربـه من مجلسه لدرجة أن الأخطل كان يدخل على عبد الملك من غير استئذان ، يـروي ذلك أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه فيذكر أن الأخطل كان (يجيء وعليه جبة خَزّ وحِرْز خَزّ في عنقه سلسلة ذهب ؛ فيها صليب ذهب ، تنفض لحيتُه خَمْراً ، حتـى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن"[1114].

وقد جهد النقاد في توجيه شاعر المديح وأبانُوا السبيل التي ينبغي أن يسلكها؛ فيرى قدامة بن جعفر : أن مدح الرجال ينبغي أن يكون بخصال أربع هي :"العقل ، والشجاعة ، والعدل والعفة"[1115].

أما القاضي الجرجاني فيوجّه شاعر المديح إلى أن يتصرف "للمديح تصرف مواقعه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف"[1116].

ولم يبعد ابن رشيق كثيراً عما قصده الجرجاني ؛ فهو يرى أن على الشاعر أن يراعي في مدحه مقام ممدوحه وأن يكون بعيد البصر بسبر أغوار مـن يمـدح

(1113) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلى ، ص 211.

(1114) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج8 ، ص 299.

(1115) قدامة بن جعفر ، نقد الشّعر ، ص 69.

(1116) القاضي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمـد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط3 ، 1951م ، ص 24.

سواء أكان الممدوح ملكاً أو وزيراً أو كاتباً فلكل من هؤلاء لغـة تليـق بمقامـه ، وخطاب يصلح مخاطبته به ، فعنده أن الشاعر إذا مدح ملكاً – مثلاً – يجدر به "أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للمدوح ، وأن يجعل معانيه جَزْلة ، وألفاظـه نقية ، غير مبتذلة سوقية ... فإذا مدحَ الكُتاب عمل طاقته وبلغ مراده"[1117].

الدارس لكتاب طبقات الشعراء يلحظ أن شعراء العصر العباسي حـذوا فـي مدائحهم حذو القُدامى وقلدوهم في ألفاظهم ومعانيهم وأخيلتهم ، كما في هذه الأبيات التي يرويها ابن المعتز لمروان بن أبي حفصة في مدح معن بن زائدة:

بنُـو مَطَـرٍ يـوم اللّقـاءِ كـأنهم	أسود لها فـي بطـن خَفـان أَشْـبلُ
هم يمنعـونَ الجـارَ حتـى كأنمـا	لجـارهم بـين الـسّماكيْن مَنْـزلُ
هم القوم إنْ قالُوا أصَابوا وإنْ دعـوا	أجَابوا وإنْ أعطوْا أطابوا وأَجْزلـوا
ومـا يَـسْتَطيع الفَـاعلونَ فَعَـالهمْ	وإنْ أَحْسنُوا في النائبـات وَأَجْملُـوا
ثُـلاثُ بأمثـال الجبـال حِبـاهم	وأحْلامهمْ منها لَدَى الوَزْن أَثقلُ[1118]

ففي هذه الأبيات نرى أن أبا حفصة يصبغ على ممدوحه نفس الصّفات التـي كان يدور حولها شاعر المديح قديماً ، فهو يمدح أبناء مطر بالشجاعة والبسالة فهـم لدى الهيجاء أسود ، وهم كذلك أوفياء يعرفون للجار قدره فيحمونه ويزودون عنـه ويعاشرونه أطيب عشرة ويعيش بينهم كريماً عزيز النفس ، وهم حكماء لا يصدرون أحاديثهم عن هوى أو سفه أو طيش بل يعرفون للقول مواضعه ، ومن شيمهم الإقدام فهم لا يتقاعسون عن إجابة من دعاهم . وهم كرام يجودون بأفضل ما عندهم فـي سخاء وطيب نفس . ومن خلق بني مطر أيضاً : الحلم والوقار ؛ فهم يزنون الجبال في أحلامهم ورجاحة عقولهم.

(1117) ابن رشيق ، العمدة ، ج2 ، ص 128.

(1118) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 37.

خَفان : موضع كثير الغياض قرب الكوفة ، وهو مَأْسَدة.

حِبَاهم: الحِبَاء هو العَطَاء . وحِبَاء المرأةِ : مَهْرها ، والجمع أَحْبِية.

وإجادة مروان بن أبي حفصة لفن المدح لفتت إليه القدماء ؛ فقدموه في هـذا الفن على بعض مَنْ سبقه مِن الشعراء ، يروي ابن رشيق "أن مروان بن أبي حفصة كان يقدم كثيراً في المدح على جرير والفرزدق"[1119].

غير أن المديح في العصر العباسي لم يلتزم دائماً بالدوران حـول الـصفات التي أضفاها الشاعر قديماً على ممدوحه من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وغيرها، فقد أدخل الشاعر العباسي في فن المدح معانٍ وصور جديدة لم تكـن مألوفـة فـي العصور السابقة . فللعصر العباسي خصوصيته وهو عصر شهد حركة قوية مـن التطور والرقي والتجديد في كافة مناحي الحياة ، وانتظمته نهضة كبيرة في مجـال التأليف والكتابة والوزارة ودواوين الحكم ، هذا التطور اقتضى أن تدخل في مجـال المدح معانٍ جديدة تستوعب روح العصر وتستلهم هذا الواقع الجديد "إذ لم يكن مـن المعقول أن يمْدح أحد كتاب الوزراء أو كتاب الدواوين مثلاً بالشجاعة والبطولة وإن أمكن مدحه بالجود والكرم ، بل المعقول أن يمْدح بالفطنة والحصافة وبعـد النظـر وبراعة القول وما أشبه ، مما يتعلق بطبيعة عمله . وهذه معان جديدة كان لابـد أن تدخل في مجال المدح"[1120].

والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب طبقات الشعراء ومنها مِدْحة لسلم الخاسر يصف فيها يحيى بن خالد البرمكي – وزير الرشيد – بأنه حـازم فـي أمـره، ذو عزيمة ومضاء ، سديد الرأي ، خبير ببواطن الأمور ، لم تشغله الدنيا وتلهيه عـن القيام بأعباء وزارته ، وهو خطيب بارع تشهد له بذلك المنابر ، وقد جللـه شـيبه وكساه هيبة ووقارا ، يقول:

إليـكَ سَـبيلُنا مِـن كُـل وَجْـهٍ   وَكُـلّ الأمـر أَنْـتَ بـه بَـصير
بلوتُ النـاسَ مِـنْ عَجَـمٍ وعـرْبٍ   فمـا أحـد يَـسير كمـا تَـسير
فكـل الأمـر مـن قـولٍ وفعْـلٍ   إذَا عَلِقَـت يَـداكَ بـه صـغير
عَرفْـتَ الـدهْرَ مِـن خيـر وشـر   فكُـلّ الـرأي أنْـتَ بـه خبيـر

(1119) ابن رشيق ، العمدة ، ج2 ، ص 131 .

(1120) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، ص 359 – 360 .

ومـا تخْفـى عَلَيـكَ وأنْـتَ طَـبُ بطـ ـون للأمـ ـور ولا ظُهـ ـور
ومـــا نزَعَتْــكَ للــدنْيا هَنَــاتٌ إليْهـــا أعـــين الـــوزراءِ صـــور
تَفَرجَـ ــت الأُمـ ـور ببَرْمكـ ـيّ تُـضِيء لــه المنَــابر والــسرير
لنــا مَلِــكُ نَعَــمْ وَوَزيــر مَلْــكٍ عَلَيْــهِ مِـنْ لِبـاس الـشيْبِ نُـور
بَديهتـــه وفكرتـــه سَـــواء إذا مـــا نابَـــه الخطْـــب الكبيـــر
وأجـزل مـا يكـون الـدهر رأيـاً إذَا عَمِـيَ المـشاور والمـشير
ولا عَـرَسَ الأمـور ولا اجْتَنَاهَـا كيحيى حـين يَعْـزم أو يَـسِير[1121]

وقد فطن النقاد إلى ما اشتملت عليه قصيدة سلم الخاسر من صفات الـوزير الحاذق فقالوا : إن مَنْ عمل بما في هذه الأبيات جاز أن يكون وزيراً[1122].

على الرغم من أن المعاني الإسلامية طرأت على المديح منذ مجيء الإسلام ؛ فإن الشعراء العباسيّين خصوا من مدحوه من الخلفاء والوزراء بهـذه المعـاني ، وأكثروا من استعمالها ، في مدائحهم على نحو لم يكن شائعاً من قبل . وكان الخلفاء أنفسهم لا يروقهم إلا المديح الذي تضمن قدراً من المعاني الإسلامية، ولعل هذا مـا يتفق وطبيعة العصر وينسجم ونوع الحياة التي يعيشها الخلفاء العباسيون ؛ فالخليفة العباسي كان يجمع بين الأمور الدّينية والدنيوية فهو يرعى شؤون رعيته وفي الوقت ذاته يحمي حمى الإسلام ويزود عن حياضه ؛ فيعد الجيوش ويجهزها بكامل العـدة والعتاد ، ويغزو الغزوات مجاهداً في سبيل ا ومعلياً لكلمته ، ويخطب في المنابر منافحاً عن دينه وراداً على خصومه . من أجل ذلك طلب الخلفـاء مـن مـادحيهم المعاني التي تحمل هذه الروح . روى ابن المعتز أن الشعراء اجتمعوا "يوماً ببـاب الرشيد ، فسألوا الإذن ، فلم يؤْذَن لهم ثم بدا له ؛ فقال للحاجب : أخرج إليهم فقُـل لهم : من اقتدر أن يمدحنا بالدّين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل"[1123].

ومن الأمثلة على ذلك قول سلم الخاسر يمدح يحيى بن خالد البرمكي:

(1121) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 91 – 92 .

(1122) المصدر السابق ، ص 91.

(1123) المصدر السابق ، ص 137 .

بقـاء الـدّين والـدنيا جميعـاً | إذَا بَقِـيَ الخليفـةُ والـوزير
يغار علـى حِمَـى الإسـلامِ يَحيـى | إذا مـا ضَـيعَ الحَـزْمَ الغَيـور
وَلَيْـسَ يقـوم بالإسـلام إلا | مَعَـارُ يـسْتجار وَيَـسْتَجير
وفـي كفيـكَ مَدْرَجـةُ المَنَايَـا | ومن جَـدْوا همـا الغيْـثُ المطيـر
وأنْـتَ العِـز فـي حَـرْبٍ وَسِـلْمٍ | يـضَافُ إلـى مَناكبـك الطهـور
ومـا إنْ نـالَ مـن ديـنٍ لـدنْيا | قليـلٌ مِـن هَـوَاكَ ولا كثيـر
حَمَلْـتَ فـوادحَ الأعبـاءِ عَنـا | عن الإسْلامِ إنْ شَكَرَ الـشكور[1124]

في هذه الأبيات يبيّن سلم الخاسر بأن لكل خليفة ووزيره وظيفـة مزدوجـة وهي رعاية أمور الدين والدنيَا ، ثم ينطلق من هذا المعنى ليصف يحيى البرمكـي بأنه رجل يغير على دين الإسلام ويزود عن حياضه ، والإسلام لا يرعاه إلا مَنْ هو مثل يحيى الذي نذر نفسه لهذه الغاية . وهو شجاعُ ، ندي الكف ، باذل للمعروف . لا يتبع هوى نفسه فتضيع حرمات دينه . وما أسداه للإسلام من معروف يـستوجب الشكر والثناء.

والناظر في طبقات ابن المعتز يجد أن البرامكة حظوا بقدر وافر من مـدائح الشعراء، ولعل هذا مرده إلى ما تمتع به البرامكة من نفوذ وبخاصة فـي العـصر العباسي الأول كما تقدم، فضلاً عما أثر عن البرامكة مـن خلـق الكـرم والبـذل والسخاء، وقد عرضنا بعـضاً مـن أفـضالهم فـي فـصل الحيـاة الاجتماعيـة والفكرية[1125].

وقد وصف خلال البرامكة بعض من عاصرهم فقال:"لقد كانُوا شِفاء أسـقام دَهْرهم ، وغيَـاثَ أجـادب عَـصْرهم ، وكـانُوا مَفْزَعـاً للملهـوفين ، وملجـأ للمظلومين"[1126].

(1124) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 91 – 92 .

(1125) ص 221 من هذا البحث .

(1126) محمـد أحمـد جـاد المَـوْلى وآخـرون، قـصص العـرب، المكتبـة العـصرية،بيروت،ط4، 1987م،ج1،ص292.

الأجادِب : الأراضي التي لا نبات فيها.

والممدوح شَب على الهداية والرشاد ، وهو محمود السّيرة ، وهو كذلك محط المفاخر والأمجاد ، جوادٌ يبذل ماله في سخاء ، عزيز النفس ، عفيف الخلق، أورثه آباؤه وأجداده الخصال الشريفة ، والأفعال الكريمة ، وهو أهل للخلافـة والملـك ، وخير من يتولى أمر المسلمين ويتدبر شؤونهم ، كما في هذه الأبيات التي يوردهـا المؤلف لأبي الخطاب البهدلي في مدح موسى الهادي:

قُـلْ لِلخَليفـةِ موسـى : إن نائِلَـه جَزْلٌ هَنِيء وَمَـا فـي شَـيْبِهِ كَـدَر
متَوجٌ بالهـدَى ، بالحَمْـدِ ملْتَحـفٌ مـسَرْبَلٌ بالنـدى ، بالمجـدِ متـزر
موسى الذي بذلَ المعـروفَ ينهبـه في الناسِ ، فالجود من كفيهِ يَنْهمـر
أَشـم تَنْمِيـهِ آبـاء جَحَاجحَـةٌ شُم الأُنوفِ ، على ما نابهم صَـبَروا
يا خير مَنَ عَقَـدتْ كفـاه حجْزتَـه وخيْر مَـن قلدتـه أمْرَهـا مـضَر
إلا النبـيّ رَسـول ا إن لَـه فَضْلاً وأَنْتَ بذاكَ الفَضْل تَفْتَخِر[1127]

ومن سمات قصيدة المدح في العصر العباسي ، أن الشاعر ربمـا اسـتهلها بالوقوف على أطلال ديار محبوبته ثم يتخلص إلى المدح ، ومن ذلـك قـول سـلم الخاسر في مدح موسى الهادي بن المهدي:

سـألتُ الـدّيارَ وأَطْلالهـا ومـا إنْ تُجـاوب سـؤالَها
منـازلٌ قَـدْ أَعْفَـرتْ بَعْـدَنا وجَـرتْ بهـا الـرّيح أَذْيالهـا
وموسـى شـبيه أَبِـي جَعْفَـرٍ ومعْطِـي الرغائِـبِ سـؤالَها[1128]

وغالباً ما يفتتح الشاعر قصيدة المديح بمقدمة غزلية رقيقـة ، يـشكو فيهـا غصص البين والهجر ، ويبث آلامه وأحزانه لفراق محبوبته ، ثم يتخلص في خفّـة إلى المديح يقول أبو نواس في مدح الفضل بن يحيى البرمكي:

ذَكَرْتُمْ مِـن الترحـال يومـاً فغمنـا فَلَو قَدْ فَعَلْتُم صَبح المـوتُ بَعْـضَنا
زَعَمتُم بأن البَـيْنَ يَحْـزنُكُمْ ، نَعَـمْ سيحزنُكم حزْنـاً ولا مثْـلَ حزْننـا

(1127) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 121 ، 123 .
الجَحَاجحَةُ: جمع جَحْجَاح ، وهو السيّد السمح الكريم.
(1128) المصدر السابق ، ص 95.

تَعــالَوْا نُقَــارِعْكم لِيَحْقُــقَ عِنْــدَكُم مَنَ أشجى قلوباً أَمْ مَنَ اسْخَن أَعْينـا
ومَنْ يَعْرِفُ الليـلَ الطويـلَ وَهَمـه مِن النـاسِ إلا مَـنْ تَـنَجمَ أَو أَنَـا
سَأشكو إلى الفضْل بن يحيى بن خَالِدٍ هَوَاكِ لعـل الفَـضْلَ يجمـع بَيْنَنَـا
أميرُ رأيْـتُ المـالَ فـي حَجَرَاتِـهِ مَهيناً ذَليلَ النفسِ بالضيمِ موْقنَا[1129]

وبيت أبي نواس المتقدم والذي يقول فيه:

سأشكُو إلى الفَضْل بن يحيى بن خَالِدٍ هَوَاكِ لَعـل الفَـضْلَ يَجْمـع بَيْنَنَـا

عده ابن رشيق القيرواني في باب الخروج اللطيف ، والتخلصات الحسنة ، وفـضله على قول المتنبي:

عل الأميرَ يَرَى ذُلِّـي فيـشفَع لِـي إلى التي تَرَكَتْني في الهَـوَى مَـثَلا

لأن أبا نواس قال:"يجمع بيننا" ثم اتبع ذلك ذكر المال والسخاء به فقال:

أميرُ رأيتُ المالَ في حَجَراتِهِ مهينـاً ذليــلَ الــنفسِ بالــضيم موْقِنَــا

"فكأنه أشار إلى أن جمعه بينهما بالمال خاصة : يفْـضِل عليـه ، ويجْـزل عطيته ، فيتزوجها أو يتسرى بها ، وأبو الطيب قـال: يـشفع والـشفَاعة رغبـة وسؤال"[1130].

وفي سبيل الوصول إلى الممدوح ركب الشعراء العباسيون النوق الشابة التي لا تعرف الونى ولا الضعف ، يقول أبو نواس في مدح الفضل بن يحيى البرمكي:

إلَيْكَ أَبَا العباس من دون مَـنْ مـشَى عليها امْتَطَيْنَـا الحَـضْرمي الملَـسنا
قَلائِص لم تَعْرف كَلالاً على الـوَجَى ولم تَدر ما قَرْع الفَنيق ولا الهنَا[1131]

(1129) المصدر السابق ، ص 196 – 197 .

نُقارعكُم : قارَعَ غيْره فَقَرَعَه : أي غَالبه في القُرْعَة فَغَلَبه ، وأَصَابَتْه القُرْعَةُ دونَه.

تنجم: رعى النجوم من سهر أو عشق . **الحَجَرَاتُ** :جمع حَجَرة ، وهي الناحية.

(1130) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 235 .

(1131) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 197.

الحَضرمي الملسن: النعل الذي فيه طول ولطافة كهيئة الّلسان ، والضمير في "عليها" يعود إلـى المطايـا المفهومة من السّياق.

القلائص: النوق الشابة . **الوَجَى** : الحَفَا أو أشد منه.

الفَنيقُ: الفَحْل المكرم . **الهنَا** : القطران.

ويقولُ مسلم بن الوليد : إن بعيره حين أوصله إلى ممدوحه يزيد بـن مَزيـد وجد في داره الجود والكرم والخصب والنماء ؛ فاستراح من عناء السفر والتّرحال:

ـِ مـن هاشِـمٍ فـي أرضِـهِ جَبَـلٌ   وأنتَ وابنـكَ ركْنَـا ذلـك الجَبَـل
صَدقْتَ ظَنّي وصَدقَت الظُنـونَ بـهِ   وحَط جـودكَ جـل الرحْـل عـن جَمَلـــــــــــــي[1132]

ويروي ابن المعتز أن مسلم بن الوليد كان مداحاً محْسناً وشاعراً مجيداً مفْلِقاً ، فتنبه لذلك هارون الرشيد الخليفة العباسي ؛ فكتب شعره بماء الذهب[1133].

واتسم المديح في هذا العصر بالغلو والإفراط ، وكان الممـدوحون أنفـسهم يروقهم هذا اللون من المدح الذي يجنح فيه الشعراء نحو المبالغة والتهويل ، وتنميق المعاني ، لتصوير ممدوحيهم وهم في منزلة غير منزلة عامة البشر ، ومن طينـة غير طينتهم "وفهم الشعراء منهم ذلك ، ولمسوا ميلهم إلى هـذا الادّعـاء الباطـل وتمسكهم به ؛ فراحوا يجارونهم في نزعاتهم الغالية ، ويسكبون لهم كـأس المـديح دهاقاً ، مغالين في المعاني ، مسرفين في ذلك الغلو ، مزيفين في عواطفهم ما شـاء لهم التزييف والتخريف . وبذلك خرج شعرهم عن حقيقة الواقع وواقـع الحقيقـة ، فكانت المدائح ذات نغمة واحدة تقريباً ، قلما يتميز فيها ممدوح عن آخـر إلا فـي جهارة صوت الشاعر ، وشدة انطلاق قريحته ، ومقدرة خياله على تصوير المعاني وتضخيمها"[1134].

فإذا الممدوح هو الدنيا بأكملها ، وإذا ذَهَب ذهبت معه الدنيا ، وانتهى أمرها ، يقولُ علي بن جبلة في حميد الطوسي:

إنمـــا الـــدنْيا حميــــدُ   وَأيادِيــــــهِ الجِــــــسَام
فَــــإذا وَلـــى حميــــدُ   فَعَلَـــى الـــدنيا الـــسلام[1135]

(1132) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 565 – 566 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 216.
(1133) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 214 – 215 .
(1134) حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، ص 671 .
(1135) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 162.

والممدوح هو الذي بنى المادح ، يقولُ عِصَابَةُ الجَرْجَرَائِي في مدح الحسن بن رَجَاء:

ونَقَضْتَ مِنّي بِنْيتي فَبنيْتَنِي ... بِيَدَيْكَ أَحْسَنَ بِنْيَةِ البنيان
وعَلَيْكَ تَقْويمي إذَا مَا نَالني ... أَوْدٌ لأنكَ كُنْتَ أَنْتَ البَاني(1136)

وبلغ أبو نواس من الغلو أن جعل من قبل راحَة الخليفة محمد الأمين كمن قبل الحجر الأسود ، بل وصل به الإسراف حداً يثير الشبهة وذلك حين ساوى بين الرسول صلى ا عليه وسلم والأمين ، وهو قوله:

يا ناقُ لا تَسْأمِي أو تبْلُغِي مَلِكاً ... تَقْبيلُ رَاحَتِهِ والركن سَيان
تنازَعَ الأحْمَدان الشّبه فاشتَبها ... خَلْقاً وخُلْقاً كما حذ الشّراكان(1137)

ولا يخفى ما في البيتين من تطاول ؛ فمساواة النبي الكريم بمحمد الأمين أمر عظيم وتجاوز للحد ، وينبغي أن لا ينطق بمثل ذلك مسلم يدين بالإسلام ويعلم في قرارة نفسه أن محمد بن عبد ا أفضل البشر وأعظم الخلق وهو معدوم الشبيه ومنقطع النظير.

ووصلوا من المبالغة والإسراف درجة أن أضفوا على الممدوح الصّفات التي تفرد بها الخالق جل شأنه وعلا ، فإذا حياة الناس وآجالهم ومصائرهم بيد الممدوح ، كما في قول سلم الخاسر في مدح موسى الهادي بن المهدي:

لقد جعلَ ا ُ في راحَتَيْك ... حياة النّفوسِ وآجالَها
وَجَدْنَاكَ في كُتُبِ الأولين ... نَ محْي النفوس وقَتالها(1138)

وقريب منه قول علي بن جَبَلة إذ جعل تبدل الأيام وتغير الدهور ، والأرزاق والآجال كلها في يد الممدوح ، وهو قوله يمدح المأمون بن الرشيد:

أنتَ الذي تُنْزِلُ الأيامَ مَنْزِلَها ... وتَنْقُلُ الدهْرَ مِن حَالٍ إلى حَال
وما مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أَحَدٍ ... إلا قَضَيْتَ بأَرْزَاقٍ وآجَال(1139)

(1136) المصدر السابق ، ص 364 – 365 .

الأود : الإعوجاج.

(1137) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 193.

(1138) المصدر السابق ، ص 95 .

ومن الحق أن نشير إلى أن بعض الخلفاء العباسيين استهجن هذا النوع من المدح ، ففي طبقات الشعراء أن المأمون أنكر علي ابن جبلة هذين البيتين واتهمه بالكفر والجرأة على الله ، لمساواته بين رب العالمين وبين عبد مهين ؛ فاستحل دمه وقتله[1140].

هذا هو المديح في العصر العباسي ، وقد وجدنا فيه الشعراء مقلدين للقدامى في معانيهم وألفاظهم وصورهم وأخيلتهم .

وقد دفعت طبيعة العصر وخصوصيته إلى أن يشيع الشعراء في مدائحهم المعاني الإسلامية ويكثروا من استعمالها على نحو لم يكن مألوفاً من قبل . ومن خصائص المدح في هذا العصر كذلك إنه اتسم بالغلو والإسراف والمبالغة في وصف الممدوح.

وكما مدح العباسيون مَن طاب لهم ورغبوا فيه ، التفتوا إلى مَنْ رغبوا عنه فسلطوا سهام ألسنتهم عليه ، وراحوا ينالون منه هجواً وذماً ، وسنناقش كل ذلك فيما يستقبل من صفحات.

(ج) <u>الهجاء</u> :

المتأمّل في كتاب طبقات الشعراء يلحظ أن الهجاء في عصر العباسيين قد اتسم بالفحش والقبح وخبث اللّسان وسرعة التعرض لأعراض الناس.

يصف المؤلف – رحمه الله تعالى – إنحدار فن الهجاء في هذا العصر ، وما بلغه من فحش ونيل من أعراض الناس فيقول في ترجمة أبي الينبغي : إن أبا الينبغي كان "سريع الفحش ... خبيث اللّسان"[1141]. ويقول عنه في موضع آخر من الطبقات :"كان أبو اليَنْبُغي سريعاً إلى أعراض الناس ، يهجوهم ويقطعهم"[1142].

ويقول في خالد النجار :"كان خالد النجار شاعراً متقدماً ، إلا أنه كان خبيث اللّسان،

(1139) المصدر السابق ، ص 158.

(1140) المصدر السابق ، ص 157 – 158 .

(1141) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 119.

(1142) المصدر السابق ، ص 120 .

سريعاً إلى أعراض الناس"[1143]. وفي منصور الأصبهاني :"كـان منـصور مـن المجيدين لاسيما للهجو فإنه كان أهجى الناس"[1144].

ويذكر ابن المعتز أن من شعراء هذا العصر من وقف جل شعره في الهجاء ولم يتعداه إلا في القليل والنادر، كخالد النجار[1145].

وبلغوا من ولعهم بالهجاء أن من عف لـسانه ولـم يخـض فيـه اتهمـوه بالعي والنقص والتقصير ، يروي عبد ا بن المعتز أن ابن شـادة الـشاعر لُقِـب بالمخنث ؛ لأنه "كان لا يهجو أحداً ولا يعرض له ، فَـسمّي بـذلك مخَنثـاً علـى التلقيب"[1146].

والأمثلة على الهجاء المقذع كثيرة في كتاب طبقـات الـشعراء وسـنكتفي ببعضها . ومن ذلك قول أبي خالد الغَنَوي يهجو البَطين الشاعر:

وإن جِـــراً أدى البطـــين بزَحْـــرَةٍ ولـــم تَنْفَتِـــق أقْطَـــاره لَرحيـــب
وإن زمانـــاً أَنْطَـــقَ الـــشعر مِثْلَـــه وأدخلـــه فـــي عَـــدِّنا لَعَجِيـــب
ويحْـشَر يـومَ البعـثِ أمـا لـسانُه فَعَـي وأمـا دبْـره فَخَطيـب[1147]

ومن قبيح الهجاء وخبيثه قول حماد عجرد يهجو بشار بن برد:

لَـوْ طُلِيـتْ جلْدَتَـه عَنْبَـراً لَنتنَـتْ جِلْدَتُـه العَنْبَـرا
أو طُلّيَـتْ مِـسْكاً ذَكيـاً إِذَنْ لَحـوّلَ المـسْك عليـه خَـرَا[1148]

(1143) المصدر السابق ، ص 296.

(1144) المصدر السابق ، ص 323 .

(1145) المصدر السابق ، ص 296.

(1146) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 304.

(1147) المصدر السابق ، ص 227.

البطين: شاعر عباسي من أهل حمص ، كان طوله أثني عشر شبراً ، ولم ير في زمانه أحد أطول منـه ، وكان يرعب من رآه ، وكان أديباً فصيحاً.

المصدر السابق ، ص 226 - 227.

الزحرَةُ : اسم لوجع الولادة ، يقالُ : تزحرت عن الولد : ولدته .

(1148) المصدر السابق ، ص 59.

ويقال : لم يشتد على بشار من هجاء حماد له شيء كما اشتد عليه هذان البيتان[1149].

وبرز في هذا العصر الإلحاح على الهجاء بالقبيلة وسب أعراضها وذم مَنْ ينتسبون إليها ، وبخاصة لدى بعض الشعراء ممن عرفوا بالعصبية القبلية ، وأظهرهم أبو نواس . الذي يبدي تعصبه لقبيلة قحطان ويتعرض بالهجاء المقذع لقبائل عدنان ، كما في هذه الأبيات:

فَافْخَرْ بقَحْطَانَ غير مكْتَئِبٍ	فَحَاتِم الجود مِن مَنَاقِبهَا
واهْجُ نزاراً وَأَفْرِ جِلْدَتَها	وهَتِّك السِّتْرَ عن مَثَالِبِها
أما تميم فَغَيْر رَاحِضَةٍ	ما شَلْشَلَ العَبْد في شواربِها
وَقَيْس عَيْلان لا أُريد لها	من المَخازي سِوى محَارِبِها
وما لبْكر بن وائلٍ عَصَم	إلا بحمْقائِها وكاذِبِها
وتَغْلِب تَنْدب الطلُول وَلم	تثأر قَتِيلاً على ذَنَائِبِها[1150]

في الأبيات المتقدمة يفخر أبو نواس بقبيلته قحطان ويمجدها ويذكر مناقبها واشتهارها بالجود والكرم . ثم يلتفت إلى قبائل عدنان ويهجوها هجاء مقذعاً . فهو لم يدخر لقبيلة نزار مثلبة من المثالب إلا وذمها بها . ويصف تميم بالجبن والخوف ، وقيس عيلان بالخزي والعار ، ويذم بكر بن وائل بأن ليس لها من فضيلة تذكر وأنا لها ذلك ومنها مسَيْلمة الكذاب ، وهَبَنقة القيسي الذي يضرب المثل بحمقه . ويهجو تغلب بالجبن وقلة المروءة وعجزها عن الأخذ بثأر قتيلها كُلَيْب.

ومن صور الهجاء بوضاعة القبيلة قول أبي محمد اليزيدي يهجو الأصمعي:

(1149) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(1150) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 177 – 178 .

فرى الشيء : شقه . **المثالب** : العيوب . **رحض** : غسل . **وشلشل السيفُ الدم** : صبه . وشلشل الماء وبالماء : أرسله منتشراً متفرقاً.

حَمقائِها : ويعني به هَبنقة القيسي. وكان يضرب به المثل في الحمق.

كاذبها : يريد بالكاذب مسَيْلمة .

الذنائب : يوم من أيام تغلب على بكر . **القتيل**: يعني به كليب.

ومـا أَنْـتَ هَـلْ أَنْـتَ إلا امْـرؤٌ - إذا صَح أَصْلُكَ – مِنْ باهِلَـهْ[1151]

وجدير بالذِّكر أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية قد خفت حدتـه في هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت في نقائض بعض الشعراء ، ويرجع ذلك إلى تطور واسع في الحياة جعل الفخر بالجنس يحل محل الفخر القبلي ، مما دفع إلى ظهور النزعات الشعوبية ، فضلاً عن أن الدولة كانت بالمرصاد لكل من يحيي نار العصبية القبلية ؛ فقد حبس الرشيد أبا نُـواس بـسبب إحيائـه لهـذه العصبية ، وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات فخبت نار النقائض التي كانـت مشتعلة في عصر بني أمية[1152].

واللافت للنظر أن المؤلف لم يحفل كثيراً بالأشعار التـي تـصور النزعـة الشعوبية ، ولعل ذلك مرده إلى طبيعة المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه ، والـذي أشار فيه إلى أنه لم يورد من شعر العباسيين إلا النادر الذي لم يكن موجـوداً عنـد الناس ، أما السائر المعروف فلا حاجة به لإثباته في طبقاته كما سبق وأن بينا ذلك عند حديثنا عن منهج الكتاب ، لذلك أورد في كتابه ثلاثة أبيات فقط للـشاعر أبـي الشمقمق لا يخفى ما فيها من شعوبية ظاهرة وهو قوله:

ذَهَـبَ المـوال فـلا مَـوا ل وقـد فُجِعْنَـا بـالعَرَبْ
إلا بقايـا أصـبحوا بالمِـصْرِ مِـن قِـشْرِ القَـصَبْ
بـالقَوْل بَـذّوا حاتمـاً والعقـلُ ريـحُ فـي القِـرَبْ[1153]

في هذه الأبيات يأسى أبو الشَمَقْمَق ويحزن لذهاب أهله المـوالي ، ويبـدي فجيعته لقيام دولة العرب ، ويقول : إن مَنْ تبقى من الموالي – على قلتهم – يفوقون العرب في الفصاحة والبيان ورجاحة العقل.

وكانُوا ينعتون مَن لا يخوض في الهجاء بالعي وعدم الاقتـدار علـى قـول الشِّعر كما تقدم ، مما اضْطُر بعض من عفت ألسنتهم إلى ولوج هذا الفـن ، جريـاً

(1151) المصدر السابق ، ص 251.

(1152) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 359.

(1153) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 118.

منهم على مألوف العرف والبيئة ، وتأكيداً على قدرتهم على القول في كافة فنـون الشّعر.

يروي ابن المعتز أن أبا محمد اليزيدي كان رجلاً تقياً عفيفاً ينأى بنفسه عن التعرض للشر فهاجه سلم الخاسر فأبى أن يرد عليه ، فألح عليه سلم واتهمـه بأنـه عَي مفْحَم لا يقدر على الشعر ، فقال اليزيدي يهجو سَلم:

عَـ ـق سَـ ـلْمُ أُمـ ـه سَـ ـفَهاً وأَبـا سَـلْمٍ عَلَـى كِبَـرَهْ[1154]

وإلى جانب هذه الألوان من الهجاء عَرَف الشعر العباسي لونـاً آخـر مـن الهجاء كان أخف وقعاً ، إذ لم يكن يتجاوز حد السخرية من المهجو وإثارة الضحك منه . وهو لون فيه مجال واسع للتفنن ، كما أنه يحتاج إلى قدر غيـر يـسير مـن الذكاء والفطنة ، والمخيلة الخصبة التي تعرف كيف تجسم العيوب في صورة مثيرة . وهو اللون الغالب على فن الهجاء في الآداب الغربية منذ القديم[1155].

وقد يكون من البواعث على هذا اللون من الشّعر الهَزْلي ، أن يجد الـشاعر نفسه لا يقع مع فحول المعاصرين له في شيء، فيسلك هذا المسلك يتميز به بيـنهم. وهو نوع كثر عند الأعراب وكذلك نرى منه قصائد وقطعاً في أشـعار المولـدين والمتأخّرين ، وبعضهم خص أكثر شعره بالفحش والتعهر حتى ضربوه مثلاً[1156].

وهذا النوع من الهجاء لا يتعرض فيه الشاعر لمحارم المهجو ولا يخدش في عرضه ، وإنما يكون أكثر قصده إلى التندر والسخرية والهَزْل والإضحاك ، ودليلنا على ذلك ما رواه ابن المعتز من أن أبا عَيْيِنَة دخل يوماً على المأمون فقال له :"يـا أبا عَيْيِنَة ، هجوتَ ابن عمك بألف بيت ما عرضتَ له بمحرم ولا تجاوزته إلا فـي بيت واحد ، وددتُ أنك ما قُلتَه . قال وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: قولك:

ولأوذينـكَ فَـوْقَ مـا آذيتَنِـي ولأوسـدَن علـى نعَاجِـكَ ذِيبِـي

(1154) المصدر السابق ، ص 250.

(1155) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، ص 386.

(1156) مصطفى صادقي الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج 3، ص 126 – 127 .

فقال يا أمير المؤنين ، إني أردتُ بالنّعاج بنيه لا غيرهم ، فَسرّي عن المأمون"[1157].

وفي هذا اللّون ميدان فسيح للسخرية والهَزْل يبرز فيه الشاعر قدرته على تصوير كثير من مجالات الحياة العامة في صور ساخرة تبعث على الضحك والإشفاق ، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب طبقات الشعراء وأغلبها فاحشة داعرة.

ومن ذلك أن يهزل الشاعر في تصوير حظّه وفقره وسوء حاله ، كما في قول أبي فرعون الساسي:

رأيتُ في النوم بَخْتِي ... في زيِّ شَيخٍ أَرَتِّ

أَعْمَى أَصم ضَئيلاً ... أَبا بَنِينٍ وبِنْتِ

فَقُلْتُ : حييتَ رزْقِي ... فَقَالَ رزْقُكَ بأسْتِي

فكَيْف لِي بِدَوَاءٍ ... يلين لِي بَطْنَ بَخْتِي؟[1158]

وقوله أيضاً يشكو ما يعانيه أطفاله وأمهم من جوع وحرمان:

إليكَ أَشكو صِبْيةً وأُمهمْ ... لا يَشْبعونَ وأَبوهم مِثْلُهمْ

قد أكلُوا اللحْمَ ولم يُشْبعْهم ... وشَربوا الماءَ فَطالَ شُربهمْ

وامتذقُوا المَذْقَ فما أَغناهم ... والمَضْغَ إنْ نالوه فهو عرْسهمْ

لا يعرفونَ الخبزَ إلا باسْمِهِ ... والتمْرَ هَيْهاتَ فَلَيْسَ عِنْدَهمْ

زعْر الرؤوسِ قَرِعَتْ هاماتُهمْ ... مِن البلاءِ واسْتَك منهم سَمْعهمْ

وجَحْشُهمْ أَجْرب مَنْقُور القَرَى ... ومثل أَعْواد الشكاعَى كلْبهم[1159]

(1157) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 264.

لأوسدن : لأُغْرِينَ.

(1158) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 342.

الأرت: مَنْ في لسانه رتة أي عجْمَى.

(1159) المصدر السابق ، ص 344.

المذقُ : اللبن الممزوج بالماء ، وامتذق اللبن: خلطه بالماء.

زعر الرؤوس: يقال: زعِرَ الشعْر والريشُ والوبر زَعْراً: قل وتفرق حتى يبدو الجلد . **استك السمعُ**: صم.

في الأبيات السابقة يصور أبو فرعون الساسي ما يعانيه أطفاله الصّغار من فقر وبؤس في صورةٍ ساخرة هَزْلة ، فأطفاله يخلو بيتهم من أبسط ألـوان الغـذاء وهي الخبز والتمر ، وقد تساقط شعر رؤوسهم وبانت جلودهم من شـدة الجـوع . وامتدت مظاهر بؤسهم وحرمانهم حتى شملت حيواناتهم . فجحشهم الوحيد أصـابه الجرب ، وكلبهم بدا عليه الضعف والهزال بسبب ما قاسى من الجوع.

ولعل أبا الشمَقْمق أحد من برعوا في هذا الفن ، وسبق أن أوردنا في مبحثنا الخاص بالفقر ، بعض الأمثلة التي يصوِّر فيها فقره وسوء حاله في صور طريفـة ساخرة .

ونكتفي هنا بهذا المثال الذي يشكو فيه قسوة الحياة وشظف العيش ومعانـاة أطفاله مع الجوع والحرمان ، يقولُ:

إن العِيـ ـ ـ ـ ـالَ تَـ ـ ـ ـ ـ ركْتُهمْ   بالمِـ ـصْرِ خُبْـ ـزهم العـ ـصارهْ

وشـ ـ ـ رابهمْ بَـ ـ ـوْلُ الحِمَـ ـ ـا   ر مِزَاجـ ـه بَـ ـوْلُ الحِمَـ ـارهْ

ضَـ ـجوا فقلْـ ـتُ تَـ ـصبروا   فـ ـالنجْح يقْـ ـرن بالـ ـصبارهْ[1160]

وجملة القول فالهجاء في العصر العباسي تميز بأنه كان هجاء مقذعاً . وقـد أفرط شعراؤه في استعمال الألفاظ الفاحشة والمعاني القبيحة حتى خرجوا بـه إلـى نوع من الإسفاف والإسراف في السب والقذف والشتائم.

وقل شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية وانحسر عما كان عليه فـي أيام بني أمية.

وقد تجاوز الشعراء الهجاء بالعرض والمحارم إلى لون آخـر مـن ألـوان الهجاء لم يكن يتجاوز الشاعر فيه حد السخرية والضحك مـن المهجـو . وتوسـع الشعراء في هذا الجانب فصوروا حظوظهم وفقرهم وسوء أحوالهم وبؤس أطفـالهم في صور ساخرة هَزْلة . وأشهر هؤلاء : أبو الشمَقْمق ، وأبو فرعون الساسي.

القَرَى : الظهر . **الشكاعَى** : نبات دقيق العيدان ضعيف الورق.

(1160) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 116 .

العصَارَةُ : نُفَايَةُ ما عصِر.

النجح : الفوز والظفر.

(د) الرّثاء:

مصيبة الموت من المصائب التي أثارت الشعراء ، وألهبت عواطفهم وهزت مشاعرهم ؛ فصوروا عظم الفجيعة وفداحة الخطب ، وجلالة الرّزء ، وبكوا وناحوا على من ذهب من الأقارب والأهل والأحباب.

والرّثاء وإنْ اقترب من المديح في ذكر الفضائل ، وتعداد المناقب والمـآثر ، إلا أن الرثاء دافعه الحزن والأسى والتوجع والإحساس بمرارة الفقـد ، لا لـشيء سوى الوفاء والمودة لمن رحل عن دار الدنيا وفـارق ذوي القُربـى أو الأحبـاب بخلاف المدح الذي غالباً ما يكون داعيه الحظوة لدى الممدوح أو الظفـر بعطايـاه ونواله. لذلك جاءت قصائد بعض الشعراء لممدوحيهم في حياتهم أجْوَد من مراثيهم لهم بعد وفاتهم.

روى ابن المعتز أن إبراهيم بن الحكم قال لأبـي يعقـوب الخُرَيْمـي[1161] :"مديحك لأبي الهيذام ولمحمد بن منصور بن زياد في حياتهما أَجْـوَد أم مراثيـك؟ فقال: يا مجنون ، أين يقع شعر الندم والرّعاية مـن شـعر المـودة إذا صـادفت الرغبة"[1162].

إذن فمن الشعراء مَنْ يجوّدون مدائحهم طمعاً في العطايا والجوائز والهبـات وحرصاً منهم على الاستئثار بالقرب من المدوح ، بينما تتخلف مراثيهم في الجـودة عن مدائحهم ؛ لأنهم وإنْ دفعهم الوفاء لرثاء من عز عليهم فهم يدركون أن لا رجاء في أعطية ، ولا أمل في جائزة سنية.

وهذا ما أفصح عنه أبو يعقوب الخُرَيْمي في موضع آخر في غيـر مواربـة فحين قيل له : إن مدائحك لآل منصور بن زياد أَجود من مراثيك قال:"كُنـا يومئـذٍ نعملُ على الرجاء ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد"[1163].

(1161) أبو يعقوب الخُرَيْمي : هو إسحاق بن حسان بن قُوهي من العجم ويكنى أبا يعقوب ، وهو مولى ابـن خُرَيْم الذي يقال لأبيه خريم الناعم ، وكان الخريمي شاعراً مفلقاً مطبوعاً مقتدراً على الشّعر ، مدح الخلفاء والوزراء والأشراف فأعْطِي الكثير . الجاحظ ، الحيوان ، ج1 ، ص 224 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 579 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 268 – 270 .

(1162) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 268.

(1163) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 580.

ويرى ابن رشيق أن الرّثاء ينبغي "أن يكون ظاهر التفجع ، بيّن الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام"[1164].

والمعاني التي تتوارد على خواطر الشعراء في الرّثاء لا يكاد يختلف فيها شاعر عن الآخر إذ لا تخرج عن تصوير الفجيعة في صورة هول مفزع ، وخطب فادح ، وخسارة عظمى ، وإنما الشعراء يتفاوتون في ذلك بالخيال الرائع الذي يعرض لهم ، والمعاني البديعة التي يطرقونها ، والصور الجميلة التي يأتون بها ، وكلما كان الشاعر مثيراً للأشجان ، موقظاً للأسى ، مضاعفاً للحزن كان مصيباً في الوصول إلى غرضه من الرّثاء[1165].

وأشعار المراثي عند العرب تتوزع بين ثلاثة ألوان:التأبين ، والعزاء ، والندب . فالتأبين هو الثناء على الشخص حياً أو ميتاً ، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط ، وخير ما فيه ذكر المناقب وتصوير المآثر والفضائل ، وهو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص[1166].

أما العزاء فهو الصبر على مصيبة الموت ، وفيه ينفذ الشاعر من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معاني فلسفية عميقة[1167]. والندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات الشجية والألفاظ المحزنة[1168].

ومن صور التأبين لدى الشعراء العباسيين قول مروان بن أبي حَفْصَة يرثي مَعْن بن زائدة:

مَضَى لِسَبيلِهِ مَعْنُ وَأَبقى ... مَكارِمَ لن تَبيدَ ولن تُنالا
هُوَ الجبلُ الذي كانت نزارُ ... تهدُّ من العدوِّ به جَبَالا

(1164) ابن رشيق ، العمدة ، ج2 ، ص 147.

(1165) د. إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت . ص 295.

(1166) د. شوقي ضيف ، فن الرّثاء ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1955م ، ص 5-6.

(1167) المرجع السابق ، ص 6-7.

(1168) المرجع السابق ، ص 5.

أَصابَ الموتُ يـوم أصـابَ مَعْنـاً		مِـن الأحْيـاءِ أكـرمَهمْ فَعَـالا

ولـم يـكُ طالـبٌ للعـرف يَنْـوي		إلـى غيـر ابـن زائـدةَ ارتِحَـالا

مَضَى مَنْ كـان يحمـلُ كـل ثِقْـلٍ		ويَسْـبِقُ فـيض نائلـهِ السـؤالا

ولا بَلَغـتْ أكـف ذوي العطايـا		يمينـاً مِـن يَدَيْـهِ ولا شِمَـالا

ومـا كانَـتْ تَجِـف لـه حِيـاض		مِن المعروفِ مترَعـةٌ سِـجَالا[1169]

في هذه الأبيات يظهر ابن أبي حفصة حزنه ويبدي حسرته وأسفه على فقد معن بن زائدة ، ويعدد مآثره وفضائله ، فابن زائدة رحل عن الدنيا لكن ستظل ذكراه خالدة في الأذهان بما ترك من كريم الفعال وجميل الخصال . لقد كان ابن زائدة شجاعاً مقداماً وهو فارس قبيلته نزار وحاميها والزائد عن حياضها . وكان ابن زائدة سخي اليد ، ندي الكف باذلاً للمعروف ، وكانت داره مرتحل المحتاجين ومحط السائلين ، يفدون إليه فيجدون عنده الخير الوفير ؛ فيحققون سؤلهم ويدركون غاياتهم .

لقد مات ابن زائدة ، وبذهابه ذهب الكرم والجود ، يقول مروان بن أبي حفصة:

وقُلْنَـا أيْـنَ نَرْحـلُ بَعْـد مَعْـنٍ		وقَد ذَهَبَ النـوالُ فَـلا نَـوَالا[1170]

وفي القصيدة نفسها يندب ابن أبي حفصة معن بن زائدة ويذكر فعاله فيقول:

وقائلـةٍ رأَتْ جِسْمي ولَـوْني		مَعـاً عـن عَهْـدِها قُلِبَـا فَحَـالا

أَرَى مَـرْوانَ عَـادَ كـذي نُحـولٍ		مـن الهنْـدِي قـد فقـد الصّقالا

رَأت رَجـلاً بـراه الحـزن حتـى		أَضَـر بـه وأورثـه خَبَـالا

كـأن الليـلَ واصَـلَ بعـد مَعْـنٍ		لَيـاليَ قـد قُـرن بـه فَطَـالا

فَلَهْـف أَبـي عَلَيْـكَ إذ العَطَايـا		جعِلْـنَ منًـى كـوَاذبَ واعْـتِلالا

وَلَهْـفَ أبـي عَلَيْـكَ إِذِ اليَتَـامَى		غَـدَوْا شُـعْثاً كـأن بهـم سـلالا

(1169) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 44-45.

السّجال : جمع سجل ، وهو العطاء.

(1170) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 45.

حَبـــاكَ أخـــو أميـــة بـــالمَراثي مَــعَ المِــدَحِ الــواتِي كــانَ قــالا
أَقــامَ وكــانَ نحــوكَ كــل عــاٍ يطيــل بواسِــطَ الكُــورَ اعْتِقَــالا
وَأَلْقَـــى رَحْلَـــه أَسَـــفاً وآلَـــى يمينـــاً لا يَـــشُدُ لـــه حِبَـــالا[1171]

يرسم ابن أبي حفصة لوحة حزينة يصور فيها ما أصابه من الأسى والحسرة لفقده معن بن زائدة ؛ فالحزن على المرثي مَلَكَ على ابن أبي حفصة عقله وفؤاده ، واستبد به الجزع فتغير لونه ونحل جسده حتى أن إحداهن أنكرت ما أصاب جـسمه من التغير والتبدل . فهو يندب ابن زائدة ؛ لأن ابن زائدة ليس رجلاً كعامة الرجال ؛ وهو يتلهف عليه لجوده وكرمه وعطائه السخي ، وهو يبكيه لرعايته الأيتام وهو يبكيه كذلك وفاء وعرفاناً له مثلما كان بالأمس يشد له الرحال ويقيم عنده ويحظـى بعطاياه ، وبلغ ابن أبي حفصة من الحزن والحسرة ، أن ألقى رحلـه وأقـسم أن لا يشد الرّحال إلى أحد بعد ابن زائدة.

ولعمَارة بن عَقِيل بعض أبيات يرثي فيها أخاه "عثمان" ويندبه بألفاظ حزينـة وزفرات حرى ، يصوّر خلالها مقدار ما أصاب نفسه المكلومة من الحزن واللوعة والحسرة على فقده أخيه ، وفيها يقولُ:

أخِـي يَـوْمَ أَحْجـارِ الثمـام بَكَيتُـه وَلَـوْ حـم يَـومي قَبْلَـه لَبَكـاني
تَـــدَاعَتْ لـــه أَيامـــه فَاخْتَرَمْنَـــه وأَبْقَـيْنَ لـي شـجْواً بكـلّ مكـان
فَلَيْتَ الـذي يَبْكـي بِعثْمـانَ غَـدْوَةً دَعَـا عِنْـدَ قَبْـرِي مثلهـا فَنَعـانِي
فَلو قُسّمَتْ في الجنّ والإنسِ عَبْرتِـي عَليهِ بَكى من حَرّهـا الـثقلان[1172]

ومن صور العزاء قول محمد بن عبد الملك الحارثي يرثي أخـاه سـعيداً ، ويذكر في أبياته أن ذهاب الأقارب والأحبة هو شأن الدنيا التي لا تستقر على حال؛

(1171) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

عاٍ : عَادِي العوادِي هو أشد الأشغال التي تصرفك عن أمورك.

سلالٌ : السلالُ هو مَرض يصيب الرّئة.

الكُور: رحل البعير بأداته.

(1172) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 291.

الثمام : نبت من الفصيلة النجيلية ، يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً ، وفروعه مزْدحمة متجمة.

فالنعيم والسرور كله مصيره إلى الزوال ، والدنيا حين تُفْرح إنساناً سرعان ما تعقب ذلك حزناً وألماً ، والخير والشر يتبدلان بتبدل الأيام والأزمان ، يقولُ:

نَعـيم دنْيـا وكـل دنْيـا مَـصيرها عنـه أَنْ تَـزولا
إذا أَرَتْ فَرْحـةً أَخاهـا مَالـتْ إلـى تَرْحَـةٍ بَـدِيلاَ
وكـل خَيْـرٍ وكـل شـرّ فيهـا قمـينُ بـأنْ يَحـولا
وإن سـعيداً شَـقِيقُ نَفْـسِي أَبْقَـى لنفـسي جَـوى دَخِـيلا[1173]

وسبق أن عرضنا لحادثة الموت في مبحثنا الخاص بفن الزهد، وأشرنا إلـى أن الشعراء العباسيين ساروا على سنن أسلافهم في وصفهم لغدر الـدهر وتربـصه ببني البشر[1174].

فابن رشيق يقولُ:"ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخـادرة فـي الغياض، وبحمر الوحش المتصرِّفة بين الغفار، والنسور، والعقبان، والحيات، لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود"[1175].

ويروي ابن المعتز شعراً للحارثي يرثي فيه أخاه سعيد بن عبـد الـرحيم ، ويضرب لموته مثلاً بظبية تركت ولدها الصغير وذهبت ترعى بعيداً عنه ظناً منها أنها تركته في موضع آمن ، ومع ذلك ظلت تراقبه وترعاه ، ومن شـدة حرصـها وشفقتها على ولدها كانت وهي في أثناء رعيها تصدر أنغاماً ليسمعها ويطمئن إلـى أن أمه ترعى من حوله وقريباً منه . لكن حرصها على ولدها لم ينجه من المـوت؛ فإذا بسبع جائع ينقض عليه وينهشه ويمزقه مزقاً ويتركها ثكلى جزعة ، يقولُ:

فمـا أُم خِـشْفٍ أَوْدَعَتْـه قَـرارةً مِن الأرضِ وانْسَاحَتْ لِتَرْعى وتَهْجَعَا
ويهتز في الممْـشَى القريـبِ كأنـه قَضيبٌ من البان النَـوَى فَتَرَعْرَعَـا
فَظلتْ بمـسْتَنِّ الـصبَا مـن أَمامـهِ تنغم فـي المرْعَـى إليـهِ لِيَـسْمَعَا

(1173) المصدر السابق ، ص 254 – 255 .

(1174) ص 213 ، 214 ، 215 من هذا البحث .

(1175) ابن رشيق ، العمدة ، ج2 ، ص 150.

إذَا أُغفلَـتْ نَـادتْ وإن نَـابَ نَبْـأةً   عَلَى سَمْعِها تَـذْكُرْ طُلاهـا فَتَرْبَعَـا

فَخَالَفَهَـا عَـارِي النواهـقِ شَاسِـب   أخو قَفْرةٍ أضْحى وأمـسى مجوعـا

فَأنْهَلَ منـه بَعْـدَ عَـل وَلَـم يَـدعْ   لِمُلْـتَمسٍ إلا شَـريحاً مذَعْـذَعَا

فَجَـاءَ يِريـاه نَـسيمُ مـن الـصبَا   صَبَاحاً ودرجَر ثُكـلاً فَأوْجَعَـا[1176]

وقد أثنى ابن المعتز على اقتدار الحارثي على المعاني الجيّدة وبراعته في التصوير ، فقال معلقاً على الأبيات:"هذا كلام يعجز الشعراء ويفضحهم[1177]" وقال معلقاً على جودة شعر الحارثي في موضع آخر من الكتاب :"لو لم يكن في كتابنا إلا شعر الحارثي لكان جليلاً"[1178].

ومثلما برزت في قصيدة المدح بعض المعاني الإسلامية كما تقدم، برزت كذلك المعاني ذاتها في قصيدة الرّثاء، ومن ذلك قول ابن سَلْمة في رثاء الرشيد:

مـاتَ الإمـام فعـم أهـلَ الـدّين كُلهـم مـصابهْ

عَـريْنَ مِنـه ركابـه فتَعطلَـتْ مِنْـه قِبَابـهْ[1179]

فموت الرشيد إمام المسلمين وخليفتهم يعد رزءاً للمسلمين جميعاً .

ويرثي البحْتري أبا سعيد ويذكر جهاده ضد الروم ، ويشير إلى أن في موت أبي سعيد فاجعة ومصاب جلل للإسلام والمسلمين ، يقول:

وَرَزيئَـةٍ حَمَـلَ الخَليفَـةُ شَـطْرَهَا   والمـسْلمونَ وشَـطْرَهَا الإسْـلام

لا يَهْنيء الـرومَ اسْـتراحَتُهمْ فَقَـدْ   هَـدَأُوا بـأفْوَاه الـدروبِ وَنَـاموا

أمِنُوا وما أمِنُوا الردى حَتى انْطَـوَى   في التربِ ذَاكَ الكـر والإقـدام[1180]

ويقول البحتري في رثاء يوسف بن محمد:

(1176) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 253 – 254.

الخشف: الأحمر،أو الذي خالط بياضه سواد. **ترعرع** : تحرك. **مستَن الرّيح**: موضع جريها.

نابَ :النبأة :الصوت الخفيف. **الطلا** : ولد الظبي.**تربع** : تتوقف. **النواهق**:العظام الشاخصة بجوار العين.

الشاسب:الضامر اليَابس.**المذعذع**:المبدد المفرق.

(1177) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 254.

(1178) المصدر السابق ، ص 255 .

(1179) المصدر السابق ، ص 138.

(1180) البحتري ، ديوان البحترى ، ج2 ، ص 85.

خَلا أَمَلِي من يوسفَ بن محمد   وَأُوْحِشَ فِكْري بَعْدَه وَظُنُوني
وكانَتْ يَدِي شُلَتْ ونَفْسي تُخُرِّمَتْ   وَدنْياي بانَتْ يَوْمَ بَانَ وَدِيني[1181]

فالبحتري يطرق في رثائه ذات المعاني الجديدة التي طرقها شاعر المدح ؛ فهو يأسى لذهاب يوسف بن محمد ؛ لأن يوسف هذا كان يجمع في فضائله بين أمور الدّين والدنيا وفي ذهابه ذهاب لهما معاً.

ومجمل القول فإن شعراء العصر العباسي نهجوا في مراثيهم نهج الشعراء القدامى ، وقلدوهم في ألفاظهم ومعانيهم وصورهم وأخيلتهم ، وإن أضاف العباسيون – لفن الرثاء – بعض المعاني الجديدة التي تتلائم وروح العصر ، وتستوعب ما طرأ على الحياة العباسية من تطور وتجديد.

(هـ) <u>الفخر</u>:

منذ عرف العربي الشّعر وأنشده جعل الافتخار غرضاً أصيلاً من أغراضه شأنه في ذلك شأن أغراض الشّعر وفنونه الأخرى ؛ فالجاهلي كان يعيش في بيئة تسودها العصبيات القبلية ، وتتنازعها الخصومات والضغائن والأحقاد .

ولما أحس البدوي أنه يعيش في هذه البيئة التي لا غلبة فيها إلا للقوي على الضعيف ، أخذ يفتخر بنفسه ويفخّمها ، ويعلي من شأن قبيلته وعشيرته . فهو تارة يصوّر قومه على أنهم هم الأقوياء الذين يخْشى بأسهم وتُتقى سطوتهم ، وتارة أخرى يصورهم على أنهم هم المثال الذي لا نظير له في الكرم ، والمروءة ، والوفاء ، والنجدة ، وسائر الفضائل . وعلى هذا النحو ظل الفخر ملازماً للقصيدة العربية القديمة في العصور التي تلت عصر الجاهلية.

وابن رشيق لا يرى فرقاً بين الافتخار والمدح ، فعنده أن الافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص بالافتخار نفسه وقومه ، وكلّ ما حسن في المديح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح كذلك في الافتخار[1182].

(1181) المصدر السابق ، ص 90.
تُخُرِّمتَ : استأصلتها المنية . **بَانَ** : انْفَصَلَ.
(1182) ابن رشيق ، العمدة ، ج2 ، ص 143.

والمتأمّل في كتاب طبقات ابن المعتز يرى أن الفخر في العصر العباسي ظل نشطاً ومحتفظاً بسماته القديمة وملامحه ، ويلحظ كذلك أن الفخر بالقبيلة قد اضمحل ولم يبق إلا عند القليل من الشعراء.

ويورد ابن المعتز شعراً لمن لا يزال متمسكاً بعصبيته القبلية كأبي نـواس ، وبكر بن النطاح ، وأبي نخيله. ويتقدم أبو نواس شعراء العصر في العصبية القبلية حيث كان شديد التعصب لقبيلته قحطان ، وله فيها أشعار كثيرة[1183]. ففي الافتخار بقحطان وتفضيل اليمن ، يقول أبو نواس :

فَـنحن أَرْبَـابَ نَـاعِطٍ ولنـا ... صَـنْعَاء والمِـسْك فـي مَحَارِبِهـا
فَـافْخَرْ بقَحْطَـانَ غيـر مكْتَئِـبٍ ... فَحـاتِم الجـودِ مِـنْ مَنَاقِبهـا
وَلا تَـرَى فَارسـاً كَفَارِسِـها ... إذْ زَالَـتِ الهـام عَـنْ مَناكِبهـا
عَمْرو وَقَـيْس والأَشْـتران وَزَيـْ ... ـد الخَيْـل أُسْـدُ لَـدَى مَلاعِبهـا
إِن قُرَيْـشاً إذا هـي انْتَسَبَتْ ... كـانَ لنـا الـشطْر مـن مَنَاسِبِهَا
فَـأُم مَهْـدِي هَاشـم أُم مـو ... سى الخَيْر مِنا فَـافْخَرْ وسَـامِ بِهـا
بَلْ مِلْ إلـى الـصّيد مـن أَشَـاعِثِها ... والسادة الغُرّ مـن مَهَـا لبهـا[1184]

وممن تغنى بالعصبية القبلية : بكر بن النطاح ، يقول:

متى تَـشْتَمِلْ بكـرُ علـي بـدارها ... أَبِـتْ واثِقـاً بـالجودِ والنجَـدَاتِ
وفـي أَسَـدٍ والنّمْـر أبنـاء قاسـطٍ ... أَمَـان مـن الأيـام والغِيَـرَاتِ
وإن ذوي الإقْدام والـصبْر والنهـى ... لإخواننـا ذُهْـلٌ علَـى اللزَبـاتِ
وما الفتك إلا فـي رَبيعـةَ والغِنَـى ... وذب عـن الأَحْـسَابِ والحرمـاتِ
مَفَـاتيح أَبْـوابِ النـدَى بأَكُفّنـا ... فَـسؤالنا يَـدْعونَ بالـشهواتِ
إذا هَلَـكَ البَكْـري كـان تُرَاثُـه ... سِـنَانٌ وسـيفٌ قاضِـب الـشفَراتِ
ومَنْ لم تكُن بكر لـه فهـو ضَـائِع ... إذَا الروْع أَبْـدَى أَسْـوقَ الخَفِـرَاتِ

(1183) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 176.

(1184) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 176 ، 177 ، 178 .

نَاعِط :مخلاف باليمن، وجبل بصنعاء وفيه حصن يقال له ناعط أيضاً .**المسك**:نبات. **المحارب**:الأجمات.

إِذَا عَدتِ الأيـام بَكْـرَ بـن وائـلٍ رأيــتَ معــداً تَحْتَهــا درجــاتِ
وكـل قتيـلٍ مـن ربيعـةَ يَنْتَمِـي إلى حَسَبٍ صَعْب المَنَاكِبِ عَاتِ[1185]

يفتخر بكر بن النطاح بأمجاد قبيلته ربيعة وما لها من كريم الفعال وجميـل الخصال ؛ فقبيلته اتصفت بالكرم والشجاعة والإقدام ، ورجاحة العقـل ، وحمايـة الأعراض والذود عنها ، وهي خلال ورثوها عن آبائهم الذين اتصفوا بشرف النسب وكرم الحسب ، ومن لم يَنْتَسِب لقبيلتهم فهو هالك إذا جد الجد وادلهم الخطب.

ويقال : إن الرشيد غضب على ابن النطاح وطلبه لإحيائه نار العصبية القبلية ، وتفضيله لقبيلته على كثير من القبائل ، فظل مسْتَتِراً حتى مات الرشيد[1186].

ومن صور التعصب للقبيلة قول أبي سعد المخزومي:

إِنّني امْرؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ فـي أُرومتهـا لا يَـسْتَطِيع لـي الأعْـدَاء تكـذِيبا
ولا مصاهَرَةُ الحبْشَان مِـن شِـيَمي ولا تَـرى لَـوْنَ وَجْهــي الــدهْرَ غِرْبِيبـا[1187]

وإذا تجاوزنا الفخر القبلي إلى غيره ؛ فمن جميل الافتخار قول دِعْبِل بن علي الخُزَاعِي يصف مداومته على إكرام الضيف والاحتفاء به ، حتى أن كلابه اعتـادت أن تستقبل الضيف بالبشر والترحاب:

وَيدل ضَيْفي في الظلام عَلَى القِـرَى إشـرَاقُ نَـاري أو نُبـاح كِلابِــي
حتـــى إذَا واجَهْنَـــه ولقينَـــه حَيَّيْنَـــه بِبَـــصَابِصِ الأذْنَـــابِ

حاتم الجود : حاتم الطائي. **الهام** : الرؤوس.

عمرو: يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي . **وقيس** : يريد به قيس بن مكشوح من مراد . **والاشـتران** : هما مالك بن الحرث النخعي الشاعر وابنه إبراهيم . **وزيد الخيل** : أراد به زيد الخيل بن مهلهل النبهـاني، وجميعهم من قحطان. **أحمَدِها** : أراد به الرسول صلوات ا وسلامه عليه.

أم مهدي هاشم : أراد بها أم الخليفة المهدي بن المنصور وهي أم موسى بنت منصور الحميرية.

الأشاعث: نسبة إلى الأشعث بن قيس. **والمهالبة** : نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة وهم من القحطانية .

(1185) المصدر السابق ، ص 202.

اللزبات: الشدائد. **القاضب**: القاطع.

(1186) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 198.

(1187) المصدر السابق ، ص 270.

الغربيب : الشديد السواد.

فَتَكاد مِن عِرْفَـان مـا قـد عـوّدتْ مِن ذاك أن يفْصِحْنَ بالترحـابِ[1188]

وهذا مَرْوان بن أبي حفصة يفخر بأنه ينحر من الإبـل جيادهـا وأحاسـنها ويقدمها للجوْعى في قدور ممتلئة مترعة ، يقول:

أُرْوِي الظّماءَ بكـلّ حَـوْضٍ مفْعَـمٍ جـوداً وأُتْـرِع للـسّغابِ قُـدوري

وَتَظـل للإخْـسَان ضَـامِنَةَ القِـرَى مِنْ كُلّ تَامِكةِ الـسنَام عَقِيـري[1189]

والجديد في الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا في فخرهم عن شعور طاغ بالكرامة والمروءة والشّيم الرفيعة[1190] كما في قـول بكـر بـن النطاح:

وَمَنْ يَفْتَقِـر منـا يَعِـشْ بحـسامِهِ ومَنْ يَفْتَقِرْ من سائِر الناسِ يَسْأل[1191]

وقول عَوْف بن محلم الخزاعي:

وإنّي لذو حِلْـمٍ علـى أن سَـوْرَتِي إِذَا هزني قَوْم حَمَيْتُ بهـا عِرْضـي

وإنّـي لأجْـزي بالكرامـةِ أَهْلَهـا وبالحِقْـدِ حِقـداً فـي الـشدائِدِ والخَفْـض[1192]

ومما رواه عبد ا بن المعتز في الفخر قول عوف بن محلّم الخُزاعي:

وإنّـي لِمَـن أَحْبَبْـتُ حبّـي دائِـمُ ولسْتُ بـذِي لَـوْنَين أَسْـود أَبْلـقُ

مَدوفٌ يَرَى الخِـلان منـه تَظرفـاً لــهِ خُلُـقٌ عِنـد الـبَلاءِ ممَـزقُ

يخُـالِطُ إِخْوانـاً لـه بِمَلاَقَـةٍ وشَـر الأخِـلاء الختُـون الممّـقُ

وإنّـي لأسْـتَحْيى الـصديقَ وأَتقِـي وكُل امرئٍ لا يتقِي الذم أَحْمَـقُ[1193]

(1188) المصدر السابق ، ص 244.

(1189) المصدر السابق ، ص 40.

السّغاب: الجياع . **أُتْرِعَ** : مِلئَ.

تامكة السنام : يقال : تمك السنام : طال وارتفع . **العقير** : المعقور.

(1190) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 170.

(1191) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 198.

(1192) المصدر السابق ، ص 174 .

سَورتي : السوْرة هي الوَثْبة.

(1193) المصدر السابق ، ص 174 – 175.

يفتخر ابن محلّم بأن من خلقه الوفاء ، فهو مخلص في معاشرته لأصحابه ، وهو ليس من ذلك الصّنف من الأصدقاء الذي ينافق أصحابه ويتملقهم ثم ينـصرف عنهم في وقت البلاء والشّدة.

وكما افتخر شعراء العصر العباسي بجميل خصالهم وكريم فعالهم، افتخـروا أيضاً بفصاحتهم وبيانهم وقدرتهم على قول الشّعر، ومن ذلك قول مروان بن أبـي حفصة:

ولقـد جَرَيْـتُ مـع الجِيَـادِ فَفُتها ـا ... بعِنَـان لا شَـنِجٍ ولا مَبْهـور
مَا نَالَـتِ الـشعراء مِـن مـسْتَخْلَفٍ ... مَا نِلْـتُ مِـن جَـاهٍ وَأخْـذِ بـدور
عَزت – معاً – عند الملوكِ مَقَالتي ... مـا قَـالَ حَـيهم مـعَ المقْبـور
ولقد حبيتُ بـألفِ ألـفٍ لـم تُثـبْ ... إلا بـسَيْب خليفـةٍ وأَمِيـر
ما زلْـتُ آنـفُ أنْ أُؤَلـف مِدْحَـةً ... إلا لِـصَاحِبِ مِنْبَـرٍ وسَـرِير[1194]

في هذه الأبيات يفتخر ابن أبى حفصة بأنه تقدم جميع الشعراء بجودة شـعره وحسن بيانه ، وأن أحداً منهم لم يبلغ ما بلغ مروان بشعره من الجاه والمال ؛ فهـو يحبو بشعره الخواص من الملوك والوزراء وهم كذلك يشهدون له بنبوغه وتفرده في قرض الشّعر.

ولعل ابن أبي حفصة قد صدق في مقالته ، إذ يذكر ابن المعتز أن مـا نالـه مروان بالشّعر لم ينله أحد من الشعراء المتقدمين ولا المحدثين ، حيث كان رسـمه على الخلفاء مائة ألف درْهَم[1195].

وفي الافتخار بالشّعر وحسن البديهة ، يقولُ بكر بن النطاح:

المدوفُ : المخلوط.

المملّقُ: مَلِقَ فلان فلاناً ، وله : تَوَدَدَه بكلام لطيف ، وتَضَرع فوق ما ينبغي.

(1194) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 40.

الشبم: البردان من جوع.

البدور:جمع بدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار.

(1195) المصدر السابق ، ص 43.

أَنَا الشاعِر المُمْلي على ألـ فِ كاتِـ بٍ وَيَـ سْبقُ إملائِـ ي سَـ ريعَ قُـ راتِ

فَأُبْـ دِي ولا أَرْوي لخَلْـ ق قَـ صِيدةً وَأُحْسَب إبليساً لِحـ سْن رواتِـ ي[1196]

ويقولُ ربيعة الرقي:

سَـ ـائِلي عَـ ـنْ شُـ ـعراءِ النـ ـ ـ اسِ هَـ ـلْ عَاصـ ـوا مَغَاصِـ ـي

قُلْـ ـتُ شـ ـعْراً ينْـ ـزلُ الأعْـ ـ ـ صَـ ـمَ مـ ـن رَأْسِ الـ ـصيَاصِي[1197]

ومثلما اتسمت معاني المدح عند الشعراء العباسيين بالغلو والإسراف كما تقدم ، كذلك من شعراء الفخر من أفرط في معانيه ، ومن ذلك قول بشار بن برد:

إِذَا مـ ـا غَـ ـضِبْنَا غَـ ـضْبَةً مـ ـضَرِيةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشمسِ أو قَطَرتْ دَمَـ ـا

إِذا مـ ـا أعَرْنَـ ـا سـ ـيِّداً مـ ـن قَبِيلـ ـةٍ ذُرَى مِنبُرٍ صَلى عَلَيْنَا وَسَـ ـلمَا[1198]

نخلص إلى أن فن الفخر لدى الشعراء العباسيين جـ ـاء متَمـ ـشّياً مـ ـع سـ ـنن الموروث الشعري لأسلافهم ؛ فقد اقتفي هؤلاء أثر القدامى وقلدوهم فـ ـي ألفـ ـاظهم ومعانيهم ، وكان من أثر تعقّب الدولة لكل من يحيى نار العصبية القبلية أن ضعف الفخر القبلي في هذا العصر ، على أن بعضاً من ملامحه بقيت عند جماعـ ـة مـ ـن الشعراء مثل أبي نُواس ، وبكر بن النطاح ، وأبي سعد المخزومي وغيرهم.

والملاحظ في الفخر لهذا العصر أن الشعراء أكثروا في فخرهم من المعـ ـاني التي تدل على الأنفة والكبرياء والإحساس العميق بالمروءة والكرامة والشيم الخلقية الرفيعة . وكما تنوعت فنون الشّعر وتعددت أغراضه تنوعت كذلك لغته وأسـ ـلوبه، وهذا ما سنشرحه في المبحث القادم إن شاء ا .

(1196) المصدر السابق ، ص 205.

(1197) المصدر السابق ، ص 147.

الصياصي: جمع الصّيصِيَة ، وهي الحِصْن ، قال تعالى :"وَأَنْزَلَ الذِينَ ظَاهَروهمْ مِنْ أَهْـ ل الكِتَـ ابِ مِـ نْ صَيَاصِيهِمْ" . الأحزاب آية : 26.

(1198) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 26.

المبحث الثاني : اللغة والأسلوب

اللغة وسيلة محضة من وسائل الاتّصال بين البشر ، ولها وظيفة أكيدة وهي "التعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني"[1199].

(1199) د. منصور عبد الرحمن ، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1977م ، ص 98.

واللغة في الشّعر ليست ألفاظاً ذات دلالة ثابتة جامدة ولكنها لغة انفعال مَرِنَة ، بل أميز ما فيها هذه المرونة التي تجعلها متجـددة دائمـاً بتجـدد الانفعـالات . فالانفعالات الجديدة غالباً ما تستخدم الألفاظ استخداماً جديداً . وهذا ما قاومته العربية مقاومة كبيرة ، وأصبحت اللغة التقليدية بألفاظها وبصور استخدامها المعهودة هـي الميدان الذي يستطيع أن يتحرك فيه الشعراء ولا يباح لهم الخروج منه . لذا ظلـت اللغة الكلاسيكية هي لغة الشعر الراقي لعهد طويل[1200].

والشاعر من خلال استخدامه للغة لابد له من أسلوب يتخذه منهجـاً ويـسير على هديه ، إذ أن الأسلوب كما يعرفه عبد القاهر الجرجاني هو "الضرب من النظم والطريقة فيه"[1201]. وهو كذلك "الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقنـاع أو التأثير"[1202]. وغالباً ما تتنوع أساليب الشعراء تبعاً لتنوع بيئاتهم ، وتباين ثقافاتهم، واختلاف مشاربهم ، ومقدار تأثرهم بروح عصرهم ، ومدى استجابتهم لدواعي هذا العصر.

الدارس لكتاب طبقات ابن المعتز يلحظ أن لغة الشّعر في العصر العباسـي تتوزع بين مدرستين إحداهما : مدرسة السهولة ، والأخرى مدرسة الأعْراب ممـن آثروا لغة الجزالة وألفاظ البادية .

وفيما يلي بيان لهاتين المدرستين:

(أ) مدرسة السهولة:

والسهولة هي "أن يأتي الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ما سواها ، عند مـن له أدنى ذوق من أهل الأدب وهي تدل على رقة الحاشية ، وحسن الطبع وسـلامة الروية"[1203].

(1200) د. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربـي ، ط3 ، 1974م ، ص 342.

(1201) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1989م ، ص 469.

(1202) أحمد الشايب ، الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط6 ، 1966م ، ص 41.

(1203) ابن حجة الحموي ، خزانة الأدب ، شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهـلال ، ط2 ، 1991م ، ج2 ، ص 478.

لقد شهد المجتمع العباسي تطوراً واسعاً نقله من الحياة التـي غلـب عليهـا الطابع البدوي في أيام الأمويين ، إلى حياة التمدن والتحضر والتجديد ، وألقى ذلـك بظلاله عَلى الشعراء فتأثروا برقة الحضارة وترف العيش فانعكس ذلك على لغـتهم وأساليبهم في التعبير.

ولعل هذا ما يفسر ميل معظم الشعراء الذين ترجم لهم ابن المعتز إلى اللغـة السهلة والألفاظ الرقيقة ؛ فأشعار هؤلاء تكاد تخلو من اللفظ الغريب وحوشي الكلام ، وقلما تقع لهم على كلمة تحوجك إلى التنقير في المعاجم اللغوية . ومن هـؤلاء : بشار بن برد ، وأبو نُواس ، وأبو العتاهية ، وربيعة الرقي ، وأبو عَيْينة، ومحمد بن يسير الرّياشي ، وغيرهم.

ويدلنا على سهولة أشعار العباسيين أن عصرهم شهد أربعة من المطبـوعين الذين لم ير في الجاهلية والإسلام أطبع منهم وهم : بَشار ، وأبو العتاهية ، والـسّيّد الحِمْيَري ، وأبوعَيْينة بن محمد بن أبي عَيْينة[(1204)].

ويورد ابن المعتز الكثير من الأمثلة التي يدّلل بها على سهولة شعر العـصر العباسي ؛ فهو – مثلاً – يقول في بشار :"كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة وأَسْلَس على اللّسان من الماء العذب"[(1205)]. ويرى الجاحظ أن بشار أطبـع المولدين جميعاً[(1206)].

ويصف ابن المعتز سهولة شعر أبي نـواس وجـودة طبعـه فيقـول عنـه :"وكان مطبوعـاً ، لا يستقـصي ، ولا يحلـل شـعره ولا يقـوم عليـه"[(1207)]. ويقول عنه في موضع آخر من الطبقات :"نَفَقَ شعر أبي نواس على الناس لسهولته وحسن ألفاظه، وهو مع ذلك كثير البدائع والذي يراد من الشّعر هذان"[(1208)].

(1204) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 50 وابن المعتز ، طبقات الـشعراء ، ص 266 وأبـو الفـرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص 1-2 .

(1205) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 24.

(1206) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 50.

(1207) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 176.

(1208) المصدر السابق ، ص 185.

ويقولُ في أبي العتاهية :"كان أبو العتاهية أحد المطبوعين ، وممن كاد يكون كلامه شعراً كله ، وغزله ليّن جداً مشاكل لكلام النّساء ، موافق لطباعهن ، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، والعباس بن الأحنف"[1209].

ويذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان غزير البحر ، سهل الألفاظ ، لطيف المعاني ، كثير الافتنان ، قليل التكلف[1210].

ومن الأمثلة على سهولة شعر أبي العتاهية قوله:

بَسَطْتُ كفي نَحْوَكُمْ سَائِلاً ... ماذا تَردونَ على السائِلِ
إنْ لَمْ تُنيلُوه فقولُوا له ... قَولاً جَميلاً بَدَلَ النائِل
أو كُنْتُم العَامَ على عُسْرَةٍ ... وَيْلي فَمَنُّوه إلى قَابِل[1211]

ويعلق ابن المعتز على هذه الأبيات فيقول :"ولهذا الشّعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقِتِهِ"[1212].

وممن عرفوا بسهولة الشّعر ورقة اللفظ : ربيعة الرّقي إذ "كان شعره كله مليحاً عذباً مطبوعاً جيّداً هيّناً"[1213]. ومن ذلك قوله:

صَاحِ إنّي غَيْرُ صَاحِي ... أَبداً من حُبّ داحِ
أَنَا وا قَتِيلٌ ... لكِ من غَيْرِ جِراحِ
لا بِسَيْفٍ قَتَلَتْني ... لا ولا سُمْرِ الرّمَاحِ
أَنْتِ للناسِ قَتُولٌ ... بالهَوَى لا بالسّلاحِ
وَبِشَكْلٍ وَبِدل ... وَبِغُنْجٍ وَمِزاحِ
وَبِعَيْنَيْنِ صَيودَيْـ ... ـن وثَغْرٍ كالأقاحِي
لَيْتَني كُنْتُ حَمَاماً ... لَكِ مَقْصوصَ الجَناحِ

(1209) المصدر السابق ، ص 208.
(1210) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص2.
(1211) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 210.
(1212) المصدر السابق ، ص 210.
(1213) المصدر السابق ، ص 149.

أيهــا النـــاس ذَرونِـــي لَـسْتُ مِـن أَهْـل الفـلاحِ
أنَـــا إنْـــسان مُعَنـــى بهــوَى المــرْضِ الـصِّحَاحِ[1214]

وينّبه ابن المعتز إلى ما حوته هذه الأبيات مـن سـهولة الألفـاظ ورقتهـا فيقول:"وهذا أطبع ما يكون من الشعر وأسهل ما يكون من الكلام"[1215].

ويرى ابن المعتز أن ربيعة الرّقي يتقدم الشعراء في صـفاء الطبـع ورقـة الشّعر ، ولا سيما إذا قال في الغزل ، ويورد في ذلك قصيدة أخرى لربيعة ثم يعلق عليها فيقول :"فهذا كما ترى لا يسمع مثله لشاعر رقة وغزلاً"[1216]. والقصيدة منها قول ربيعة يعاتب محبوبته ويشكو صدها وهجرانها:

أَغَرَكِ أَنْ لا صَبْرَ لي فـي طِلابكُـم وَأَنْ لَـيْسَ لـي إلا عَلَيْـكِ معـولُ
ولما تَبينْتِ الذي بِـي مِـنَ الهَـوى وأَيقَنْـتِ أَنّـي عَنْـكِ لا أتحـولُ
ظَلَمْتِ كَذِئبِ الـسوءِ إذْ قـال مَـرةً لِسَخْلٍ رَأَى والذّئب غَرثْـان مرْمِـلُ
أأَنْتَ الذي في غَيْر جـرْمٍ شَـتَمْتَني؟ فقال : متَى ذَا ؟ قالَ : ذا عـام أَولُ
فقَال : ولِدْتُ العَامَ ، بل رمْتَ غَـدْرةً فَدونَك كُلْني لا هَنَا لـك مَأكَـلُ[1217]

ومن رقيق ما لربيعة قوله في الغزل:

وَلَقَـــد طَـــالَ بـــأَبوا بِ الحُرَيْمِـــي افْتِـــصَاصِي
طَمَعــاً فــي صَــيْدِ ظَبْــي ذِي شِمَـــاسٍ ومِـــلاصِ
والثنَايـــا الغُـــرّ كـــالبر قِ تَـــلالاَ فـــي النّـــشاصِ
ثُـــم رِدْفٍ كنَقَـــا الرمـــ ل وأَحْـــشَاءٍ خِمَـــاصِ
ولقـــد عَـــذبْتِ روحِـــي فَمَتَـــى مِنْـــكِ خَلاَصِـــي[1218]

(1214) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 147 – 148.
(1215) المصدر السابق ، ص 148.
(1216) المصدر السابق ، ص 152.
(1217) المصدر السابق ، ص 151.
الغرثان : الجائع .
المرمل : من لا زاد له.
(1218) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 146.

ويلْفِتُ ابن المعتز إلى سهولة هذا الشّعر وعذوبته ؛ فيقول :"فهذا كما ترى أسلس من الماء وأحلى من الشهْدِ"[1219].

ويمضي المؤلف – رحمه ا – في ذكر شواهد السهولة في شعر العصر العباسي ، ومن ذلك قول محمد بن يسير الرياشي:

تَخَالى بِهَمّ في الفُؤَادِ دَخيل | وأَقْلَقه عَزْم النوى بِرَحِيل
وأبْدى له وجهَ المنيةِ بغتةً | صدود حَبِيبٍ وانحرافُ خَلِيل
وسَاوره سقْمٌ وأَسْهره هَوى | وَرَوْحَةُ واشٍ وابتكار عَذُول
عَلَى بِدْعَةٍ لما بَرَى ا خَلْقَه | فَصوره فَرْداً بغْير مَثِيل
تَبَدى كبَدْرٍ لم يَمر ببرْجِهِ | كُسوفٌ ولم يَكْدرْ غَدَاةَ أُفُول[1220]

وينبه القارئ إلى روعة هذه الأبيات ورقتها فيقول :"وهذا كما تراه إنما هو السّحر الحلال"[1221].

ويقولُ في سهولة شعر أبي عَيْينة :"وشعر أبي عَيْينَة أَنْقَى من الراحة ، ليس فيه عيب ، فلا بيت يسقط"[1222]. وهو القائل:

بحْ بما قَدْ كُنْتَ تُخْفِيـ | ـهِ وصَرّح لا خَفَاءَ
مَا عَلَى هذا عَزاء | غَلَبَ الصَّبْر العَزَاءَ
وَبَدا الأمْر المغَطى | كاشِفاً عنه الغِطَاءَ[1223]

(ب) <u>مدرسة الأعراب</u>:

إذا كان شعراء السهولة – الذين تقدم الحديث عنهم – أرادوا أن يخلصوا لتجارب عصرهم ، وأن يستمدوا معانيهم من الواقع الحضاري الذي كانُوا يعيشونه؛

الاقتصاص : تَتَبع الأثر.

الشّماس: الامتناع والإباء . **الملاص** : الإفلات.

النّشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض.

(1219) المصدر السابق ، ص 147.

(1220) المصدر السابق ، ص 257.

(1221) المصدر السابق ، ص 258.

(1222) المصدر السابق ، ص 265.

(1223) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 265.

فإن شعراء آخرين ممن وصفهم ابن المعتز بالأعراب "وجدوا أنفسهم مشدودين إلى الماضي ، يعيشون في تراثه أكثر مما يعيشون في حاضرهم ، ويستخدمون لذلك نفس وسائل التعبير التي استخدمها أسلافهم"[1224].

وفضلاً عن استعمال هؤلاء الشعراء لألفاظ المتقدمين ومعانيهم ، حرصوا على أن تحمل قصائدهم طابع القصيدة العربية القديمة كما عرفت عند الفحول من الشعراء المتقدمين . وهذا ما جعل ابن المعتز يطلق على نهجهم نمط الأعراب ولعله أراد به شعراء البادية ، لما اتسمت به أشعارهم من جزالة الألفاظ ، وجودة السبك ، ومتانة الأسلوب.

فهو يقولُ في عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :"كان الحارثي شاعراً مفْلِقاً مفوهاً مقتدراً مطبوعاً ، وكان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين . وكان نمطه نمط الأعراب"[1225].

ويورد ابن المعتز قصيدة للحارثي يفتخر فيها بشجاعته وبسالته ، وبأنه رجل جرب الحرب وخبرها ، وهو ليس بالجزوع الذي يرهب الحرب ويخافها ، بل يثبت في المعركة ويبلي فيها بلاء حسناً ، وهو عالي الهمة قوي العزيمة ، يقولُ:

هَأنَذا يا طَالِبي سَاعِي	مُحْتَضَرُ بَزِّي إلى الداعِي
أَحْمِي حِمَى مَن غَابَ عن مَذْحِجٍ	وَيَحْمَد الشاهد إيقَاعِي
لا هَلِعٌ في الحربِ هاعُ إذا	رَيقَ فيها كُل هَلْوَاعِ
قَدْ بَاضَتِ الحَرْب على هَامَتي	وصَمَّتني أُذُني واعِي
واسْتَوْدَعتْني مقْلَتَيْ أرقٍ	لا يَضَع الجَنْبَ لِتَهْجَاعِ
مُسْتَحْصِدِ المِرةِ ذِي هِمةٍ	ضَرار أقْوَام ونَفاعِ
لا تُوجَد الغِرةُ مِنْه وإنْ	هِيجَ به هِيجَ بمنْصَاعِ
أشْوَسَ يَنْضو الدِّرْعَ عن مَنْكِبٍ	مِثْل سِنَان الرمْح شَعْشَاعِ
كَمَا تَرَى أقْطَحَ ذَا رقْطَةٍ	تَنْجاب عنه هَبْوةُ القَاعِ[1226]

(1224) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، ص 324.

(1225) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 252.

وبعد أن أورد ابن المعتز هذه الأبيات ذكر الحكم الذي أصـدره معاصـروه عليها فقال :"فاجتمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيـات ليـست مـن نمـط عصره"[1227].

وهذا الحكم يدلنا على أن شعراء العصر العباسي وأدباءه قد أدركوا أن هناك نمطاً حضرياً في الشّعر وآخر أعرابياً (لعلهم قصدوا بدوياً) وأن النمط الحضري هو النمط الملائم لعصرهم ، أما النمط الأعرابي فلم يكن ينتمي إليه ، ويبدو أن إعجابهم بذلك النمط الإعرابي – إن هم أبدوا إعجاباً به – كان من قبيل إعجابهم بالقدرة على المحاكاة في ذاتها ، ولكنهم لم ينفعلوا به ويحسون فيه نبض عصرهم ، كمـا كـان شأنهم بالنسبة لما سموه بالشعر الحضري[1228].

وممن أشبه الأعراب في معانيهم وألفاظهم : ابن ميادة ، قال فيه ابن المعتـز :"كان ابن ميادة جيّد الغزل ونمطه نمط الأعراب الفصحاء"[1229].

ويورد ابن المعتز نموذجاً لابن ميادة وهو قوله:

كأن فُـؤَادي فـي يَـدٍ عَلِقَـتْ بـهِ　　محاذرةً أن يَقـضِبَ الحبـلَ قاضِـبُهْ
وأُشْفِقُ من وَشْـكِ الفِـرَاقِ وإنني　　أَظـن لَمَحْمـولٌ عليـه فَراكِبـهْ
فو ا ِ ما أَدْري : أَيغْلِبنِـي الهَـوَى　　إذا جَد جِد البَيْن أم أنـا غَالِبـهْ[1230]

(1226) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 252 – 253.

الهاع : الجزوع . **الهلواع** : السريع والحريص والجزوع .

صَممه الحديث: أوعاه إياه وجعله يحفظه ، وصمم الفرس العاف : أمكنه منه

مستَحصِد الهمة : يقال : استحصد الحبل : استحكم ، وحبل مسْتَحصْد: شديد الفتل .

المِرةُ : القوة والشّدة.

المنصاع : الذي ينفتل راجعاً سريعاً.

الأشوس : الشجاع الجريء .

نَضَا الشيء : نزعه وألقاه . **الشعشاع** : الطويل.

الأفطح : العريض الرأس . **الهبوة** : الغبْرة.

الرقْطة : سوادٌ يشوبه نقط بياض.

(1227) المصدر السابق ، ص 253.

(1228) د. عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، ص 328.

(1229) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 99.

ويعلق ابن المعتز على هذه الأبيات فيقول :"فهذه معان وألفاظ يعجـز عنهـا أكثر الشعراء ، فإنه قد جمع إلى اقتدار الأعراب وفـصاحتهم محاسـن المحـدثين وملحهم"[1231].

وهذا الحكم من ابن المعتز فيه قدر كبير من الاعتدال والبعد عن التعـصب؛ فهو حين رد الفصاحة والقدرة على توليد المعاني واشتقاق الألفاظ إلى المتقدمين من الأعراب وأهل البادية ، شهد كذلك للمحدثين بالكثير من المحاسـن والملـح التـي أضفوها على الشعر ، والتي تتمثل في الجدة والطرافة وابتكارهم للكثير من المعاني التي لم يسْبقوا إليها ، على نحو ما سنرى ذلك لا حقاً.

ومنهم البَطِين ، قال عنه ابن المعتز :"كان جيِّد الشِّعر محكمه ، يشبه نمطـه نمط الأعراب"[1232]. وهو القائل يفتخر:

لـــم أَقُـــلْ عنـــدَ الكريهـــةِ يَـــا	لَيْتَنـــي فـــي الخَفْـــضِ والدعَـــةِ
وَحـــسَامُ لا يطيـــقُ صَـــداً	كانْـصِبَابِ الكَوْكَـبِ الكُفَـتِ[1233]

ولعل أحداً من الشعراء العباسيين لم يوغل في المعاني البدوية كما فعل أبـو الخَطاب البهدلي، ومن ذلك قوله في موسى الهادي :

مَـاذَا يهيجـكَ مِـن دارٍ بمَحْنِيَـةٍ	كالبرْدِ غير منهـا الجـدةَ العـصر
عَفَـت مَعَارِفَهـا ريـحُ تُنَسِّفُها	حَتـى كـأن بَقَايـا رَسْـمِها سـطُر
أَزْرَى بجـدتِها بَعْـدِي وغيرهـا	هوج الرِّيـاح التـي تَغـدو وتَبْتَكِـر
دار لوَاضِـحةِ الخَـدين نَاعمـةٍ	غَرْثَى الوِشَاحِ لَهَا فـي دَلِّهـا خَفَـر
أَنْتَ الدعَامةُ يا موسـى إذا احْتَـدمَتْ	نِيرانُهـا وَحمـاة الحـربِ تَجْتَـزر
مـا مخْـدِر خَـدِر مـسْتأسِدُ أَسَـد	ضـبَارم خَـادِرُ ذُو صَـوْلةٍ زَئِـر
غَـضَنْفَرُ غَـضِفٌ قِرْضَـابة ثَقِـفٌ	مسْتَرْعِبُ لِقُلـوبِ النـاس مـصْطَبِر

(1230) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(1231) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(1232) المصدر السابق ، ص 227.

(1233) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

الكُفَتُ من الخيل : الشديد الوثب ، ويقال : كفت الطائر وغيره : أسرع في الطيران أو العدو.

ذو بَـرْثَنٍ شَـرِثٍ ضَـخْمٍ مـزوره	خَبَعْثَن الخَلْـق فـي أخْلاقِـهِ زَعَـر
جَأْب الشراسيفِ رَحْب الجوفِ مفْترسُ	عنـد التجـاول للأقْـرَان مهْتَـصِر
عَفَرْنَسُ أَهْـرَتِ الـشِّدْقَيْن ذو خَنَـقٍ	لِلْقِرْن عنـد لقَـا الأقْـران مقْتَـسِر
جَهْـم المحَيـا هَمـوسُ لا ينَهْنِهـه	صوْتُ الرِّجَال ولا للزجـر ينْزَجـر
في خَطْمِهِ خَـنَسُ فـي أنْفِـهِ قَطَـسُ	كأنما وَجْهه – من هَـضْبَةٍ – حَجَـر
ذوالـةٌ فَيْـسَرِيُ حـينَ تُبْـرزه	غَشَمْـشَميُ فـلا يُبْقِـي ولا يَـذَر
يبالغ عـشْرَ عـشْرِ مـن شَـجَاعَتِه	إِذَا تَنَازَلَـتِ الأبْطَـالُ واشْـتَجروا
بَل لو يلاقيك أَضْحى اللَيْثُ من فَـرَقٍ	وَخِيفةٍ مِنْكَ لا قَى يَوْمَه القَـدَر[1234]

يفتتح أبو الخطاب البهدلي قصيدته بمقدمة طللية يصف فيها دار محبوبته وما أصابها من البلى والتغير والتبدل بفعل الرِّياح العاصفة التي تعاقبت عليهـا صـباح مساء ، ثم يتخلص إلى وصف ممدوحه الهادي ، وهو في ثنايا قصيدته يصف الأسد في ثمانية أبيات يحشد فيها كل ما جادت به قريحته من الألفاظ الحوشية والمعـاني الوعرة ، ويضمنها كذلك جملة من صفات الأسد التي تدل على شجاعته وشراسته ، ليخلص أخيراً إلى القول بأن الأسد وبرغم شجاعته المقطوع بها فهو لا يَعْدِل عشْر

(1234) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 121 – 123 .

غرثى الوشاح : دقيقة الخصر.

تجتزر : يقال : اجتزر الشاة : ذبحها.

المخدر والخدر والخادر : من صفات الأسد ، ومعناه : المقيم في خدره ، أي عرينه . **الضبارم** : يقـال : أسد ضبارم : محكم الخلق مضَبره. **الغضنفر** : يقال : رجل غضنفر : غليظ الجثة ، والغضنفر : الأسد. **والغضف** : المسْتَرخي الأذن ، ومنه غضف فلان : نعم باله . **القرضابة** : الأسد ، ومن السيوف : القطاع . **الثقف** : الخفيف.

شرث : محدد . **الخبعثن** : العظيم . **الزعر** : شراسة الخلق.

الجأب : الغليظ . **الشراسيف** : أطراف الأضلاع . **اهتصرالشيء** : كسره.

العفرنس : الأسد الغليظ العنق . **الأهرت** : الواسع . **المقْتَسِر** : القاهر.

الهَموس : الأسد الخفي الوَطْء ، والسيار بالليل . **ونهنه فلان عن الشيء** : كفه عنه وزجره.

الخَنَس : انخفاض قصبة الأنف مع ارتفاع قليل في طرفه ، ويقال للأسد : أَخْنَس ، وَخِنوس.

الفيسري : الضخم . **الغشمشمي** : الجريءالمَضاء.

العشْر من شجاعة الهادي ، بل أن الهادي إذا التقى الأسد ترتجف أوصـال الأسـد وترتعد فرائصه.

ويعلق ابن المعتز على قصيدة البهدلي فيقول:"فهذا – كما ترى – مقتدر على الكلام مجيد للوصف حسن الرصف قد جمع إلى قوة الكلام محاسن المولدين ومعاني المتقدمين"[1235].

وهذا اللّون من الشّعر على الرغم من غربته في عصره وبعده كل البعد عن قاموس الشّعر العباسي ، إلا أنه لم يخل من معجبين يعيشون فيه تراث أجـدادهم ، ويبعث فيهم الحنين إلى ماضيهم التليد ، ويرون فيه مثالاً للشعر الجزل الذي يذكرهم بالفحول من أسلافهم.

يروي ابن المعتز عن أبي غانم عن موسى بن سعيد بن مسلم عن أبيه أنـه قال : كان موسى الهادي "لا يأذن لأحد من الشعراء مدة أيام خلافته ، ولا يرغـب في الشّعر ولا يلتفت إليه ... فلما قال أبو الخطاب البهدلي رائيته سألني فأوصـلتها إليه فلما سمعها أُعْجِب بها شديداً وقال للحاجب: أخرج إلى الباب فَمرْ مَنْ ينـادي: أين نَسابَةُ الأسد ؟ ففعل . فلما سمع أبو الخطاب ذلك علم أن شعره قد وصل وعمل عمله ، والشعراء مجتمعون – فقال: هأنذا . وأخذ الحاجب بيده وأدخله البيـت ... وأمر في ذلك اليوم ألا يحجب عنه شاعر ... وأمر لأبي الخطاب بألف دينار وكساه وحمله"[1236].

وممن نهج منهج القدماء – وقلدهم في معانيهم وألفاظهم – الحسّين بن مطَير ، يقول في الغزل:

كأننـا يـا سـلْيمَى لـم نُلِـم بِكُـمْ ... وتَحْتَنـا عَنَـسِياتٌ مَلاجِـيج
لم أَخْشَ بَيْنَهم حتـى غَـدَوا حِزَقـاً ... واسْتَوْسَقَتْ بهـم البـزْل العنـاجيج
تِلْكُـم دِيـاركُم بـالقفّ دَارسـةٌ ... يَسْتَن فِيها عَجَاج الـصّيْف والهـوج
فيهـا أَوار وآثـارُ بعَرْصـتها ... وماثِلٌ ناحـلٌ فـي الـدار مَـشْجوج

(1235) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 123 .

(1236) المصدر السابق ، ص 121 .

دار لناعمــةٍ بَيْـضَاء ، حلتُهـا عَصْبُ يمـانُ وبـرْدُ فيـه تَـدْبيج
ومَــوْرد آجِــن ســدْم مَناهِلُــه كأن ريقَ الدبَى فِيهن مَمْجـوج[1237]

في هذه الأبيات يشكو الحسين بن مطَير من فراق محبوبته التي آيـس مـن طلبها ؛ فهو على الرغم من ركوبه الجياد من الإبل إلا أنه لم يستطع اللحاق بهـا ؛ فأهل محبوبته عقدوا أمرهم على الرحيل ، واستعانوا في ذلك بكرائم الإبل ونجائبها فهي تسير بهم سيراً حثيثاً يتعذر معه إدراك محبوبته . لقد رحلت الحبيبـة وبقيـت ديارها وآثارها التي تتقاذفها رياح الصيْف الهوجاء ، ومحبوبته بيضاء ناعمة الجسد مدللة تعتني بزينتها فتلبس فاخر الحلي ومنضود الثياب.

وابن المعتز كعادته لم يخف إعجابه بمثل هذا الشّعر الذي يذكره بالفحول من المتقدمين ، فهو يعلق على قصيدة الحسين بن مطير المتقدمة ؛ فيقول :"فهذا ، كمـا ترى ، شعر كأنه الدّيباج ، بل نظم الدر في حسن وصف وإحكام رصف"[1238].

<u>المعاني المبتدَعة</u>:

كان من أثر الحضارة العباسية أن أطلق الشعراء العنان لخيالهم الخـصب ؛ فابتدعوا واخترعوا كثيراً من المعاني الجديدة . والمخترع من الشعر كما يعرفه ابن رشيق "هو ما لم يسْبَق إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبلـه نظيـره أو مـا يقرب منه"[1239].

(1237) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 104 – 105.

علسيات : إبل منسوبة إلى بني علس.

الحزق: الجماعات والقطع من كل شيء .

العناجيج : الإبل النجيبة.

استوثقت : استجابت لطردها.

استَن : جرى . **العجاج** : الغبار والدخان .

الهوج : الرياح الشديدة التي تقلع الأشجار والبيوت.

الأواري : قرارات القدور وما يلزق بأسفلها.

أجن الماء : تغير لونه . **سدم** : مندَفِنَة .

الدبَى : صغار النمل والجراد.

(1238) المصدر السابق ، ص 105.

(1239) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 262.

فمن المعاني البديعة التي لم يَسْبِق إليها أحد قول بشار بن برد:

أَمِـن تَجَنّـي حَبِيـبٍ رَاحَ غَـضْبانَا   أَصْبَحْتَ في سَكَرَاتِ المَوْتِ سَـكْرانَا
لا تَعْرفُ النوْمَ مِن شَوْقٍ إلى شَـجَنٍ   كأنمــا لاَ تَــرَى للنــاسِ أَشْــجَانَا
يَا قَوْم أُذْنِي لِـبَعْضِ الحَـي عَاشـقَةٌ   والأُذْن تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْن أحْيَانـَـا[1240]

وقوله أيضاً:

لـم يَطُـلْ لَيْلـي وَلكـنْ لـم أَنَـمْ   ونَفَـى عَنّـي الكَـرَى طَيْـفٌ أَلَـم
فَــاهْجر الــشوْقَ إلــى رؤْيَتهــا   أَيهــا المَهْجــور إلا فــي الحلُــمْ
حَــدِّثِيني عــن كِتَــابٍ جَــاءَني   مِنْـكِ بالـذمِّ وَمَـا كُنْـتُ أُذَم[1241]

وهو من المعاني البديعة التي لم يسبق إليها أحد.

ويروي ابن المعتز أن من المعاني البديعة التي ليس لأحد مثلها قول الأُخَيْطل بَرْقُوقَا في تشبيه المصْلُوب:

كأنــه عَاشِــقٌ قَــدْ مَــد بَــسْطَتَه   يَوْمَ الفِـرَاقِ إلـى تَوْدِيـع مرْتَحِـل
أَوْ قَـائِمُ مـن نُعَـاسٍ فيـه لُوثَتَـه   مواصِلٌ لِتَمَطّيـهِ مِـن الكَـسَل[1242]

وقول عبد الصمد بن المعذل:

لمــا رَأَيْــتُ البَــدْرَ فــي   أُفــق الــسماءِ وَقَــدْ تَعَلــى
ورَأَيْــتُ قَــرْنَ الــشمس فــي   أُفــق الغُــروب وقــد تَــدلى
شَــــــبهتُ ذَاكَ وهَــــــذِهِ   وَأَرَى شَــــبيهَهما أَجَــــــلا
وَجْـــه الحَبِيـــبِ إذَا بَــــدَا   وَقَفَـا الحَبِيـبِ إذا تَـوَلى[1243]

وهذا معنى ما سبقه إليه أحد : تَشبيه الوجه مقبلاً بالبدر ، وتشبيه القفا مولّياً بالشمس ليلة المقابلة[1244].

(1240) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 24.

(1241) المصدر السابق ، ص 25.

(1242) المصدر السابق ، ص 376 .

اللوثة : الاسترخاء .

وتمطى في مشيته : تبختر ومد يديه ، ومنه : تَمَطى الليل أو النهار : امتد وطال.

(1243) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 336.

ومن بديع ما للعباس بن الأحنف وطريفه وما ليس لأحد في معناه شيء يدانيه قوله:

أُحْرَمُ مِنكُم بما أقولُ وَقَدْ | نَالَ بِهِ العَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كأنِي ذُبالةٌ نُصِبَتْ | تُضِيءُ لِلناسِ وهِيَ تَحْتَرِقُ[1245]

ومما انفرد به البَطِين قوله:

لِلهِ قَلْبٌ سَمَا بِحبِّكُم | لم يَألُ في مرْتَقَاه مرْتَفَعا
لم يَضَعِ الحبَّ غَيْرَ مَوْضِعِهِ | ولا سَعَى في السلُوِّ حِينَ سَعَى
أَحْبَبْتُ قَلبِي لِمَا أَحَبكُم | وصَارَ أَمْرِي لأَمْرِهِ تَبَعَا[1246]

ومجمل القول فإن المعجم الشّعري لدى شعراء العصر العباسي توزع بين مدرستين، مدرسة تأثر أصحابها بالحضارة العباسية أشد التأثر؛ فآثروا اللغة السهلة والألفاظ الرقيقة وهي التي عليها أغلب الشعراء . ومدرسة أخرى حذا أصحابها حذو المتقدمين ، وقلدوهم في ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ؛ فحملت قصائدهم طابع القصيدة البدوية وما فيها من جزالة اللفظ ، وجودة السبك ، ومتانة الأسلوب.

وكان من أثر الحضارة والترف أن ابتدع الشعراء العباسيون كثيراً من المعاني الجديدة التي لم يسْبقوا إليها. وكما تنوعت لغتهم ، وتعددت أساليبهم ، تنوعت كذلك صورهم الشّعرية ، وهذا ما سندرسه في مبحثنا القادم إن شاء ا .

(1244) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(1245) المصدر السابق ، ص 234 .

الذبالة : الفتيلة التي تُسْرَج.

(1246) المصدر السابق ، ص 228.

المبحث الثالث : الصورة الشّعرية

تأثر شعراء العصر العباسي بالثقافات التي شاعت في مجتمعهم، كما تـأثروا كذلك بالحياة المتحضرة، فتعددت صورهم الشّعرية وتنوعت، فضلاً عن أن البيئـة العباسية – الزاخرة بالثراء والتنوع – مدتهم بكثير من الصور الجديدة التي لم تكـن مألوفة عند القدماء، وأول ما نلحظه في هذا الباب هو موقفهم من البكاء على الديار والأطلال، ويعد أبو نواس أستاذهم في هذه الناحية إذ ثار ثورةً عارمة على المقدّمة الطللية للقصيدة العربية، وأخذ يفتتح قصائده بذكر الخمر.

والحق أن افتتاح القصيدة بوصف الخمر لم تكن بدعة ابتدعها أبو نُواس ؛ فقد افتتح عمرو بن كلثوم قديماً معلقته بذكر الخمر فقال:

أَلا هُبّـي بِـصَحْنَكِ فَاصْـبحِينا   ولا تُبْقِـي خُمُـور الأَنْـدَرِينَا

إلا أن الفرق بينهما أن أبا نواس جعل من الخمر مذهباً فنياً وأخذ يفتتح بها قصائده ، ولم يقف به الأمر عند هذا الحد بل جهد في الدعوة إلى ابتداء القصيدة بالخمر بدلاً عن البكاء على الدّيار.

ويبدو لي أن شعوبية أبي نواس وتعصبه على العرب، هي التي جعلته يزدري كل ما يتصل بهم وبتراثهم؛ فبكاء الدّيار كان لعهد طويل سمة من سمات القصيدة العربية التقليدية، وفي نبذه وتحقيره تحقير للعرب أنفسهم وازدراء ببواديهم، ومحاولة لقطع الصّلة بينهم وبين ماضيهم وجذورهم ولا يخفى ما في ذلك من نزعة شعوبية، يروي ابن رشيق أن أبا نواس "كان شُعوبي اللّسان"[1247].

ويرى نجيب محمد البهبيتي أن من الدوافع التي دفعت أبا نواس إلى هجر الافتتاحية التقليدية ومحاربتها ، هي أن أبا نواس شاعر متحضّر يرى في حياة الحاضرة مثله ، وهو واقعي يريد أن يذهب بالشّعر مذهباً واقعياً يصل بينه وبين الحياة التي يحياها في بيئته المتحضرة ، المسرفة في اللّين والخصب ، فهو لذلك يجفو حياة البادية وما فيها من القسوة والغلاظة وشظف العيش[1248].

وفي طبقات ابن المعتز تطالعنا دعوة أبي نواس هذه في أكثر من موضع ، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

لا تَبكِ لَيْلَى ولا تَطْـرَبْ إلى هِنْـدِ   وَاشْرَبْ على الوَرْدِ من حَمْراءَ كَالوَرْدِ
كَأْساً إِذَا انْحَدَرَتْ من كَـفِّ شَـارِبِها   أَجْدَتْهُ حمْرَتُها في العَـيْن والخَـدِّ[1249]

وقوله أيضاً:

لَـسْتُ بِـدَارٍ عَفَـتْ وغَيرَهَـا   ضَرْبَان مِنْ قَطْرِهَا وحَاصِـبِهَا[1250]

(1247) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 232.

(1248) نجيب محمد البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، دار الفكر ، ط4 ، 1970م ، ص 445.

(1249) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64.

(1250) المصدر السابق ، ص 176 .

وتبلغ دعوة أبي نواس حدتها فنراه يشن حملة عنيفة على أهل البادية ويحقرهم ويزدري بهم ويسخر منهم، ويصفهم بأنهم أناس جفاة، أجلاف، لا يعرفون رقة العيش وخصبه؛ فعيشهم الجدب والقحط، وأشهى طعامهم الحليب الرائب، والكلاب والذئاب وراح يقارن بينهم وبين حياة الحضر الناعمة، الخصبة الرقيقة، يقولُ:

دَعِ الأطْلالَ تَسْفِيهَا الجَنُوب وتُبْلي عَهْدَ جِدتِهَا الخُطُوب
وَخلِّ لِرَاكِبِ الوَجْنَاءِ أَرْضاً تَخُبُّ بهَا النجيبَةُ والنجيب
ولاَ تأْخُذْ عَنِ الأعْرَابِ لَهْواً ولاعَيْشاً فَعَيْشُهم جَدِيب
دَعِ الألبَانَ يَشْرَبهَا رجَالٌ رَقيقُ العَيْشِ بَيْنَهم غَريب
بأَرْضٍ نَبْتُهَا عُشَر وطَلْح وأكْثَر صَيْدهَا ضَبُعٌ وَذِيب
إذا رَابَ الحَلِيبُ فَبُلْ عَلَيْهِ ولا تُحْرَجْ فَمَا فِي ذاكَ حُوب
فَأطْيَبُ مِنْه صَافيةٌ شَمولٌ يَطُوفُ بكَأْسِهَا سَاقٍ لَبيب
فَذَاكَ العَيْشُ لا شَجَرَ البَوَادِي وذَاكَ العَيْشُ لا اللَبَن الحَلِيب
فَأَينَ البَدْو مِنْ إيْوَان كِسْرَى وأَينَ مِنَ المَيَادِين الزروب[1251]

ويبدو أن دعوة أبي نواس لم تجد صدى لدى الشعراء العباسّيين ؛ فمنهم من لا يريد مخالفة الرسم المعهود للقصيدة كما ورثوها عن أسلافهم ؛ فلذلك تبعه بعض الشعراء وعزف عن دعواه البعض الآخر .

وممن تبع أبي نواس في دعوته : أبو حيان الموسوس ، يقولُ:

لاتبْكِ هنْداً ولا المَواعِيسا ولا لِرَبْعٍ عَهِدْتَ مَأْنُوسَا
وقِفْ بقُطْرَ بلِ وَنُزْهَتِهَا وَاحْبِسْ بها عَنْ مَسِيركَ العِيسَا
وانْزِلْ لشيخٍ بالدْير مَسْكَنُه يَدْعوه أَهْلُ الكِتَاب قِسّيسَا

(1251) المصدر السابق ، ص 182.

تَسفيها : تذري عليها التراب . **الجنوب** : الرّيح الجنوبية.

الوجناء: الناقة الشديدة . **تخب**: من الخبب ، وهو نوع من السير . **النجيبة والنجيب** : الناقة .

العشَر: شجر جيد القدح ، ينبت في البادية . **الطلح** : شجر ترعاه الإبل. **الحوب**: الإثم.

فَجَـاءَ بِـالزِّقِّ فَـوْقَ عَاتِقِـهِ يَحْمِـلُ حظـاً إلـي مَنْقُوسَـا[1252]

ويقولُ عبد ا بن أبي أُمية:

دَعْ دارسَـاتِ الطُّلُـول وكُـل رَبْـعٍ محِيـل
ولا تَـصِفْ دَارَ سَـلْمَى ذَرْهَـا لِكُـلِّ جَهـول[1253]

بيد أن أبا نواس نفسه كشف زيف دعواه ؛ فلم يلتزم ترك الابتداء بالنسيب وبكاء الأطلال في كل قصائده أليس هو القائل:

يَـا دَار مـا فَعَلَـتْ بِـكِ الأيـام لـم تُبْـق فِيـكِ بَـشَاشَةً تُـسْتَام
عَرِمَ الزمَان علـى الـذينَ عَهـدتُهمْ بِـكِ قَـاطِنِينَ وللزمَـان عـرَام
أَيـامَ لا أَغْـشَى لأَهْلِـكِ مَنْـزلاً إلا مرَاقبـةً عَلَـي ظَـلامَ[1254]

ولعل الذي جعل أبا نواس يضرب حيناً عن المقدمات الخمرية ويعود إلى المقدمات الغزلية، أن أبا نواس أدرك أن الخمر ليست ملكاً مشاعاً لجمهور الناس، والمعاني الدائرة حولها أمور تتصل بفئات من الناس تقف عندهم ولا تتعداهم إلى فئات أخرى لا تعرف الخمر معرفة البلاء والتجربة . ولا تجد في هذا الذي يقدمه لهم أبو نواس من شعره إلا صورة طريفة من حياة جماعة لا تتصل بحياتهم.

أما الحب فهو نصيب مفرق بين البشر ، وهو لا يزال العاطفة الأولى والشعور المشترك الموزع بين النفوس والذي ترسم حوله الصور الأدبية الكبرى في كل العصور ، كما إن عاطفة الحب أدخل في باب الاتصال بالنفس من وصف

(1252) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 350.

المواعيس : جمع ميعاس ، وهو الرمل اللّين.

قطربل : ضاحية من ضواحي بغداد اشتهرت بالخمر ومجالس اللهو . **العيس** : الإبل .

المنقوس : المعيب الذي يسخر منه.

(1253) المصدر السابق ، ص 294 – 295 .

(1254) المصدر السابق ، ص 192.

عرام الزمان : حدته وشراسته وأذاه.

علي ظلام : أي في الظلام.

الخمر ، ومن هنا بقي الاستفتاح التقليدي في ميزان التقدير أثقل وأرجح ، ومن هنـا لم يجد أبو نواس نفسه قادراً على أن يهجر هذا الباب في جميع قصائده[1255].

من أجل ذلك حافظ الشاعر العباسي من قبل دعوة أبي نواس ومن بعدها على الافتتاحية التقليدية للقصيدة العربية ، وسبق أن أوردنا شواهد متنوعة في هذا الفـن ولا حاجة بنا إلى تكرارها هنا[1256]. ومن أجل ذلك أيضاً وجدنا شاعراً كأبي الطيب المتنبي (303هـ - 354هـ) والذي جاء بعد وفاة أبي نواس بأكثر من مئة عـام ، يقولُ:

بَلِيتُ بِلى الأطْلال إنْ لَمْ أَقِـفْ بِهَـا وقُوفَ شَـحِيحٍ ضَـاعَ فـي التُـرْبِ خَاتَمـــــــــــــــــــــــهُ[1257]

أثرت البيئة المترفة والحياة الخصبة في ملكات الشعراء العباسيين فطوفـوا بأخيلتهم في عوالم بعيدة ؛ فأجادوا الصور البيانية وما فيها من تـشبيه واسـتعارة وكناية ، ورسموا لوحات شعرية جميلة تنبض بالحياة والحركة .

قال المؤلف – رحمه ا – في بشار بن برد :"وتشبيهاته – على أنه أعْمَى لا يبصر – من كل ما لغيره أحسن"[1258]. ويستشهد لذلك بقول بشار:

كأن مثَـارَ النقْـع فَـوْقَ رءوسِـنا وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَـاوَتْ كَوَاكِبـهُ[1259]

وهو تصوير جميل للحرب ، إذ يشبه الشاعر سيوفهم وقد لمعت وسط الغبار الذي أثارته المعركة ، بصورة كواكب تنقض من أعلاها وتتساقط في ليـلٍ حالـك الظلام.

ومن التشبيهات الحسنة قول أبي الهندي في وصف الخمر:

يَمـجُ سـلافاً مِـن زقَـاقٍ كأنهـا شُيوخٌ بِني حَامٍ تَحَنت ظُهورهَا[1260]

(1255) نجيب محمد البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي ، ص 461 – 462.

(1256) ص 260 ، 269 ، 300 ، 302 من هذا البحث.

(1257) المتنبي ، الديوان ، شرح الشيخ ناصيف اليازجي تقديم الدكتور ياسين الأيوبي ، دار ومكتبة الهـلال ، بيروت ، ط1 ، 1996م ، ج2 ، ص4.

(1258) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 22.

(1259) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

النقع : غبار الحرب.

وقول مسلم بن الوليد الأنصاري:

إبْرِيقُنَـا سَـلَبَ الغَزَالَـةَ جِيـدَها … وَحَكَـى المُـدِيرَ بِمُقْلَتيـهِ غَـزَالا

يَسْقِيكَ باللَحَظَـاتِ كَـأسَ صَبَابةٍ … ويعيـدُها مِـن كَفِّـهِ جِرْيَـالا[1261]

فهو يشبه إناء الخمر بجيد الغزال ، ويشبه الساقي في خفته ورشاقته وحسن عينيه بالغزال أيضاً ، فهو يسكرهم خمراً ويأسرهم بدله وجمال عينيه.

وهذا الأسلوب سائق عند الشعراء العباسيين ومن ذلك قول أبي نواس:

تُسْقِيكَ من عَيْنِها خَمْراً ومِـنْ يَـدِهَا … خَمْراً فمالَكَ مِن سُكْرَين مِنْ بُدِّ[1262]

وقد عرضنا لإجادتهم وصف الخمر في حديثنا المتقدم عن اللهو والمجون.

وقد أحسن شعراء هذا العصر في استعارة الألفاظ التي تعينهم على ابتكار الصور الحسية ، والمعاني العميقة التي لا تتأتى إلا بكد القريحة ؛ فصوروا المعنوى في صورة المحسوس وشخصوا الجماد في صور الأحياء.

والاستعارة هي : أن يستعمل الشاعر أو غيره : اللفظ في غير معناه الأصلي ، ثم ينقله إليه نقلاً غير لازم ؛ فيكون هناك كالعارية[1263].

ومن الأمثلة على ذلك قول بَشّار:

وكَـأَن الهَـم شَـخْصٌ ماثِـلٌ … كُلمـا أَبْـصَره النـوم نَفَـرْ[1264]

ففي كلمة "النوم" استعارة إذ شبه النوم بإنسان أو حيوان يفزع ويرتعب كلما رأى الهم فينفر منه بعيداً . ومغزى الشاعر من ذلك هو إثبات أن الهم قد استبد به وتمكن منه فجفاه النوم. ولا يخفى ما في تجسيد "الهم" من جمال وروعة.

ويقول دِعْبِل بن علي الخزاعي:

لا تَعْجَبِـي يـا سَـلْم مِـن رَجـلٍ … ضَحِكَ المَشِيب برَأْسِـهِ فَبَكَـى[1265]

(1260) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 128.

(1261) المصدر السابق ، ص 217.

الجريال : الخمر.

(1262) المصدر السابق ، ص 64.

(1263) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982م ، ص 22.

(1264) بشار بن برد ، الديوان ، ج2 ، ص 391 .

فالاستعارة في كلمة "ضحك" إذ شبه اشتعال الشَيب في الرأس بالضحك.

ومن الصور الخيالية الجميلة قول أبي نواس في الخصيب:

فَمَـا جَـازه جـودُ ولا حَـل دونَـه ولَكنْ يَصير الجود حَيْثُ يَصير[1266]

وهو كناية عن نسبة إذ أراد الشاعر أن ينسب الكرم والسخاء لممدوحه فنسبه إلى من له علاقة به وهو أن الجود لا يفارق الممدوح ولا يبرحه.

وقوله أيضاً في الخليفة محمد الأمين:

سَـبْطُ البَنَـان إِذَا احْتَبَـى بنجَـادِهِ غَمَر الجَمَاجمَ والـسِّمَاطُ قِيـام[1267]

فكنى بقوله :"سبط البنان" عن صفة الكرم . ومعنى البيت : أن الممدوح جوادٌ ، سخي اليد ، وهو فارع الطول تعلو قامته جلساءه وندمانه .

مال شعراء هذا العصر كذلك إلى الأوصاف المقلوبة ، والتشبيهات العكسية، كما في قول محمد بن القاسم الدمشقي:

يَا مَـن سَـبَى الـرِّيمَ حـسْنَ لَبتِـهِ وَحسْنَ عَيْنَيْهِ واحْتَـوى اللّيتَـا[1268]

فهو يعكس معنى الحسن والجمال في الظباء إلى محبوبته ، فيقولُ: إن الظباء استعارت حسن عينيها وجمال جيدها من محبوبته.

(1265) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 64-65.

(1266) المصدر السابق ، ص 65.

(1267) المصدر السابق ، ص 192.

سبط البنان : سخي . النجاد : حمائل السيف.

(1268) المصدر السابق ، ص 368.

اللبةُ : موضع القلادة من العنق .

اللّيتُ : صفحة العنق.

وقول ربيعة الرّقي:

فلم تزدِ البَشامةُ فيكِ طِيباً ولكنْ أنتِ طيّبتِ البَشامَا[1269]

فحبيبته حين تستاك بمسواك البشاما الذكي الرائحة ، فإن شجر البشاما يزداد طيباً وليس العكس.

وقول ابن أبي حكيم:

يَا مَنْ إذا قُلْتُ إن البَدْرَ يشْبِهه قَالُوا صَدَقْتَ فَلاَ لَوْمٌ ولا فَنَد[1270]

فإذا البَدْر يشْبه محبوبته في الحسن.

وقريب من ذلك قول عيسى بن زَيْنَب:

مِنْ حبّ مَنْ فَاقَتْ مَحَاسِنُه لَوْلا مشَابَهةٌ مِنْ البَدْر[1271]

فهو يعكس المعنى المتعارف عليه منذ القدم في تشبيه النّساء بالبدر ، ويقولُ : إن محبوبته فائقة الحسن والجمال ولا نظير لها سوى أن البدر يشْبهها ويشركها في هذا الحسن.

وكان من أثر الحضارة وترف العيش ، أن أكثر شعراء العصر العباسي في أشعارهم من ذكر التفاح وشبهوا به الخدود الموردة ، وتبادلوه في هداياهم وعدوه رمزاً للحب وعلامة من علامات الإعجاب ، كما أكثروا من ذكر الرمان وشبهوا به النهود ، واستعملوا في أوصافهم الزهور والورود والبساتين وغير ذلك مما أوحت به البيئة العباسية.

ومن تشبيهاتهم للخدود بالتفاح قول ابن أبي حكيم:

أَما الخُدود فَتُفاحُ عَلَى شَجَرٍ جَلاَه طَل ولم تَبْسَطْ إلَيْهِ يَد[1272]

وقول أحمد بن عبد السلام:

(1269) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 150.

البشام : شجر طيب الريح.

(1270) المصدر السابق ، ص 330.

الفند : الكذب ، أوضعف الرأي من هرم ونحوه.

(1271) المصدر السابق ، ص 298.

(1272) المصدر السابق ، ص 330.

الطل : المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

تُفَّـاح خَـدِّكِ محْمَـرٌ عَلَـى يَقَـقٍ   تَرْعَى العيون بِهِ دراً ومَرْجَانَـا[1273]

ومن صور تهاديهم التفاح ما رواه ابن المعتز من أن أبا نواس مـرت بـه صبية وضية ؛ فما زحته ساعةً ، ثم رمت إليه بتفاحة معضضة وانصرفت ، فقال:

شَـجَرَ التفـاح لاخِفْـتَ القَحَـلْ   لا ولاَ زلْـتَ لِغَايَـاتِ المَثَـلْ

وَعَـدْتِني قُبْلَـةً مِـنْ سَـيِّدِي   فَتَقَاضَـتْ سَـيِّدي حِـينَ فَعَـلْ

لَيسَ ذَاكَ العَـض مِـنْ عَيْـبٍ لَهَـا   إنمـا ذَاكَ سـؤَالٌ لِلْقُبَـلْ[1274]

وفي تشبيه الثدايا بالرمان يقولُ ابن أبي حكيم:

أما الثـدايَا فَرمـان الجِنَـان سَـقَى   أصولَه صَـخِب الآذِيِّ مطَّـرِّد[1275]

ويقولُ الأُخَيْطِل بَرْقُوقَا:

يَتِيـهُ بِـصَدْره رمـان نَـدْيٍّ   عَلَى عكْنٍ تَفَـتح عَـنْ نِطَـاق[1276]

ومن تأثر الشاعر العباسي برقة الحضارة وترف البيئة، وصفه للمرأة ببساتين الريحان والرِّياض المخصبة ومن ذلك – مثلاً – قول ربيعة الرَّقِّي:

وَأَنْـتِ جنـةُ رَيْحَـانٍ لَهَـا أَرَجُ   أَوْ رَوْضَةٌ نَضَحَتْ بالوَبْل والدِّيَمِ[1277]

كما شبهوا ثَغْرها بزهر الأقحوان فقالوا:

وَبعَيْنَـيْن صَـيو دَيـنْ   وثَغْـرٍ كالأقَـاحِي[1278]

ومن الظواهر التي جدت في العصر العباسي : أن الدخيل من مفردات اللغة وجد طريقه إلى الشِّعر ، وأخذ الشعراء يستخدمون الألفاظ الفارسية في أشـعارهم ، ومن الأمثلة على ذلك قول العماني يصف الطعام:

(1273) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 371.

اليقق: الشديد البياض.

(1274) المصدر السابق ، ص 189.

(1275) المصدر السابق ، ص 330.

الآذي : الموج ، ويقال : ماء صخب الآذي ، إذا تلاطمت أمواجه.

(1276) المصدر السابق ، ص 375.

(1277) المصدر السابق ، ص 153.

(1278) المصدر السابق ، ص 148.

الأقاحي : جمع أقحوان وهو نوع من الزهر.

وقاشْــفَارَاتٍ مــع الطــردين   حَاسِــر كفــيْن بِفَــار حــين[1279]

فالمراد بفارحين نوع من الملاحق الفارسية.

وقول منصور الأصبهاني:

أَصَــيرْتُمْ كِــسَائِي قَهْرَمانــاً   تكفــل بالغَــدَاءِ وبالعَــشَاءِ[1280]

فكلمة "قهرمان" فارسية معربة والمراد بها أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

وقول بشار يصف جارية من أرجوزة له:

إذَا مَــشَتْ تَقْــصِد أَوْ تَجــور
كَمَــا يَمِيــلُ الــشارب المَخْمــور
مِمــا يجــزِّي بَيْنَنَــا السِّفْــسِير[1281]

فالسِّفْسِير: الخادم ، وهي كلمة فارسية معربة.

وقوله أيضاً:

ونَرْكب فــي الفَريــدِ إلــى النــدَامَى   وَفي الدِّيبَاج لِلْحَــرْبِ الحِبَــار[1282]

فالديباج (بكسر الدال) معرب عن الفارسية ، وهو ثوب ينْسَج مــن الحريــر المنقوش.

استعمل شعراء الدولة العباسية كذلك مصطلحات المذاهب الفكرية والتيارات الدينية الشائعة وقتذاك ، وقد تقدم الحديث عنها في مبحث الحياة الفكرية، ومن ذلــك قول علي بن الجهم يعرّض بآل طاهر ، وينسبهم إلى الــشيعة الرافــضة، ويــذكر المعتزلة:

(1279) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 103.

الطردين : نوع من الطعام . **فاشفارات** ، نوع من الطعام.

(1280) المصدر السابق ، ص 320.

(1281) بشار بن برد ، الديوان ، ج2 ، ص 271.

(1282) المصدر السابق ، ص 314.

الفريد : الفضة .

الحِبَار : ضرب من برود الحرير تصنع باليمن.

تَـضَافَرَت الـروافِض والنـصَارَى وَأَهْلُ الإِعْتِزَال عَلَـى هِجَـائِي[1283]

كما أشاروا في أشعارهم إلى الخلاف بين أصحاب المذاهب الفكرية ، والجدل الذي كان يدور بينهم في مجالسهم ومناظراتهم ، يصور ذلك درست المعلّـم عـالم الكلام ؛ فيقولُ:

لَنَــا صَــاحِبُ مُوْلَــعُ بِــالخِلاَفِ كَثِيــر الخَطَــا وَقَلِيــل الــصوَابِ

أَلَــج لَجَاجــاً مِــن الخُنْفُــساء وَأَزْهى إِذَا مَا مَشَى مِنْ غُرَابٍ[1284]

وقد استخدموا المعاني الفلسفية والأدلة العقلية ، كما في قول إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي:

مَازِلْتُ آخُذُ روحَ الـدنّ فـي لَطَـفٍ وأسْتَبِيح دَمـاً مِـنْ غَيْـر مَـذْبُوحِ

حَتى انْثَنَيْتُ وَلي روحَان في جَـسَدِي والزّق مطرحُ جِسْمُ بِـلا روحِ[1285]

فمسألتي الروح والجسم من المسائل التي خاض فيها المعتزلة ، وكانت محل خلاف بين طوائفهم[1286].

ومن الجديد حقاً لدى شعراء هذا العصر هو ميلهم إلى الـصّنعة البديعيـة ، واتجاههم نحو تزيين القول بفنون من الزخارف والحلي اللفظية.

والبديع ليس وليد عصر العباسيين فقد استعمله الشاعر القديم، غير أنه كـان يأتيه عفو الخاطر وبلا تكلف ، بخلاف الشاعر العباسي الذي أولع بالبديع وكد فـي طلبه فخرج به إلى حد التكلف والصّنعة.

يروي ابن المعتز أن بشار بن برد أول من جاء بالبديع ، ثم أعقبه مسلم بـن الوليد فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار[1287].

(1283) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 292.

(1284) المصدر السابق ، ص 306.

(1285) المصدر السابق ، ص 249.

(1286) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 55.

(1287) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 214.

وإذا كان من شعراء العصر العباسي من جهد في طلب البديع فتعثر وبدأ أثر الصنعة في شعره ، كأبي تمام ، والبحتري ، وأبي علي البصير ، وعبد ا بن أبي الشّيص وغيرهم . فإن منهم من تفنن في استعماله وامتاز فيه بحسن الأداء وروعته مثل ابن المعتز، قال عنه ابن رشيق :"ما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبد ا بن المعتز ؛ فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشّعر ، وهو عندي ألطف أصحابه شعراً، وأكثرهم بديعاً وافتناناً"[1288].

أولع شعراء العصر العباسي بالبديع وألوانه من جناس ، وطباق ، وتورية، وحسن تعليل ، واقتباس وغيرها ، إلا أن الناظر في طبقات ابن المعتز يجد أن الطباق أكثر الفنون البديعية دوراناً في أشعارهم.

ومن أمثلة الطّباق الذي هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام[1289]، قول ربيعة الرّقّي:

إِذَا أَقْبَلْتِ رِعْتِ النَاسَ حُسْناً وَإِنْ أَدْبَرْتِ قِدْتِ العيونَا[1290]

فالطباق هنا بين كلمتي "أقْبَلْتِ وأَدْبَرْتِ" إذ يستفاد منهما التضاد، وقول أبي علي البصير وقد أكثر من الطباق في شعره:

زَائِدَاتُ الهَوَى سَلَبْنَ فُؤَادِي فَتَبَدلَتْ تَرْحةً باغْتِبَاطِ
لاَ وَصولٌ ولا هَجورُ ولَكِنْ ذُو انْقِبَاضٍ وتَارةً ذُو انْبِسَاطِ
فَأنَا الدهْرَ في رَجَاءٍ وَيَأسٍ مِنْ حَبِيبي وَفي رِضاً أَوْسِخَاطِ[1291]

فالطّباق بين الكلمات :"ترحة واغتباط" و"وصول وهجور" و "انقباض وانبساط" و"رجاء ويأس " و"رضا وسخاط".

(1288) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 130.

(1289) ابن المعتز ، البديع ، ص 124.

(1290) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 149.

(1291) المصدر السابق ، ص 363.

تَرحَة : الترَح هو الحزن والهم واحدته تَرْحة.

ولنضرب مثلاً بشاعر آخر هو عبد ا بن أبي الشّيص ، فقد أكثر من الطباق ؛ فبدأ أثر التكالف والصنعة واضحاً في شعره لدرجة أن النفوس ربما مَجته عند سماعه ، ومن ذلك قوله:

أظُن الدهْرَ قدْ آلى فبَرا ... بأنْ لا يكْسِبَ الأمْوَالَ حرا
وأمْكنَ مِنْ رِقَابِ المال قوْماً ... ومَلكهم بها نَفْعاً وضَرا
وأصبَحَ كُل ذِي شَرَفٍ رَكُوباً ... لأعْنَاقِ الدجَى بَحْراً وبَرا
يرَاقِب لِلْغِنَى وَجْهاً ضَحوكاً ... وَوَجْهاً لِلْمَنِيةِ مكْفَهِرا
وَمَنْ جَعَلَ الظلامَ لَه قعوداً ... أصَابَ بِهِ الدجَى خيْراً وَشَرا[1292]

أما الجناس الذي يمتاز باللطاف والعذوبة واستحسان السامع[1293]: فمن أمثلته قول العَنبُري الأصبهاني:

بِيضٌ سَلبْنَ مَهَا الصريم عيونَها ... وَمِن الصريم مَآكِمَ الأكْفَال[1294]

فقد جانس بين لفظتي "الصريم" الأولى وهي اسم موضع ، و"الصريم" الثانية وهي القطعة المنعزلة من معظم الرمل.

وقوله أيضاً:

أخَذَتْ لنَا أُهَبَ البِعَادِ وقرَبَتْ ... آجَالَنَا بِمَحَاجِرِ الآجَال[1295]

فالجناس في كلمتي "الآجال" الأولى وهي الأعمار ، و"الآجال" الثانيَة ويريد بها القطعان من بقر الوحش.

وقول عائشة العثمانية في وصف مكة المكرمة:

وَمَأوَى الغَرِيبِ وَمَأوَى القَرِيبِ ... وآمِنَة لَيْلَهَا والنهَارَا[1296]

(1292) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 333.

آلى : أقسم.

(1293) الصفَدي ، جنان الجناس في علم البديع ، تحقيق سمير حسين خولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1987م ، ص 15.

(1294) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 324.

الأكفال : جمع كفَل ، وهو العجز للإنسان والدابة.

(1295) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

(1296) المصدر السابق ، ص 386.

ففي لفظتي "الغريب" و "القريب" جناس غير تام لاختلاف اللفظين في نوع الحروف.

كان من أثر الثقافة الإسلامية أن أخذ شعراء هذا العصر يقتبسون شيئاً من القرآن الكريم ويضمنونه أشعارهم ، وهذه الظاهرة شائعة في الشّعر العباسي ، ومن أمثلتها قول ربيعة الرّقّي:

فَاتقِي الرحمنَ فِينَا واحْذَري يَوْمَ القِصَاصِ
مَشْهدُ يؤْخَذُ بالأقْدامِ فِيهِ والنواصِي[1297]

اقتبسه من قوله تعالى :"يعْرَفُ الْمجْرِمونَ بِسِيمَا هُمْ فَيؤْخَذُ بِالنوَاصِي والأقْدَام"[1298].

وقول أبي الشيص:

إلى عَلَم البَأسِ ، في كَفّهِ مِن الجودِ عَيْنَان نَضاخَتَان[1299]

فهو يقتبس من قول الله سبحانه :"فِيهمَا عَيْنَان نَضاخَتَان"[1300].

وقول أبي العتاهية:

فانْظُرْ بِعَيْنِك حَيْثُ شِئْتَ فَلَنْ تَرَى إلا بَخِيلا[1301]

أراد قوله تعالى :"قُلْ لوْ أَنْتمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّي إذاً لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنْفَاقِ وَكَانَ الإنسَان قَتُوراً"[1302].

وقول مروان بن أبي حَفْصةَ في رثاء معن بنَ زائدة:

وَلَمْ يَك كَنْزه ذَهَباً ولكنْ سيوفَ الهِنْدِ والحَلَقَ الفِضَالا[1303]

(1297) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 146.

(1298) سورة الرحمن آية 41.

(1299) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 71.

نَضاخة : فوارة غزيرة.

(1300) سورة الرحمن آية 66.

(1301) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 212.

(1302) سورة الإسراء آية 100.

(1303) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 45.

اقتبسه من قوله تعالى :" ... وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ا ـِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"(1304).

وخلاصة القول فإن الحياة المتحضرة والثقافات الـشائعة ألهمـت الـشعراء العباسيين ؛ فتعددت صورهم وتنوعت أخيلتهم ؛ فهجروا البكاء على الأطلال والدّمن ، وأحسنوا الصور البيانية وما تحويه من تشبيه واستعارة وكناية . وأدخلـوا فـي تشبيهاتهم كثيراً من الصور التي أوحت بها حيـاة التـرف كالتفـاح ، والرمـان ، والزهور ، والورود ، والرّياض ، والرياحيين.

وقد وجد الدخيل طريقه إلى الشّعر ؛ فاستخدم الشعراء الألفاظ الفارسية ، كما استخدموا مصطلحات المذاهب الفكرية والتيارات الدّينية ، فضلاً عـن اسـتعمالهم للمعاني الفلسفية والأدلة العقلية .

ومال شعراء هذا العصر إلى المحسّنات البديعية ، واتجهوا نحو تزيين القول بألوان من الزخارف والحلي اللفظية فتعثر الكثيرون منهم وبدأ أثر التكلف والصّنعة في أشعارهم ، وقد جاء الطباق أكثر الفنون البديعية دوراناً في قصائدهم.

وقد حافظوا على أوزان الشّعر التقليدية وعنوا بقوافيه ، وهو مـا سـنتناوله بالدرس في المبحث القادم.

(1304) سورة التوبة آية 34.

المبحث الرابع: الأوزان والقوافي

الوزن من العناصر المهمة في صناعة الشّعر فبه تتحقـق الموسـيقى التـي تكسب الشّعر خصوصيته وروعته وجماله، وكلما كان الشّعر مستقيم الوزن، سـلس الموسيقى، عذب الأنغام، كان أطيب وقعاً، وأكثر تأثيراً في نفس السامع أو القاريء. والوزن "أعظم أركان حد الشّعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة"[1305].

والفن الكامل هو الشّعر الذي توافرت له شروط الوزن والقافية ، وتقـسيمات البحور والأعاريض التي تُعْرف بأسمائها وأوزانها وقواعدها التي تطرد في كل مـا ينظم من قبيلها[1306].

الناظر في دواوين شعراء العصر العباسي بعامة، وطبقـات ابـن المعتـز بخاصة ، يلحظ أن الشعراء العباسيين نظموا في البحور الطويلة مثلما نظمـوا فـي البحور الخفيفة والمجزوءة كما سيجيء ذلك لا حقاً.

وكانت أكثر البحور الطويلة دوراناً في أشعارهم هي : الطويـل والكامـل ، والبسيط. وهم وإن نظموا في هذه البحور في مختلف أغراض الشّعر ، إلا أن أكثر الفنون الشعرية استحواذاً على البحور الطويلة عندهم هو فن المدح.

ففي المديح يذهب الشاعر مذهب الجد ويسعى لإرضاء ممدوحه ؛ فيعمل على تجويد شعره ؛ فيتخير من الأوزان أشرفها وأفضلها وهذا لا يتوافر إلا في البحـور الطويلة ، يقول أبو العلاء المعري :"البسيط والطويل ليس في الشّعر أشرف منهمـا وزناً ، وعليهما جمهور شعر العرب . وإذا اعترضت الديوان من دواوين الفحـول كان أكثر ما فيه طويلاً وبسيطاً"[1307].

والكامل "أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات . وفيه لون خاص من الموسيقا يجعله – إن أريد به الجد – فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر ، ويجعله إن أريد

(1305) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 134.

(1306) عباس محمود العقاد ، اللغة الشاعرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1960م ، ص 24.

(1307) أبو العلاء المعري ، الفصول والغايات ، ضبط وتفسير محمود حسن زنـاتي ، المكتـب التجـاري ، بيروت ، 1938م ، ج1 ، ص 212 .

به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللّين والرّقة ، حلواً مع صلـصلة كصلـصلة الأجراس ونوع من الأبهه يمنعه أن يكون نزقاً أو خفيفاً شهوانياً"[1308].

ومن الأمثلة على ذلك قول عوف بن محلّم الخزاعي يمدح عبد ا بن طاهر بن الحسين من الطويل:

بَنُو مصْعَبٍ لِلْملْكِ في السّلْم زينَـةٌ   وفـي الحَـرْبِ دونَ الملـكِ بـيضُ بَـــــــــــــــــوَاتِر[1309]

وقول أبي نواس يمدح محمد الأمين من البسيط:

أَضْـحَى القَـصِي بهَـا كـالأقْربِ الـــــــــــــداني[1310]   مَـد الإلَـه عَلَيْـهِ ظِـل مَمْلكـةٍ

وقول أَشْجع السلمي يمدح الرشيد من الكامل:

وَعَلَى عَدوّكَ يـا ابـنَ عَـمّ محَمـدٍ   رَصَدَان ضَـوء الـصبْح والإظْـلام

فَـإذَا تَنَبـهَ رعْتَـه وَإذَا هَـدَا   سَلتْ عَلَيْـهِ سـيوفَكَ الأحْـلام[1311]

وفضلاً عن المدح نظم الشاعر العباسي في البحور الطويلة فـي أغـراض أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك قول العباس بن الأحنف في الغزل من البسيط:

كأنها حِـينَ تَمْـشِي فـي وَصَـائِفها   تَمْـشِي عَلَـى البَـيْض أو فَـوقْ القَـــــــــــــــوَارير[1312]

ويقول أبو الشّيص في الغزل والخمر من وزن بحر الطويل:

سَقَانِي بهَا – والليْلُ قد شَاب رأسـه -   غزَالٌ بحِنـاءِ الزجَاجـةِ مختَـضِبْ

يَكـاد إذَا مـا ارْتَـج مـا فـي إزَارهِ   وَمَالَتْ أعَالِيهِ مِـن اللّـين يَنْقَـضِبْ

لَطِيفُ الحَشَى عَبْلُ الشوَى مدْمَج القَرَى   مَريض جفُـون العَـيْن فـي طَيّـهِ

(1308) د. عبد ا الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، ط4 ، 1991م ، ج1 ، ص 302.

(1309) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 171.

(1310) المصدر السابق ، ص 193.

(1311) المصدر السابق ، ص 230.

(1312) المصدر السابق ، ص 235.

قَبَـــــــــــــــــبْ[1313]

ومن الكامل يقول مروان بن أبي حفصة في الفخر:

وَلَقَـدْ جَرَيْـتُ مَـعَ الجِيَـادِ فَفُتهَـا بِعَنَـانِ لا شَـبِمٍ ولا مَبْهُـورِ

أُرْوِي الظِّمَاءَ بِكُـلِّ حَـوْضٍ مفْعَـمٍ جوداً وَأُتْرِعُ للـسِّغَابِ قُـدورِي[1314]

وفي رثاء أبي العباس السفاح يقول أبو دلامة من بحر الكامل:

مَاتَ النَدَى إِذْ مت يـا بـنَ محَمـدٍ فَجَعَلْتَه لَكَ في التـرابِ عَـدِيلا[1315]

ومن خبيث الهجاء قول علي بن الجهم من البسيط:

بَنِي متَيمَ هَـلْ تَـدْرونَ مـا الخَبَـر وكَيْفَ يـسْتَر أَمْـر لَـيْسَ يَـسْتَتِر

قَدْ كانَ شَـيْخُكم شَـيْخاً لـه خَطَـر لَكِن أُمكُم فـي أَمْرِهَـا نَظَـر[1316]

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الغناء كان له أثر كبير في موسيقى الـشّعر العباسي وأوزانه ، فسبق أن ذكرنا بأن الغناء ازدهر في هـذا العـصر واتـسعت موجته ، وأن الجواري قد أسهمنَ بنصيب كبير في شيوع الغنـاء وذيوعـه وكـان بعضهن مغنيات حاذقات ، وإلى جانب الجواري برز من المغنين إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وإبراهيم بن المهدي . وقد تقدم أيضاً أن من أبناء الخلفاء مـن أجـاد صناعة الألحان ، واختراع الأصوات التي يغنـى بهـا كـالواثق بـن المعتـصم، والمنتصر بن المتوكل ، وكاتبنا عبد ا بن المعتز.

من أجل ذلك ساد نظم المقطوعات القصيرة في الغزل وغدت بعـض تلـك المقطوعات أنغاماً خالصة ، ومضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عـن الـنظم فـي

(1313) المصدر السابق ، ص 72-73.

الشوى: الأطراف. **القرى** : الظهر . **أطواء البطن**:مكاسر طيه . **القبب** : رقة الخصر وضمور البطن.

(1314) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 40.

الشبم: البردان من جوع.

أُتْرِعَ : مليء .

السغاب : الجياع.

(1315) المصدر السابق ، ص 46.

(1316) المصدر السابق ، ص 292.

الأوزان الطويلة المعقدة ، ويسيرون على هدي الشعراء الأمويين فينظمون في الأوزان الخفيفة والمجزوءة[1317]. التي تلائم الغناء والطرب.

ومن ينظر في كتاب طبقات الشعراء يلاحظ أن الشعراء العباسيين قد أكثروا من النظم في مجزوءات : البسيط ، والكامل ، والخفيف ، والرمل ، والمديد ، والمتقارب وغيرها من الأوزان القصيرة والمجزوءة التي تناسب حياة اللهو والطرب الذي كانوا يعيشونه ، وتتلائم وأذواق المغنين الذين يؤدون هذه الألحان.

ومن الأمثلة على ذلك قول علي بن جبلة من مجزوء المتقارب:

أَبيْتَ فَمَا تُسْعِفُ ... وَجِرْتَ فَمَا تُنْصِفُ
وَتَحْلِفُ لِي بِالهَوَى ... وَتَنْكُثُ مَا تَحلِفُ
حِبَالُكَ مُنْحَلَّةٌ ... وَودكَ مُسْتَطْرَفُ
وَتَهْجرنِي وَاثِقاً ... فَثِقْ فَأَنَا المُدْنَفُ
سَأَعْطِفُ مِنْ حَيْثُ لا ... تَلِينُ ولا تَعْطِفُ
وأسْكُتُ لا أَشْتَكِي ... وَأَعْرِفُ مَا تَعْرِفُ
تَجَاوَزْتَ أَقْصَى المنَى ... فَخُلْقُكَ لا يوصَفُ[1318]

ومجزوء المتقارب هذا عده الدكتور عبد ا الطيب في البحور "الشهوانية"؛ لأن نغماته "لا تكاد تُصْلح إلا للكلام الذي قصد منه قبل كل شيء أن يتغنى به في مجالس السكر والرقص المتهتّك المخنث"[1319].

ويقول ربيعة الرّقي من مجزوء الرمل:

صَاحِ إنِّي غَيْر صَاحِي ... أَبداً مِنْ حُبِّ دَاحِ
جَنَحَ القَلْبُ إِلَيْهَا ... إِن قَلْبِي ذُو جَنَاحِ
وَعَصَى فِي حُبِّ دَاحٍ ... كُل لَاحٍ ولاحِي
أَنَا وا ِ قَتِيلٌ ... لَكِ مِنْ غَيْرِ جِرَاحِ

(1317) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 193.

(1318) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 167.

(1319) د. عبد ا الطّيّب ، المرشد ، ج1 ، ص 111.

أَنْـ ـ ـتِ للنـ ـ ـاسِ قَتُـ ـ ـولٌ   بـ ـ ـ ـالهَوَى لا بالـ ـ ـ ـ ـسِّلاحِ
وَبِـ ـ ـ ـ ـ ـشَكْلٍ وبِـ ـ ـ ـ ـ ـدَل   وَبِغُـ ـ ـ ـ ـ ـ ـنْجٍ وَمِـ ـ ـ ـ ـ ـ ـزَاحِ
وَبِعَيْنـ ـ ـ ـ ـين صَـ ـ ـ ـ ـيودَيـْ   ن وثَغـ ـ ـرٍ كالأقَـ ـ ـاحي[1320]

والملاحظ أن شعراء هذا العصر أكثروا من النظم في الأوزان المهملة التـي ندرت أو لم تكن موجودة في أشعار القدامى ، كالمجتث والمضارع والمقتضب.

فالمجتث يذكر أبو العلاء المعري بأنه يندر وجوده في الشّعر القـديم[1321]. ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الوليد بن يزيـد هـو أول مـن نظـم فـي وزن المجتث[1322].

ويبدو لي أن الشغف باللهو والطرب قد أشاع هذا الوزن في أشعار العباسيين لقصره وخفته وحلاوة نغماته ؛ فالدكتور عبد ا الطيب يرى بأن وزن المجتث "لا يصلح لغير مجرد الإطراب والإمتاع"[1323].

وفي طبقات ابن المعتز تطالعنا سبعة شواهد لهذا الـوزن كمـا وردت فـي تراجم: والبة بن الحباب، وأبي نواس، وأبان بن عبـد الحميـد اللاحقـي، وأبـي الشمَقْمق، ومنصور الأصْبهاني، وإسحاق بن خلف، وأبي العِبَر، فضلاً عما ورد في دواوين الشّعراء العباسيين مثل ديوان العباس بن الأحنف، وديـوان ابـن المعتـز وغيرهم.

ومن الأمثلة على وزن المجتث قول والبة بن الحَباب في المجون:

قَـ ـ ـدْ قَابَلَتْنَـ ـ ـا الكُـ ـ ـؤُوس   وَدَابَرَتْنَـ ـ ـ ـا النحـ ـ ـ ـ ـوس
وَنَحْـ ـ ـن عِنْـ ـ ـدَ عَمِيـ ـ ـدٍ   قـ ـد غَـ ـابَ عَنـ ـا البَـ ـسوس
نَعِيـ ـ ـر كَأْسـ ـ ـاً وكَأْسـ ـ ـاً   أَوْصَـ ـ ـى بهـ ـ ـا جَـ ـ ـالِنُوس
حَتـ ـ ـى إذَا مـ ـ ـا انْتَـ ـ ـشَيْنَا   وَهَزنـ ـ ـ ـ ـ ـا إبْلـ ـ ـ ـ ـ ـيس
رَأَيـ ـ ـتَ أَعْجَـ ـ ـبَ شَـ ـ ـيء   مِنـ ـ ـا وَنَحـ ـ ـن جلُـ ـ ـوس

(1320) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 147 – 148.
(1321) المعري ، الفصول والغايات ، ج1 ، ص 132.
(1322) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 58 – 59.
(1323) د. عبد ا الطيب ، المرشد ، ج1 ، ص 124.

هَـ ـ ـ ـذَا يقبّـ ـ ـ ـلُ هَـ ـ ـ ـذَا   وَذَاكَ هَـ ـ ـ ـذَا يَبـ ـ ـ ـوس[1324]

وقول إسحاق بن خلَف:

مَوهْـ ـ ـتَ وَصْـ ـ ـلَكَ حتـ ـ ـى   إِذَا كَتبْـ ـ ـ ـ ـتُ كِتَـ ـ ـ ـ ـابِي
تَقُـ ـ ـولُ هَجْـ ـ ـري صَـ ـ ـوَابُ   والهَجْـ ـ ـر غَيْـ ـ ـر صَـ ـ ـوَابِ
أَمَـ ـا تَـ ـرَى بـ ـكَ وَجْـ ـدِي   أَمَـ ـ ـا رَحِمْـ ـ ـتَ انْتِحَـ ـ ـابِي
أَمَـ ـ ـا رَأَيْـ ـ ـتَ حِمَـ ـ ـامِي   فـ ـي الحـ ـبِّ عِنْـ ـدَ العِتَـ ـابِ[1325]

أما وزن المضارع فهو مفقود في شعر المتقدّمين ، ولم يسْمَع مـنهم ، ولـم يجيء فيه شعر معروف[1326]. وعلى الرغم من أن العباسيين نظمـوا فـي بحـر المضارع إلا أنه كان ندرة في أشعارهم ، لذلك لم نعثر له على مثال في طبقات ابن المعتز ، ومن أمثلته التي وردت في كتب الأدب الأخرى قول أبي العتاهية:

أَيـ ـا عتْـ ـبَ مـ ـا يَـ ـضر   كِ أَنْ تُطْلِقِـ ـي صِـ ـفَادِي[1327]

وقول سعيد بن وهب:

لَقَـ ـدْ قُلْـ ـتُ حِـ ـينَ قَـ ـر   بَـ ـت العِـ ـيس يَـ ـانَوار
قِفُـ ـوا فَـ ـارْبعوا قَلِـ ـيلا   فَلَـ ـمْ يَرْبَعـ ـوا وَسَـ ـاروا
فَنَفـ ـسي لَهَـ ـا حَنِـ ـينُ   وَقَلْبِـ ـي لَـ ـه انْكِـ ـسَار
وَصَـ ـدْري بِـ ـهِ غَلِيـ ـلٌ   وَدَمْعِـ ـي لَـ ـه انْحِـ ـدَار[1328]

أما وزن المقتضب فيذكر المعري بأن القدماء لم ينظموا فيه ، إلا ما سـمع على عهد الرسول صلى ا عليه وسلم بالمدينة من أن جاريةً قالت:

(1324) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 78 – 79.

البسوس : الناقة ، أو صاحبة الناقة التي قامت بسببها حروب في الجاهلية سميت باسمها ، وضرب بهـا المثل ، فيقال :"أشأم من البسوس".

(1325) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 268.

(1326) المعري ، الفصول والغايات ، ج1 ، ص 132 والخطيب التبريزي ، الوافي في العروض والقوافي ، تحقيق عمر يحيى وفخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ، ط3 ، 1979م ، ص 163.

(1327) المعري ، الفصول والغايات ، ج1 ، ص 132.

الصّفاد : جمع صفد وهو ما يوثق به من غل أو قيد.

(1328) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ج20 ، ص 300.

هَـ ـ ـــلْ عَلَـ ـ ـــي وَيْحَكُمـ ـ ـــا إنْ لَهَـ ـوْتُ مِـ ـنْ حَـ ـرَجِ[1329]

ومن أمثلة المقتضب قول أبي نواس:

حَامِـ ـ ـلُ الهَـ ـوَى تَعِـ ـ ـب يَـ ـ ـ ـ ـــسْتَخِفه الطـ ـ ـ ـ ـ ـــرَب
إنْ بَكَـ ـ ـــى يَحِـ ـ ـــق لَـ ـ ـــه لَـ ـ ـ ـــيْسَ مَابِـ ـ ـــهِ لعِـ ـ ـ ـب
تَـ ـ ـ ـ ـضْحَكينَ لاَ هيـ ـ ـ ـ ـةً والمحِـ ـ ـ ـ ـــب يَنْتَحِـ ـ ـ ـ ـــب
تَعْجَبِـ ـ ـينَ مِـ ـ ـن سَـ ـ ـقَمِي صِـ ـ ـحتِي هِـ ـ ـي العَجَـ ـ ـب
كُلمَـ ـ ـا انْقَـ ـ ـضَى سَـ ـ ـبَبُ مِنْـ ـكِ عَـــادَ لِـــي سَـــبَب[1330]

واستحدث الشاعر العباسي وزن آخر من الأوزان المهملة ، وهو المتدارك أو الخبب الذي استدركه الأخفش على الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ومن أمثلته قول أبي العتاهية:

هَـ ـم الْقَاضِـــي بَيْـ ـتٌ يطْـ ـربْ قَـــالَ القَاضِـــي لمـــا عوتِـــبْ :
مَـ ـ ـافي الـ ـ ـدنْيا إلا مـ ـ ـذْنِبْ هَـــذَا عـــذْر القَاضِـــي واقْلُـــبْ
فَعْلُـ ـ ـــنْ فَعْلُـ ـ ـــنْ فَعْلُـ ـ ـــنْ فَعْلُـــنْ فَعْلُـــنْ فَعْلُـ ـــنْ[1331]

ومن الجديد الذي أضافه الشعراء العباسيون إلى أوزان الشّعر ، هو ابتكارهم لأوزان خرجوا فيها عن قواعد العروض وأوزانه المعروفه ، وخير من يمثل هـذا الاتجاه الشاعر أبو العتاهية ، قال فيه ابن المعتز :"كان أبو العتاهية لسهولة شـعره وجودة طبعه فيه ، ربما قال شعراً موزوناً ليس من الأعاريض المعروفة ، وكـان يلعب بالشّعر لعباً ، ويأخذ كيف يشاء"[1332].

(1329) المعري ، الفصول والغايات ، ج1 ، ص 132.
(1330) أبو نواس ، الديوان ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربـي ، بيـروت ، 1953م ، ص 227.
(1331) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 39.
(1332) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 209.

ولعل أبا العتاهية نفسه أدرك أن أوزان الخليل لا تستوعبه قوالبه الشّعرية ، والدليل على ذلك أنه عندما سئل عن معرفته بالعروض قال:"أنا أكبر من العروض"[1333].

ويرْوَى أن أبا العتاهية جلس يوماً إلى قصّار فسمع المدقة فأخذ وزنه من وقعها فقال:

للمَنُون دائرا تٌ يدِرْنَ صَرْفَهَا
هن يَنْتَقِيْنَنَا وَاحِداً فَوَاحِدا[1334]

ومن الأوزان التي ابتكرها أيضاً قوله في محبوبته عتْبة:

عتْبَ ما لِلْخَيَال خَبّريني ومَالِي
لا أَرَاه أتَاني زَائِراً مُذْ لَيَالِي
لَوْ رَآنِي صَديقي رَق لِي أَوْ رَثَى لِي
أَوْ يَرانِي عَدّوي لانَ مِنْ سوءِ حَالِي[1335]

وهناك وزن استحدث في هذا العصر وهو ما يسمى "المَوَاليا" وهو شعر ملحون من بحر البسيط . ويقال في سبب نشأته : إن الرشيد لما نكب البرامكة منع الشعراء من رثائهم ؛ فرثتهم جارية للبرامكة بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقولُ :"يا مَوَالِيا" ليكون ذلك منجاة لها من الرشيد[1336].

والراجح أن المواليا بدأ فصيحاً ثم دخله اللحن كما نستشف ذلك من هذا المثال الذي رواه ابن تغري الأتابكي للشاعر كلثوم بن عمرو المعروف بالعتابي:

يَا سَاقياً خُصِني بِمَا تهواه لا تَمْزج أَقْداحِي رَعَاكَ ا ُ

(1333) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص 13.

(1334) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 534 وابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 209 – 210.

(1335) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 534 – 535 .

(1336) عدنان حقّي، المفصل في العروض والقافية وفنون الشّعر، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط1 ، 1987م ، ص137.

دَعْهَــا صِــرْفاً فــإنني أمْزجهَــا إذ أشْربها بِـذكر مَـنْ أهْـواه[1337]

وكما جدد العباسيون في أوزان الشّعر جددوا أيضاً في قوافيه ؛ فاستحدثوا ما يعْرف بالمزدوج والمسمطات. والأصل في المزدوج أن يأتي به الشاعر مصراعين مصراعين تتفق فيهما القافية ، بينما تختلف مـن بيـت لآخـر ولا يستعملون فيه سوى بحر الرجز[1338].

ويبدو أن الشعراء العباسيين نظموا في المزدوج منذ أول العصر ، إذ يروي الجاحظ أن بشار بن برد كان صاحب مزدوج[1339]، وسـبق أنْ ذكرنـا أن حمـاد عجرد كان له شعر مزاوج يقرأ به هو وأصحابه من الزنادقة في صلاتهم[1340].

ويذكر ابن المعتز أن للفضل بن عبد الصمد الرقاشِي مزدوجة في المجـون والخلاعة ، وأولها:

أوْصــى الرقاشِــي إلــى خِلانِــهِ وَصِيةَ المَحْمـودِ فـي إخْوَانِـهِ[1341]

ثم ما لبث الشعراء أن استعملوا المزدوج في الشعر التعليمي؛ فنظمـوا فـي النحو والفقه والتاريخ والقصص والرياضيات والفلك والمنطق وغيرها من العلوم.

إذ نظم أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة في مزدوجة من نحو خمـسة آلاف بيت[1342]. ونظم أبو العتاهية مزدوجته ذات الأمثال ، ويقال إنها اشتملت على أربعة آلاف مثل ، ومنها:

حَـسْبكَ ، مِمـا تبْتَغِيــهِ ، القُــوتُ، مــا أكثَــر القُــوتُ لمَــنْ يَمــوتُ
الفَقْــر فِيمَــا جــاوَزَ الكَفَافَــا، مَــن اتقَــى ا رَجَــا وخَافَــا
إنْ كَــانَ لا يغْنِيــكَ مــا يكْفِيكــا؛ فَكُــلّ مَــا فــي الأرْض لا يغْنيكَــا
إن القَليـــلَ بالقليـــل يَكْثُـــر ، إن الـصفَاءَ ، بالقَـذَى ، ليَكْـدر

(1337) ابن تغري الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج2 ، ص 186.
(1338) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 180.
(1339) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 49.
(1340) ص 202 من هذا البحث.
(1341) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص 206.
(1342) المصدر السابق ، ص 220.

هـي المقـادير فلُمْنـي ، أوْ فَـذَر، إنْ كُنْتُ أخْطأْتُ فَمَـا أخْطَـا القَـدَرْ
مَـا انْتَفَـعَ المـرْءِ بِمِثْـل عَقْلِـهِ، وَخَيْر ذُخْر المَرْءِ حسْن فِعْلِـهِ[1343]

ولابن المعتز مزدوجة طويلة سرد فيها سيرة ابن عمه الخليفة المعتضد بـن الموفق بن المتوكل (279هـ – 289هـ) ، وضمنها مدائحه له ، كما سـجل أهـم أحداث عصره وما انتشر من الفتن والضلالات ، ومنها:

باسْـمِ الإلَـهِ الملـك الـرحمن ، ذِي العِـزّ والقُـدْرَةِ والـسلْطان
هَـذَا كِتـاب سِـيَر الإمَـامِ ، مهَـذباً مِـن جَـوْهَر الكَـلاَمِ
قَـامَ بِـأمر المُلْـكِ لمـا ضَـاعَا ، وكـانَ نَهبـاً فـي الـوَرَى مـشَاعَا
وكُـل يَـوْمٍ مَلِـكُ مَقتُـولُ ، أو خَـائِفٌ مَـروعُ ذَلِيـلُ
وكَـمْ أميـرٍ كـانَ رَأسَ جَـيْشٍ ، قَـد نَغـصوا عَلَيْـهِ كُـل عَـيْشٍ
وكُـل يَـوْمٍ شَـغَبُ ، وغَـصْب ، وأَنْفُـسُ مَقْتُولَـةٌ وحَـرْب
وكم فَتَـاةٍ خَرَجَـتْ مِـن مَنْـزِل ، فَغَـصَبوهَا نَفْـسها فـي المَحْفِـل
وكُـل يَـوْمٍ عَـسْكراً ، فَعَـسكرا ، بـالكَرْخ والـدوْر ، مَواتـاً أحْمَـرَا
ويَطْلبـونَ كُـل يَـومٍ رِزْقـا ، يَرَوْنَـه دَيْنـاً لهـم وحَقـا
كـذَاكَ حَتـى أَفْقَـروا الخِلاَفَـه ، وَعَودوهَا الرعْـبَ والمَخَافَـه[1344]

وله أيضاً مزدوجة أخرى في ذم الصبوح ، ومطلعها:

لِي صَـاحِبُ قـد لاَمَنـي ، وزَادا ، فـي تَرْكِـيَ الـصبوحَ ثـم عَـادَا
وقـال : لا تَـشْرَب بالنهـار، وَفـي ضِـيَاءِ الفَجْـر والأَسْـحَار
إذَا وَشَى بالليْل صـبْحُ ، فافْتَـضَحْ ، وذَكرَ الطائِر شَـجْوُ ، فَـصَدَحْ[1345]

(1343) أبو العتاهية ، الديوان ، ص 493.
(1344) ابن المعتز ، الديوان ، ص 761 – 762.
الكرخ : اسم موضع.
(1345) المصدر السابق ، ص 754.
الصبوح : الخمر .
الشجو : الحزن.

ونفذ الشاعر العباسي من نظم المزدوجات إلى إنشاء الرباعيات ، وهي تتألف من أربعة أشطر يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقـد يجيء من نفس القافية وقد لا يجيء ، كقول بشار في جاريته ربابة:

رَبَابَـــةُ رَبـــةُ البَيْـــتِ ... تَـصب الخَـل فـي الزيـتِ

لَهَـــا عَـــشْر دَجَاجَـــاتٍ ... وديـكٌ حَـسَن الـصوْتِ[1346]

وتشيع الرباعيات على نحو خاص في أشعار أبي نواس ، وأبي العتاهيـة ، وابن المعتز ، ومن أمثلة ذلك قول أبي نواس في رثاء الرشيد:

الناس ما بَـيْنَ مَـسْرورٍ ومَحْـزون ... وذي سَقَامٍ بِكَـفّ المَـوْتِ مَرْهـون

مَــنْ ذَا يَــسر بِــدنُياه وبَهْجَتِهــا ... بَعْدَ الخَليفَةِ ذِي التوفيقِ هَارون[1347]

وقول أبي العتاهية يعاتب عمرو بن مسعدة لتباطئه في قضاء حاجته:

غَنِيـتَ عَـن العَهْـدِ القَـديم غَنِيتَـا ... وضَـيعْتَ وداً بَيْنَنَـا ونَـسِيتَا

وَمِن عَجَبِ الأيامِ أَنْ مَـات مَـأْلفِي ... وَمَنْ كُنْتَ تَغْشَاني بِـهِ وبَقِيتَـا[1348]

وقول عبد ا بن المعتز في محبوبته شِر:

يَــا نَــازحَ الــدارِ البَعِيــدَ عَنّــي ... إقْرَأ عَلَـى الوَصْـل الـسلامَ مِنّـي

يَا شِـر جـودِي بـالهَوَى أَوْصَـنّي ... أَنْتِ المنَى وإنْ بَخِلْـتِ عَنّـي[1349]

أما المسمطات فهي قصائد تتألف من أقسمة، وكل قسم ينشأ من أربعة أشطر أو أكثر، وتتحد أشطر كل قسم في قافية واحدة، ما عدا الشطر الأخير فإنـه يتخـذ قافية مخالفة، غير أنه يتفق فيها مع الأشطر الأخيرة في الأقسمة المختلفة للقصيدة .

والقافية التي تُكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة ، وقد "سمّي بهذا الاسم تشبيهاً بِسِمْطِ اللؤلؤ ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرق حَبّه ، وكذلك هـذا

(1346) بشار بن برد ، الديوان ، ج1 ، ص 422.

(1347) أبو نواس ، الديوان ، ص 582.

(1348) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج4 ، ص 20.

(1349) ابن المعتز ، الديوان ، ص 701.

الشعر لما كان متفرق القوافي متعقباً بقافية تضمه وترده إلى البيت الأول الذي بنيت عليه في القصيدة صار كأنه سمط مؤلف من أشياء مفترقة"[1350].

ومن أمثلة ذلك مخمس لأبي نواس ختمه بقوله:

يـــا لَيْلـــةً قَـــضَيْتُها حالْـــوَهْ   مرْتَـــشِفاً مِـــن ريقِهـــا قَهْـــوَهْ
تُـــسْكِر مَـــنْ يَبْتَغِـــي سَـــكْرَهْ   طَاَنَشْتُهـــا مِـــن طِيبِهـــا لَحْظَـــهْ

يَا لَيْتَ لا كَانَ لَهَا آخِرْ[1351]

ويرى ابن رشيق أن ركوب المخمسات والمسمطات والإكثار منهـا ، يـدل على عجز الشاعر ، وقلة قوافيه ، لذلك لم يصنع حذاق المتقدمين شيئاً منها[1352].

ومن النواحي المتصلة بالقافية لدى الشعراء العباسيين ما يسمى بالتـضمين ، وهو أن تكون قافية البيت متعلقة بالبيت الذي يليه ، فيصبح البيت غير مستقلاً بنفسه ولا يكتمل معناه إلا بقراءة ما بعده.

والمضمن عند بعض المتقدمين عيب شديد في الشّعر ، وخير الشّعر عنـدهم ما قام بنفسه ، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض[1353].

وابن الأثير لا يرى عيباً في تضمين الإسناد الذي يقع في بيتين من الـشّعر، ويكون الأول منهما مسنداً إلى الثاني ؛ فلا يقوم الأول بنفسه ، ولا يـتم معنـاه إلا بالثاني كقول امريء القيس:

فقلـتُ لـه لمـا تَمَطَـى بـصلْبِهِ   وأَردفَ أَعْجَـازاً ونَـاءَ بكَلْكَـل
أَلاَ أيها الليـلُ الطويـلُ ألا انْجَلِـي   بصبْحٍ ومَا الإصْبَاح مِنْكَ بأَمْثَلِ[1354]

(1350) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 180.

(1351) كمال الدين الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، مؤسسة الأعلمـي ، بيـروت، ط1 ، 2003م ، ج1 ، ص108.

(1352) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 182.

(1353) المرزباني ، الموشح ، ص 327 .

(1354) ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصطفى البـابي الحلبـي، مـصر، 1939م، ج2 ، ص 342 .

وأظهر نموذجين للتضمين نجدهما عند أبي العتاهية وابن المعتز وفيهما نرى الأبيات تتصل في معانيها ببعضها البعض ، فإذا القصيدة وحـدة ملتحمـة النـسج، مترابطة الأفكار ، كقول أبي العتاهية:

يا ذَا الذي فـي الحـبِّ يَلْحَـى أمَـا　　وا ِ لـو كُلِّفْـتَ مِنْـه كمَـا

كُلِّفْـتُ مـن حـبِّ رَخِـيم ، لَمَـا　　لُمْتَ عَلَـى الحـبِّ ؛ فَـذَرْني وَمَـا

أَلْقَـى ، فَـإنِّي لَـسْتُ أَدْري بِمَـا　　بلِيـتُ إلا أنِنـي بَيْنَمـا

أَنَا بِبَابِ القَصْرِ – فـي بَعـض مَـا　　أَطُوفُ فـي قَـصْرِهم – إذْ رَمَـى

قَلْبِـي غَـزَالٌ بـسهام ، فَمَـا　　أَخْطَـأ بهـا قَلْبِـي ، ولكنمـا

سَـهْمَاه عَيْنَـان لـه ، كُلمـا　　أَرَادَ قَتْلِـي بِهمـا سَـلما[1355]

وكقول ابن المعتز يحذِّر نفسه ويزجرها ويأمرها بأن تسلك طريق الصالحين ؛ فتبادر إلى تقوى ا عز وجل ولا تركن إلى الأماني ، وأن تعتبر بالموت الذي إن حضر لا تجدي معه الأماني نفعاً:

يَـا نَفْـس ، وَيْحَـكِ ، طَـالَ مَـا　　أَبـصَرْتِ مَوْعِظَـةً وَمَـا

نَفَعَتْـكِ فَاخْـشِي وانْتَهـي　　وَعَلَيْـكِ بـالتقْوَى كمَـا

فَعَـلَ الأُنـاس الـصالِحو　　نَ وَبَـادِري فَلَربمَـا

سِـلِمَ المبَـادِر واحْـذَري　　يَـا نَفْـس مِـن سَـوْفٍ ، فَمَـا

خُـدِعَ الـشقِي بِمِثْلِهَـا،　　إيـاكِ مِنْهَـا ، كُلمَـا

نَاجَـتْ مَكَائِـدهَا ضَـمِير　　كِ إنمَـا هِـي إنمَـا

خَطَـرُ وكَـمْ قَتَلَـتْ وَأَهـ　　ـلكتِ النفُـوسَ وقَلمَـا

تُغْنِـي أَمَانِيهـا إذا　　حَـضَر الـردَى وكأنمَـا

لَـمْ يحيـى مَـنْ لاقَـى مَنِيـ　　تَـه ، فَيَـا عَجَبـاً ، أَمَـا

فـي ذَاكَ معْتَبـر ؟ وَلاَ　　شَـافٍ يقَـصِّر مِـنْ عَمَـا

يَـا ذَا المنَـى يَـا ذَا المنَـى　　عِشْ مَـا بَـدَا لَـكَ ثُـم مَـا[1356]

(1355) المرزباني ، الموشح ، ص 327 .

(1356) ابن المعتز ، الديوان ، ص 660.

ومجمل القول فإن الشعراء العباسيين نظموا في البحور الطويلة مثلما نظموا في القصيرة ، وأكثر الأوزان الطويلة دوراناً في أشعارهم هي : الطويل ، والكامل ، والبسيط ، وقد خصوا المديح بنصيب وافر منها.

وكان لازدهار الغناء واتّساع موجته أثره في موسيقى الشّعر وأنغامه ؛ فمال الشعراء إلى الإكثار من النظم في الأوزان الخفيفة والمجزوءة التي تلائم الغناء والطرب ، وتتناسب أذواق المغنين والمغنيات ، ودفعهم ذلك إلى استعمال الأوزان المهملة التي يندر وجودها في الشّعر القديم كالمضارع ، والمقتضب ، والمجتث ، والمتدارك أو الخبب .

وابتكروا أوزاناً خرجوا فيها عن العروض كما فعل أبو العتاهية . واستحدثوا وزن "المواليا" وهو شعر ملحون من بحر البسيط .

ومثلما جددوا في الأوزان جددوا أيضاً في القوافي ؛ فاستحدثوا ما تسمى بالمزدوجات والمسمطات وأكثروا من النظم في الرباعيات . واستعملوا المزدوج في الشعر التعليمي فنظموا في النحو والفقه والقصص والتاريخ والأمثال والرياضيات والفلك والمنطق وغير ذلك من العلوم.

آراء القدماء والمحدثين في ابن المعتز :

(أ) آراء القدماء في ابن المعتز:

استطاع عبد الله بن المعتز بما أوتي من المعارف الغزيرة ، وموفور الثقافة ، والاطلاع الواسع ، أن يترك أثراً جليلاً في التراث الأدبي والنقدي ؛ فكان شاعراً مجيداً ، وناقداً سليم الذوق ، وعالماً أسهم إسهامات جمة في كثير من الآداب والفنون.

وقد أدرك فيه المتقدمون هذه المواهب ؛ فكان حظه منهم الثناء والتقريظ والإشادة بذكره.

قال فيه معاصره أبو بكر الصولي :"شاعر مفلق محسن حسن الطبع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ والعلم ، يحسن في النظم والنثر ، من شعراء بني هاشم المتقدمين وعلمائهم ، وممن نشأ في الرواية والسماعة ، يكثر في مجلسه من حدثنا وأخبرنا"[(1357)]. وفيه يقول أيضاً :"ما رأيتُ عباسياً قط أجمع منه ، ولا أقرب لساناً كان من قلب ، وكان يقدّم أهل العلم ويؤثرهم"[(1358)].

وفي ابن المعتز يقول المسعودي :"كان عبد الله بن المعتز أديباً ، بليغاً ، شاعراً مطبوعاً ، مجوّداً ، مقتدراً على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيّد القريحة ، حسن الاختراع للمعاني"[(1359)].

وقال فيه أبو الفرج الأصفهاني :"وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً في سائر الآداب أبو العباس عبد الله بن المعتز . وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور في فضائله وآدابه شهرةً تُشْرِك في أكثر فضائله الخاص والعام"[(1360)].

ويقول فيه ابن النديم :"واحد دهره في الأدب والشّعر ، وكان يقصده فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم ، ولقي العلماء من النحويين والإخباريين ، كبير السماع ،

(1357) الصولي ، الأوراق ، ص 107.

(1358) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(1359) المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص 293.

(1360) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج10 ، ص 274.

غزير الرواية ، وأمره أيضاً أشهر من أن يستقصى ، وألـف كتبـاً كثيـرة"[1361].

ويقولُ الباقلاني :"وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب ، في الفخر وغيره ما لا تجده لغيره"[1362].

ويرى الثعالبي أن ابن المعتز كان منقطع القرين في البراعة ، وأن تشبيهاته يضرب بها المثل في الحسن والجودة[1363]. وينعته ابن حزم بالشاعر الجليل[1364].

ويضع ابن رشيق عبد ا بن المعتز في منزلة رفيعة من الشّعر يزاحم فيهـا المجيدين من الشّعراء وذلك حيث يقول :"وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس ، ثم حبيب والبحتري ، ويقال : إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، فطـار اسـم ابـن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين وامرئ القيس في القـدماء ؛ فـإن هـؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس ، ثـم جـاء المتنبـي فمـلأ الـدنيا وشـغل الناس"[1365].

ويقول فيه الخطيب البغدادي :"كان متقدماً في الأدب ، غزير العلم ، بـارع الفضل ، حسن الشعر"[1366]. ويقول فيه أبو البركات الأنباري:"كان غزير الفضل ، بارعاً في الأدب ، حسن الشعر كثيره"[1367].

ويرى ابن الجوزي أن ابن المعتز :"كان غزير الأدب ، بارعاً في الفـضل ، مليح الشّعر"[1368]. ويرى صاحب وفيات الأعيان أنه :"كان أديبـاً بليغـاً شـاعراً

(1361) ابن النديم ، الفهرست ، ص 229.

(1362) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 238.

(1363) الثعالبي ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1965م ، ص 227.

(1364) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص 28.

(1365) ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، ص 100.

(1366) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج10 ، ص 95.

(1367) أبو البركات الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ص 16.

(1368) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج13 ، ص 84.

مطبوعاً مقتدراً على الشّعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيد القريحـة ، حـسن الإبداع للمعاني ، مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم"[1369].

ويقول فيه ابن شاكر الكتبـي :"الأديـب صـاحب الـشعر البـديع والنثـر الفائق"[1370].

ويرى اليافعي أن ابن المعتز يعد في جملة العلمـاء ، والأدبـاء البلغـاء ، والشعراء المطبوعين[1371]. وفيه يقولُ ابن كثير :"كان شاعراً مطيقاً فصيحاً بليغـاً مطبقاً ، وقريش قادة الناس في الخير ودفع الشر"[1372]. وقال فيه الدميري :"كـان شاعراً ماهراً فصيحاً مجيداً مخالطاً للعلماء والأدباء ، وهو صاحب التشبيهات التي أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره"[1373].

ويقول صاحب معاهد التنصيص :"الأمير الأديب ، صـاحب الـنظم البـديع والنثر الفائق ... وهو أول من صنف في صنعة الشّعر ، ووضع كتاب البديع ، وهو أشعر بني هاشم على الإطلاق وأشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات ، وكان يقول إذا قلت "كأن" ولم آت بعدها بالتشبيه ففض ا فاي"[1374].

مما تقدم يلاحظ أن ابن المعتز على الرغم من كثرة تصانيفه وثراء مؤلفاته، اشتهر عند القدماء شاعراً رقيق الشعر ، مجيداً للأوصاف ، بارعاً فـي التـشبيه ، أكثر من شهرته كاتباً وناقداً ، وذلك لأسباب سبق وأن نبهنا إلى أنها قللت من حمل أدب ابن المعتز على الذيوع والشهرة ، وذكرنا بأن هذه العوامل نفسها قللت أيـضاً من ذيوع كتابه طبقات الشعراء ، فلتنظر هناك[1375].

(ب) آراء المحدثين في ابن المعتز:

(1369) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 76.

(1370) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج2 ، ص 239 – 240.

(1371) اليافعي ، مرآة الجنان ، ج2 ، ص 169.

(1372) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج11 ، ص 108.

(1373) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج1 ، ص 113.

(1374) عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، معاهد التنصيص ، ج2 ، ص 38 .

(1375) ص 92-93 من الفصل الثالث.

وكما أثنى المتقدمون على ابن المعتز وأبانوا فضله ، أثنى عليه أيضاً المحدثون ممن توافروا على أدبه ونقده وانتفعوا بفضله وفضل كتابه طبقات الشعراء ، يقول فيه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي :"ابن المعتز أديب من الأدباء الذين ألموا بالثقافات المختلفة التي حفل بها معاصروه وزخرت بها بيئته في عصره"[1376]. ويرى في ابن المعتز رجلاً عالماً مقتدراً على نقد الشعر، وعلى الموازنة بين الآثار الأدبية المختلفة ، وأن كتابه طبقات الشعراء يمثل ثمرة ناضجة لها الأثر في النقد وأحكامه ودراسة الشعراء وفهم آثارهم[1377]. ويراه طه إبراهيم :"بارعاً في الأدب ، حسن الشعر ، مهتماً بنقد المحدثين ، صاحب رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساويه ، وكتب أخرى في النقد جليله"[1378]. وأنه ينقد في الشعر المحدث عناصره ، وينَوّه بالمقبول منها والمرذول ، ويوازن بينه وبين الشعر القديم في نفس قصير ، دون تشعب في البحث ، ودون إقامة للحجج ، واهتداء لشرح العلل إلا قليلاً[1379].

ويقول الأستاذ عباس إقبال: إن ابن المعتز شاعر وأديب ذائع الصّيت، وأن كتابه طبقات الشعراء من أهم مؤلفاته[1380]، وفيه يجتهد "في سرد الأخبار والنوادر والفكاهات ... ويجمع من الأشعار ما طُبع بذلك الطابع الذي يمثل الشعراء التابعين لخلفاء بني العباس ووزرائهم وكبار رجالاتهم، كما يحاول أن يميط اللثام عن العلاقات القائمة بين كل شاعر وممدوحه، مفصحاً عن الأسباب التي أدت إلى قول هذا الشعر. أما الأشعار الشائعة؛ فإن المؤلف اكتفى بالإلماع إليها، ولم يتعرض لها إلا لماماً، وكان على العكس يقع اختياره على الأشعار النادرة. ولذا تطالعنا في كتاب الطبقات قصائد طوال لا نعثر عليها في أي مكان آخر"[1381].

(1376) د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه ، ص 518.

(1377) المرجع السابق ، ص 518 – 523.

(1378) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 108.

(1379) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

(1380) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، طبعة دار المعارف ، ص 583.

(1381) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

ويقول عبد الستار أحمد فراج في طبقات ابن المعتز :"كان كتابه من أعظم المصادر التي لا يستغني عنها مؤرخ أو أديب ، ولا نجد في غيره ما اشتمل عليه ... ولم يكن ابن المعتز راوياً فحسب بل كان ذواقاً للأدب بطبعه ؛ فهو يصدر أحكامه ، ولا يكتم إعجابه ، ونجد ذلك منبثاً في كثير من الكتاب"[1382].

أما الدكتور طه حسين فيرى أن ابن المعتز كان من كبار العلماء في القرن الثالث ، ومن أجل العلماء في الأدب وأنه كتب في الشّعر وسرقات الشعراء ووضع علم البديع وألف فيه كتاب مشهور[1383].

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة – وهو يقرن ثناءه على ابن المعتز بكتابه طبقات الشعراء - :"إن هذا الكتاب سفر نفيس لمؤلف يختلف عن بقية المؤلفين والأدباء ؛ لأن مؤلف الكتاب شاعر مبدع وكاتب كبير وهو إلى ذلك عالم جليل وناقد ذواقة"[1384]. ويرى أن "طبيعة الأديب الناقد الكامنة في شخصية ابن المعتز جعلته يقدم كتابه بأسلوب رخي رضي شائق ، ثم هو بعد ذلك ينقد ويزن ويبدي رأيه في القصائد أو المقطعات طبقاً لمعايير نقدية صالحة مقبولة ، وهو حسن الاختيار جيّد الانتقاء"[1385].

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن كتاب طبقات ابن المعتز يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسي[1386]. وأن مؤلّفه كان معتدلاً في نظرته وحكمه على شاكلة الجاحظ ؛ فهو يسوّى بين المحدثين والقدماء في الإحسان مع شيء من الاحتياط إزاءهم جميعاً ، وهو احتياط جعله يعقّب على شواهدهم الرائعة بما يعاب من كلامهم وأشعارهم جميعاً ؛ فهو يستحسن حين ينبغي الاستحسان ويستهجن حين ينبغي الاستهجان بغض النظر عن القدم والحداثة ، إذ المعول على الحسن الذاتي لا على الزمان ولا على المكان[1387].

(1382) المصدر السابق ، ص5.

(1383) د. طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 408 – 409.

(1384) د. مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 429.

(1385) المرجع السابق ، ص 438.

(1386) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 334.

(1387) د. شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 74.

ويقول الدكتور صلاح الدّين الهواري إن ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء :"كان نقاداً حسن الذوق ، لا يخفي إعجاباً ، ولا يتردد في إصدار حكم بـالجودة أو الرداءة ، مهما علت مكانة شاعر ، أو انخفضت مكانة آخر"[1388]. ويقـول نجيـب محمد البهبيتي :"وإننا لنجد عند ابـن المعتـز بحثـاً دائبـاً عـن الجمـال ينـشده ويتذوقه"[1389].

ويرى الدكتور بدوي طبانة "أن المدرسة البيانية في الحكم على الأدب وفـي تذوقه قد أسلمت زعامتها إلى عبد ا بن المعتز"[1390].

ويقول نعيم طوني كساب : إن ابن المعتز من أوائل النقاد الذين تمكنوا مـن مواكبة تطور الشّعر ، وإدراك المستجدات التي طرأت عليه وإن لم يكتب في النقـد بالقدر الذي كتبه معاصروه من النقاد أمثال الناشئ الأكبـر ، ومحمـد بـن سـلام الجمحي ، وثعلب والمبرد ، والجاحظ ، وابن قتيبة . وأن مقدرته النقدية تتجلى فـي رسالته في شعر أبي تمام ، كما يتجلى إدراكه المستجدات التي طرأت على الـشعر من خلال كتابه البديع[1391] ويرى ان ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء احـتفظ بمقدرته الفائقة على الاختيار بإتقان وذوق رفيع ، وأن حسن اختيـاره يبـرز فـي الشعراء الذين أثبت ترجماتهم وروى أخبارهم وفي القصائد والأبيات التي انتقاهـا، كما احتفظ في طبقاته بسمات الناقد الواسـع الاطـلاع المرهـف الـذوق الغنـي بالمعارف[1392].

وفي ابن المعتز يقول عمر فروخ :"كان عبد ا بن المعتز أديباً شاعراً وناقداً عالماً مصنفاً ، يجيد فنى النظم والنثر واسع الثقافة"[1393]. ويرى الدكتور غـصوب خميس أن ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء "ناقـد ذواقـة ، رأى أن ينـصف

(1388) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص6.

(1389) نجيب محمد البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، ص 510.

(1390) د. بدوي طبانة ، دراسات في نقد الأدب العربـي ، مكتبـة الأنجلـو المـصرية ، ط7 ، 1975م ، ص257.

(1391) نعيم طوني كساب ، ابن المعتز شعره في ضوء عصره ، ص 58.

(1392) المرجع السابق ، ص 64.

(1393) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 378.

المحدثين ، وأن يقول فيهم كلمة الحق ، يوضح ما لهم وما عليهم . ولكنه لم ينس – في أي وقت – أنه مع التراث في الصفاء والوضوح والسهولة ، وأن التـراث هـو أصل كل جديد مزعوم"[1394].

ويرى مارون عبود أن عبد ا بن المعتز كان كثير المطالعة للعلوم وفنـون الأدب ، حسن المذاكرة ، جواد على أهل الأدب بماله[1395].

ويقول الدكتور أحمد كمال زكي : إن كتاب طبقات الشعراء سـجل للحيـاة الأدبية بعد أن خلفت وراءها عصر العربية الخالصة بموت فحول بني أمية أوائـل القرن الثاني الهجري ، وفيه نرى الموازنات العاقلة والشروح الدقيقة والميـل إلـى أخذ المسائل أخذاً وجدانياً بعيداً عن الجدل الذهني الذي غلـب علـى النقـد فيمـا بعد[1396].

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء ناقـد انطباعي تأثري ، ثم يعلّل اتخاذ ابن المعتز من هذه التأثرية مذهباً نقدياً في طبقاته، فيقول:"إن ابن المعتز كان ذا مذهب شعري ذي سمات ذاتية خاصة قد تحول بينـه وبين تذوق الأشعار التي تباين مذهبه . فلجوءه إلى هذه التأثرية يصبغ عليه صـفة "سعة الصدر" في النقد ، ويحميه من الاتهام بالتحيز لطريقته ، وفي ظل هذه التأثرية وحدها يستطيع أن يترجم لشعراء من هجائي أسرته ومداحي العلوية من أمثال السيد الحميري ودعبل . ولا ريب في أن الظهور بهذا المظهر التأثري يحقق لـه صـفة الناقد العادل أكثر مما تحققه الموضوعية ، وذلك شيء غريب حقاً"[1397].

(1394) د. غصوب خميس ، عبد ا بن المعتز شاعراً ، ص 535.

(1395) مارون عبود ، أدب العرب ، ص 263.

(1396) د. أحمد كمال زكي ، ابن المعتز العباسي ، ص 268.

(1397) د. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 117.

خاتمة البحث وأهم النتائج

توصل البحث في صورة المجتمع العباسي في طبقات الشعراء إلى جملة من النتائج المهمة وفيما يلي ذكرها:

شغل الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول (132هـ - 232هـ) بتأسيس دولتهم ، ووضع أركانها ، وتأمين حدودها ، والعمل على التخلص من أعدائهم وخصومهم من بني أمية والعلويين . واتسمت هذه الفترة بقوة الخلافة وهيبة الدولة وعظمة الملك ، كما اتسمت أيضاً بازدياد نفوذ الفرس وغلبتهم على الحياة السياسية وطبعها بطابعهم . أما في العصر العباسي الثاني (232هـ-334هـ) فقد زالت هيبة الخلفاء وضعفت دولتهم ، وعظم نفوذ الترك وتحكموا في شؤون الدولة ؛ فكثرت الدسائس وحيكت المؤامرات.

وقد بلغت الحياة العقلية في هذا العصر مرتبة عظيمة ؛ فنشطت حركة الترجمة والنقل ، وزاد الاهتمام بتدوين العلوم وتأليفها ، فضلاً عن ازدهار علوم اللغة والأدب والفقه والحديث.

ولد عبد ا بن المعتز في سنة 247هـ ، وفي أول عمره نشأ في قصور الخلافة وبهو الملك ؛ فنعم بترف العيش وموفور النعمة ، ثم ما لبث أن تجرع صنوفاً من المآسي والحرمان ؛ فقد شهد مقتل جده المتوكِّل ومن بعده والده المعتز على يد الأتراك ؛ فشرد ونفي إلى مكة . وعلى الرغم من هذه الحياة القاسية في بعض جوانبها فقد كان ابن المعتز صبوراً على نوائب الدهر ، شديد الاعتزاز بنفسه ، كريماً جواداً ، يؤثر أصحابه الذين تعددت أسماؤهم وتنوعت مشاربهم ، وقد عكف في بعض سني حياته على حياة اللهو والعبث عله يخفف بها وطأة ما اعتلج في نفسه من هموم وآلام . إلا أن ذلك لم يمنع ابن المعتز من أن يصرف جزءاً من وقته في الإقبال على الدرس والتحصيل وتثقيف نفسه بتتلمذه على الأعلام من علماء عصره ؛ فتكونت لديه ثروة عظيمة في كثير من المعارف والفنون ، أهلته لأن يرفد التراث الأدبي والنقدي بطائفة من الأسفار النفيسة والمؤلفات النادرة في الشعر والأدب والنقد والبلاغة . ثم إن ابن المعتز زج بنفسه في معترك السياسة في زمن استفحلت فيه المكائد والفتن فدفع حياته ثمناً لحكم لم يدم سوى يوم وليلة.

خاص البحث إلى أن الاسم الكامل لكتاب ابن المعتز كما سماه بنفسه ونـص عليه في مقدمة كتابه هو "طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء المتقـدمين" ، وقـد شرع في تأليفه قبل عام 280هـ وأكمله في هذا العام أو قبله بقليل.

والكتاب حوى تراجم لمائة واثنين وثلاثين شاعراً مرفقة بطائفة جليلـة مـن أخبارهم وأشعارهم ونوادرهم . وما يميز الكتاب أنه تخصص في عصر أدبي واحد هو عصر العباسيين ؛ فكل الذين ذكر المؤلف أخبارهم عاشوا في هذا العصر . وقد زخر كتاب طبقات الشعراء بقسط وافر من المختارات الشعرية التي بلغـت عـدتها نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين بيتاً وهو ما يندر وجوده في أي مـصدر أدبـي آخر، وفيها يتجلى ذوق المؤلف وبراعته في الاختيار والانتقاء.

وفي الكتاب نرى كثيراً من الموازنات الأدبية ، وفيه تشيع أحكام ابن المعتز وآراؤه القيمة في النقد . والكتاب بعد يعطينا صورة واضـحة للحيـاة الاجتماعيـة والفكرية والأدبية في عصر بني العباس . ولم يحدثنا ابن المعتز عن مصادره ؛ فكل ما ورد في الكتاب هو عن طريق السند والرواية ؛ فلا تكـاد تخلـو ترجمـة مـن الترجمات الواردة في كتاب طبقات الشعراء ، من رواية مسندة لأصحابها بالـسماع أو الخبر المتواتر ، وقد بلغ من روى عنهم نحو مائتين وثمانية عشر راوياً.

قام منهج ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء على الاختصار والإيجـاز ، وقد أورد للشعراء الذين ترجم لهم القصائد والأشعار التي تفرد الخاصة بمعرفتها ، والتي خلت منها دواوين هؤلاء الشعراء وأغفلت ذكرها كتب الأدب والتاريخ . وهو لم يقسم كتابه طبقات كما فعل ابن سلام الجمحي ، بل ذكر الشعراء وسرد كل مـا يتصل بهم وبشعرهم سرداً موسعاً . وابن المعتز في أحكامه النقدية يحتكم في الجودة إلى "الطبع" الذي يعني عنده السهولة والعذوبة والرِّقة ، ومجانبة التكلف والصنعة ، وقد جاءت أغلب أحكامه النقدية انطباعية ، مستمدة من تأثره الذاتي وذوقه الخـاص وانفعاله بالنص الأدبي ، وهذا ما جعله يفرط في الثناء والتقريظ علـى أكثـر مـن ذكرهم وقص أخبارهم.

وكما عني ابن المعتز بالمشهورين من الشعراء ، عني أيضاً بالغمورين منهم . والكتاب وإن خصه المؤلف بالشعراء المحدثين ؛ فهو لم يكن فيه مناهضاً للقـديم

ولا متعصباً للحديث ، بل نظر لكل منهما بعين القصد والاعتدال وأعطى كـل ذي حق حقه.

تبين من هذا البحث أن ابن المعتز رسم في كتابه طبقات الـشعراء صـورة واضحة المعالم لحياة اللهو والمجون في عصر الدولة العباسية . إذ أقبلت طائفة من الخلعاء والمجان في العكوف على القصف والشراب والتطرح في حانات الخمارين ، وقد أسهم مجتمع الجواري والغلمان وما صحبه من انتشار للغناء والمغنين بنصيب كبير في الحضّ على الحياة اللاهية.

وقد تفرد شعراء المجون لهذا العصر بوصف الخمر ، وعرضوا لكثير مـن الموضوعات المتصلة بها ؛ فوصفوا أدواتها ومجالسها وسقاتها وفعلها في الشاربين وصفاً دقيقاً يدل على براعة واقتدار في هذا الفن . وجـاءت أوصـافهم للـشراب متمشية مع سنن الموروث الشعري ، إذ لم يخرجوا فيها عن نهج الشعراء المتقدمين . ونتيجة لتأثر الشعراء العباسيين بالحياة المتحضرة وبيئتهم الخصبة ؛ فقد أضـافوا إلى وصف الراح شيئاً من الجدة والطرافة تمثل في ابتكارهم لكثيـر مـن الـصور الدقيقة والتماثيل الحية.

حفل كتاب طبقات الشعراء بذكر طائفة من أخبار الزنادقة الذين تقوم تعاليمهم على القول بمذاهب الديانة المانوية ، وعلى الاستهتار بالدين والقـيم والأخـلاق ، والمجاهرة بالإثم والفجور.

توصل البحث إلى أن حياة المجون والزندقة لم تكن هي الحياة الغالبة علـى المجتمع العباسي ؛ فقد كانت هذه الظواهر تشيع في فئة من النـاس بعـضهم مـن الشعراء وبعضهم من أهل التطرب والعبث . فقد كانت المـساجد عـامرة بالعبـاد والنساك وحلقات الذكر والوعظ ، وشهد هذا العصر ظهور طائفة من أقطاب العلماء الذين أرسوا دعائم التشريع الإسلامي ؛ فهو عصر الإمام مالك بن أنس ، والإمـام أبو حنيفة النعمان ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل . وعصر البخـاري ، ومسلم ، وابن ماجة وغيرهم.

وقد عرف عصر العباسيين أيضاً ميلاد طائفة لأكابر الزهاد ومشاهير العباد مثل إبراهيم بن أدهم ، وعبد ا بن المبارك ، والمعلّي الطائي ، ومن النساء رابعة العدوية وشعوانة العابدة وسواهم .

وقد هبت طائفة من الشعراء تنافح الزنادقة وتفضح دعواهم وتعمـل علـى تزهيد الناس في الدنيا ونعيمها الزائل ، وتذكرهم بالموت والقبر والاستعداد لليـوم الآخر ويتقدم هؤلاء أبو العتاهية.

صور ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء مظاهر الثراء ومظاهر الفقر التي سادت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ؛ فالترف والنعيم كان خاصاً بالخلفـاء ووزرائهم وبطاناتهم ، وقد تفنن العباسيون في بناء القـصور والـدور ، وزينوهـا بفاخر الفرش ومنضود الأثاث ، وأقاموا حولها الحدائق والبرك والبساتين . وأنفقوا النفقات الطائلة على حفلات الزواج والختان وغيرها من المناسبات.

وأغدقوا على خاصتهم وشعرائهم في البذل والعطاء ، وخلعوهم فاره الحلـل ونفيس الثياب . على أن العباسيين قد قسوا على رعيتهم ؛ فأرهقوهـا بالـضرائب الفادحة التي فرضت على ضياع الفلاحين ومزروعاتهم ؛ فكان السواد الأعظم مـن الشعب يقاسي الفقر والبؤس والحاجة ، وقد صور الشعراء الفقراء مظاهر حيـاتهم البائسة ، وما كان يعانيه أبناؤهم وأطفالهم من جوع وحرمان ، صوروا كل ذلك في زفرات حزينة ، وأنات باكية تتألم لها النفوس وتلتاع لها القلوب.

أسهم عامل الترف الذي صبغت به الحياة الاجتماعية في أيام العباسيين فـي شيوع أجواء من الفكاهات والنوادر ، فقد شهد هذا العصر طائفة لأشـهر الفكهـين الذين عرفهم التراث العربي وهم : أشعب الطماع ، وجحا ، وأبو دلامة وغيـرهم . وقد تتبع المؤلف أخبار هؤلاء الشعراء الفكهين فبث في طبقاته طَرَفاً مـن طـرفهم الأدبية وملحهم الاجتماعية ؛ فكانت عاملاً للتسرية ودفع الملل عن نفس القـارئ ، وإثارة فضوله لمتابعة موضوعات الكتاب.

انتشرت في هذا العصر المذاهب الفكرية والفرق الدّينية كالشيعة والمعتزلـة والخوارج وغيرهم . وكانت أكثر هذه المذاهب رواجاً هما مذهبا الشّيعة والمعتزلـة فقد كثرت طوائفهما وتعددت فرقهما.

فالشيعة قد نشطوا منذ أول العصر ولم يخف أتباعهم طمعهم فـي الخلافـة وسعيهم لتقويض ملك بني العباس وإعادة الخلافة إلى العلويين ؛ فنـشبوا الثـورات وأكثروا الخروج على الدولة ؛ فقابلهم العباسيون بكل حزم وشدة ففتكوا بهم وبددوا شملهم وفرقوا كلمتهم.

أما المعتزلة فكانوا أفضل حظاً من الشّيعة ؛ فمن الخلفاء من أعتنق مـذهب الاعتزال وقرب إليه شيوخه كالمأمون ، والمعتصم ، والواثق . وقد أسـهمت هـذه المذاهب ولاسيما المعتزلة بنصيب كبير في ازدهار الحياة العقلية ؛ فقد كانت تقـام مجالس المناظرات والجدل ، وتنشأ المعارك بين المعتزلة وخصومهم من المـذاهب الأخرى . وقد زخر كتاب طبقات الشعراء بطائفة من أخبار هـذه النحـل وبيـان أنشطتها ومعتقداتها.

عرض ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء لأغلب أغراض الشعر التي نظم فيها شعراء العصر العباسي ، بيد أن المتصفح للكتاب يجد أن الغزل أكثر الفنـون الشعرية دوراناً في أشعارهم ، نجده موضوعات مستقلة كما نجده مقدماً بين يـدي المديح أحياناً . وقد شاع الغزل المادي وتبذل الشعراء في تصوير الجوانب الحـسية للمرأة على نحو لم يألفه سابقوهم . وإن وجدنا من الشعراء مـن هـام بالـصفات المعنوية للمرأة ؛ فشكا حرقة الهوى ولوعة الشوق ومرارة الحرمان ، علـى نحـو يذكرنا بالعذريين من شعراء العصر الأموي . وكان من نتاج اتساع موجه الخلاعة والمجون أن ابتدع الشاعر العباسي اتجاهاً جديداً في الغزل وهو ما عرف بـالغزل بالمذكر.

أما المدح فقد أشاع فيه الشعراء المعاني الإسلامية وأكثروا من اسـتعمالها ، كما اتسم بالغلو والاسراف والمبالغة في وصف الممدوح.

وقد جاء هجاؤهم مقذعاً ، إذ أفرط شعراء هذا العصر في استعمال الألفـاظ الفاحشة والمعاني القبيحة ، واضرب الشعراء حيناً عن الهجاء بالعرض والمحـارم، إلى لون آخر من ألوان الهجاء ، لم يكن يتجاوز الشاعر فيه حد السخرية والضحك من المهجو . وقل شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية ، وانحسر عما كـان عليه في أيام بني أمية.

وكان من أثر تعقب الدولة لكل من يحْيي نار العصبية القبلية أن ضعف الفخر القبلي في هذا العصر ، وأكثر الشعراء في افتخارهم من المعاني التي تدل على الأنفة والكبرياء والإحساس بالمروءة والكرامة.

توزع المعجم الشعري لدى الشعراء العباسيين بين مذهبين ؛ مذهب تأثر أصحابه بالحضارة العباسية أشد التأثر ؛ فآثروا اللغة السهلة والألفاظ الرقيقة وهو الذي عليه أغلب الشعراء ، ومذهب آخر نحا أصحابه منحى القدامى وقلدوهم في ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ؛ فحملت قصائدهم طابع القصيدة البدوية وما فيها من جزالة اللفظ ، وجودة السبك ، ومتانة الأسلوب . وكان من أثر الحضارة والترف أن ابتدع الشاعر العباسي كثيراً من المعاني الجديدة التي لم يسْبق إليها.

ألهمت الحياة المتحضرة والثقافات المنتشرة الشعراء العباسيين ؛ فتعددت صورهم ، وتنوعت أخيلتهم ؛ فهجروا البكاء على الأطلال ، وأدخلوا في تشبيهاتهم قدراً من الصور التي أوحت بها حياة الترف ، كالتفاح والرمان والزهور والورود والرياض والرياحين . وقد وجد الدخيل طريقه إلى الشعر ؛ فاستخدم الشعراء الألفاظ الفارسية ، كما استخدموا مصطلحات المذاهب الفكرية والتيارات الدينية ، فضلاً عن استعمالهم للمعاني الفلسفية والأدلة العقلية . ومال شعراء هذا العصر إلى المحسنات البديعية ، واتجهوا نحو تزيين القول بألوان من الزخارف والحلي اللفظية فتعثر الكثيرون منهم وبدأ أثر التكلف والصنعة في أشعارهم.

كان لازدهار الغناء وشيوعه أثره في موسيقى الشّعر وأوزانه ؛ فقد مال الشعراء العباسيون إلى الإكثار من النظم في الأوزان الخفيفة والمجزوءة التي تلائم الغناء والطرب ، وتناسب أذواق المغنين والمغنيات . كما نظموا في الأوزان المهملة التي ندرت في الشعر القديم مثل : المضارع ، والمقتضب ، والمجتث ، والمتدارك أو الخبب ، واستحدثوا وزن "المواليا" وهو شعر ملحون من بحر البسيط. ومثلما جددوا في الأوزان جددوا أيضاً في القوافي ؛ فاستحدثوا ما تسمى بالمزدوجات والمسمطات وأكثروا من النظم في الرباعيات.

Abstract

The issue of this study "The image of Abbasi Society" in the book of "Tabagat al - Shuara" "The classes of poets" for the author I ben Al-Muataz. This study aims to introduce the abbasi Society through the study of the abbasi period, the author's life and the study of the book itself "Tabagat al – Shuara"

This study consists of introduction, five chapters an a conclusion . In the introduction I showed the reasons which led me to choose this topic and the plan which I have followed and also the sources and the references I have used.

Since the book involves of biography of poets who lived in Abbasi period and the author himself had lived in this period I specify the first chapter for the study of the Abbasi period to know its effect on the author and the people whom he mentioned and narrated from them. The second chapter is for the life of Iben Al-Muataz. The third chapter is a description study for the book "Tabagat al-Shuara" "The Classes of poets"

In the fourth chapter we had a glance at the intellectual and social life in the book of "Tabagat al-Shuara" "The classes of the poets". In the social life we handled the wine, the amusement, the atheism and the renunciation, then the richness a appearances and the poverty appearances after that the humour and the anecdotes. In the intellectual life we presented the intellectual doctrines and the religious beliefs that was spreaded at the Abbasi time.

In the fifth chapter we covered with study and analysis the poetry subjects besides its artistic features as the language, the style and the poetic image also the weights and the rhymes of the poems. and this study has reached a number of results which you can find in the folds of this research and the observation of some of its possible in the following:

"Tabagat al-Shuara" "The classes of the poets" book has included biographies of one hundred and thirty two poets all of them had lived in Abbasi time and enclosed in a sect from their news and their poetry and the author method has depended in it on shortening and the abridgment and mentioning the rare of the poets poems, and he also concerned in his book with the famous and unknown poets. The author in his critical judgement resorts in the quality to easiness and the tenderness and the avoidance of affectation.

In his book (Tabagat al- Shuara) “the classes of the poets” Iben al-Muataz has painted a clear picture of the social life and its appearances as wine, amusement, the an theism, The renunciation, the richness, the poverty, the humour and the anecdotes. The research has concluded that the society of maids and boys and what it accompanied from the spread of singing had contributed with a big share in the incitement to the playful life also an theism spreaded those who were pulled with a strong current of asceticism. The luxury and the ease were special for the Khalives and their ministers, but the Majorty of the people were suffered povery, so humour, jokes and poets were spreaded. As the book of (Tabagat al-Shuara) “the classes of the poets” was full of images of social and intellectual life and the intellectual doctrine and the religious forms as Shiites and dissidents.

In his book (Tabagat al-Shuara) ‘The classes of the poets” I ben al-Muataz showed the purposes of poetry, love poetry was clear in their poems so the poets described the sensual aspects of the women in a way which they didn’t experince. In their exaltation they showed the Islamic meanings, and their satirist poems were full of abuse and insults, and their glory poems were full of the meanings of disdain, pride and valor.

The poetic dictionary of the Abbasi poets is devided into two doctrines. A doctrine that its supporters were affected by the Abbasi civilization then they enriched the easy language and the simple expressions. The other doctrine whose supporters followed the trace of advanced poets so they imitated them in their meanings, expressions and style. So their poems came resembling of Bedouins poems which is full of good expressions and the solidity of the style.

Because of the spread and a flourish in singing many Abbasi poets tended to light rhysems which came compatible with singing, they also did much in neglected rhyme poems and they renewed what was called the couples and also they did much in the versification in the quanternions.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

القرآن الكريم

ابن أبي أصيبعة (أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس):

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1965م .

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الأكرم):

(2) الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، 1979م.

ابن الأثير (ضياء الدين نصر ا بن محمد بن عبد الكريم):

(3) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، 1939م.

الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي):

(4) الأغاني ، تحقيق د. عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، 1959م.

- الأغاني ، تحقيق مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، 1992م.

(5) مقاتل الطالبيين ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1949م.

الأعشى (أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل):

(6) ديوان الأعشى ، شرح د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيـل ، بيـروت ، ط1 ، 1992م.

الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد):

(7) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق د. إبـراهيم الـسامرائي ، مطبعـة المعارف ، بغداد ، 1959م .

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب):

(8) إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، 1954م.

البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري):

(9) ديوان البحتري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1987م.

بشار بن برد:

(10) ديوان بشار بن برد ، شرح حسين حموي ، دار الجيـل ، بيـروت ، ط1 ، 1996م.

الترمذي (الإمام محمد بن عيسى بن سودة):

(11) سنن الترمذي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمـان ، دار الفكـر العربـي ، بيروت ، ط2 ، 1983م.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

(12) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة .د.ت.

التنوخي (أبو علي القاضي المحسن بن علي):

(13) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الثالجي ، الفجر العربي ، بيروت ، 1973م.

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري):

(14) الإعجاز والإيجاز ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة جديدة منقحة ومذيلـة بالحواشي ، 1992م .

(15) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1965م .

(16) خاص الخاص ، قدم له حسن الأمين ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1966م.

(17) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميـد، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط2 ، 1956م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

(18) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيـل ، بيـروت ، 1948م .

(19) الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1996م.

(20) رسائل الجاحظ (الرسائل الكلامية) ، قدم لها وشرحها د. علي أبو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1987م .

ابن الجراح (محمد بن داود):

(21)الورقة ، تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، 1953م.

الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن محمد):

(22) أسرار البلاغة ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفـة ، بيروت ، 1982م.

(23) دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1989م.

الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز بن الحسن):

(24) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبـراهيم وعلـي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط3 ، 1951م.

الجهشياري (أبو عبد ا محمد بن عبدوس):

(25) الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، ط1 ، 1938م .

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد):

(26)المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطـا ومـصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1992م.

حازم القرطاجني (حازم بن محمد بن حسن):

(27) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966م. .

أبو الحجاج (جمال الدين يوسف المربي):

(28) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1992م.

ابن حجة الحموي (تقي الدين أبي بكر علي):

(29) خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال ، ط2، 1991م .

ابن حزم الأندلسي (أبو بكر علي بن أحمد بن سعيد):

(30) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ، 1962م.

الحصري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني):

(31) جمع الجواهر في الملح والنوادر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1953م.

(32) زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ضبط وشرح د. زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972م.

أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن علي بن العباس):

(33) البصائر والذخائر ، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، 1964م.

(34) طرائف الحمقى والمغفلين ، تحقيق مهدي الطفيلي، دار التضامن، بيروت، 1991م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمي):

(35) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط2 ، 1996م.

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي):

(36) تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

الخطيب التبريزي:

(37) الوافي في العروض والقوافي ، تحقيق عمر يحيى وفخر الدين قبـاوة ، دار الفكر ، دمشق ، ط3 ، 1979م .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر):

(38) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1979م.

أبو دلامة (زند بن الجون):

(39) ديوان أبي دلامة ، شرح وتحقيق د. أميل بديع يعقوب ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1994م .

الدميري (أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى):

(40) حياة الحيوان الكبرى ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط1 ، 2003م .

ديك الجن (عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام):

(41) ديوان ديك الجن الحمصي ، جمع وشرح عبد المعين الملوحي ومحيي الدين الدرويش ، د.ت.

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان):

(42) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق د. بشار عواد معـروف، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 2003م.

(43) تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1956م .

(44) سير أعلام النبلاء ، تحقيق صالح السمر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط7، 1990م .

ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني):

(45) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972م .

ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس بن جريج):

(46)ديوان ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، ط2 ، 1994م. .

ابن سعد (أبو عبد ا محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري):

(47) الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، 1985م.

ابن سلام (محمد بن سلام الجمحي):

(48) طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1952م .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر):

(49) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعـة الـسعادة ، مصر ، ط1 ، 1952م.

الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد):

(50) الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، دار الرائد العربـي ، بيـروت ، ط2 ، 1986م.

الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر):

(51) الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفـة ، بيـروت ، ط2 ، 1975م.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك):

(52) الوافي بالوفيات ، باعتناء هلموت ريتر ، دار فرانز شتاينر ، ط2 ، 1962م.

(53) جنان الجناس في علم البديع ، تحقيق سمير حسين خولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1987م.

(54) نكت الهميان في نكت العميان ، المطبعة الجمالية ، مصر ، 1911م.

الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى الصولي):

(55) الأوراق (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم) ، ج . هيـورث . د ن ، مطبعـة الصاوي ، 1936م.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير):

(56) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعـارف ، القاهرة ، ط3 ، 1966م.

ابن الطقطقا (محمد بن علي بن طباطبا):

(57)الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي الحلبي):

(58) مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مـصر ، القاهرة ، 1955م .

العباس بن الأحنف:

(59) ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر ، بيروت ، 1978م.

العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد):

(60) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، تحقيق محمد محيـي الـدين عبـد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، 1947م .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي):

(61) العقد الفريد ، شرح وضبط أحمد أمين وآخرون، مكتبة النهضة المـصرية ، ط2 ، 1962م .

عبد القاهر بن طاهر البغدادي:

(62) الفَرْق بين الفِرَق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي):

(63) ديوان أبي العتاهية ، دار صادر ، بيروت ، 1980م.

العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد ا):

(64) ديوان المعاني ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1352هـ .

(65) الصناعتين (الكتابة والشعر) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1952م.

ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد):

(66)شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

(67) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، شرح د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيـل ، بيروت ، ط1 ، 1992م.

الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب):

(68) القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط2 ، 1987م.

القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم):

(69) ذيل الأمالي والنوادر ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط3 ، 1953م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد ا بن مسلم):

(70)الشعر والشعراء ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2، 1985م .

قدامة بن جعفر (أبو الفرج الكاتب البغدادي):

(71) نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنـى ببغداد ، 1963م .

القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة):

(72) الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق الشيخ عبد الحليم محمـود ، دار الخير للطباعة والنشر ، دمشق ، بيروت ، ط1 ، 2003م.

الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد):

(73) فوات الوفيات ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1974م.

ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي):

(74)البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط2 ، 1990م.

لبيد بن ربيعة العامري:

(75) ديوان لبيد بن ربيعة ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد):

(76)الكامل في اللغة والأدب ، عارضه بأصوله وعلق عليه ، محمد أبـو الفـضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1997م.

المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد):

(77) ديوان المتنبي ، شرح الشيخ ناصيف اليازجي ، تقديم الدكتور ياسين الأيوبي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1996م.

المرتضي (الشريف علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين):

(78) أمالي السيد المرتضي ، تصحيح وضبط السيد محمد بدر الدين النعـساني ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، 1907م.

المرزباني (أبو عبيد ا محمد بن عمران بن موسى):

(79) الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صـناعة الـشعر) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1965م .

(80) معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، 1960م.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين):

(81)مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الـدين عبـد الحميـد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط3 ، 1958م.

ابن المعتز (أبو العباس عبد ا بن المعتز بن المتوكل):

(82) البديع ، تقديم وشرح وتحقيق د. محمد عبد المنعم خفـاجي ، دار الجيـل ، بيروت ، ط1 ، 1990م .

(83) ديوان ابن المعتز ، شرح د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيـروت، ط1 ، 1995م.

(84) طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مـصر ، 1956م .

- طبقات الشعراء ، قدم له وشرحه ووضـع فهارسـه ، د. صـلاح الـدين الهواري، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 2002م.

(85) فصول التماثيل في تباشير السرور ، المطبعـة العربيـة ، مـصر ، ط1 ، 1925م .

المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد ا بن سليمان):

(86) الفصول والغايات في تمجيد ا والمواعظ ، ضبط وتفسير محمد حسن زناتي ، المكتب التجاري ، بيروت ، 1938م.

(87) رسالة الصاهل والشاحج ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء ، دار المعارف ، القاهرة ، 1975م .

(88) رسالة الغفران ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنـت الـشاطئ ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي):

(89) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998م.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري):

(90) لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق البغدادي):

(91) الفهرست ، تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان ، دار قطري بن الفجاءة، ط1 ، 1985م.

أبو نواس (الحسن بن هانيء):

(92) ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربـي ، بيروت ، 1953م.

ابن وهب الكاتب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان):

(93) البرهان في وجوه البيان ، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجـة الحـديثي ، جامعة بغداد ، ط1 ، 1967م.

اليافعي (أبو محمد عبد ا بن أسعد بن علي بن سليمان):

(94) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1997م.

ياقوت الحموي (أبو عبد ا شهاب الدين ياقوت بن عبد ا الرومي):

(95) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق د. عمر فـاروق الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط1 ، 1999م.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب):

(96)تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، 1960م .

ثانياً : <u>المراجع</u> :

إبراهيم زكي خورشيد وآخرون:

(97) دائرة المعارف الإسلامية ، الشعب ، القاهرة ، ط2 ، 1969م.

د. إبراهيم علي أبو الخشب:

(98) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، الهيئة المـصرية العامـة للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت.

د. إحسان عباس:

(99) تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، دار الثقافة ، بيروت ، ط5 ، 1986م.

أحمد أمين:

(100)ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 2005م.

(101)ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1945م.

أحمد توفيق عياد:

(102)التصوف الإسلامي (تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثـره) ، مكتبـة الأنجلـو المصرية ، القاهرة ، 1970م.

أحمد حسن الزيات:

(103)تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط21 ، 1981م.

أحمد زكي صفوت:

(104)جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط1 ، 1937م.

أحمد الشايب:

(105)الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) ، مكتبة النهـضة المصرية ، القاهرة ، ط6 ، 1966م.

د. أحمد شلبي:

(106)موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الخلافة العباسية) ، مكتبـة النهضة المصرية ، ط6 ، 1978م.

د. أحمد كمال زكي:

(107)ابن المعتز العباسي ، المؤسسة المصرية العامة ، 1964م.

(108)الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، دار الفكر العربي ، دمشق ، ط1 ، 1961م.

د. بدوي طبانة:

(109)دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ، مكتبـة الأنجلو المصرية ، ط7 ، 1975م.

جرجي زيدان:

(110)تاريخ التمدن الإسلامي ، مراجعة وتعليق د. حسين مـؤنس ، مطبعـة دار الهلال ، القاهرة ، 1958م.

د. حسن إبراهيم حسن:

(111)تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقـافي والاجتمـاعي ، الجيـزة ، ط7 ، 1964م .

د. حسين عطوان:

(112)شعراء الشعب في العصر العباسي الأول ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، 1970م.

حنا الفاخوري:

(113)الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1986م.

(114)تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسية ، ط3 ، 1960م.

خير الدين الزركلي:

(115)الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب المستعربين والمستشرقين) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط15 ، 2002م.

د. داود سلوم:

(116)النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف ، بغداد ، 1970م.

رينولد . أ . نيكولسون:

(117)في التصوف الإسلامي وتاريخه ، نقلها إلى العربية وعلق عليها أبو العلاء عفيفي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1969م.

د. زكي مبارك:

(118)التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت.

د. سهام عبد الوهاب الفريح:

(119)الجواري والشعر في العصر العباسي الأول ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط1 ، 1981م.

د. شوقي ضيف:

(120) البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1965م.

(121)التطور والتجديد في الشعر الأموي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط8 ، 1959م.

(122)الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط12 ، 1960م.

(123)تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دار المعارف، القاهرة، ط15 ، 1966م.

(124)تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1973م.

(125)تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، دار المعارف ، القاهرة، ط7 ، 1960م.

(126) فن الرثاء ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1955م.

طه أحمد إبراهيم:

(127)تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ، 2003م.
د. طه حسين:
(128)من تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول – القرن الثاني) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1976م.
(129)من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، مصر ، ط11 ، 1936م.
عباس محمود العقاد:
(130)اللغة الشاعرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1960م.
د. عبد الرحمن رأفت الباشا:
(131)شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، مؤسسة الرسالة ، بيـروت ، ط1 ، 1974م.
د. عبد ا الطيب:
(132)المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار جامعة الخرطـوم للنـشر ، الخرطوم ، ط4 ، 1991م.
عبد ا علي القصيمي:
(133)الصراع بين الإسلام والوثنية ، ط2 ، 1982م.
د. عبد القادر حسين:
(134)المختصر في تاريخ البلاغة ، دار الـشروق ، بيـروت ، القـاهرة ، ط1 ، 1982م.
د. عبده عبد العزيز قلقيلة:
(135)النقد الأدبي في العصر المماوكي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 ، 1972م.
عدنان حقي:
(136)المفصل في العروض والقافية وفنون الشعر ، مؤسسة الإيمان ، بيـروت ، ط1 ، 1987م.
د. عز الدين إسماعيل:
(137)الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، ط3 ، 1974م.

(138)في الأدب العباسي (الرؤية والفـن) ، دار النهـضة العربيـة ، بيـروت ، 1975م.

عمر فروخ:

(139)تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية – الأدب المحدث إلى آخـر القـرن الرابع الهجري) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط6 ، 1997م.

د. غصوب خميس محمد غصوب:

(140)عبد ا بن المعتز شاعراً ، دار الثقافة ، الدوحة ، ط1 ، 1986م.

مارون عبود:

(141)أدب العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، 1979م.

محمد أحمد جاد المولى وآخرون:

(142)قصص العرب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط4 ، 1987م.

محمد بن عبد الغني المصري:

(143)نظرية الجاحظ في النقد الأدبي ، دار مجدلاوي ، عمان ، ط1 ، 1987م.

محمد جابر عبد العال الحسيني:

(144)حركات الشيعة المتطرفين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1967م.

محمد الخضري بك:

(145)محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسـية) ، المكتبـة التجاريـة الكبرى ، مصر ، 1970م.

د. محمد الدش:

(146)أبو العتاهية حياته وشعره ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1968م.

د. محمد الربداوي:

(147)المتخير من كتب النقد العربي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1981م.

د. محمد زكي العشماوي:

(148)موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربيـة ، بيروت ، 1981م.

د. محمد عبد المنعم خفاجي:

(149)ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، دار الجيل ، بيـروت ، ط2 ، 1991م.

(150)الحياة الأدبية في العصر العباسي ، دار الوفاء لـدنيا الطباعـة والنـشر ، الاسكندرية ، ط1 ، 2004م.

محمد عثمان علي:

(151)في أدب الإسلام (عصر النبوة والراشدين وبنـي أميـة – دراسـة تحليليـة وصفية) ، دار الأوزاعي ، ط2 ، 1986م.

د. محمد مصطفى هدارة :

(152)مشكلة السرقات في النقد العربي (دراسة تحليلية مقارنة) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1975م.

د. مصطفى الشكعة:

(153)مناهج التأليف عند العلماء العرب (قسم الأدب) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1974م.

مصطفى صادق الرافعي:

(154)تاريخ آداب العرب ، مراجعة د. درويش الجويدي ، المكتبـة العـصرية ، بيروت ، 2004م.

د. منصور عبد الرحمن:

(155)اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1977م.

نجيب محمد البهبيتي:

(156)تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالـث الهجـري، دار الفكـر، ط4، 1970م.

نعيم طوني كساب:

(157)ابن المعتز شعره في ضوء عصره وحياته وآرائه النقدية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1995م.

نوفل الطرابلسي:

(158)صناجة الطرب في تقدمات العرب ، دار الرائد العربـي ، بيـروت ، ط2 ، 1982م.

د. يوسف خليف:

(159)حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، 1968م.